

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات النحوية واللغوية



بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة
بعنوان

الجهود الصوتية للإمام
مكي بن أبي طالب القيسي

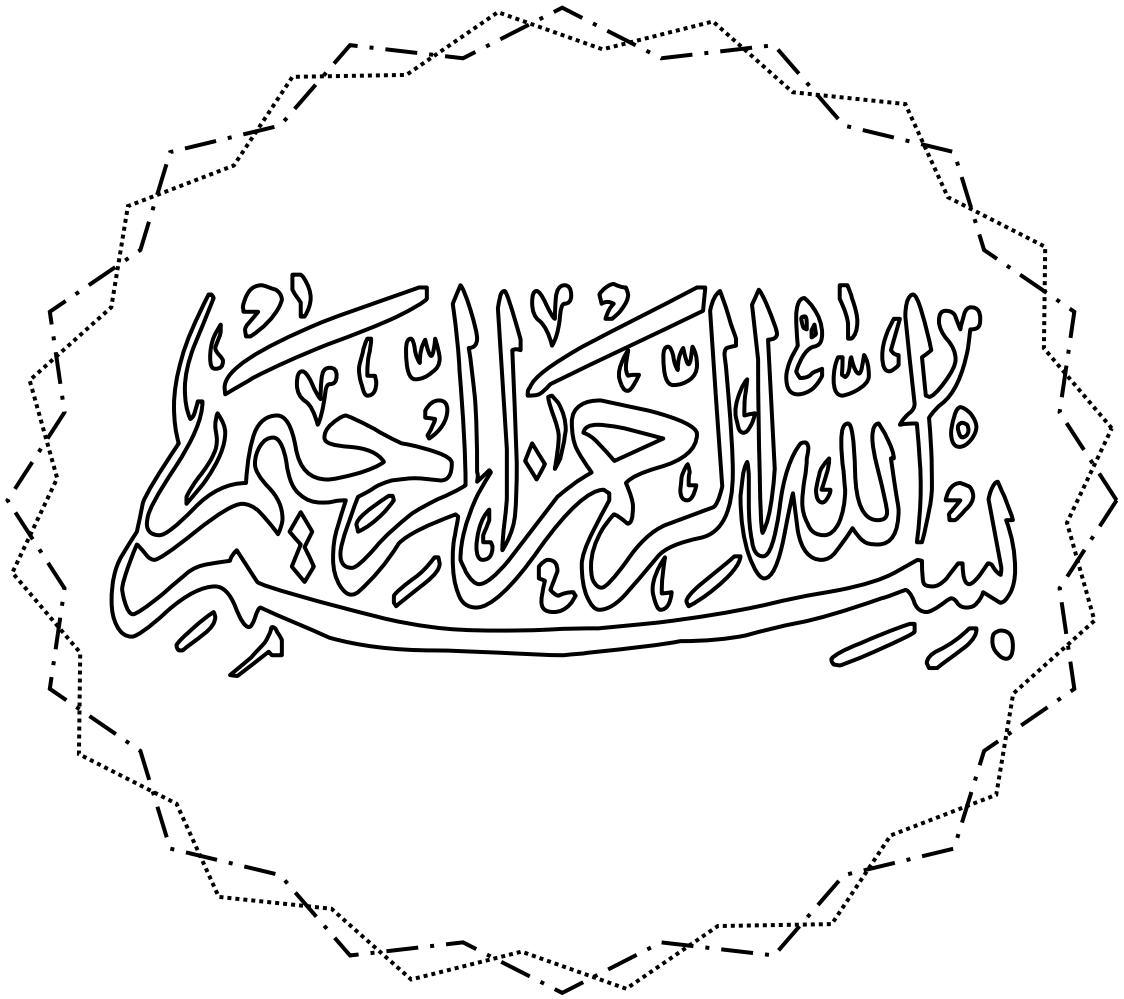
إعداد الطالب

عباس السر محمد علي

إشراف البروفيسور

عوف الشريف قاسم

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكِتَابِ

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(١).

وقال تعالى:

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ
إِلَّا هَمْسًا﴾^(٢).

وَمَا يَذَّكَّرُ بِهِ أُولَئِكَ لَئِي يُعْذَرُوا

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٣).

١/ سورة طه: الآيات (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨).

٢/ سورة طه: الآية (١٠٨).

٣/ أخرجه الحاكم في المستدرک: ٥٧١/١.

الإهداء

إلى

كل من خدم العربية والقرآن
في نأاة العلم وبهجة الإسلام

إلى

كل من ذاد عن العربية
بقلبه ولسانه على مدى الأيام
أهدي هذا البحث

الشكر والتقدير

الحمد لله والشكر لله أولاً وآخراً على نعمائه وجزيل عطائه فهو القائل: **(وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)**^(١).

وأشكر من الناس كل من أعان ونصح وأرشد ودعا الله ليكمل هذا الجهد ويخرج بهذا الشكل.

وأتوجه بالشكر إلى جامعة أم درمان الإسلامية التي أتاحت لي فرصة الدراسة والبحث.

وأشكر من الناس أستاذي الجليل والمربي الفاضل أستاذ الأجيال البروفسور/ عون الشريف قاسم، الذي أشرف على هذا البحث، وصبر على الإطلاع عليه فقوّم وعدّل كما نصح وأرشد، فأسأل الله تعالى له الصحة والعافية، وأن ينفعنا الله بعلمه ويجعله زخراً لهذه الأمة، فله مني خالص الشكر والتقدير ومن الله أحسن الجزاء.

كما أشكر الأستاذين العالمين الفاضلين: البروفسور/ بكري محمد الحاج، والبروفسور/ بشرى السيد، على قبولهما الاشتراك في تقويم البحث.

والشكر موصول إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالملكة العربية السعودية لإرساله مجموعة من المنشورات والمصوّرات التي استفدتُ منها كثيراً.

١/ سورة النحل: الآية (١١٤).

والشكر كذلك لأسرة مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية موظفيها وعمّالها، وأخص الأستاذ/ محمد صالح في قسم الدوريات الذي كان يوافيني بكل ما يتعلق بالبحث من دوريات ومنشورات. وأشكر كذلك أسرة مكتبة معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، وأخصُّ بالشكر الأستاذ/ بابكر سلمان الذي ساعدني وأمدني ببعض الكتب النادرة.

والشكر والإحسان لوالدتي حفظها الله ورعاها التي طالما رعتني في المهد ولم تدخر الجهد، وكانت دعواتها خير عونٍ لي بعد عون الله تعالى. والشكر الخالص لرفيقة دربي: زوجتي العزيزة، التي كانت بمثابة الرُّجْبَةِ الدَّاعِمة، ألا فجزاها الله خيراً.

والشكر الجزيل لشقيقي خديجة التي بذلت معي جهداً مقدراً، والشكر والوفاء لأخوتي وأخواتي الذين يصدق فيهم القول:

وما المرءُ إلا بإخوانه ** كما تقبض الكف بالمعصم
فلا خير في الكفّ مقطوعة ** ولا خير في السَّاعد الأجم
وأخصُّ بالشكر الأخ حمزة والأخ ميرغني اللذين بذلا وما بخيلاً،
والأخ الأستاذ/ محمد الذي أسدى نصائحه القيّمة، وبقية أخوتي، فلهم مني خالص الشكر والإعزاز.

كما لا يفوتني أن أشكر الأخ العزيز الأستاذ/ محمد أحمد الفكي (محمد صغIRON)، الذي قام بطباعة البحث وإخراجه بهذه الصورة اللائقة.

وجزى الله تعالى كل من ساهم وساعد في إتمام هذا البحث خدمةً للعربية والقرآن الكريم.

الباحث

مُقَدِّمَةٌ

كان أوائل العلماء والباحثين في العربية يعرفون قدر دراسة الأصوات اللُّغوية، ويعتبرونها حجر الأساس لأي دراسة لغوية لذلك اعتمدوا عليها كثيراً في إصلاح الكتابة العربية، ووضع العروض، والنحو والصرف، والمعاجم. وكذلك اعتنى علماء التجويد والقراءات بالأصوات اللُّغوية فدرسوا الصوت اللُّغوي بمفرده منعزلاً عن السياق؛ وذلك بتحديد مخرجه وصفته وطريقة تكوينه. كما درسوه على مستوى التركيب والسياق متصلاً بغيره من الأصوات مؤثراً فيها ومتأثراً بها.

ومثلما وجدنا أن علماء التجويد المتأخرين قد أفادوا من الجهود الصوتية لقدامى النحويين واللُّغويين مثل الخليل وسيبويه وابن جني، فإنهم بلا شك أفادوا من الجهود الجبارة لعلماء التجويد القدامى أمثال مكِّي بن أبي طالب، وأبي عمرو الداني، وغيرهما في دراسة الصوت القرآني والصوت اللُّغوي وورثوا منهم علماً للأصوات يتصف بالشمول، والدقة، وحسن التأليف، وقوة المنهج؛ لأنه منهجٌ يجعل الغاية من دراسة الأصوات صون أصوات القرآن الكريم وحفظها؛ لارتباطها بمعانيه؛ ولأنه منهجٌ يعتمد على النظر والتطبيق.

كان القرآن الكريم سبباً في نشأة علوم اللُّغة، ففي رحابه نشأ علم النحو، وعلم الصرف، وعلم الأصوات، وعلوم البلاغة، وغيرها من العلوم العربية والإسلامية، وبسببه ازدهرت حركة التأليف والتصنيف في الشرق الإسلامي، وبرز جهابذة اللُّغويين والمقرئين والمفسرين والمحدثين في صدر

الإسلام، وفي العصر الأموي، والعصر العباسي. ثم امتد نور الإسلام إلى الأندلس التي أصبحت امتداداً للدولة الإسلامية، فغدت دُرّة إسلامية في جبين المغرب، أنجبت أفذاذ العلماء وفحول الشعراء، وأساتذة المعرفة في كل ميادين العلوم العربية والإسلامية والإنسانية، الذين خلّفوا تراثاً خالداً وحافلاً بكل ما هو مفيد.

كان المؤلفون الأندلسيون من الكُتّاب والشعراء يعارضون المؤلفين في المشرق لمواكبة التطور العلمي المزدهر هناك، وسدّ النقص الذي يواجهه المجتمع الأندلسي المتطلع إلى المعارف والعلوم. وقد تفوّق الأندلسيون على المشاركة في كثيرٍ من ألوان العلوم والفنون وميادين التأليف والتصنيف. ومن الميادين التي تبارى فيها العلماء وتنافسوا: ميدان التأليف في الدراسات القرآنية، وكان علم التجويد من أهم ميادين التأليف.

لقد حملت لنا تلك الفترة الزمنية خيرة علماء التجويد المسلمين أمثال:

- مكّي بن أبي طالب القيسي، مؤلّف كتاب (الرعاية)، (ت ٤٣٧هـ).
- أبو عمرو الدّاني، مؤلّف كتاب (التجديد في الإتيان والتجويد)، (ت ٤٤٤هـ).
- عبد الوهاب القرطبي، مؤلّف كتاب (الموضح في التجويد)، (ت ٤٦٢هـ).
- شريح الرّعيني الإشبيلي، مؤلّف كتاب (نهاية الإتيان في علوم القرآن)، (ت ٥٣٩هـ).

○ ابن الطحان الإشبيلي، مؤلف كتاب (الإنباء في تجويد القرآن)،
(ت ٥٦٠هـ).

○ ابن الناظر القرناطي، مؤلف كتاب (الترشيح في علم التجويد)،
(ت ٦٧٩هـ).

إنَّ هذه الدراسة تكشف عن الجهود الصوتية للإمام مكي بن أبي طالب
رأس قائمة علماء التجويد الأندلسيين، وتؤكد تفوقهم على المشاركة في
مجال علم الأصوات القرآني.

أهمية البحث:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من عدة أسباب أهمها:

○ كونها إحدى الدراسات التي تبحث قضايا اللغة العربية داخل بيئتها
التي نشأت وترعرعت فيها، لربطها بين علوم اللغة العربية وعلوم
القرآن الكريم إذ أصبح من المؤكد أنَّ معرفة اللغة العربية معرفة
حققة، والتمكن منها، والوقوف على أسرارها منوطٌ بمعرفة القرآن
الكريم وعلومه، ومعرفة علوم أخرى كثيرة داخل هذا المحيط الثقافي
الذي نشأت ونمت فيه.

○ تعالج الدراسة موضوعاً حديثاً وليس مكرراً؛ لأنَّ دراسة جهود
وإسهامات مكي بن أبي طالب في مجال علم الأصوات لم تُجرَ
حولها بحوثٌ بمعناها المعروف. وما وقف عليه الباحث من محاولات
سابقة لا يعدو عن كونه إشارات وإسهامات عامة ليست وافية ولا
شافية.

○ هذا البحث يوجّه اهتمام الباحثين والدارسين إلى دراسة جهود مكي بن أبي طالب في الدراسات اللغوية عامة، وإجراء دراسات أخرى في المجال نفسه، كأن تُدرّس جهوده في علم الدلالة من خلال كتبه في التفسير مثل كتاب (الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره).

○ تكشف الدراسة للقارئ عن جانب آخر من جوانب شخصية مكي وتُعرّف بمقدراته العلمية في مجال علمي آخر وهو اصطلاحه ومعرفته العميقة والواسعة بعلم الأصوات اللغوية. إذ المشهور عنه أنه من علماء القراءات والتفسير. لذا فالدراسة تجد مكانها المعبر في مجال جهوده في العلوم اللغوية وغيرها. ويرجو الباحث أن تسهم هذه الدراسة في إكمال النقص وسدّ الفجوات.

○ يصلح تعميم نتائج هذه الدراسة على نطاق واسع من الدراسات اللغوية التي تدرس اللغة العربية داخل محيطها الثقافي. وعليه فمن الممكن أن تعمّم نتائجها على أية دراسات لغوية أخرى ذات طابع تأصيلي.

أهداف البحث:

هنالك مجموعة أهداف يرجو الباحث أن تتحقق من خلال هذا البحث أهمها:

○ تلبية رغبة يجدها الباحث في نفسه تُملّي عليه القيام بعمل يُخدم كتاب الله تعالى.

- بيان ارتباط القرآن وعلومه باللغة العربية وعلومها.
- التنبيه على ضرورة أن تتكامل مناهج البحث في علوم القرآن بمناهج البحث في علوم اللغة، والاهتمام بالمناهج التعليمية المعيارية.
- توضيح وبيان أن علم اللغة لا يعني فقط دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها - كما يراه الغربيون -.
- الإسهام في إكمال النقص وسد الفجوات في مجال الدراسات الصوتية العربية.
- تلبية رغبات الذين يطمعون في معرفة جهود علمائنا السابقين في مضمار الدراسات اللغوية عامة، ودراسة الأصوات خاصة ومقارنتها بما توصل إليه علم الأصوات الحديث.

حدود البحث:

كما هو واضح من العنوان فإنَّ حدود الدراسة هي جهود مكِّي بن أبي طالب في مجال علم الأصوات اللغوية.

وقد قصد الباحث بالجهود الصوتية لمكِّي جهوده في مجالي علم الأصوات العام وعلم أصوات القرآن الكريم، فكان القرآن الكريم بقراءاته الصحيحة هو المجال الذي أجرى عليه تطبيقاته الصوتية لأقواله النظرية. وقد ركَّز الباحث على القضايا والظواهر الصوتية التي ناقشها مكِّي فعلاً، قاطعاً - بذلك - النظر عن القضايا الصوتية التي لم يطرحها ولم يُشر إليها في كتبه.

منهج البحث:

لقد كان عمل الباحث معتمداً على تتبع جزئيات الموضوع في كتب مكي بن أبي طالب الموجودة وخاصة كتبه في مجال اللغة، وفي أمهات كتب القراءات وكتب النحو، وكتب علم اللغة، وكتب علم الأصوات، وكتب التاريخ، وكتب التراجم والقواميس.

وقام بقراءة حرة استغرقت زمناً طويلاً ثم جمع مادة وافرة وكافية عكف على قراءتها ودراستها دراسة متأنية، مع المقارنة والملاءمة بين أقوال مكي وأقوال النحاة واللغويين وعلماء الأصوات القدامى والمحدثين عرباً وغربيين. فالدراسة تاريخية من جانب تطرقها لعصر مكي، ووصفية وتحليلية ضمّنها الباحث كثيراً من آرائه الصوتية التي اعتمد في تكوينها على الخلفية التي تبلورت له من تعمّقه في أقوال مكي ومقارنتها بأقوال علماء الأصوات المحدثين.

الدراسات السابقة:

لَمْ يقف الباحث على دراسات سابقة كافية تدور حول جهودات مكي بن أبي طالب في مجال علم الأصوات وتصلح لأن تكون بحثاً عميقاً وشاملاً باستثناء بعض الإشارات التي تناولت بعض جهوده الصوتية.

وأهم الإشارات في هذا المجال مقال نشره الدكتور عبد الله ربيع محمود في مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعنوان: أصوات العربية والقرآن الكريم [منهج دراستها وتعليمها عند مكي بن أبي طالب المتوفى سنة ٤٣٧هـ] وهو مقال مُمتاز ومُتقن، ركّز فيه كاتبه

على إبراز المنهج التعليمي لِمَكِّي في دراسة الأصوات واهتمامه بالتدريب والقياس والتمييز. وكان ذلك من خلال كتاب (الرعاية) فقط. ومع تميُّز المقال ودقته، فإنه يُعتبر مجرد إشارات وإضاءات -لا ينكر الباحث أنه أفاد منها- لَمْ ترقَ إلى مستوى الدراسة الشاملة والتقصِّي الدقيق لجهود مَكِّي في علم الأصوات، فهو مقالٌ اعتمد على كتاب واحد من كتب مَكِّي وهو كتاب (الرعاية) وَلَمْ يُشِرْ إلى القضايا والظواهر الصوتية المتعددة التي أشار إليها مَكِّي في غير هذا الكتاب.

إذا تناول الدكتور عبد الله ربيع محمود في مقاله جانباً من القضايا الصوتية التي درسها مَكِّي وتحدث عن منهجه فيها، فإنَّ هناك دارسين وباحثين تناولوا جهود مَكِّي من جوانب أخرى غير هذا الجانب المتعلق بدراسة الأصوات.

ومن هذه الدراسات:

○ مَكِّي بن أبي طالب وتفسير القرآن، دراسة أجراها د. أحمد حسن فرحات، وهي رسالة دكتوراه مطبوعة، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

○ جهود الإمام مَكِّي بن أبي طالب في القراءات القرآنية وإعراب القرآن الكريم، للدكتور شرف الدين علي الراجحي، ١٩٩٤م.

○ الجهود النحوية لِمَكِّي بن أبي طالب من خلال كتاب (مشكل إعراب القرآن)، وهي رسالة ماجستير في جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٣م، كتبها: ثريا علي الصائم.

هذا بالإضافة إلى عدد من المقالات نُشرت في كُتب أو دوريات

علمية منها ما تناوله مصطفى إبراهيم المشيني في كتابه (مدرسة التفسير في الأندلس) (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م). ومنها ما أورده الأستاذ مصطفى فوزيل في مجلة دعوة الحق (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، بعنوان: ملامح الإبداع في التفسير عند مكّي بن أبي طالب.

هذا ما وقف عليه الباحث من الدراسات التي تناولت جهود مكّي في مجموعة من العلوم. وقد تكون هنالك دراسات أخرى لم يتمكن الباحث من الوقوف عليها أو القراءة عنها.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع أن يقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

أمّا المقدمة فقد احتوت على مجموعة قضايا أبرزها ما كان متعلقاً بأهمية البحث.

وكان التمهيد عبارة عن بسطٍ ميسرٍ لإسهامات علماء الأصوات العرب القدامى في الدراسات الصوتية ومكانتهم بين علماء الأصوات المعاصرين.

وقد قصد الباحث بهذا الطرح تهيئة القارئ بمدّه ببعض المعلومات عن جهود العلماء العرب في الدراسات الصوتية، وليعرف مكانة مكّي بين أولئك السابقين من خلال بعض أقواله وآرائه وإفاداته تمهيداً للدخول في الدراسة

التفصيلية لجهوده في هذا المجال.

أمّا الباب الأول فكان بعنوان: مَكِّي بن أبي طالب عصره وحياته وعلمه. وهو مقسم إلى ثلاثة فصول:

الأول: عصره، الثاني: حياته، والثالث: علمه.

وكان الفصل الأول نافذة تاريخية لعصر مَكِّي، قُسم إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: للحديث عن الحالة السياسية في عصر مَكِّي، والمبحث الثاني: لعرض الحالة الاجتماعية، أمّا الثالث: فكان للحديث عن الحالة العلمية.

وقُسم كل مبحث إلى ثلاثة مطالب، وخُصّصت المطالب لاستعراض الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية في كلٍّ من القيروان التي وُلد فيها مَكِّي وترعرع، ومصر التي رحل إليها عدة مرات طلباً للعلم، والأندلس التي أقام بها بقية حياته.

أمّا الفصل الثاني: فكان لتتبع مراحل حياته، لذلك قُسم إلى سبعة مباحث هي:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وألقابه، والمبحث الثاني: ولادته ونشأته، المبحث الثالث: رحلاته، والرابع: شيوخه وتلاميذه ومعاصروه، والخامس: عقيدته، والسادس: أخلاقه وصفاته، والسابع: وفاته.

وكان آخر فصول الباب الأول أهم الفصول؛ لأنه يدور حول علمه، وجاء حاوياً لمبحثين: المبحث الأول: يضم مطلبين، المطلب الأول: معرفته

بالعلوم، والمطلب الثاني: عنايته بالتأليف. أمّا المبحث الثاني فهو كذلك يحتوي على مطلبين: المطلب الأول: معرفته بعلم الأصوات، والمطلب الثاني: مؤلفاته في علم الأصوات.

وكان الباب الثاني بعنوان: الأصوات اللّغوية عند مَكِّي بن أبي طالب على المستوى التحليلي، وهذا الباب يضم في طياته ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وصف أعضاء النطق عند مَكِّي؛ ولأنه لم يهتم كثيراً بأعضاء النطق - كشأن القدماء- فقد جاء الفصل مقتضباً وصغيراً، لذلك صعب تقسيمه إلى مباحث ومطالب إنما اكتفى الباحث بعرضه في شكل نقاط.

أمّا الفصل الثاني: فكان لتصنيف الأصوات الصامته عند مَكِّي ويشمل الفصل مبحثين: المبحث الأول: التصنيف باعتبار المخارج، والمبحث الثاني: التصنيف باعتبار الصفات. وقُسم كل مبحث إلى مطالب:

المطلب الأول من المبحث الأول بعنوان: عدد الأصوات العربية عند مَكِّي.

والمطلب الثاني: عدد المخارج عند مَكِّي.

والمطلب الثالث: ترتيب المخارج عنده.

والمطلب الرابع: مخارج الأصوات عنده.

أمّا المبحث الثاني فقد احتوى على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية صفة الصوت عند مَكِّي.

والمطلب الثاني: تقسيم الصفات عند مَكِّي.

ولمّا كانت طبيعة هذا المطلب تقتضي التقسيم الذي تتفرع عنه مجموعة قضايا صوتية ذات طابع تطوري، كقضية الضاد وقضية الجيم، فقد كان أكبر من سابقه. وقُسِّمت فيه الصفات عند مَكِّي إلى قسمين رئيسيين هما: صفات عامة وصفات خاصة. أمّا الصفات العامة فهي صفات تشير إلى معانٍ صرفية وغيرها بينما تفرعت الصفات الخاصة إلى فرعين هما: صفات تشير إلى مكان النطق، وصفات تمثل كيفيات نطق محددة. وقُسِّمت الأخيرة إلى: صفات مُميّزة كالجهر والهمس، وصفات مُحسّنة كالأطباق في بعض حالاته وكالعُنة.

أمّا الفصل الثالث: فجُعِل لتصنيف الأصوات الصائتة عند مَكِّي وقُسِّم إلى خمسة مباحث هي:

المبحث الأول: التصنيف العام للأصوات إلى صامتة وصائتة والفرق بين كلٍّ منهما.

المبحث الثاني: أسبقية الحروف والحركات.

المبحث الثالث: العلاقة بين (حروف المد واللين) والحركات الثلاث.

المبحث الرابع: أنواع أخرى من الأصوات الصائتة.

المبحث الخامس: تصنيف الأصوات الصائتة في علم الأصوات الحديث، وحتّى لا يبدو هذا المبحث مقحماً إقحاماً في هذا الفصل فقد ذلّله الباحث

بسؤال توضح إجابته موقف القدماء -بمن فيهم مكّي- من تصنيف الأصوات الصائتة ومدى مشابھته لتصنيف المحدثين.

وكان الباب الثالث والأخير بعنوان: الأصوات اللغوية عند مكّي بن أبي طالب على مستوى التركيب. وجاء مشتملاً على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: دراسته لظاهرتي التأثير والتأثر في الأصوات، واحتوى هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول: عنايته بظاهرتي التأثير والتأثر.

والثاني: موقفه من المماثلة الصوتية.

والفصل الثاني: دراسته للظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصامتة. واشتمل الفصل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التأثير الشامل للأصوات عند مكّي، ويتحقق هذا النوع في الإدغام. لذلك قُسم إلى مطلبين:

الأول: الإدغام عند النحاة، والثاني: الإدغام عند مكّي.

المبحث الثاني: التأثير غير الشامل للأصوات عند مكّي، ويشتمل المبحث على ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الجهر والهمس.

المطلب الثاني: الإطباق والانفتاح.

والمطلب الثالث: الغنة.

والمبحث الثالث: بعض الظواهر الصوتية التأثرية التي عالجها
مكي. وقد احتوى هذا المبحث على ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: أحكام النون الساكنة.

المطلب الثاني: المشدّدات.

المطلب الثالث: الهمزة.

أمّا الفصل الثالث من هذا الباب فعنوانه: دراسته للظواهر الصوتية
المتعلقة بالأصوات الصائتة، وقُسم الفصل إلى مبحثين اثنين:

المبحث الأول: الظواهر النوعية وقد احتوى على مطلبين واسعين:

المطلب الأول: خُصّص لدراسة الحركات إبدالاً وإثباتاً وحذفاً.

المطلب الثاني: أُفرد لدراسة الإمالة: معناها وأسبابها وورودها في
اللهجات العربية والقراءات القرآنية ثم فصلّ الباحث الحديث حول دراسة
مكي للإمالة.

والمبحث الثاني: وهو الأخير في هذا الفصل خُصّص لدراسة: الظواهر
الكمية، ويتفرّع إلى مطلبين:

المطلب الأول: الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تقصير الحركة
القصيرة مثل الرّوم والإشمام.

المطلب الثاني: الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تطويل الحركة
القصيرة ويتحقق ذلك في المدود بمقاديرها المتفاوتة.

ثم ختم الباحث بحثه بخاتمةٍ ضمَّنها أهم نتائج البحث والتوصيات.

وأخيراً فهارس البحث المتمثلة في:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

فهرس الأبيات الشعرية.

فهرس الأعلام.

فهرس الجداول.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس المحتويات.

وختام القول: الحمدُ لله الذي أعان ووفَّق على إنجاز هذا العمل،
والشكر له على ما أنعم وأجزل، ونسأله تعالى أن يتقبَّله ويجعله في ميزان
الحسنات، إنه سميعٌ مُجيب.

مَهَيِّدٌ

الدرس الصوتي عند العرب

أولاً- إسهامات علماء العربية القدامى في الدراسات الصوتية ومكانتهم بين علماء الأصوات المعاصرين:

١/ إسهامانهم في الدراسات الصوتية:

لعلماء اللغة العرب القدامى إسهامات وجهود لا تُنكر في مجال الدراسات اللغوية عموماً، ومجال الدرس الصَوْتِي على وجه الخصوص. وكانت لهم دراسات جادة وصائبة في مجال علم الأصوات النطقي (*Articulatory Phonetics*) بالذات، فكانت آراؤهم الصوتية تختلف عن الآراء الصوتية لقدماء اليونان والرومان، لأن العرب ومعهم الهنود "أدركوا الأسس الفسيولوجية في تكوين الأصوات المختلفة"^(١)، فدرسوا جهاز النطق والصوت اللغوي الناتج عن حركات هذا الجهاز.

لقد كان وضع النظام الكتابي للغة العربية قائماً على أسس صوتية، فكان استخدام النقط -الذي يرجع الفضل في وضعه إلى أبي الأسود الدؤلي- يرمي إلى إصلاح النطق وتقويم اللسان حتّى يستبين المعنى المراد، وفي هذا دليل على أهمية دراسة الأصوات -لا شك- لأن المعنى إنما يقوم على عاتقها والدلالة لا تتحقق إلا بها.

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د. محمود السعران، طبع شركة الطباعة العربية الحديثة، مصر، ١٩٩٢م، نشر دار الفكر العربي، ص ٨٨.

كذلك كان استخدام الرموز غير الكتابية في المصاحف المخطوطة القديمة يدل على اهتمام القدماء بالأصوات عموماً (صامتة وصائتة).

وقد لاحظ الباحث في إعداد له رسالة الماجستير والتي كانت بعنوان: (رواية الدُّوري عن أبي عمرو بن العلاء - دراسة صوتية وصفية تحليلية) أنَّ كثيراً من المصاحف المخطوطة القديمة التي اطلع عليها تشتمل على علامات لإمكانات صوتية ليس لها رموز كتابية فلم يسعها الحرف العربي، مثل: الإمالة الكبرى والإمالة الصغرى وعلامات الضبط. وعلامات الضبط وعلامات الوقف التي نراها اليوم في المصحف الشريف تُعدُّ أثراً من آثار القدماء على المحدثين لأنهم ابتكروها. ومن أبرز من أسهم في الدراسات الصوتية من العرب بعد أبي الأسود الدؤلي^(١): الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٢)، الذي توفي حوالي ١٧٥هـ. فلقد روى الرواة أعمال الخليل اللغوية، وكان

١/ هو: أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل، وُلِدَ في الجاهلية ومات في الطاعون الجارف سنة ٦٩هـ، وهو أحد سادات التابعين وفقهائهم ومحدثيهم، روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وهو أول من تكلم في النحو، قال عنه الحافظ: أبو الأسود معدود في طبقات الناس، وهو في كلها مقدم ماثور عنه في جميعها؛ يُنظر، معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ٤/١٤٦٤.

٢/ هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، العروضي النحوي اللُّغوي، سيد الأدباء في علمه وزهده، كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وأخذ عن الأصمعي وسيبويه والنضر بن شميل، وهو أول من استخرج العروض وضبط اللُّغة وحصر أشعار العرب، مات سنة ١٧٥هـ؛ يُنظر، معجم الأدباء: ٣/١٢٦٠.

ضمن ما رَوَاهُ وروته كتب اللغة والأدب: معجمه الموسوم بـ(العَيْن)، وهو معجم اختار الخليل ترتيب مواده على أساس الأصوات، واختار ترتيب الحروف على أساس مخارجها فكان أول الأصوات عنده صوت (العَيْن) فبدأ به معجمه لِمَا يرى أَنَّهُ أَقْصَى الأصوات مَخْرَجاً.

وكان ابتكاره لنظام العروض أو أوزان الشَّعر العربي دليلاً على عبقريته وسلامة طبعه وعلمه بالأصوات.

لقد تتلمذ الخليل على الإمام القارئ اللغوي أبي عمرو^(١) ابن العلاء البصري المتوفى سنة ١٥٤هـ، وكان أبو عمرو لغوياً ضليعاً ومقرئاً صاحب قراءة سبعية متواترة فهي مشهورة إذن، وهذه القراءة مليئة بالظواهر الصوتية التي اختار روايتها، مثل: الإدغام، والتسهيل، والإمالة، وكل ما يتعلق بالأصوات الصامتة، ومثل: الرّوم، والإشمام، والاختلاس، والتسكين، وكل ما يتعلق بالأصوات الصائتة.

كذلك يُعد سيبويه^(٢) من ألمع نجوم هذه المجموعة، وكان تلميذاً

١/ هو: الإمام أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري، أحد القُرَّاء السبعة، واختلف في اسمه والصحيح أَنَّهُ زَبَّان، وُلِدَ بِمَكَّةَ وَمَاتَ بِالكُوفَةِ سنة ١٥٤هـ، أَخَذَ بِمَكَّةَ والمدينة والكوفة والبصرة عن شيوخ كثيرة منهم أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ والحسن البصري وعكرمة ومجاهد وغيرهم، أَخَذَ عَنْهُ الخليل ويونس واليزيدي، وروى عَنْهُ الحروف سيبويه، وكان أعلم الناس بالعربية والقرآن؛ يُنظر، معجم الأدباء: ١٣١٧/٣.

٢/ هو: عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر مولى بني الحارث بن كعب، وسيبويه لقب معناه: رائحة التفاح، أصله فارسي، أَخَذَ النُّحُو والأدب عن الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وأبي الخطاب الأَخْفَش وعيسى بن عمر، مات بالبصرة سنة ١٦١هـ؛ يُنظر، معجم الأدباء: ٢١٢٢/٥.

للخليل، ويُعدُّ كتابه (الكتاب) إسهاماً ضخماً في علم اللغة العربية، وقد تحدّث عن الأصوات في معرض حديثه عن الإدغام وكان حديثه دقيقاً. "وقد بلغ عمل سيبويه في مجال الأصوات مبلغاً من الدقة بحيث أننا لا نجد ما يفوقه حتّى اليوم"^(١).

ولقد بلغت معرفة سيبويه بعلم الأصوات أن أشار إلى فكرة الوحدات الصوتية (Phonemes) في حديثه عن الأصوات الأصول التي تمثل (الفونيمات)، والأصوات الفروع التي تمثل التنوعات والتبدُّلات الصوتية (الألفونيات) وذلك مثل الألف الممالة ونون الغنة.

ويُعدُّ ابن جنّي أول من أشار إلى مصطلح علم الأصوات وسماه بهذا الاسم، وذلك في كتابه سر صناعة الإعراب^(٢)، وأفاض في الحديث عن الأصوات والحروف، وألّف هذا الكتاب مشتملاً على جميع أحكام حروف المعجم متقصياً فيها القول ولقد أجاد ابن جنّي وأفاد.

ولمّا كان علماء التجويد يدرسون أصوات القرآن الكريم ويعنون بها ويبدلون جهوداً عظيمة في توصيفها واستنباط الظواهر الصوتية الناتجة من توظيفها، فإنهم يجدون مكانهم اللائق بين علماء الأصوات عموماً؛ لأنهم يدرسون الصوت اللغوي على مستوييه النظري والتطبيقي، وكانت تطبيقاتهم على قدرٍ كبيرٍ من الدقة والأهمية. وعليه فإن علماء التجويد قد يتفوقون على

١/ اللسانيات العربية مقدمة ويليوغرافيا: محمد حسن با كلا، لندن، ١٤٠٢هـ —

١٩٨٢م، نشر مؤسسة مانسل المحدودة، ص ٧٢٥.

٢/ يُنظر، سر صناعة الإعراب: لابن جنّي، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف،

وإبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، طبع الحلبي، مصر، ١٠/١.

غيرهم في البحث العلمي والتطبيق العملي؛ لأنهم يطبقون دراساتهم النظرية في القرآن الكريم وقراءاته.

إنَّ العلاقة بين علم الأصوات وعلم التجويد واضحة كل الوضوح؛ لأن من معاني التجويد: تحسين القراءة، أي تحسين أداء أصوات القرآن الكريم، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١).

فهذا الحديث يوضح هذه العلاقة؛ لأن الزينة تعني التجويد. قال ابن الجزري في بعض تعريفاته للتجويد: "هو حلية التلاوة وزينة القراءة"^(٢). فالزينة تعني التجويد، وهو علم يختص بتحسين أداء أصوات القرآن الكريم ليحصل من ذلك التدبر لكتاب الله تعالى والتفكير فيه. ولَمَّا كانت الأصوات هي وسيلة الفهم والإدراك للكلام المتألف منها، وكان القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله ﷺ، وأمره بتبليغه إلى الناس، كان الوصول إلى فهمه وإدراك معانيه أكبر الغايات وأنبى الأمنيات. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

إذن فإن التجويد علم يبحث في الأصوات اللغوية تطبيقاً على أفصح مستويات اللغة وهو القرآن الكريم. وبإمكاننا أن نصطلح على التجويد بـ(أصوات القرآن الكريم) وقد سبق إلى التسمية البروفسور يوسف الخليفة

١/ المستدرک: للحاکم، طبعة دار الفكر، ٥٧١/١، والحديث عن البراء بن عازب.

٢/ التمهيد في علم التجويد: ابن الجزري، تحقيق: غانم قدوري الحمد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٥٩.

٣/ سورة ص: الآية (٢٩).

أبو بكر حينما سَمَّى مؤلفاً في التجويد (أصوات القرآن كيف تتعلمها ونعلمها).

العلاقة بين علم الأصوات العام وعلم التجويد متشابكة ومتكاملة بحيث "إنَّ المسافة بين علماء التجويد وعلماء الأصوات المحدثين قد تضيق جداً أو تنعدم في كثير من الموضوعات"^(١)؛ لأنهما يهتمان بظواهر لغوية مشتركة مثل الحديث عن مخارج الحروف وصفاتها وأعضاء النطق، والحديث عن وظائف الأصوات وما ينتج عن ذلك من إدغام، وإبدال، وحذف، وإظهار، وإخفاء، ومد، وقصر، وهمز، ونبر، وفتح، وإمالة، وغُنَّة، ورَّوم، وإشمام، وغير ذلك.

ب / مكانهم بين علماء الأصوات المعاصرين:

١ / مكانة علماء (الأصوات العامة):

أمَّا مكانة علماء الأصوات العرب القدامى فسيقتصر الباحث في الحديث فيها على بعض ما قاله بعض المعاصرين، تأكيداً لمكانتهم السامية والراسخة. فهم السابقون، وهم الأفاضل المخترعون المعتمدون على رقة الطبع، وسلامة الذوق؛ فكان تفكيرهم، وكانت ملاحظاتهم الوسيلة الأساسية التي أخرجوا بها هذا العلم فنقلوه إلينا غرساً طيباً وثمرات دانية. فكم ظامئ من فيض علمهم قد ارتوى، وكم مظلم بنور هديهم قد استنار.

١ / الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: غانم قدوري الحمد، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥م، ص ١٦٦.

♦ قال الدكتور إبراهيم أنيس عن الخليل:

"كان علماً من أعلام اللغة، ضرب بسهمٍ وافرٍ في نواحٍ عديدة من الدراسات اللغوية..... فالخليل ولا شك كان مرهفاً، رقيق الحس بالأصوات"^(١).

وسجّل أنيس اعترافه بقوة ملاحظة الخليل في وصفه للأصوات واعتماده على الملاحظة الذاتية فقال: "واعتمد الخليل في وصفه للأصوات على ما يحسه بنفسه من اختلاف في أوضاع أعضاء النطق معها، وعلى العملية العضلية التي يقوم بها المرء لدى صدور كل صوت، وعلى وقع هذا الصوت في أذن السامع دون أن يكون لديه شيء من الإمكانيات الحديثة من آلات التسجيل والتصوير أو معرفة بنظريات التفسير"^(٢).

♦ أمّا الدكتور أحمد مختار عمر، فأكد ما ذهب إليه إبراهيم أنيس من قوة الملاحظة عند القدماء من علماء العربية لدرجة أنهم يعتمدون عليها اعتماداً كلياً. ورغم ذلك جاءت بحوثهم عظيمة الشأن. قال: "كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصرهم، بل حتّى بالنسبة للعصر الحديث برغم ما

١ / الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ١٩٦١م، دار النهضة العربية، ص ٧٥.

٢ / المصدر السابق: ص ٧٥-٧٦.

فيه من إمكانات هائلة لم تُتَح للقدمات من آلات وأجهزة للتصوير والتسجيل وتحليل الأصوات وغيرها"^(١).

♦ وقال عن ابن جني: "وأول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابن جني المتوفى عام ٣٩٢هـ في كتابه (سر صناعة الإعراب)"^(٢). والحق أن ابن جني يُعدُّ رائد الدراسات الصوتية العربية العامة يقف جنباً إلى جنب مع رائد الدراسات الصوتية العربية القرآنية الإمام مكّي بن أبي طالب القيسي"^(٣).

♦ أمّا الدكتور محمود السعران فقد قال عن سيبويه: "إنَّ تصنيف سيبويه ووصفه للأصوات العربية دقيقان كل الدقة بالنسبة إلى عصره"^(٤).

♦ وقال إبراهيم أنيس عنه أيضاً: "وقد لَخَّص سيبويه في آخر كتابه المشهور آراء الخليل في أصوات اللغة في دقة وأمانة، وهي لذلك جديرة بالدراسة والشرح في ضوء الدراسات الحديثة للأصوات اللغوية"^(٥).

١/ البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: أحمد مختار عمر، طبع مطابع سجل العرب، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، نشر عالم الكتب، القاهرة، ص ١٠١.

٢/ المصدر السابق: ص ١٠٠.

٣/ سيأتي الحديث عن هذا عند حديثنا عن التخصص في الدرس الصوتي عند العرب.

٤/ علم اللغة: ص ٩١٤.

٥/ الأصوات اللغوية: ص ٧٦.

فإذا ترتب على دقة سيبويه وأمانته أن تكون آراؤه وآراء أستاذه
جديرة بالدراسة في العصر الحديث، فإننا نقول إنَّ هذه الدقة
تناسب كذلك العصر الحديث ولم تكن دراساته هذه دقيقة
بالنسبة إلى عصره فحسب؛ لأنه ما من دارس للأصوات إلا وهو
عيال على سيبويه، ولأن أكثر آرائه الصوتية مما يُستشهد به
ويُحتفل به في أروقة الصوتيين ومؤلفاتهم المتعددة. بل حتَّى
علماء الأصوات الغربيين.

وقد أورد بعض الباحثين جدولاً في تحليل الأصوات عاقداً المقارنة بين
تصنيف سيبويه للأصوات وتصنيف قاردن جونز^(١)، وهذا مثال
للتصنيف:

جدول رقم (١) مقارنة بين تصنيفي سيبويه وقاردن جونز

التصنيف	سيبويه	قاردن جونز
حنجري	ء، هـ	h ، ؟
حلقي	ع، ح	ḥ ، ؟
لهوي	ق	g
طبقي	ك	k
غاري	خ، غ	gh ، kh
لثوي	ش، ن	n ، sh
طبقي لثوي	ط، ض، ص، ظ	ʒ ، ʃ ، ḍ ، ṭ

١/ يُنظر، اللسانيات العربية مقدمة وبيليوغرافيا: محمد حسن باكلا، ص ٦٧٢؛ مترجم

من: K.I.H. Semaan: The history of early Arabic Linguistics, Phonetic Studies.

وهكذا في بقية الأصوات فإن تحليله هو نفس تحليل سيويه. وغير هذا كثير.

ومِمَّا يدل على علوِّ مكانة علماء الأصوات العرب عند علماء الأصوات الغربيين شهادة عالَمين كبيرين هما برجشتراسر الألماني وفيرث الإنجليزي.

يقول الأول: "لَمْ يسبق الأوروبيين في هذا العلم -يعني علم الأصوات- إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند..... والعرب"^(١).
ويقول الثاني: "إنَّ علم الأصوات قد نَمَا وشَبَّ في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية"^(٢).

٢ / مكانة علماء التجويد:

لقد قررنا أنَّ لعلماء التجويد إسهامات سديدة، وإضافات جديدة، ومذاهب رشيدة في الدرس الصوتي ممَّا يؤهلهم أن يكونوا مع زمرة علماء الأصوات العرب، لذلك فإن الباحث يطلق -أحياناً- لفظ (علماء العربية القدامى) ويريد به علماء اللغة وعلماء التجويد استناداً على إيمانه العميق بدقة وعمق دراسات علماء التجويد وآرائهم الصائبة في الحديث عن أصوات القرآن، بل والأصوات اللغوية عامة، وخاصة مجال علم الأصوات النطقي.

١ / التطور النحوي للغة العربية: لبرجشتراسر، أخرجه وصححه وعلّق عليه: د. رمضان

عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م، ص ١١.

٢ / البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: أحمد مختار عمر،

ص ١٠١؛ [نقل المؤلف هذه المقولة دون إحالتها إلى أي مرجع].

ولكن رغم ذلك فإننا كثيراً ما نجد إهمالاً لجهود هؤلاء العلماء من قبل المعاصرين من علماء الأصوات، ولا نكاد نظفر برأي أو مذهب لعالم من علماء التجويد يستشهد به المعاصرون من علماء الأصوات أو يدرسونه كما يدرسون آراء غيرهم من العلماء. بل لقد استهان بعض المعاصرين بجهود علماء القراءات والتجويد وقلل من قدر مؤلفاتهم في هذا المجال.

يقول الدكتور رمضان عبد التواب: "ورغم كثرة كتب القراءات في العصور المتأخرة وعلاجها المسهب للقراءات السبع والعشر وغيرها، نرى أنها حين تعرض لأصوات اللغة تكتفي بوضع صفحات تصف فيها مخارج الحروف وصفاتها في صورة مقتضبة مختصرة لا تخلو من الغموض أو التحريف في بعض الأحيان"^(١).

والحق أن علم التجويد - إضافةً إلى أنه علم يبحث في كيفية التلاوة (تلاوة القرآن) على الوجه الصحيح - علم أضيف إلى الجهود المبذولة في دراسة الأصوات اللغوية، وقد أفاد منه علم الأصوات المعاصر إفادة عظيمة، لا غرو فإن كل كتاب في التجويد يشمل - إلى جانب قواعد التلاوة - فصلاً في مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها وذلك على مستوى التحليل، ويشمل كذلك دراسات صوتية على مستوى التركيب والسياق. وعلماء التجويد يستخدمون في مؤلفاتهم كثيراً من

١/ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص ١٨؛ قد يجد الباحث عذراً للدكتور رمضان عبد التواب في نقده لكتب القراءات لحصره لها من العصور المتأخرة.

المصطلحات الصوتية، "وإنَّ كثيراً من المبادئ والنظريات اللغوية الحديثة في علم الأصوات سبق أن قررها علماء التجويد منذ أكثر من ألف سنة، بينما لم تكن لهم الأجهزة الإلكترونية الحديثة لاختبار الأصوات الإنسانية"^(١).

يجب التأكيد -وفقاً لقراءتنا لمحمل الدراسات في مجال الأصوات- على أنَّ لعلماء التجويد دراسات جادة وصائبة في علم الأصوات، وبالذات علم الأصوات النطقي (*Articulatory Phonetics*) وكانت دراساتهم نظرية وتطبيقية.

لقد حبا الله تعالى العرب بلغة تتسم أصواتها بالتميز، فهي أصوات واضحة المخارج ظاهرة الصفات، يخرج كل صوت حاملاً لخصائصه الذاتية، ولا يبلغ تأثير الأصوات بعضها ببعض وتأثير بعضها في بعض الدرجة التي تحصل في اللغات الأخرى، رغم أنَّ القوانين الصوتية -إذا صح لنا تسميتها قوانين- تؤكد تأثير الأصوات بعضها ببعض في السلسلة الكلامية. ولكن علماء التجويد -واضعي أسس علم الأصوات النموذجي^(٢)- قد حاولوا وضع بعض الضوابط التي تحول دون تأثير بعض الأصوات ببعضها حين تقتضي الطبيعة الصوتية ذلك،

١/ أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها: يوسف الخليفة، طبع دار المركز الإسلامي الإفريقي للطباعة، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ٧.

٢/ عنت للباحث هذه التسمية (علم الأصوات النموذجي) لما رأى من اهتمام علماء التجويد بالظواهر الصوتية الواردة في القرآن الكريم والتي تشكل ظواهر لهجية في مستوى لا ينال من فصاحة اللغة العربية المشتركة.

واستفادوا من مجهودات سيبويه الصوتية وغيره من النحاة، وزادوا عليها، وأخذوا يصفون الأصوات العربية وصفاً دقيقاً، ويحذرون من الزلل في النطق بها، وينصحون بالتحفظ فيها.

يقول مكي بن أبي طالب في حديثه عن القاف: "وإذا وقعت الكاف بعدها أو قبلها وجب بيانها لئلا يشوبها شيء من لفظ الكاف لقربها منها، أو يشوب الكاف شيء من لفظ القاف، نحو: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} ^(١) و{كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ} ^(٢) و{خَلَقَكُمْ} ^(٣) و{رَزَقَكُمْ} ^(٤) ... وشبهه" ^(٥).

وكان ابن الجزري يحذر المتعلمين من تفخيم الباء إذا وليها صوت مفخم مثل: (بطل)، وكان يشير إلى أن بعض الناس ينطقون بالتاء رخوة حتى تصير نوعاً من السين ^(٦).

لو تأملنا آراء علماء التجويد، لا يحق لنا أن نخرج دراساتهم عن نطاق الدرس الصوتي الحديث ولا أن نحاول وضع جهودهم على هامش

١ / سورة الأنعام: الآية (١٠٢).

٢ / سورة الشعراء: الآية (٦٣).

٣ / سورة البقرة: الآية (٢١).

٤ / سورة المائدة: الآية (٨٨).

٥ / الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: مكي بن أبي طالب، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٧١.

٦ / النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، تحقيق: الضباع، جزآن، نشر المكتبة التجارية الكبرى، طبع مصطفى محمد، مصر، ٢١٦/١.

دائرة البحوث الصوتية الحديثة مدّعين أنّ شأنهم في دراساتهم هو شأن
المعياريين الذين يضعون المعايير أولاً.

ولكنهم حاولوا وضع بعض الضوابط تأسيساً على نقل ومشافهة
القرآن الكريم الذي تواترت آياته وقراءاته بخطها ولفظها وأصواتها
ومعانيها. وهذا النقل والتواتر على وجوه متعددة، وهي الأحرف
السبعة التي جاءت انعكاساً للغات العرب ولهجاتهم، والتي نقلها القراء
اختياراً. فهم إذن - أعني علماء التجويد - إنما يُفسّرون هذه الظواهر
الصوتية الموجودة فعلاً ويصفونها، ولكنهم يصدرون عن إمكانيات
متفق عليها اعتماداً على أوثق مصادر اللغة وعلى أفصح بوتقة تنصهر
فيها اللهجات العربية.

لم يجد علماء التجويد مكانهم الطبيعي بين علماء الأصوات المعاصرين،
وتجاهل أكثرهم مكانة هؤلاء العلماء، وإنّ ما لحق بإمامنا وعالمنا
مكيّ بن أبي طالب من التجاهل والإهمال أكبر بكثير من غيره من
علماء التجويد فلم نجد له ذكراً يوازي مكانته الحقيقية الراسخة بين
علماء الأصوات عامة.

إنه "من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية حسن الفهم والخلق جيد
الدين والعقل"^(١).

إنه علم من أعلام علم الأصوات القرآني لو أُتيحت الفرصة لمن تجاهلوا

١/ الصلة: لابن بشكوال، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبع مطابع سجل العرب
بالقاهرة، ١٩٦٦م، ٢/٦٣١؛ والكلام لصاحبه أحمد بن مهدي المقرئ.

جهوده للبحث في مؤلفاته لَمَّا وقفوا هذا الموقف الظالم^(١). وكتاب الرعاية خير شاهد على براعة هذا العالم الجليل ورسوخ قدمه في علم الأصوات، ودليل على أنه من أفضل من يجيدون معالجة القضايا المتعلقة بالأصوات اللغوية معالجة تتسم بالموضوعية والمنهجية لاستنادها على نظر عميق وتطبيق دقيق.

ثانياً- طريقة دراسة علماء العربية للأصوات:

إنَّ طريقة دراسة القدماء للأصوات اللغوية لا تختلف كثيراً عن طريقة المحدثين، إلا في بعض الأمور، كاختلافهم في أساس تقسيم الصوامت إلى مجهورة ومهموسة، وبعض الأمور الأخرى.

تدرس الأصوات اللغوية باعتبارات مُعَيَّنة، فهناك دراسة مخصصة في تحديد أعضاء النطق (*Organs of Speech*) وقد استفاد علماء الأصوات المحدثون ممَّا أُتيح لهم من أجهزة لقياس الصوت ومن نتائج علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وعلم الفيزياء.

ثم إنَّ هنالك أموراً يُعوَّل عليها في التمييز بين الأصوات وهي^(٢):

الأمر الأول : معرفة مكان الاعتراض للهواء المنبثق من الرئتين.

١/ هذه الرسالة تكشف هذه الحقائق إن شاء الله وتحاول أن تزيح ما ظل يحجب هذا العلم وتزيل عنه بعض الظلم الذي لحق به، وتؤكد أننا بحاجة ماسة إلى فحص تراثنا التجويدي العريق واستنباط أحكامه الدقيقة.

٢/ الكلام إنتاجه وتحليله: عبد الرحمن أيوب، طبعة جامعة الكويت، الطبعة الأولى،

الأمر الثاني : معرفة كيفية هذا الاعتراض، وهل كان هذا الاعتراض تاماً أم ناقصاً.

الأمر الثالث : معرفة ما إذا كان هذا الاعتراض والتدخل مصحوباً بأزيز الأوتار الصوتية أم لا.

لنرى بعد هذا إفادات علمائنا اللغويين الأقدمين، فلنبداً بدراستهم لأعضاء النطق وملاحظاتهم حولها، وذلك على وجه سريع. لعله يعيننا على معرفة الجهود الصوتية والملاحظات التي بذلها قدمائنا اللغويون، فتكون تمهيداً لمعرفة جهود الإمام مكّي بن أبي طالب، رغم الفوارق بين القدماء والمحدثين في وسائل العلم والمعرفة.

يُسمّى القدماء من اللغويين جهاز النطق بالمدرج، وجاء في لسان العرب بمعنى الممر والمذهب. قال: "ويقال للطريق الذي يدرج فيه الكلام والريح وغيرها، مدرج ومدرجة ودراج، وجمعه أدراج أي ممر ومذهب"^(١). إنَّ جهاز النطق (*Vocal tract*) تحدده أعضاء معروفة عند القدماء والمحدثين^(٢)، وهي:

١] الرئتان:

وهما أول هذه الأعضاء في اعتبار الدراسات الصوتية المعاصرة، ومن خلال دراستنا لكتب المتقدمين، لم نجدهم يذكرون الرئتين من ضمن

١/ لسان العرب المحيط: ابن منظور، ترتيب: يوسف خياط، قدم له: الشيخ عبد الله

العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، مادة (درج)، ٩٦٣/٢.

٢/ يكفي الباحث هنا بإشارات وملاحظات فقط.

أعضاء النطق، وتبعهم في ذلك كثير من المحدثين، ولا شك أن الرئة عضو أساسي في إنتاج الصوت البشري.

٢ [القصبه الهوائية (Wind Pipe):]

وهي أنبوب مرن طوله أربع بوصات تقريباً يسميها القدماء: الحلقوم متأثرين بقول الله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ} ^(١).

٣ [الحنجرة (Larynx):]

وهي عضو نشط ومهم في إنتاج الأصوات اللغوية، وهي عبارة عن مجموعة غضاريف ترتبط بعضها ببعض بواسطة عضلات. وتتكون الحنجرة من ثلاثة غضاريف رئيسية، والغضروف الرابع لسان المزمار. والحنجرة اعتنى بها المحدثون أكثر من اعتناء القدماء نتيجة لملاحظاتهم وتجاربهم العملية واستخدام الوسائل الآلية واعتمادهم عليها في توصيفهم. ورغم ذلك فإن بعض القدماء قد أشار إلى الحنجرة وتكويناتها كابن سينا الذي سَمَّى غضاريف الحنجرة بأسماء استعملت بعينها عند المحدثين، وذلك مثل تسميته الغضروف الدرقي والترسي والغضروف الطرجهاري والمكي وغضروف لسان المزمار يُطلق عليه: (الذي لا اسم له) ^(٢).

٤ [الأوتار الصوتية:]

الأوتار الصوتية (بصيغة الجمع) نعني بها الوترين الصوتيين الحقيقيين والوترين الصوتيين الزائفين.

١ / سورة الواقعة: الآية (٨٣).

٢ / الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١م،

فالأولان هما المسئولان عن التفريق بين الأصوات المجهورة والمهموسة وصوت الهمزة كما أثبتت الدراسات الحديثة.

أمّا الزائفان فهما عضوان واقيان آخران للحنجرة ويقعان تحت لسان المزمار لمنع الأجسام الغريبة من الدخول عن طريق مجرى الهواء إلى الرئتين.

لكن القدماء أهملوا الأوتار الصوتية بوصفها من أعضاء النطق، ولكننا نجد ابن منظور في لسان العرب يُفسّر لفظ (الشوارب) في قول أبي ذؤيب الهذلي في وصفه الصوت الشديد للثور الوحشي:

صَخْبُ الشَّوَارِبِ، لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ * عَبْدٌ لِّأَبِي رَبِيعَةَ مُسْبِعُ
بما يدل على الأوتار الصوتية فقال: "قيل الشوارب عروق في الحلق تشرب الماء، وقيل هي عروق لاصقة بالحلقوم..... ولها قصب منه يخرج الصوت"^(١).

٥] الحلق:

وهو الفراغ المحصور بين التجويف الأنفي والحنجرة رأسياً، وبين أصل اللسان وجدار الحلق الخلفي أفقياً^(٢).

ويقسمه المتقدمون إلى ثلاثة أقسام^(٣): أقصى الحلق، ووسط الحلق،

١/ لسان العرب: ابن منظور، طبع دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة

الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، مادة (شرب)، ١/ ٤٩٠.

٢/ Harman, R. R. K. and Stork F.C.: Dictionary of Language and Linguistics, Applied Science Publishers, London, ١٩٧٦, p١٦٩.

٣/ يُنظر، الكتاب: لسيوييه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي،

القاهرة، طبعة دار الجليل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ٤/ ٤٣٣.

وأدنى الحلق. ويحدده ابن سينا بقوله: "يعني بالحلق الفضاء الذي فيه
يجريا النفس والغذاء ومنه الزوائد التي هي اللهة واللوزتان
والغلصمة"^(١).

٦ [اللهة:

وهي عضو لحمي يتدلى نحو الفراغ بين أصل اللسان وجدار الحلق،
ملتصقة بالحنك اللين، ولها دور في تصنيف الأصوات إلى فموية وأنفية.
قال مكّي: "... واللهة ما بين الفم والحلق"^(٢).

٧ [التجويف الأنفي:

يُسمّى عند القدماء بالخياشيم أو المنخر، والتجويف الأنفي فراغ يكسو
الصوت رنيناً عند نطق النون والميم في اللغة العربية. يقول سيوييه:
"... إلا أنّ النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما
غنة، والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت
ذلك قد أحلّ بهما"^(٣).

٨ [الحنك:

وهو سقف الفم، وهو الحنك الأعلى عند القدماء، يقسمه المحدثون إلى
قسمين: الأمامي ويُسمّى الحنك الصلب. والخلفي ويُسمّى الحنك
اللين، أمّا القدماء من علماء العربية فيُسمّون منطقة الغار (الحنك
الصلب) بمصطلح: (وسط الحنك)^(٤). كأنهم يقسمون الحنك الأعلى

١/ القانون في الطب: لابن سينا، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦/٢.

٢/ الرعاية: ص ١٣٩.

٣/ الكتاب: ٤/٤٣٤.

٤/ المصدر السابق: ص ٤٣٣؛ يُنظر، سر صناعة الإعراب: ٤٧/١.

إلى ثلاثة أقسام: أقصى، ووسط، وأدنى.

٩ [اللثة:

بتشديد اللام مع الفتح أو الكسر دون تشديد الثاء. وهي الجزء الواقع خلف منابت الأسنان العليا، وأمام الحنك الصلب، ومن القدماء من يعرفها بـ(مغارز الأسنان). قال في اللسان: "واللثة مغرز الأسنان، والحروف اللثوية الثاء والذال والظاء؛ لأن مبدؤها من اللثة"^(١). وبعض القدماء يشيرون إليها بـ(نطح الغار الأعلى)^(٢).

١٠ [اللسان:

وهو عضو أساسي في النطق، مرن للغاية. وهذه المرونة تمكنه من أداء وظيفتيه: الحيوية (البيولوجية) والنطقية معاً، وتساعد في تشكيل حُجر الرئتين بما يناسب الأصوات المنطوقة. ويقسم القدماء اللسان إلى أقصى اللسان ووسط اللسان وذلق اللسان^(٣) أو أسلته وهو عند المحدثين طرف اللسان.

١١ [الأسنان:

عدد الأسنان اثنتان وثلاثون سناً، وتؤدي الأسنان دوراً كبيراً في النطق لأنها تحجز الهواء وتشكل خروجه وتميز نطق بعض الأصوات. ويقسمها القدماء إلى: أربع ثنايا، وأربع رباعيات، وأربعة أنياب،

١/ لسان العرب المحيط: مادة (لثي)، ٣٤٢/٥.

٢/ شرح المفصل: ابن يعيش، طبعة عالم الكتب، بيروت، ١٠/١٢٥.

٣/ ذلق اللسان: هو الجزء المتصل باللثة، وأسلة اللسان هو الجزء المتصل بالأسنان؛ يُنظر،

النشر في القراءات العشر: طبعة دار الفكر، (د.ت)، ١٩٩/١.

وأربعة ضواحك، واثننا عشرة رحي، وأربع نواجز^(١).

١٢ [الشفتان:

وهما عضوان مَرنان لهما حركة متعددة الأشكال. وقد وصف القدماء من علماء اللغة الشفتين وكيفية نطق الأصوات معها، وخاصة الأصوات التي تُسمَّى بالصائتة. مثلما فعل أبو الأسود الدؤلي في محاولاته لإصلاح النطق والكتابة العربية حينما أمر بوضع النقاط لتمثيل الحركات القصيرة والتنوين على ما هو معروف.

أمّا الأمور المعوّل عليها في التمييز بين الأصوات فهي:

الأمر الأول:

معرفة مكان الاعتراض للهواء المنبثق من الرئتين. وهو الذي يُطلق عليه حديثاً: مخرج النطق (*Point of articulation*) أو موضع النطق (*Position of articulation*).

والمخرج هو اسم لمكان خروج الصوت عند الإنسان. وهو "موضع ينحبس عنده الهواء أو يضيق مجراه عند النطق بالصوت"^(٢). لقد كان للقدماء السبق في اختيار هذا الاصطلاح وتسميته بالمخرج، وذكروا اصطلاحات أخرى له بصيغة الجمع نحو: الأحياز والمدارج^(٣).

١/ أدب الكاتب: ابن قتيبة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السّعادة، مصر، ص ١٢٥.

٢/ مصطلحات في علم الأصوات واللغة: مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م، ٢٥٥/١٨، (وبها التفكير الصوتي عند العرب: هنري فلش، ترجمة: عبد الصبور شاهين).

٣/ تهذيب اللغة: الأزهرى، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، =

أمّا تعريف القدماء للمخرج فنعلمه من خلال تعريف ابن الجزري للحروف حيث يُعرّفها بأنّها: "مقاطع تعرض للصوت الخارج مع النفس مبتدأً مستطيلاً فتمنعه عن إيصاله بغايته، فحيثما عرض ذلك المقطع سُمّي حرفاً وسُمّي ما يسامته ويحاذيه من الحلق والفم واللسان والشفيتين: مخرجاً"^(١).

يبلغ عدد المخارج عند كثير من علماء العربية القدامى سبعة عشر مخرجاً، ومن هؤلاء العلماء: الخليل بن أحمد، ومكي بن أبي طالب. قال مكي وهو يتحدث عن ألقاب الحروف: "... وبقيت عشرة ألقاب تمام (أربعة وأربعين) لقباً، لقبها بذلك الخليل بن أحمد في أول كتاب العين، جعل ألقابها عشرة مشتقة من أسماء المواضع التي تخرج منها الحروف"^(٢). ومن خلال عرض مكي لهذه الألقاب لقباً لقباً يبدو أنّ عدة المخارج عنده وعند الخليل سبعة عشر مخرجاً وتبعهم في ذلك ابن الجزري الذي بيّن في كتابه النشر^(٣) أنّ المحققين يجعلون عدة المخارج سبعة عشر، وقال إنه الصحيح المختار، وذكر من هؤلاء المحققين: الخليل بن أحمد، ومكي بن أبي طالب.

أمّا سيبويه وابن جنّي فيرون أنّ عدد المخارج ستة عشر مخرجاً وذلك بإسقاط مخرج الجوف الذي تخرج منه حروف المد واللين، فقال الأول: "والحروف العربية ستة عشر مخرجاً"^(٤). وأخذ الثاني يبين في كتابه (سر صناعة

= ١٩٦٤م، ٤٨/١.

١/ التمهيد في علم التجويد: الطبعة الأولى، ١٩٠٨م، ص ٣١.

٢/ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: ص ١٣٨.

٣/ النشر في القراءات العشر: ١٩٨/١.

٤/ الكتاب: ٤٣٣/٤.

الإعراب) مخرج كل صوت لوحده أو مع مجموعته، مبتدئاً بالهمزة والألف والهاء ومنتهاً بالنون الخفية أو الخفيفة^(١).

ومن النُّحاة من يعد المخرج أربعة عشر مخرجاً وهم قطرب والجرمي والفراء، فيسقطون مخرج النون واللام والراء ويجعلونها من مخرج واحد^(٢).

أمّا المحدثون فعدد المخرج عندهم عشرة مخرج ويسمونها أحياناً أحياناً.

وفي رأيي أنّ عدد مخرج الأصوات اللغوية يبلغ سبعة عشر مخرجاً كما قرره مكّي وقبله الخليل؛ لأن ذلك يدل على الدقة والاستقصاء، ويوضح منهج القدماء في الدراسة المبني على الاستفاضة والتفصيل والتحليل. وهو أمر مطلوب في مثل دراسة مخرج الأصوات اللغوية، الأمر الذي يؤكد ما قيل آنفاً عن القدماء من رقة الطبع وسلامة الذوق، ويؤكد كذلك دقة نتائج بحوثهم الصوتية مع إعوازهم للوسائل الآلية والأجهزة الإلكترونية، معتمدين على ملاحظاتهم الذاتية وتوصيفاتهم النظرية.

مقارنة بين القدماء والمحدثين في تحديد مخرج الأصوات العربية:

نتعرّف على الفروق في مخرج الأصوات بين القدماء والمحدثين بالنظر إلى الجدولين التاليين.

١/ سر صناعة الإعراب: ٤٩/١.

٢/ النشر في القراءات العشر: ١٩٨/١.

جدول رقم (٢) مخارج الأصوات عند القاء

المخرج العام	المخرج الخاص	الأصوات	نسبة الأصوات
اللسان	أقصاه	١ / أقصى الحلق.	هـ، ء
	وسطه	٢ / وسط الحلق.	ع، ح
	أدناه	٣ / أدنى الحلق.	خ، غ
اللسان	أقصاه	٤ / أقصى اللسان ممّا يلي الحلق مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى.	ق
		٥ / أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف.	ك
اللسان	وسطه	٦ / وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى.	ج، ش، ي
	حافته	٧ / إحدى حافتي اللسان ممّا يلي الأضراس.	ض
اللسان		٨ / حافة اللسان إلى أدناه وما فوقها.	ل
		٩ / طرف اللسان وفوق الثنايا العليا.	ن المظهرة والمتحركة
		١٠ / طرف اللسان قريب إلى ظهره وفوق الثنايا العليا.	ر
اللسان	طرفه	١١ / طرف اللسان وفوق الثنايا السفلى.	ص، ز، س
		١٢ / طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.	ط، د، ت
		١٣ / ظهر طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا.	ظ، ذ، ث
الشفة	الشفة والأسنان	١٤ / بطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا.	ف
	الشفتان معاً	١٥ / ما بين الشفتين.	ب، م، و
الجوف		١٦ / حروف المد نحو: قال، يقول، قيل.	الجوفية أو الهوائية
الخيشوم		١٧ / وتخرج منه الغنة وهي صفة تلازم الميم والنون الساكنتين.	

جدول رقم (٣) مخارج الأصوات عند المحدثين

المخرج	الأصوات	نسبة الصوت
/١/ الشفتان	ب، م، و	شفوي
/٢/ الأسنان العليا/والشفة السفلى	ف	شفوي أسناني
/٣/ الأسنان العليا وذلق اللسان	ظ، ذ، ث	أسناني
/٤/ الأسنان العليا أو السفلى مع اللثة وأسله اللسان	ص، ز، س، ط، د، ت، ض	أسناني/لثوي
/٥/ اللثة وذلق اللسان	ن، ر، ل	لثوي
/٦/ الغار ومقدمة اللسان	ش، ج، ي	غاري
/٧/ اللهاة ومؤخرة اللسان	ق	لهوي
/٨/ الطبق ومؤخرة اللسان	ك، خ، غ	طبقي
/٩/ الحلق وأصل اللسان	ع، ح	حلقي
/١٠/ الحنجرة - الحبلان الصوتيان	ء، هـ	حنجري

ملاحظات حول تقسيم القدماء وتقسيم المحدثين:

- ◆ يُلاحظ في تقسيم القدماء أنهم يبدءون المخارج من الحلق صعوداً إلى أعلى حتّى الشفتين، بينما يقسم المحدثون المخارج ويبدءونها من الشفتين هبوطاً إلى الحلق والحنجرة.

◆ يقسم القدماء المخارج إلى مخارج عامة هي: الحلق، واللسان والشفتان، والجوف، والخيشوم. ويقسمون هذه المخارج إلى سبعة عشر مخرجاً خاصاً. أمّا المحدثون فعدد المخارج عندهم عشرة.

◆ تلقب الأصوات عند القدماء بعشرة ألقاب، ينسبون بعض هذه الألقاب إلى المخارج العامة فيقولون: حلقيّة، وشفويّة، وجوفية. أمّا اللسان بالذات فلا ينسبون إليه هذه الألقاب، فلا يقولون لسانية، وإنما ينسبونها إلى ما يحاذيه اللسان من المخارج، فيقولون: شجرية، ولهوية. أو ينسبونها إلى بعض مسميات أجزاء اللسان فيقولون: ذلقية وأسلية، على حين أنّ المحدثين ينسبون الصوت إلى المخرج مباشرة، ولكنهم حين يكون اللسان عاملاً في المخرج فإنهم ينسبون الصوت إلى مكان النطق دون إشارة إلى الناطق الذي هو اللسان فيقولون: لثوي، وغاري، ولهوي، وطبقي، وهكذا.

◆ الأصوات اللثوية عند القدماء هي: (الطاء، والذال، والطاء) وفي نسبة أصوات هذه المجموعة إلى اللثة غموض غير قليل، إذ إنّ نطق هذه الأصوات لا دخل للثة فيه، هذا وفقاً لما ينطق اليوم، أمّا وصف القدماء لهذه الأصوات بهذا الوصف، فيؤكد اختلاف هيئة النطق بين العرب القدماء وعرب اليوم، وأغلب الظن أنّ هذه الأصوات تبدأ لثوية، بمعنى أنها تبدأ انفجارية وتنتهي احتكاكية، فكل صوت في هذه المجموعة يخالج صوتاً آخر من غير المجموعة، فالطاء يخالج التاء، والذال يخالج الدال، والطاء يخالج

الضاد الحديثة أو الطاء القديمة، وقد علّل ابن يعيش هذه التسمية بقوله: "... لأن مبدأها من اللّثة"^(١). كذلك جاء في اللّسان: "والحروف اللّثوية الثاء والذال والطاء لأن مبدأها من اللّثة"^(٢).

أمّا الأصوات اللّثوية عند المحدثين فهي: (النون، والراء، واللام) ومخرجها اللّثة وذلق اللّسان. وهم كذلك ينسبون الأصوات التالية: (الصاد، والزاي، والسين، والطاء، والبدال، والتاء، والضاد) إلى اللّثة مضافاً إليها الأسنان، فيقولون عنها: (أسنانية لثوية)^(٣).

ومن المحدثين من ينسب (الصاد، والزاي، والسين) إلى اللّثة فقط^(٤). ومنهم من ينسب الصاد (الطاء، والبدال، والتاء) إلى الأسنان فقط وينسب ما عداها إلى اللّثة^(٥).

◆ يجعل القدماء لصوت الفاء مخرجاً مستقلاً - كما هو موضح في

١/ شرح المفصل: ١٠/١٢٥.

٢/ لسان العرب المحيط: مادة (لثي)، ٣٤٢/٥.

٣/ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، نشر وطبع، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص ٧٩.

٤/ منهم كمال محمد بشر في كتابه: علم اللغة العام (الأصوات): طبع دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، ١٩٧٣م، ص ٨٩؛ يُنظر، أثر القراءات والأصوات في النحو العربي: عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة المديني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٢٤ - ٢٢٥.

٥/ التصريف العربي في ضوء علم الأصوات الحديث: الطيب البكوش، تونس، ١٩٧٣م، ص ٤٣.

الجدول- ولكنهم يضيفونه إلى (الميم، والواو، والباء) في النسبة فهي شفوية أو شفوية. أمّا المحدثون فهم كذلك يجعلون له مخرجاً مستقلاً وهو عندهم شفوي أسناني. بينما يُلاحظ أنّ القدماء أكثر دقة في تحديد مخرجه، إذ يحددون مخرجه ببطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.

الأمر الثاني:

معرفة كيفية الاعتراض للهواء، وما إذا كان الاعتراض تاماً أم ناقصاً، كلياً أم جزئياً، ومعرفة التغيرات التي تحدث أثناء مرور الهواء، وبهذه الكيفية يمكننا أن نحصل على مجموعتين وصفيتين للأصوات كل بحسب طريقة النطق هذه:

المجموعة الأولى:

تحدث نتيجة القفل التام لجرى الهواء لاعتراض عضو أو أكثر من أعضاء النطق للهواء الخارج ثم إطلاقه فجأة، والأصوات التي تنتج عن هذه الكيفية يسميها القدماء: الأصوات الشديدة^(١). والصوت الشديد هو: "الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه"^(٢).

والأصوات الشديدة هي التي يطلق عليها المحدثون عدة اصطلاحات مثل: انفجارية (*Plosive*)، ووقفية (*Stop*)، وانحباسية (*Implosive*)، وغير ذلك. لكننا -على أي حال- نلاحظ كثرة استعمال لفظ:

١/ الكتاب: ٤/٤٣٤.

٢/ سر صناعة الإعراب: ابن جني، تحقيق: هنداوي، طبع دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٥م، ١/٦٤.

(الانفجارية) عند المحدثين في مقابل الشديدة عند القدماء. والأصوات الشديدة عند القدماء هي: (الهمزة، والكاف، والقاف، والجيم، والطاء، والتاء، والذال، والباء)^(١). والملاحظ أن الجيم يعده القدماء شديداً بينما لا يعده المحدثون شديداً.

المجموعة الثانية:

تحدث بطريقة تغاير الأولى، فلا يحدث معها قفل تام للممر الهوائي، وإنما يحدث تضيق للمجرى بحيث يحدث الهواء في مروره احتكاكاً مسموعاً^(٢).

ويسمى القدماء الصوت الذي ينتج بهذه الكيفية (رخواً) ويُعرفونه بأنه: "هو الذي يجري فيه الصوت"^(٣). والأصوات الرخوة عندهم هي: (السين، الزاي، الصاد، الشين، الذال، الثاء، الظاء، الفاء، الهاء، الحاء، الخاء، الغين، الضاد).

والملاحظ أن القدماء يعدون صوت الضاد من الأصوات الرخوة، في حين يعدها المحدثون انفجارية (شديدة). ولقد وجدنا أن وصف القدماء للضاد لا يطابق نطق عرب اليوم لهذا الصوت، وأن الصوت الذي ينطقونه إنما يطابق نطق القدماء لصوت الطاء (الطاء القديم).

ولقد استمع الباحث لأهل الخليج العربي فوجد بعضهم ينطقون الطاء

١ / الكتاب: ٤/٤٣٤.

٢ / الكلام إنتاجه وتحليله: عبد الرحمن أيوب، ص ٢٤٩.

٣ / سر صناعة الإعراب: ١/٦١.

كما لو كانت ضاداً حديثة، فيقولون: (ضريق) يريدون طريق^(١).

والقدماء يصنفون أصواتاً أخرى معتمدين على الطريقة آنفة الذكر، فينتج عن ذلك أصوات ليست بالشديدة ولا بالرخوة، عدوها (متوسطة) بين الشدة والرخوة، وقالوا عنها: إنها شديدة في الأصل. يقول المبرّد: "الحروف التي تعترض بين الرخوة والشديدة هي شديدة في الأصل وإنما يجري النفس معها لاستعانتها بصوت ما جاورها من الرخوة، كالعين التي يستعين المتكلم عند لفظه بها بصوت الحاء"^(٢).

وهذه المجموعة من الأصوات تتكون من أصوات ثمانية هي: (اللام، والميم، والياء، والراء، والواو، والعين، والنون، والألف).

أمّا سيبويه فإنه يقصر هذه الصفة (التوسط) لصوت العين فقط، يقول: "وأما العين فبين الرخوة والشديدة تصل إلى التردد فيها لشبهها بالحاء"^(٣).

الأمر الثالث:

معرفة ما إذا كان الاعتراض مصحوباً بأزيز الأوتار الصوتية أم لا.

١/ استمع الباحث إلى إذاعة الكويت فوجدهم ينطقون الطاء بهذه الكيفية التي تشابه بل تطابق نطق الضاد الحديثة.

٢/ المقتضب: المبرّد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، طبع عالم الكتب، بيروت، ١٩٦/١؛ يُنظر، شرح المفصل: ١٢٩/١٠.

٣/ الكتاب: ٤٣٥/٤.

هذا الأمر الثالث أساس لتقسيم الأصوات عند المحدثين إلى قسمين هما: الأصوات المجهورة، والأصوات المهموسة، فكل صوت مصحوب باهتزاز الأوتار الصوتية الموجودة في الحنجرة يُعد مجهوراً، وكل صوت تكون معه الأوتار الصوتية متباعدة ساحة للهواء بالخروج دون إحداثذبذبة يُعد مهموساً، على الرغم من أن بعض المحدثين لاحظ ذبذبة ضئيلة مع بعض الأصوات التي تُعد عند المحدثين مهموسة مثل صوت الهاء^(١). لذلك اعتبرها مجهورة.

أمّا القدماء في تقسيمهم للأصوات إلى مجهورة ومهموسة فلا يعتمدون على هذا الأساس إطلاقاً، إذن فإن أساسهم في هذا التقسيم يختلف عن أساس المحدثين الذي استقر عليه أمرهم، ويتضح ذلك من خلال تعريف القدماء للجهر والهمس. ولا يود الباحث أن يخوض في تحليل مفردات القدماء ومقارنتها بمفردات المحدثين والتفريق بين الأساسين في التقسيم، فذلك أمر يطول معه الحديث وذلك ما لا يتناسب وهذا التمهيدي.

الأصوات المجهورة عند القدماء (الأصوات العربية) هي^(٢): (الهمزة، الباء، الجيم، الدال، الذال، الراء، الزاي، الضاد، الطاء، الظاء، العين، الغين، القاف، اللام، الميم، النون، الواو، الياء). والأصوات المهموسة ما عداها، وهي عشرة أصوات.

ومن الملاحظات أن القدماء يصنفون الهمزة والقاف والطاء من

١/ من الذين لاحظوا ذلك: الدكتور تمام حسان في كتابه: مناهج البحث في اللغة: طبع

دار الثقافة، المغرب، ص ١٣١.

٢/ يُنظر، سر صناعة الإعراب: ٦٠/١؛ شرح المفصل: ١٢٩/١٠؛ النشر: ٢٠٢/١.

الأصوات المجهورة، وذلك لأن معيار الجهر عندهم هو قوة ضغط الهواء الذي عبر عنه سيوييه بقوله: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه"^(١). وهذا حاصل في الأصوات الثلاثة. أمّا المحدثون فإنهم يعدونها مهموسة لأن أساس التصنيف عندهم هوذبذبة الأوتار الصوتية وعدمها.

ثالثاً- التخصص في الدرس الصوتي عند العرب:

قبل أن نعرض إلى بدايات التخصص في الدرس الصوتي عند العرب لا بد أن نشير إلى ما قبل ذلك، لأن التخصص يسبق بكليات وعموميات. ولَمَّا كان ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم وقراءته وثيقاً، فإن القضايا والأفكار الصوتية لدى العرب إنما تمثلها آراء اللغويين والنحويين من جهة، وآراء القراء وعلماء التجويد من جهة أخرى.

لقد كان الإمام أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩هـ هو أول من أشار -حسب علم الباحث- وألَمَحَ إلى ضرورة الاعتناء بالأصوات، وأول من وضع منهاجاً صوتياً كتابياً يعالج الأخطاء الصوتية، وخاصة أخطاء الخلط بين الصوائت العربية الشيء الذي ينتج عنه اللبس في الدلالة.

وكان على قمة التفكير الصوتي لدى العرب، حامل لواء العربية وعبريها إمام زمانه الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠هـ. وهو عَلم بين عَلمين وإمام بين إمامين. أحدهما هو أستاذه الإمام القارئ اللغوي أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ، والآخر هو تلميذه النجيب وإمام النحو العربي سيوييه المتوفى سنة ١٨٠هـ، فكان الأستاذ لغوياً قارئاً وكان التلميذ نحوياً ضليعاً.

لقد اختطَّ الأستاذ وتلميذه النظام الصوتي العام للغة العربية، فكان للخليل -مؤلف معجم العين- ملاحظات صوتية نفيسة واهتمام بالغ بالأصوات، وليس أدل على اهتمامه بذلك من تسميته للمعجم وجمعه للمادة اللغوية وفق نظام صوتي مُعَيَّن، تبدو فيه عبقريته الفذة.

كانت البحوث الصوتية عامة -بما فيها البحوث الخاصة بالبحث الصوتي القرآني قبل القرن الرابع الهجري- عبارة عن ملاحظات وآراء، لم يفرد لها مؤلفوها تصانيف خاصة بها. ولا نكاد نعثر -فيما نعلم- على كتاب أُلِّفَ في الدراسات الصوتية قبل القرن الرابع الهجري.

لكي نتحدث عن التخصص في الدرس الصوتي عند العرب وبداياته نستصحب -أولاً- إشارات إلى بعض الكتب التي جاءت مشتملة على بعض المسميات في باب الأصوات.

هنالك كتب أُلِّفت تحمل بعض الظواهر الصوتية القرآنية نُسبت إلى جماعة من العلماء، مثل: (ظاهرة الوقف والابتداء) نسب التأليف حولها إلى أبي جعفر الرؤاسي المتوفى سنة ١٨٧هـ، فقد وضع فيها كُتُباً. وكذلك الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ، وأبو عبد الرحمن بن عبد الله اليزيدي تلميذ الفراء، وأبو العباس ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ، وأبو الحسن بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩هـ^(١). هؤلاء جميعاً ألَّفوا حول هذه الظاهرة.

١/ يُنظر، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسنين آل يس،

بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٩٥.

كذلك هنالك كُتُبُ ألفها أصحابها تحت عنوان الحروف أو الأصوات، مثل: كُتُبُ الأصوات المنسوبة إلى قطرب المتوفى سنة ٢٠٦هـ، والأخفش المتوفى سنة ٢١١هـ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣هـ، وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هـ، وابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١هـ. وكل هذه الكتب -تقريباً- مفقودة. غير أن الباحثين لم يتوصلوا حتى الآن -حسب علم الباحث- إلى حقيقة الموضوعات الصوتية التي تناولتها هذه الكتب، وأي نوع من الدراسات الصوتية تناولتها. وربما تكون هذه الكتب عبارة عن مؤلفات لغوية تجمع الألفاظ المتصلة بأصوات الإنسان والحيوان وغير ذلك من الأشياء. وتكون حينئذٍ أقرب إلى كتب البحث في الدلالة وحقولها.

وهنالك كُتُبُ أُلِّفَتْ حول بعض الظواهر الصوتية مثل ظاهرة الإدغام. ومعلوم أن الإدغام ظاهرة صوتية عني بها القدماء والمحدثون، وهو عملية صوتية مكوّنة من عدة مراحل، المرحلة الأولى: التسكين، والمرحلة الثانية: القلب، والمرحلة الثالثة: الإدغام، وقد كان لسيبويه مجهودٌ لا يُضاهى في الحديث عن الإدغام الذي قدّم له بدراسة وافية للأصوات العربية ضمّنها معظم أفكاره الصوتية وشرح من أجله نظام الحروف العربية.

من هذه الكتب الكتاب المنسوب إلى أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ بعنوان (الإدغام)^(١).

وهنالك كُتُبُ أُلِّفَتْ تحمل أسماء بعض الحروف (الأصوات) مثل

١/ يُنظر، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسنين آل يس،

كتاب (الهمز) لأبي زيد المتوفى سنة ٢١٥هـ، وكتاب (الإمات) للأخفش سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١هـ، وكتاب (الألف واللام) لأبي عثمان المازني المتوفى سنة ٢٤٩هـ، وأرجوزة (النظاء والنظاء) المنسوبة إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ^(١).

هذا وعلى الرغم من أن هذه الجهود والدراسات لا تندرج تحت عنوان الدراسات الصوتية الصرفة وإنما تمثل جوانب نحوية ومعجمية ولغوية عامة، إلا أننا نعتبرها بداية الانطلاق نحو التخصص في الدرس الصوتي عند العرب.

هكذا يبدو لنا أن القضايا الصوتية والأفكار ظلت مختلطة بغيرها من الدراسات اللغوية، متناثرة هنا وهناك، ولم تظهر لنا بمظهر الدراسات الصوتية الحديثة. ولم تفرد لها المصنفات والمدونات المستقلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

وبحلول القرن الرابع الهجري بدأ الدرس الصوتي عند العرب يظهر بمظهر التخصص، فألفت المؤلفات المستقلة في الدراسات الصوتية العربية العامة، والدراسات الصوتية الخاصة بأصوات القرآن الكريم. كانت القصيدة الخاقانية أول ما أُلِّف في التجويد (علم أصوات القرآن الكريم).

جاء في كتاب كشف الظنون: "وأول من صنّف في التجويد موسى ابن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني البغدادي المقرئ المتوفى

١/ يُنظر، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: ص ١٩٦.

سنة ٣٢٥هـ - (١).

وقال ابن الجزري: "... وهو أول من صنّف في التجويد فيما أعلم، وقصيدته الرائدة مشهورة، وشرحها الحافظ أبو عمرو....." (٢). هذه القصيدة تُعد الأولى في هذا الفن، ولكنها لا تعدو عن كونها منظومة تعليمية توجيهية، مع أنها تدل على النضج في الدرس الصوتي وبداية توجه نحو التخصص عند علماء العرب المسلمين.

يلي ذلك كتابان يُعدّان -بحق- بداية التحول في الدرس الصوتي العربي، أولهما كتاب: (سر صناعة الإعراب) لأبي الفتح عثمان بن جني، المتوفى سنة ٣٩٢هـ. هذا المؤلف الفريد لهذا العالم الفذ، يُعدّ أول كتاب في علم الأصوات العربي العام. ليس ذلك فحسب، وإنما يُعدّ ابن جني أول من أشار إلى مصطلح (علم الأصوات) وأطلق عليه هذا الاسم.

والكتاب الثاني هو كتاب: (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتحليلها وبيان الحركات التي تلزمها) للإمام والشيخ العلامة أبي محمد مكي ابن أبي طالب القيسي، المتوفى سنة ٤٣٧هـ. وهذا الكتاب الرائع يُعدّ بلا منازع أول كتاب في علم الأصوات العربي القرآني.

١/ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، بغداد، مكتبة المثنى، ٣٥٣/١.

٢/ غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري، عني بنشره ج. برجشتراسر، القاهرة، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، ٣٢٠/٢ وما بعدها.

كان كِلا العالمين والإمامين صاحبي فضلٍ وجهودٍ عظيمة في هذين المؤلفين وسائر تأليفهما، ممّا يدل على أنهما يصدران من مصدر واحد، وتبدو في أعمالهما آثار الخليل وسيبويه. على الرغم من اختلاف الهدف والمنهج بين ابن جنّي ومكي. وهذه الدراسة يجريها الباحث لكشف الجهود الصوتية للثاني منهما وخاصة من خلال كتابه (الرعاية).

ورغم اختلاف منهج الرجلين، فإنهما أول من بذلا جهدهما وجوداً وأفكارهما الصوتية التي استحقت هذا التميّز والانتشار. كان كل منهما الأول ولم يسبق إلى مثل عمله كما أعلنّا في مقدّمتي كتابيهما.

يقول ابن جنّي: "وما علمتُ أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض. ولا أشبعه هذا الإشباع"^(١). ويقول مكي: "وما علمتُ أن أحداً من المتقدمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا إلى جمع مثل ما جمعتُ فيه من صفات الحروف، وألقابها، ومعانيها، ولا إلى ما أتبعته فيه كل حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى، والتنبيه على تجويد لفظه، والتحفُّظ به عند تلاوته"^(٢).

لا يرى الباحث تناقضاً ولا ادعاءً منهما في أولوية الدراسة والسبق في التأليف؛ لأن الهدف والمنهج غير واحد. لذا فكل منهما صادق فيما ذهب إليه، فابن جنّي لم يسبقه أحد من أصحابه ألف كتاباً يخص علم الأصوات العام. ومكي لم يسبقه أحد ممن تقدّم عليه في تصنيف كتاب يعالج قضايا

١/ سر صناعة الإعراب: ٦٣/١.

٢/ الرعاية: ص ٤٢.

الأصوات القرآنية والتجويد.

إنَّ موضوع كتاب سر الصناعة لابن جَنِّي هو الأصوات العربية العامة، وموضوع كتاب الرعاية لمكي هو أصوات القرآن الكريم. رغم أنَّ الكتَّابين يدرسان موضوعاً واحداً، وأنَّ مؤلفيهما عاشا في زمن واحد، وأنَّ مكيّاً قد طاف بالشرق والمغرب طلباً للعلم وعرف أبا علي الفارسي -أستاذ ابن جَنِّي- وألَّفَ منتخب حجة أبي علي الفارسي في ثلاثين جزءاً. رغم كل ذلك، لَمْ يُشِرْ مكي في مؤلفاته -فيما نعلم- إلى سر الصناعة ولا إلى مؤلفه، وخاصة أنه ألَّفَ كتابه الرعاية بعد ثلاثين سنة من بداية تفكيره في تأليفه^(١).

هل يا ترى كان السبب أنَّ الرواة لَمْ يستطيعوا تمكين مَكِّي من الاطلاع على نسخة من سر الصناعة؟^(٢) أم أنه أشار إلى ابن جَنِّي أو إلى مؤلفه في موضع آخر لَمْ يصل إلينا؟.

إنَّ لَمْ يتعارف الرجلان -صاحباً أول كتَّابين في علم الأصوات- فإنَّ الباحث يرى أنه يكفي مكيّاً أنه واحد من اثنين يرجع إليهما الفضل في أولية دراسة وتدوين علم الأصوات. وأنه أول من ألَّفَ كتاباً متخصصاً شاملاً يتصف بالعلمية والمنهجية والدقة في أصوات القرآن الكريم. وكفى به سبباً لأن يختار الباحث جهوده الصوتية ليجري عليها هذه الدراسة.

١/ يُنظر، الرعاية: ص ٥٢.

٢/ يُنظر، أصوات العربية والقرآن الكريم منهج دراستها وتعليمها عند مَكِّي بن أبي طالب: عبد الله ربيع محمود؛ مجلة كلية اللغة العربية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، العدد العاشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٢٣٨.

البَابُ الْأَوَّلُ

مَكِّي بن أَبِي طَالِب

عصره وحياته وعلمه

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

عصره

الفَصْلُ الثَّانِي

حياته

الفَصْلُ الثَّلَاثُ

علمه

الفصل الأول

مصر

المبحث الأول- الحالة السياسية في عصر مكي

المطلب الأول : الحالة السياسية في القيروان.

المطلب الثاني : الحالة السياسية في مصر.

المطلب الثالث : الحالة السياسية في الأندلس.

المبحث الثاني- الحالة الاجتماعية في عصر مكي

المطلب الأول : الحالة الاجتماعية في القيروان.

المطلب الثاني : الحالة الاجتماعية في مصر.

المطلب الثالث : الحالة الاجتماعية في الأندلس.

المبحث الثالث- الحالة العلمية في عصر مكي

المطلب الأول : الحياة العلمية في القيروان.

المطلب الثاني : الحياة العلمية في مصر.

المطلب الثالث : الحياة العلمية في الأندلس.

المبحث الأول

الحالة السياسية في عصر مَكِّي

يتطلب الحديث عن الحالة السياسية في عصر مَكِّي بن أبي طالب الوقوف على الأحوال السياسية في كل من القيروان ومصر والأندلس؛ لأن مَكِّياً ولد ونشأ في القيروان ورحل في طلب العلم إلى الشرق وخاصة مصر ثمَّ رحل إلى الأندلس وقضى فيها بقية حياته. وقد عاش مَكِّي ما بين منتصف القرن الرابع الهجري (٣٥٥هـ) إلى ما يقرب من نهاية العقد الرابع من القرن الخامس الهجري (٤٣٧هـ).

تَمَيَّز القرن الرابع الهجري بالاضطراب السياسي والتمزُّق والانحلال، رجعت بعده الدولة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح فنشأت دويلات صغيرة منفصلة عن الدولة الإسلامية.

وقد كان هذا الانقسام حوالي سنة ٣٢٤هـ الموافق لـ (٩٣٥م)^(١). حتَّى أصبح لكل ناحية ولكل بلد حاكم انفرد بحكمه وآل إليه نفوذه. فصارت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مُضَرَ في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طُنج الأخشيد، والمغرب وإفريقيا في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي،

١/ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: لآدم متر، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، ط ٣٠، طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م، ج ١، ص ١ وما بعدها.

وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني... ولم يبقَ في يد الخليفة إلاَّ بغداد وأعمالها^(١).

ولمَّا كان الحديث عن الأحوال السياسية في عصر مكيِّ مقرونًا بالأماكن الثلاثة آنفة الذكر فإنه من المناسب تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب.

١/ باختصار وتصرف عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: لآدم متز.

المطلب الأول

الحالة السياسية في القيروان

القيروان هي الوطن الذي وُلِدَ ونشأ فيه مَكِّي بن أبي طالب، ولذلك كان مهماً أن نتحدث عن التطورات السياسية في القيروان في القرن الرابع الهجري.

كانت القيروان تخضع -إذ ذاك- لحكم الفاطميين وكان المعز الخليفة الفاطمي الرابع بعد آبائه الثلاثة: المهدي، والقائم، والمنصور. وقد تولَّى المعز الخلافة عام ٣٤١هـ، واستطاع أن يكسب تأييد القبائل البربرية ولاسيما قبيلتي بني كملان وبني مليلة. وقد استعان المعز على مدِّ نفوذه وبسط سيطرته بجوهر الصَّقْلِيّ، وزير بني مناد الصَّنْهَاجِيّ. فكان للمعز ما أراد ودانت بلاد المغرب له حتّى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ثم فكَّر -بعد أن خضعت لسلطانها بلاد المغرب- أن يفتح مصر؛ من أجل ثروتها وهدوء الأحوال فيها وأهمية موقعها الجغرافي، ولأن فتح مصر يسهل للفاطميين الاستيلاء على بقية المراكز الإسلامية؛ مثل المدينة المنورة ودمشق وبغداد. وقد خضعت مصر على يد قائده جوهر الصَّقْلِيّ سنة ٣٥٩هـ. ثم توجه المعز بعد ذلك إلى مصر بعد أن فرغ قائده جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر، واستخلف بلكين بن زيري بن مناد الصَّنْهَاجِيّ على إفريقيا، ونقل المعز الخلافة من المنصورية إلى القاهرة الشيء الذي أفقد الفاطميين إفريقيا فاستقل بلكين الصَّنْهَاجِيّ وأسس الدولة الزيرية سنة ٣٦٢هـ. وتقلَّص ظل الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب في عهد المستنصر الفاطمي^(١).

١/ هو: أبو تميم محمد بن الظاهر، الملقَّب بالمستنصر، كان أطول الخلفاء عهداً، إذ ظل =

وهكذا أصبحت القيروان تحت حكم الدولة الزيرية التي مرت بثلاثة عهود هي:

عهد يوسف بن زيري، ثم عهد المنصور بن يوسف بن زيري (٣٧٣-٣٨٦هـ)، ثم باديس وابنه المعز. وقد نبذ الأخير سنة ٤٣٧هـ — الدعاء للخليفة العبيدي وبايع الخليفة العباسي أبا جعفر القائم بأمر الله، وأجبر سكان إفريقيا على اتباع المذهب المالكي، وتتبع الشيعة وقتلهم^(١).

= في الخلافة ستين سنة؛ يُنظر، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والأندلس (٢٣٢-٤٤٧هـ —): د. حسن إبراهيم حسن، ط٧، ١٩٦٥م، مكتبة النهضة المصرية، ٣/١٥٤.

١/ بتصرف، عن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د. حسن إبراهيم حسن، ج٣، ص ١٥٥ وما بعدها؛ يُنظر، مكِّي بن أبي طالب وتفسير القرآن: د. أحمد حسن فرحات، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٣م، ص ٢٠.

المطلب الثاني

الحالة السياسية في مصر

تمثل مصر مرحلة مهمة في التاريخ السياسي لعصر مكي؛ لأنه رحل إليها طلباً للعلم عدة مرات، وكانت المرة الأولى في سنة ٣٦٨هـ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وكانت مصر إذ ذاك تخضع لحكم الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي تولّى الخلافة بعد وفاة والده المعز سنة ٣٦٥هـ.

يمكن أن نقسم الحالة السياسية في مصر بعد وفاة المعز إلى أربع فترات:

الفترة الأولى - العزيز بالله (٣٦٥-٣٨١هـ):

تمتاز هذه الفترة سياسياً بالتّسع رقعة الدولة وترامي أطرافها من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً. وأصبح الاهتمام في أيام العزيز بتوطيد أركان المذهب الشيعي وبث عقائده، حتّى أصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين. وتمتاز هذه الفترة من الناحية السياسية والاجتماعية بتوفر دواعي اليأس والرّخاء، وازدياد أسباب النماء وبث روح التسامح الديني والثقافي. وقد حوّل العزيز بالله الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف بعد أن كان معهداً خاصاً بدراسة الفقه الشيعي.

الفترة الثانية - الحاكم بأمر الله (٣٨١-٤١١هـ):

خلف العزيز بالله على الحكم مباشرة ابنه الحاكم الذي كان عمره وقتئذٍ إحدى عشرة سنة ونصف، ولأن سنه لا تمكنه من السيطرة التامة على زمام الحكم فقد تولّى أستاذه برجوان الخادم الوصاية عليه. اتّسمت فترة الحاكم بالتذبذب السياسي واضطراب الأحوال إلا في

بعض الأوقات؛ فنجد في بداية حكمه لا يملك من أمور السُّلطة شيئاً، ثم يعقب ذلك تعصُّبٌ بيديه الحاكم يظهر فيه تعصبه الشديد للمذهب الفاطمي، ثم نجد في فترة لاحقة بيدي شيئاً من المرونة ويتحلل من عقدة التعصُّب، ثم يعود الحاكم إلى سياسة العنف والشدة ممَّا كان له الأثر الواضح على شيوع الاضطراب وإثارة الغضب والسخط. وفي عهده ظهرت طائفة الدرزية التي تدعو إلى الاعتقاد بألوهيته الشيء الذي تسبب في هلاكه سنة ٤١١هـ.

الفترة الثالثة - أبو الحسن الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ):

ولي الخلافة بعد الحاكم: ابنه أبو الحسن الظاهر الذي تميز بالسماحة ورجحان العقل ولين العريكة، فكانت الحرية الدينية من سمات عهده.

الفترة الرابعة - المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ):

يعد أبو تميم محمد بن الظاهر الملقب بالمستنصر أطول الخلفاء الفاطميين حُكماً وقد ظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر، وقد امتد في عهده سلطان الفاطميين فشمَل بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقيا، وأصبح اسمه يذاع على منابر الأمصار الإسلامية، ولكن رغم طول عمر خلافته واتساع رقعة حكمه ونفوذه لم تتمتع مصر طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة إلا في فترات قصيرة حدثت بعدها أحداثٌ أدَّت إلى زعزعة الخلافة الفاطمية^(١).

١/ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي "بتصرف".

المطلب الثالث

الحالة السياسية في الأندلس

في الحديث عن الحالة السياسية في الأندلس يلزمنا أن نشير إلى عبد الرحمن الناصر آخر عظماء وأمراء بني أمية في الأندلس؛ لأنه يرجع إليه الفضل -بعد الله تعالى- في توطيد دعائم الحكم في الأندلس في ميادينها السياسية والاجتماعية والثقافية، ولأنه تولى الحكم في الأندلس طيلة النصف الأول من القرن الرابع الهجري الذي يُعدُّ -بحق- أزهى عصور المسلمين بالأندلس "وكانت الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطربة بنيران المتقلبين فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران واستذل أهل العصيان"^(١).

بالإمكان تقسيم الحياة السياسية الأندلسية في هذه الفترة -التي تمم البحث والباحث- إلى الفترات التالية:

الفترة الأولى - فترة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ):

"خلف الحكم أباه عبد الرحمن الذي اهتم بتنشئته بما يؤهله لقيادة البلاد من بعده فوكل تعليمه إلى أحد مشاهير العصر وهو أبو علي القالي ٣٥٦هـ، وأشركه معه في حروبه وفي إدارة الدولة ثم أعلن اختياره والياً للعهد"^(٢).

١/ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: د. أحمد شلبي، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م، طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص ١٠٦؛ نقلاً عن نفح الطيب: للمقري،

ط بولاق، ١٢٦٧هـ-١٨٦٢م، ج ١، ص ١٦٦.

٢/ المصدر السابق: ص ١١٠.

الفترة الثانية - فترة هشام الثاني الملقَّب بالمؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ):

وهو ابن الحَكَم، تولَّى الخلافة بعد وفاة والده وهو ابن عشرة أعوام وكانت أمه تُدعى (صَبَح) وهي امرأة متنفذة تقوّت على توليته الخلافة تحت وصاية الحاجب محمد بن عبد الله ابن أبي عامر الملقَّب بالمنصور.

الفترة الثالثة - فترة الدولة العامرية:

مؤسسها هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر القحطاني، ويرجع بأصله إلى قبيلة معافر القحطانية، وقد امتاز بالذكاء وعلو الهمة والطموح وقد كسب ابن أبي عامر محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبُعد نظره وحسن سياسته، ومن خصاله أنه كان -مع علوّ همته وحِدّة ذكائه- قائداً من الطراز الأول. ألحق بأسبان الشمال الهزائم المتتالية ودمّر مدّهم، وكان يتولّى الغزو بنفسه ولم يُهزم في غزواته أبداً. وفي عام ٣٩٢هـ مات المنصور وهو يُغازي مع جيشه في حرب بلاد مسيحي الشمال، وتولّى بعده ابنه عبد الملك المكنّى بـ(أبو مروان) الملقَّب بـ(المظفر) وكان سائراً سير أبيه في الغزو والسياسة والنيابة عن الخليفة هشام وحجابه "وكانت أيامه أعياداً في الخصب والأمان، وظل في سلطانه سبع سنوات"^(١). ثم خلفه أخوه عبد الرحمن بعد موته ولم يحسن الاستخلاف ولم يتمتع بخصال أبيه أو أخيه وخاصة فيما يتعلق بالإدارة والحكم.

١/ المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي، تحقيق: الأستاذ محمد سعيد

العريان، طبع مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م،

وكان أكثر طمعاً في المناصب حتّى بلغ به الأمر أن يطلب إلى هشام ليعهد إليه بولاية العهد فكان له ما أراد. وهنا حلّت الكارثة وثارَت الثائرة وأسفر الغضب عن نواجذ الانتقام، حيث كبر على المضربين ما فعله العامريون حتّى وصل الأمر إلى خلع هشام عن العرش وتولية رجل من أحفاد الناصر ولقبوه بـ(المهدي بالله) ثم بلغ الأمر ذروته بقتل عبد الرحمن سنة ٣٩٩هـ، وبموته أُسدل الستار على الدولة العامرية وأفل نجم الخلافة الأموية على الحقيقة ولم يعد خلفاء بني أمية إلا دُمى تُحرّكها قوى طامعة.

الفترة الرابعة:

يُمكن أن تُسمّى بفترة الفوضى. لعب أدوارها كل من المضربين وأُسرة بني حمود وبعض الأمويين. وتُعتبر هذه الفترة - حتّى انقضاء الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ - فترة فوضى وهزائم وانحلال وتفكك سياسي.

الفترة الخامسة - فترة ملوك الطوائف ٤٢٢-٤٨٤هـ:

حين تصدّع بنيان الخلافة الشامخ وتوارت أجماد الأمويين عن مسرح الحياة الأندلسية وسادت روحٌ تبعث على الأسى، عندها بدأ قيام الطوائف فأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جَهْوَ بن محمد بن جَهْوَ: إلغاء الخلافة، فأسند الأمر في قرطبة إلى شيخ الجماعة الوزير أبي الحزم بن جَهْوَ في منتصف ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ "فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولّوا من الجماعة أُمِينها فاخترع لهم -لأول وقته- نوعاً من التدبير حملهم عليه فاقترن صلاحهم به وأجاد السياسة

فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدته"^(١). لم يكد ابن جَهْوَر يعلن انتهاء الخلافة حتّى استقل كثير من الأمراء بمدنهم وأصبحت في الأندلس ممالك ودويلات مستقلة كثيرة بلغت عشرين إمارة أو أسرة حاكمة. فكانت مملكة سَرَقُسْطَة في الثغر الأعلى ويحكمها بنو هود، وإمارة قرطبة في وسط الأندلس ويحكمها بنو جَهْوَر، ومملكة طليطلة في الثغر الأوسط ويحكمها بنو ذي النون، ومملكة بَطْلْيُوس في الثغر الأعلى ويحكمها بنو الأفطس، ومملكة إشبيلية في غربي الأندلس ويحكمها بنو عبّاد، ومملكة بَلَنْسِيَة في شرقي الأندلس تداولها عدد من الحكام، ومملكة قرناطة في جنوبي الأندلس ويحكمها بنو زيري. فهذه هي بعض الدويلات التي كانت في هذه الفترة^(٢).

فائدة:

عاصر مكّي في حياته في القيروان حكم الفاطميين منذ صغره، فعاصر المعز ثم عاصر الدولة الزيرية منذ تأسيسها إلى أن رحل من القيروان إلى الأندلس سنة ٣٩٣هـ. أمّا قدومه إلى مصر فقد كان في أيام الفاطميين كذلك، وكان يحكم مصر أثناء قدومه -الأول سنة ٣٦٨هـ، والثاني سنة

١/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنقريني، تحقيق: عبد الحميد العبادي، وعبد الوهاب عزام، القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م، ١/٢/١١٥.

٢/ يُنظر في كل ما سبق، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: حسن إبراهيم حسن، ج ٣؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي؛ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: د. أحمد شلي، ط ٢، ١٩٦٦م؛ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط قرناطة ٩٢-٨٩٧هـ: د. عبد الرحمن على الحجي، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

٣٧٧هـ، والثالث سنة ٣٨٢هـ - العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ) وعاصر كذلك الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) عندما قَدِمَ إلى مصر للمرة الرابعة سنة ٣٩١هـ من مكة. وعندما رحل إلى الأندلس سنة ٣٩٣هـ عاصر من الحكام: هشام الثاني (٣٦٦-٣٩٩هـ)، وعاصر -من حكام الدولة العامرية التي حكمت -ظاهرياً- تحت مظلة الخليفة هشام- الخليفة عبد الملك بن المنصور، ثم من بعده عبد الرحمن بن المنصور ثم عاصر فترة الاضطراب السياسي الممتدة من ٣٩٩-٤٠٧هـ، ثم عاصر فترة ملوك بني حمود الممتدة ٤٠٧-٤٢٢هـ، ثم عاصر فترة ملوك الطوائف مدة خمس عشرة سنة منذ ٤٢٢هـ إلى وفاته سنة ٤٣٧هـ.

لقد كان لبعض حكام الأندلس اتصال بِمَكِّيٍّ منهم: عبد الملك ابن أبي عامر الذين نقله من مسجد النخيلة إلى جامع الزاهرة، ومنهم: محمد بن هشام المهدي -أول الحكام بعد الدولة العامرية- الذي نقله من جامع الزاهرة إلى المسجد الجامع بقرطبة، ومنهم: أبو الحزم بن جَهْوَر حاكم قرطبة الذي قلّده الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بعد وفاة القاضي يونس^(١).

١/ الصلّة: لابن بشكوال، ٦٣٢/٢.

المبحث الثاني الحالة الاجتماعية في عصر مكي

المطلب الأول الحالة الاجتماعية في القيروان

أولاً- طبقات السكان:

كان القيروانيون في هذا العصر ينتمون إلى عنصرين هامين هما: البربر السكان الأصليون من قبائل زناتة وصنهاجة ونفزاوة وهوارة وغيرها من قبائل البربر.

أمّا العنصر الآخر فهم العرب المهاجرون منذ العهود القديمة مع الجيوش العربية الفاتحة ينتسبون إلى قبائل تميم والأزد وتنوخ وقيس وكنانة وفهر وغيرها من القبائل العربية.

أمّا العناصر الأخرى فكانت جاليات صغيرة ولم تكن مهمة مثل جاليتي اليهود والنصارى.

ثانياً- ملامح الحياة الاجتماعية في القيروان:

يمكن اختصار القول حول ملامح الحياة الاجتماعية في القيروان في فترتين: الأولى منهما تتميز بالرخاء واليسر، والثانية منهما تتميز بالشدة والعسر، والفترة الأولى سابقة للثانية في الزمن فكان القرن الرابع الهجري باستثناء آخره نماءً وثروةً ورخاءً، وكان آخره يتسم بشظف العيش وشدة الأحوال.

أ/ الرِّخاء واليُسْر:

يروى ابن عِذارى في كتابه (البيانُ المخرَّب): أخبارَ أهل المغرب وقصصاً تدل على الغنى واليُسْر فيقول: "وفي هذه السنة (يعني سنة ٣٦٦هـ) نادى عامل إفريقيا والقيروان وهو عبد الله بن الكاتب^(١) فاجتمع الناس إليه فأخذ من أعيانهم نحو الستمائة رجل من أغنيائهم وأغرمهم الأموال بالتعيين فاجتمعت له بالقيروان أموال كثيرة... وكان الذي جُبِيَ من القيروان نيفاً على أربعمئة ألف ألف دينار عيناً"^(٢). هذه القصة وأمثالها تدل على الترف والغنى الواسع الذي كان يتمتع به أغنياء القيروان وأعيانها.

ب/ الشدَّة والعُسْر:

١- شدة الأحوال ونزول الأهوال:

لَمْ يدم نعيم أهل القيروان، وأصبح حالهم لا كحالهم في سائر القرن الرابع الهجري وما قبله من عهود الازدهار والنماء الاقتصادي وما كاد هذا القرن أن تنقضي أيامه إلا ونزلت الأهوال وألَّمت الشدائد وضاحت الأحوال بأهل القيروان. قال ابن عِذارى: "وفي سنة ٣٩٥هـ كانت بإفريقيا شدة عظيمة انكشف فيها المستور، وهلك فيها الفقير، وذهب مال الغني،

١/ عبد الله الكاتب عامل إفريقيا والقيروان في عهد أبي الفتوح يوسف بن زيري صاحب إفريقيا، وكان في خلافة مصر العزيز بالله.

٢/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لابن عِذارى المراكشي، تحقيق: ح. س. كولان وليفي بروفسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت.، ١/٢٣٠.

وغلت الأسعار، وعُدِمَت الأقوات، وجُلِّي أهل البادية عن أوطانهم، وخَلَّتْ أكثر المنازل فلم يبقَ لها وارث. ومع هذه الشدَّة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج فلا ترى منصرفاً إلا في علاج أو عيادة مريض أو أخذاً في جهاز ميّت، أو تشييع جنازة، أو انصرافٍ من دفن. وكان الضعفاء يُجمعون إلى باب سالم فتُحفر لهم أحادييد ويُدفنون المائة والأكثر في أحدود واحد... وخلت المساجد بمدينة القيروان وتعطلت الأفران والحمامات وكان الناس يوقدون أبواب بيوتهم وخُشِبَ سقوفهم^(١).

٢- شدة الحُكام وعنفهم:

عاش أهل المغرب عامة وأهل القيروان خاصة أياماً مليئةً بألوان العذاب وأنواع الأهوال، واكتَوَوْا بنيران الحُكام وذُلُّوا ببطشهم وضعفوا بظلمهم وكان ذلك سِمة من سِمات الحُكام آنذاك. يروي ابن عِذارى أنَّ المنصور لَمَّا قتل عبد الله الكاتب عامله على إفريقية لو شاية الحساد "دار العسكر على الناس فانتهبوهم وسلبوهم وقطعوا الطرق فأخذوا كل من وجدوا من المسافرين وغيرهم ومالوا إلى وادي القصارين وإلى باب تونس -أحد أبواب القيروان- فنهبوا ما كان عند القصارين، فذهبت في ذاك اليوم أموال المسلمين وقتل خلق مِمَّن دافع عن نفسه وماله"^(٢).

١/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢٥٦/١.

٢/ المصدر السابق: ٢٤٣/١.

وحتَّى المدن والمعالم الحضارية لَمْ تنجُ إذ ذاك من جَوْرِ الحكام
وبطشهم وتخريبهم؛ من ذلك ما فعله أبو الفتوح يوسف بن
زيري -صاحب إفريقية من قَبْل العزيز بالله- حينما دخل بلاد
المغرب فهدم مدينة البصرة ومَحَا رسمها بعد ما كانت شاهدة
على الزمان ونهب أموالها فأصبحت خراباً ودماراً كأن لَمْ تغنَ
بالأمس، فلم تكن بصرّة بالمغرب إلى الآن^(١).

١/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢٣١/١-٢٣٢.

المطلب الثاني الحالة الاجتماعية في مصر

أولاً- طبقات الشعب:

يتكون المجتمع المصري في زمن الفاطميين من عدة عناصر وطبقات متباينة في الأجناس والقيَم والتقاليد؛ الأمر الذي أدَّى إلى اختلال في ميزان الأمن في بعض الفترات وشيوع روح التنافر والعداء بين طبقات المجتمع المصري آنذاك، وتتكون هذه الطبقات من:

١ / السواد الأعظم من الشعب المصري:

ويتكون من أهل السُّنَّة وهم الأغلب، والشيعية الذين ناصرُوا الفاطميين ونشروا مذهبهم الشيعي في المساجد ودُور العلم، وَلَمْ يَدَّخِر الفاطميون وسعاً في تقديم الهبات والعطايا للسُّنَّيين الذين تحول عدد كبير منهم إلى شيعيين لينالوا تلك العطايا^(١).

٢ / طبقة المغاربة:

وهم أهل المغرب الذين هاجروا إلى مصر إبان الغزو الفاطمي، وهم الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية في المغرب وفي مصر، وكانوا في مصر عصب الدولة الفاطمية، وكثيراً ما يلجأون إلى العنف ضد المخالفين من المواطنين^(٢).

٣ / طبقة أهل الذمة:

وأهل الذمة هم أهل العهد وهم النصارى واليهود، وقد عاملهم

١ / يُنظر، تاريخ الإسلام: ٤٣٤/٣.

٢ / يُنظر، المصدر السابق: ٤٣٥/٣.

الفاطميون بعطفٍ شديد^(١).

٤ / طبقة الأتراك:

"الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية، فقد استعان أحمد بن طولون -وكان تركياً من بلاد ما وراء النهر- بعدد كبير من هؤلاء الأتراك، وظهر أمر الأتراك في مصر في عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار في محاباة المغاربة"^(٢) مما أدى إلى التطاحن والاعتراك بين الأتراك والمغاربة.

٥ / طبقة السودانين:

ظهر أمر السودانين في أيام الخليفة الحاكم الذي ناصروه في حربه مع الأتراك حتّى وصل بهم الأمر أن أحرقوا العاصمة القاهرة كيداً وحنقاً على المصريين؛ لأنهم لم يرضوا عن سياسة الحاكم^(٣).

ثانياً- أهم ملامح الحياة الاجتماعية في مصر:

١ / الترف:

يغلب على الجو العام في مصر -مدة الفاطميين- الترف واللهو وانتشار الغناء والموسيقى وسائر أنواع الطرب. ولمّا كانت مصر جزءاً من منظومة الدولة العباسية المترامية الأطراف فإنها تأثرت بمؤثرات الحياة العباسية الاجتماعية في بغداد وأعمالها

١ / تاريخ الإسلام: ٤٣٥/٣.

٢ / المصدر السابق: ٤٣٥/٣.

٣ / المصدر السابق: ٤٣٥/٣، ويُنظر، مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن: ص ٢٨؛ نقلاً عن تاريخ الدولة الفاطمية: ص ٦٢١-٦٢٦.

"وكان العباسيون في العراق والطولونيون والفاطيون في مصر والأمويون في الأندلس ينفقون في سبيل رفايتهم عن سعة ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور"^(١).
وقد ذكر المقرئ أن خمارويه بن أحمد بن طولون بنى بيتاً من الذهب وعلّق على جدرانها التماثيل التي تمثله وتمثل المغنيات والنساء اللائي جعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص وأصناف الجواهر^(٢)، ممّا يدل على بلوغ الحياة الاجتماعية المصرية آنذاك حد الترف والبذخ.

٢ / الرّخاء والسّعة:

كان الرّخاء الاقتصادي والثروة أهم مسببات نمو مظاهر الترف وانتشار ضجيج اللهو وذيع ظاهرة الموسيقى والغناء لذلك فإن المجتمع المصري تمتع بنعم وافرة جلبت للشعب كل أسباب الرّخاء الاقتصادي والنعيم الكثير وقد عرض المقرئ في الخطط^(٣) لجانب من هذه الظواهر التي تعد أمثلة تبين ما يكتنف المجتمع المصري آنذاك من رخاء ويُسّر. وممّا يدل على ذلك أن الخلفاء الفاطميين أنشأوا كثيراً من المنشآت والمباني التي تدل على وفرة ثروة مصر كالقصر الغربي الذي بناه

١ / تاريخ الإسلام: ٤٣٨/٣.

٢ / يُنظر، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية: أحمد بن علي المقرئ، وضع حواشيه: خليل المنصور، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١٢٥/٢.

٣ / يُنظر، الخطط المقرئية: للمقرئ، ١٢٦/٢.

العزیز بالله، وكان العزیز رجلاً یحب الجمال والأهبة وكان خبیراً
بالنفائس والجواهر "ابتدع نوعاً جدیداً من العمائم محلاة بخیوط
الذهب وسروجاً معطرة بالعنبر واقتنى كثيراً من الطرف یزین بها
موائده وشغف - کنمارویه بن أحمد بن طولون- بجوارح الطیر
الغریبة وكان مغرمًا بالصید"^(١).

لَمْ تفقد مصر الأمن والطمأنينة وَلَمْ یزل عنها الرِّخاء والیُسْر إلا
فی عهد المستنصر^(٢) حین حدثت أحداث اقتصادية واجتماعیة
زعزعت مرکز الخلافة الفاطمیة وأدَّت إلى زوال الیُسْر والرِّخاء
وضمور مظاهر البذخ.

١/ یُنظر، تاریخ الإسلام: ١٥٢/٣؛ ویُنظر وفيات الأعیان: لابن خلیکان، تحقیق یوسف

علی طویل، ومريم قاسم طویل، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٨م،

نشر دار الکتب العلمیة، بیروت، ١٥٢/٢.

٢/ المصدر السابق: ١٥٤/٣.

المطلب الثالث

الحالة الاجتماعية في الأندلس

أولاً- طبقات الشعب:

كان للانحلال السياسي الذي أُصيبت به الأندلس في القرن الخامس الهجري بعد سقوط الخلافة الأموية أثر بالغ في التصدع الاجتماعي وانحلال عناصر بناء المجتمع الأندلسي والقرطبي التي ظلت متماسكة إبان عهد الخلافة الأموية^(١) فأصبحت هنالك مجموعات وعناصر يتكون منها المجتمع الأندلسي آنذاك، وأهم هذه العناصر:

١ / الأندلسيون:

هم مجموعة العناصر المكوّنة للعرب الأصلاء والعرب المسالمة والمولدين، وقد كان المهاجرون العرب ينتمون إلى القبائل الجنوبية -وهم اليمانيون- والقبائل الشمالية -وهم المضربون- وتفرقوا في الأندلس واختلطوا بالسكان الأصليين من الآيبيريين وتزاوجوا معهم "بل إن كثيراً من خلفاء الأندلس كان يجري في عروقه الدم الأيبيري من جهة الأمهات والجدات"^(٢). وقد ذكر الإمام ابن حزم^(٣) في كتابه (جمهرة أنساب العرب) عدداً من الأندلسيين الذين حافظوا على أنسابهم العربية

١/ يُنظر، التشييع في الأندلس: د. محمود مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٤م، المجلد الثاني، العدد ٢/١، ص ١٢٦.

٢/ قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري: د. محمد عبد الوهاب خلاف، نشر الدار التونسية، إبريل ١٩٨٤م، ص ٢٣٥.

٣/ المصدر السابق: نقلاً عن جمهرة أنساب العرب: ص ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٥٤، ٤١٨.

منهم: عكَّ بن عدنان، وغامق بن الشاهد بن علقمة،
وبنو عمرو بن عوف، وبنو ربيع بن محمد بن ربيع، وقوم من ولد
عبادة بن الصامت عند باب العطارين، وبنو هارون، وبنو خولان،
وكانوا يقطنون قرطبة في مواقع متفرقة.

٢ / البربر:

لقد أدى البربر دوراً كبيراً في مضمار الحياة الاجتماعية الأندلسية،
وهم من أسبق العناصر التي دخلت الأندلس وتحملوا كثيراً من أعباء
الفتح بعد بلاتهم البلاء الحسن مع طارق بن زياد. ولكنهم كانوا دائماً
يشعرون بأن العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم لذلك ثارت ثائرتهم عدة
مرات "وأصبحوا سبباً فيما تعرضت له قرطبة من ويلات وفتن
استمرت حوالي ربع قرن (٣٩٩-٤٢٢هـ) خلال ما يُسمى بالفتنة
البربرية"^(١).

٣ / الصقالبة:

كان الصقالبة يجلبون من شرق أوربا فينقلون عبر بلاد أوربا غرباً
باختراق ألمانيا وفرنسا إلى الأندلس، وكان الصقالبة يسمون بالعبيد
البيض، وكانوا يُقدَّمون على التُّرك حتَّى قال الخوارزمي: "ويستخدم
التُّرك عند غيبة الصقلي"^(٢). ولقد قربهم عبد الرحمن الناصر إليه
فاستخدموا في الحرس والحاشية فأخذ عددهم يزداد حتَّى بلغ حين

١ / قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري: د. محمد عبد
الوهاب، ص ٢٣٩.

٢ / الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ١/ ٢٨٠.

وفاة عبد الرحمن الناصر خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف من الفتيان (٣٧٥٠) ومن النساء خمسين وسبعمائة وستة آلاف (٦٧٥٠)^(١).

٤ / أهل الذمة:

عاشت الجاليات اليهودية والنصرانية في ظل الحكومة الإسلامية متمتعة بسائر حقوقها. وَلَمْ يكن لانهيار الخلافة الأموية أثر سيء على هذه الجاليات "وقد أُسند إلى اليهود كثير من مناصب الدولة وأصبحت بعض الحِرَف - وخاصة الطب - مقصورة عليهم وغَدُوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والثقافة"^(٢).

ثانياً- الأخلاق العامة في المجتمع الأندلسي:

كان الترف والغناء في الأندلس من العوامل التي أدت إلى انتشار اللهو والغناء والموسيقى، كما كان لزيادة العمران وتدفق الثروة في الشَّرق أثرها في شيوع الغناء وتفاعل شرائح من المجتمع العباسي مع العزف والغناء.

لقد كان انتشار اللهو والغناء والطرب في الشَّرق وفي الأندلس من آثار انهيار الخلافة الإسلامية وتفككها إلى دويلات صغيرة لكن الأندلس -على أية حال- عرفت مجالس الغناء والطرب منذ وقت مبكر. ومن ملامح الحياة الاجتماعية في الأندلس التفرغ في الطعام والشراب، وقد كان لزرياب فضل في ابتداع ألوان من الطعام واختيار الأواني والأكواب وتفضيل بعضها على بعض،

١ / قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري: ص ٢٥١.

٢ / تاريخ الإسلام: د. حسن إبراهيم حسن، ص ٤٣٧.

حتَّى إِنَّ الأمراء والخلفاء استحسنوا وفضَّلوا اختيارات زرياب من آداب المائدة.

وقد كان لهذا الرجل أيضاً تفنن قلَّده فيه الناس وهو ابتداع الأزياء، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة لفصول السنة، فشاعت العديد من الأسماء للملابس مثل المحاشي المروية والثياب المصمتة وجباب الخز والملحم والمحزر^(١).

١/ بتصرف عن تاريخ الإسلام: ٤٥٠/٣؛ يُنظر، نفح الطيب: للمقري، ط بولاق،

١٣٦٧هـ-١٨٦٢م، ٧٥٢/٢.

المبحث الثالث

الحالة العلمية في عصر مكي

رغم أنّ الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قد عادت ما كانت عليه قبل الفتوحات وأصابتها التفكك السياسي ومن ثم استقلّت الدويلات هنا وهناك عن الخلافة العباسية كالسامانية والبويهية والحمدانية والقزنوية والسلجوقية، رغم ذلك كانت الحياة الثقافية والعلمية قد بلغت مرآقي بفضل التنافس، فنشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وأصبح للعلم أهل، وللفكر رواد، وكان لتلك الدويلات أثر محمود في تقدم الحضارة الإسلامية وتشجيع العلوم والآداب على الرغم من أنها كانت عوامل ضعف سياسي. "لقد انتشرت الثقافة الإسلامية انتشاراً يدعو إلى الإعجاب بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية، والفارسية، والهندية إلى العربية، وبفضل نضج ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء لرجال العلم والأدب. وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها"^(١).

وهذه بعض ملامح النهضة العلمية في هذا العصر في القيروان ومصر والأندلس.

١/ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب: د. حسن إبراهيم حسن، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص ٤٢١.

المطلب الأول

الحياة العلمية في القيروان

بعد أن اضطرب الأمر لبني العباس استبدَّ بنو الأغلب^(١) بِمُلْك إفريقية و كان يحكم القيروان قبلهم الأمويون والعبَّاسيون، ثم أعقبهم على ملكه

بنو عبيد^(٢) وبعدهم زيري بن مناد الصنهاجي وبنوه. وكان جميع هؤلاء الحكام أصحاب فضل في بناء صرح الثقافة القيروانية ونشر ألويتها.

كانت القيروان - منذ الفتح إلى أن خرَّبتها الأعراب - دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم. وقد ألَّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكَّر علمائه ومَن كان به من العلماء والزُّهاد والفضلاء الكثير من الكتب^(٣).

كانت القيروان تضاهي بغداد في المشرق والقاهرة في مصر وقرطبة في الأندلس، وقد اشتهرت بالنوادر من الكتب والمخطوطات وشيَّدت لأجل الكتب: المكتبات، فقد أسَّس الأمراء الأغالبة مكتبة عمومية بالجامع الأعظم، ثم قلَّدهم الناس.

يقول عبد الواحد المراكشي في خبر مدينة فاس: "اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة. إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان

١/ هم: بنو أغلب بن محمد بن إبراهيم بن أغلب، التميميون.

٢/ هم: الفاطميون.

٣/ يُنظر، المعجب في تلخيص أخبار المغرب: للمراكشي، ص ٤٤٠-٤٤١.

حاضرة المغرب" (١).

لَمْ يلبث الحال في القيروان على ما كان عليه من سيادة روح العلم وازدهار مظاهر الثقافة، فسرعان ما استولى عليها الخراب، فتفرّق أهلها في كل مصر. وكان ممّن هاجر من القيروان طوائف عظيمة استقرت بأقصى المغرب في مدينة فاس، وفيها جامع يُنسب إلى أهل القيروان يُسمّى بجامع القرويين على غير قاعدة النسب (٢).

وُلِدَ مَكِّي ونشأ وترعرع في هذه البيئة ينهل من معين علمها الزاخر، وتفتتح عيناه على كمّ هائل من الإرث الثقافي، وينساب في هدوء -لا يخلو من زخات الأحداث- مع الحركة الفكرية القيروانية فكان في سِنِيّ عمره الباكرة قد تزوّد من القيروان بقدر طيّب من المعرفة كان أساساً متيناً ليبيّن عليه صرحاً من علمٍ غزير وكان سبباً في تأهيله لطلب المزيد من العلم عبر رحلاته وأسفاره.

١/ المصدر السابق: ص ٤٤٣.

٢/ يُنظر، المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ص ٤٤١.

المطلب الثاني

الحياة العلمية في مصر

قررنا فيما سبق أن مصر حين قدم إليها مكّي كانت تحت حكم الدولة الفاطمية. وكانت مصر منذ قديم الزمان منارة من منارات العلم على وجه هذه الأرض، وقد ورث أهلها ثقافات عديدة متواترة منذ أمدٍ سحيق. وكانت قبلة لطلاب العلم من كل حذبٍ وصوب. وتُعتبر من أهم البلاد التي فتحتها الإسلام. وقد فاض فيها العلم وتدفقت الثقافة على امتداد فسيح، وكان للفكر والفن والأدب مجال واسع، لا غرو فإن مصر بوابة مُطلّة على حضارات وثقافات قديمة وحديثة، وعرفت لغات عديدة منها ما هو سامي كالعربية الشمالية والجنوبية، وكالأكدية، والكنعانية بأفرعها، والآرامية بلهجاتها. ومنها ما هو أوربي كالإيونانية، واللاتينية، والإغريقية، وغيرها.

كانت القاهرة والفسطاط في عهد الفاطميين من أهم مراكز الثقافة. وهناك روافد للثقافة في مصر في زمن الفاطميين أهمها المساجد، فكان مسجد عمرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر من أهم مراكز الثقافة في مصر "ولاسيما بعد أن حوّل يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨هـ إلى جامعة تُدرّس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية"^(١).

كذلك من روافد الثقافة والحركة العلمية قصور الفاطميين التي كانت مراكز لنشر الثقافة الشيعية^(٢). ومن روافد الثقافة في مصر إبان الحكم

١/ تاريخ الدولة الفاطمية: حسن إبراهيم حسن، ص ٤٢٤.

٢/ المصدر السابق: ص ٤٢٤.

الفاطمي: المكتبات، وقد كانت للمكتبات دور كما للمساجد في بث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الناس.

وكان الخلفاء يبذلون جهوداً كثيفة لتوفير الكتب وزيادة أعدادها وإنشاء المكتبات.

فقد أسّس الحاكم الفاطمي سنة (٣٩٥هـ) دار الحكمة وألحق بها عدداً من أساتذة العلوم النقلية والعلوم الطبيعية، وقد كانت هذه المكتبة تعج بأنواع الكتب وتزخر بألوان الورق والحبر، وكان الأساتذة يعقدون فيها المناظرات^(١).

لا شك أنّ مكياً انتفع كثيراً بما وجدته في مصر من علوم، ولا شك أنه استفاد من مناهج علماء مصر في كتبهم ومناظراتهم وكون لنفسه منهجاً في تأليفه وتدريسه ونقده.

١/ يُنظر، تاريخ الدولة الفاطمية: ص ٤٢٨.

المطلب الثالث

الحياة العلمية في الأندلس

دخل مكي الأندلس عام ٣٩٣هـ^(١)، وكانت قرطبة إذ ذاك سوقاً نافقة للعلم. وقد أدرك - حين قدومه للأندلس - آخر أيام عهد الخلافة، الذي كان يتسم بالقوة والرّخاء والاستقرار.

وقد كانت قرطبة من أطيب البقاع وأجملها، وكانت دُرّة في جبين الحضارة تزهو بالشوارع المرصوفة وتتمايل حدائقها مزهرة يفوح شذاها طيباً، وجُلبت إليها المياه من المناطق المختلفة، وفي أنابيب الرصاص المحفوظة داخل قنوات حجرية متقنة^(٢).

كانت بيئة قرطبة بيئة علمية وأدبية وفنية بكل المقاييس.

وكان الأمراء أكثر مَنْ يُشجعون على العلم والثقافة؛ وذلك بالعبارة بالمؤلفات والكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة.

وقد كان الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) شغوفاً بالعلم مُحِبّاً لأهله مولعاً بجمع الكتب وكانت مكتبته تضم حوالي أربعمئة ألف مجلد من الكتب النفيسة من البلدان المختلفة^(٣).

أمّا المكتبات العامة في الأندلس فقد "تحددت حوالي سبعين مكتبة في

١/ يُنظر، ص ٥٠، ٥١ من هذا البحث.

٢/ يُنظر، أندلسيات: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م، ١٦١/٢.

٣/ نفح الطيب: ١٨٦/١-١٨٧.

البيت لأي أحد، وغدت الاهتمام العام والهوية المفضلة ضرورة لازمة تبارى بها الناس وتباهوا"^(١).

لقد كان في عهد الحكم شبكة مُحكمة من الباحثين والسماصرة الناسخين "وقد انتشروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي سعيًا وراء المؤلفات، وكان في قرطبة نفسها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين يعملون على إنماء مكتبة الحكم وتحميلها"^(٢).

فكان الحكم مهتمًا بجلب المعلومة العلمية، واحتواء البذرة الثقافية، ونقل الحكمة الفكرية.

ولمَّا حل القرن الخامس الهجري كان ملوك الطوائف يمتلكون زمام الأمر في الأندلس (٤٢٢-٤٨٤هـ)، وأصبح التفكك السياسي والاجتماعي من أبرز سمات هذا العصر، وعلى الرغم من ذلك يُعتبر ملوك الطوائف من حماة العلوم والآداب، ويتبارون في اجتذاب العلماء والأدباء لمجالسهم.

كان السبب في علو الحركة العلمية ووفرة إنتاجها رغم سوء الأحوال السياسية والاجتماعية أنَّ المستوى العلمي السابق للقرن الرابع الهجري امتد بآثره إلى عصر الطوائف، وكذلك الجو الفكري الذي كان سائدًا والروح العلمية الفاشية من العسير جدًا أن تبدأ في الزوال بعد تمكُّن ورسوخ. ولأن السياسة أمرها القلب وصفتها الزوال وهي دائماً عُرضة للهتك والتفكك

١/ دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م،

٥٠٤/٢.

٢/ تاريخ الإسلام: ٣/ ٣٤٦.

لأنها تزول بزوال الشخصوص والذوات، أمّا الفكر فقائم لا يزول بزوال أصحابه.

عاش مكيّ بقية حياته في الأندلس وقد نضج عوده ورسخ علمه وذاع صيته وانتفع الناس به.

وكانت العلوم منها ما يتصل بالقرآن الكريم، ومنها ما أخذه العرب من غيرهم من الأمم، فأطلقوا على الأولى: العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية^(١).

وقد اشتهر كلا النوعين من العلوم في عصر مكيّ، أمّا العلوم النقلية التي انتشرت فهي:

علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم اللغة، وعلم البيان، وعلم الأدب.

والعلوم العقلية التي انتشرت هي:

علم الفلسفة، وعلم الهندسة، وعلم الفلك والنجوم، وعلم الطب، وعلم الرياضيات، وعلم الكيمياء، وعلم التاريخ، وعلم الجغرافيا.

كان مكيّ ذا معرفة واسعة بالعديد من العلوم، أهمها العلوم القرآنية وعلوم اللغة العربية، وسوف نقف على معرفته بالعلوم في الفصل الثالث.

١/ تاريخ الإسلام: ٣/ ٣٤٦.

الفصل الثاني

حياته

المبحث الأول- اسمه ونسبه وألقابه

المبحث الثاني- ولادته ونشأته

المبحث الثالث- رحلاته

المبحث الرابع- شيوخه وتلاميذه ومعاصروه

المبحث الخامس- عقيدته

المبحث السادس- أخلاقه وصفاته

المبحث السابع- وفاته

المبحث الأول

اسمه ونسبه وألقابه

هو الإمام^(١) العلامة^(٢) أبو محمد مكي بن أبي طالب (حموش)^(٣) ابن محمد بن مختار القيسي المغربي^(٤) القيرواني الأصل^(٥) القرطبي مسكنًا^(٦) المقرئ^(٧)

١/ طبقات القراء: للإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق: د. أحمد خان، طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ—١٩٩٧م، ج ٢، ص ٦٠.

٢/ سير أعلام النبلاء: للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، نشر وطبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ—١٩٩٠م، ١٧/٥٩١.

٣/ حموش: هو اسم والده أبي طالب، وهذا اللفظ يُقال في بلاد المغرب لمن اسمه محمد تحبُّبًا؛ يُنظر، سير أعلام النبلاء: ١٧/٥٩١.

٤/ طبقات القراء للذهبي: ٢/٦٠٠.

٥/ معجم الأدباء لياقوت الحموي، بمراجعة وزارة المعارف العمومية (المصرية)، طبع مطبعة دار المأمون، مصر، ١٣٥٧هـ—١٩٣٨م، ١٩/١٦٧.

٦/ المصدر السابق: ١٩/١٦٧.

٧/ الصلّة: لابن بشكوال، ٢/٦٣١؛ ويُنظر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس:

الحميدي أبي عبد الله محمد، طبع مطابع سجل العرب، القاهرة، الدار المصرية،

١٦٦٦م، ص ٣٥١؛ وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك:

للقاضي عياض، تحقيق: د. أحمد بكير محمود، طبع مطبعة فؤاد، لبنان، نشر مكتبة

الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ٣/٧٣٧؛ وطبقات القراء: ٢/٦٠٠؛

وإنباه الرواة على أنباه النُّحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطبي،

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار الكتب، القاهرة، ١٣٧٤هـ—١٩٥٥م،

٣/٣١٣؛ وسير أعلام النبلاء: للذهبي، ١٧/٥٩١؛ وبغية الوعاة في طبقات اللغويين

والنُّحاة: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع مطبعة=

النَّحْوِيُّ^(١) اللُّغَوِيُّ^(٢) الأديب^(٣) صاحبُ الإعراب^(٤) وصاحبُ التَّصَانِيفِ^(٥)

=عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ٢/٢٩٨؛ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بُردِي، نسخة مُصَوَّرة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت.، ٥/٤١؛ وشذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، طبع ونشر المكتب التجاري، بيروت، ٣/٢٦٠؛ ومعجم الأدباء: لياقوت، ١٩/١٦٧؛ وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنِّفين: لإسماعيل باشا البغدادي، طبع استانبول، ١٩٥٥م، نشر مكتبة المثنى، بغداد، ٢/٤٧.

١/ بُغِيَّةُ الوَعَاةِ فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ وَالنَّحَاةِ: للسيوطي، ٢/٢٩٨؛ ومعجم الأدباء: لياقوت، ١٩/١٦٧؛ أمَّا أبو البركات كمال الدين بن الأنباري فقد أخبر بأنه كان نحوياً، يُنظر، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، مكتبة المنار، الأردن، ص ٢٥٤؛ وأخبر الضبي كذلك أنه كان نحوياً، يُنظر، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس: لأحمد يحيى بن أحمد، طبع مطابع سجل العرب، نشر دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، ص ٤٦٩.

٢/ معجم الأدباء: لياقوت، ١٩/١٦٧.

٣/ هدية العارفين: للبغدادي، ٢/٤٧؛ وأخبر ياقوت بأنه كان أديباً، يُنظر، معجم الأدباء: ١٩/١٦٧؛ وأخبر الضبي كذلك بأنه كان أديباً، يُنظر، بغية الملتبس: ص ٤٦٩؛ وأخبر بذلك أيضاً القاضي عياض فقال: "كان أديباً متفناً" يُنظر، ترتيب المدارك: ٣/٧٣٧.

٤/ بُغِيَّةُ الوَعَاةِ: ٢/٢٩٨؛ وأظنه يُريد: صاحب كتاب (تفسير مشكل إعراب القرآن) وهو أكثر كتب مكِّي نسخاً، وقد ورد باسم: (إعراب القرآن) في كثير من الكتب مثل: معجم الأدباء: ١٩/١٦٧، وترتيب المدارك: ٣/٣٣٧، وباسم: (إعراب مشكل القرآن) في كتاب نزهة الألباء: ص ٢٥٤.

٥/ طبقات القراء: ٢/٦٠٠؛ وسير أعلام النبلاء: ١٧/٥٩١؛ وأشارت العديد من=

وشيخ^(١) الأندلس في زمانه، وعالمها^(٢) ومقرئها^(٣) وخطيبها^(٤).

اتفقت مصادر ترجمة مكّي المتعددة، المشرقية و المغربية على أنه:
أبو محمد مكّي بن أبي طالب (حموش). ويجعل الحميدي في كتابه (جذوة
المقتبس): (حموشاً) جداً له. ونصّه:

"مكّي بن محمد بن حموش المقرئ أبو طالب. كذا أملى عليّ نسبه
بعضُ الشيوخ من حفظه ولا أثقُ بضبطه"^(٥).

وتابعه في ذلك الضبيّ في كتابه (بخية الملتبس) حيث قال: "مكّي ابن
محمد بن حموش أبو طالب"^(٦).

يشك الحميدي في النسب الذي أملاه عليه بعضُ الشيوخ؛ لأنه - كما
ذكر - لا يثق بضبطه. والنسب الذي ذكره وتابعه فيه الضبيّ، توجد فيه
مخالفتان لما ذكر غيرهما:

=المراجع إلى كثرة تصانيفه، وقد خصّص القفطي في كتابه إنباه الرواة ثلثاً
لتصانيفه.

١/ النجوم الزاهرة: لابن تغري بُردى، ٤١/٥؛ ويُنظر، العبر في خبر من غبر: للذهبي،
تحقيق: محمد السعيد، طبع دار الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م،
٢٧٣/٢.

٢/ العبر في خبر من غبر: ٢٧٣/٢.

٣/ المصدر السابق: ٢٧٣/٢.

٤/ المصدر السابق: ٢٧٣/٢.

٥/ يُنظر، ص ٣٥١ من كتابه.

٦/ يُنظر، ص ٤٦٩ من كتابه.

أولاهما : أنهما ذكرا أن أباه محمد وجدّه حموش.

ثانيتها : أنهما ذكرا أن كنيته أبو طالب، مع أن كنيته الشهيرة: أبو محمد.

يكاد يُجمع المترجمون لِمَكِّي على وصفه بالمقرئ؛ ممّا يدل على أنه كان إماماً في ذلك مشهوراً "وكان من أهل التبحر في علوم القرآن"^(١). وقد وقف الباحث على أحد عشر كتاباً، وصفه فيه مؤلفوها بالمقرئ^(٢).

١/ الصلّة: لابن بشكوال، ٦٣١/٢.

٢/ يُنظر، ص ١ من البحث.

المبحث الثاني ولادته ونشأته

وُلِدَ مَكِّي بِالْقَيْرَوَانِ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ يَوْمٍ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ مِنْهُ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ، عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَوْ قَبْلَ طُلُوعِهَا بِقَلِيلٍ^(١).

نَشَأَ مَكِّي فِي عَهْدٍ اضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُ السِّيَاسِيَّةُ وَتَفَرَّقَتْ بِأَهْلِهِ مَذَاهِبٌ وَاعْتَكَرَتْ أَيَّامُهُ وَلِيَالِيهِ، وَعَاشَ أَهْلُهُ نَوْعاً مِنَ التَّيِّهِ وَالْأَسَى وَالْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ؛ نَتِيجَةً لاختلال الميزان وجور السلطان.

وَلَكِنْ رَغْمَ تَضَعُّعِ الْأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ ظَلَّ السِّيَاحَ الْوَاقِي مِنَ الْوَقُوعِ فِي بَرَاثِنِ الْفِتْنَةِ، وَظَلَّ سَرَاجاً يُنِيرُ الطَّرِيقَ وَيَمْخُرُ عِبَابَ مَوْجِ الظَّلَامِ.

وَكَانَ مَكِّي مِنَ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالتَّزَامِ هَذَا الطَّرِيقِ.

وَرَغْمَ أَنَّ السَّيِّئَةَ السِّيَاسِيَّةَ فِي مَدَنِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا طَابَعُ الْفَوْضَى إِلَّا أَنَّ الْمَدَنَ الْإِسْلَامِيَّةَ كَانَتْ مَنَارَاتٍ عِلْمِيَّةَ مَضِيَّةٍ لَا تَخْطِئُهَا عَيْنٌ. فَكَانَتْ الْقَيْرَوَانُ "دَارَ مَلِكِ الْمُسْلِمِينَ بِإِفْرِيْقِيَا وَكَانَتْ مِنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ... دَارَ الْعِلْمِ بِإِفْرِيْقِيَا، إِلَيْهَا يَنْتَسِبُ أَكْبَارُ عُلَمَائِهِ، وَإِلَيْهَا كَانَتْ رَحْلَةُ أَهْلِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ"^(٢). وَلَوْ كَانَتْ بَغْدَادُ وَدِمَشْقُ وَالْقَاهِرَةُ فِي عَصْرِ مَكِّي حَوَاضِرُ الشَّرْقِ؛ وَقَرْطَبَةُ حَاضِرَةُ الْأَنْدَلُسِ، فَإِنَّ الْقَيْرَانَ حَاضِرَةُ الْمَغْرِبِ.

١/ الصَّلَّةُ: لِابْنِ بَشْكُوَال، ص ٦٣١.

٢/ الْمُعْجَبُ فِي تَلْخِيصِ أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ: لِلْمُرَاكَشِيِّ، ص ٤٤١.

لا شك أن مَكِّيَّاً نشأ نشأة علمية منذ نعومة أظفاره، فتلقَّفته الكتابية القرآنية فبدأ يحفظ القرآن وهو في هذه السن المبكرة، ثم توسَّعت معارفه، وترسَّخت مداركه في علوم دينية، كالتفسير، والحديث، والتشريع، وأصول المذاهب، وعلوم لغوية كأصول اللُّغة، والنَّحو والصَّرْف، وعلوم وفنون أدبية كالْبلاغة، والشعر، والنقد، وعلوم فلسفية كعلم الكلام، والجدل، والمنطق، وغير ذلك.

ولقد كان لِمَكِّيَّ شيوخٌ بالقيروان تتلمذ عليهم، وكان لهم أثرٌ في تكوين شخصيته وتوجيه اهتماماته واتجاهاته، منهم: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه^(١)، وأبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المالكي المعروف بالقابسي، كان إماماً في الحديث ومتونه^(٢).

ومنهم: أبو عبد الله بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز. وكان أديباً، لغوياً، شاعراً^(٣).

إنَّ مَكِّيَّاً استفاد من هؤلاء الأعلام، فتأثر بِخُلُقِهِمْ وَعِلْمِهِمْ فَنَبَتْ فِيهِ جذور التقوى وتحلَّى بأحسن الأخلاق، وترقَّى درجات العلم ورفع قواعده على أساسٍ ثابت، فأصبح من العلماء والدُّعاة على بصيرة وكان فيما يبدو -مع بدئه لحفظ القرآن في سنِّه الأولى- قد أخذ عن شيوخه بالقيروان الفقه والحديث واللُّغة والأدب، وبرع في هذه العلوم وتمكَّن فيها. إلَّا أنَّ الباحث يرى أنَّ علم الفقه في هذه الفترة كان أكثر العلوم التي تمكَّن منها مَكِّي؛ لأنَّ

١/ يُنظر، الصلة: لابن بشكوال، ٥٩٧/٢.

٢/ يُنظر، شذرات الذهب: للحنبلي، ٣١٠/٣.

٣/ ترتيب المدارك: للقاضي عياض، ٧٣٧/٣.

الوجهة الغالبة في القيروان وفي المدن الإفريقية الانصراف الكلّي إلى علم الفقه
من بين العلوم الشرعية.

المبحث الثالث رحلاته

أخبر مكيّ صاحبه أبا عمر^(١) بن مهدي برحلاته العلمية التي أدّاها في ريعان الشباب لاكتساب العلم جارياً على سُنّة أهل العلم بالرحلة في طلبه. وقد نقل خبر هذه الرحلات ابن بشكوال في كتابه (الجلّة)^(٢). مُفصّلاً فيها القول.

ويمكن إجمالها في الآتي:

١ / رحلاته إلى مصر:

○ سافر مكيّ إلى مصر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وكان ذلك سنة ٣٦٨هـ، فأخذ عن علمائها ومؤدّبيها مبادئ الحساب. وكانت مدة إقامته ست سنوات، ثم رجع إلى بلده القيروان سنة (٣٧٤هـ).

وبعد تعلّمه الحساب اشتغل بحفظ القرآن الكريم فأكمل القراءات القرآنية سنة ٣٧٦هـ.

○ ثم نهض إلى مصر ثانية سنة ٣٧٧هـ، وحجّ في تلك السنة حجة الفريضة ثم ابتدأ بالقراءات على أبي الطيب بن غلبون -المقرئ الشافعي، وكان ثقة محققاً- في أوّل سنة ٣٧٨هـ، فقرأ عليه

١ / هو: أحمد بن محمد بن خالد بن أحمد بن مهدي الكلاعي المقرئ، من أهل قرطبة، يُكنى: أبا عمر، روى عن القاضي يونس ومكيّ بن أبي طالب وأكثر عنه واختصّ به، توفي سنة ٤٣٢هـ؛ ويُنظر الصلة: لابن بشكوال، ٤٨/١.

٢ / يُنظر، ص ٦٣١ وما بعدها.

ومكث معه ما يزيد عن سنة، وما كاد يُكمل السنتين في مصر حتّى رجع إلى بلده وبقي عليه بعض القراءات.

○ ثم عاد إلى مصر ثالثة سنة ٣٨٢هـ، ليتلقّى ما بقي عليه من القراءات، فاستكمل استظهارها، ثم عاد إلى القيروان في سنة ٣٨٣هـ، وأقام بها يُقرئ القرآن ويُعلم الناس إلى سنة ٣٨٧هـ، وقد بلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة.

٢ / رحلته إلى مكة:

رحل إلى مكة المكرمة سنة ٣٨٧هـ، وأقام بها أربع سنوات، وحجّ أربع حجج متوالية، ثم رجع إلى القيروان سنة ٣٩٢هـ من مصر التي مكث فيها سنة بعد قدومه من مكة سنة ٣٩١هـ.

٣ / رحلته إلى الأندلس:

رحل مكّي لأول مرة إلى بلاد الأندلس التي ازدهرت بالعلوم، وأصبحت مركزاً لجذب طلاب العلم وروّاده من العلماء. لقد كان قدوم مكّي إلى الأندلس في رَجَب سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة (٣٩٣هـ) للهجرة "ثم جلس للإقراء بجامع قرطبة فانتفع على يديه جماعة وجوّدوا القرآن وعظّم اسمه في البلدة وجلّ فيها قدره"^(١).

١ / الصلة: لابن بشكوال، ٢/ ٦٣١.

المبحث الرابع شيوخه وتلاميذه ومعاصروه

١ / أبرز شيوخه:

منهم في القیروان:

○ أبو محمد بن أبي زيد المالكي عبد الله بن أبي زيد شيخ المغرب، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي.

قال القاضي عياض: "حاز رئاسة الدين والدنيا ورُحِلَ إليه من الأقطار وكثر الآخذون عنه وملاً البلاد من تآليفه، وكان يُسمى مالكا الأصغر. وإليه كان تفقه مكي وروايته، توفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة"^(١).

○ ومنهم الحافظ أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القروي (القيرواني) كان فقيهاً شيخاً للمالكية وكان إماماً في الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به. وصنّف فيه كتاب (الملخص) وكان موضع إكبار الناس وتعلقوا به، وقد أفاد مكي من القراءة والحديث، توفي سنة ثلاثة وأربعمئة"^(٢).

ومن شيوخه في مصر:

○ محمد بن علي أبو بكر الأدفوي المصري النحوي المفسر. كان سيد أهل عصره في مصره وغير مصره، وقرأ عليه الأجلاء وصنّف في التفسير

١ / شذرات الذهب: لابن عماد الحنبلي، ٢٦١/٣.

٢ / يُنظر، شذرات الذهب: ٣١٠/٣؛ وفيات الأعيان: لابن خلكان، ٢٨٠-٢٨١.

كتباً مفيدة منها كتاب (الإستخفاء) وهو أكبر كتاب صُنّف في التفسير^(١).

○ ومنهم أبو الطيب بن غلبون عبد المنعم بن عبيد الله الحلبي المقرئ الشافعي، صاحب الكتب في القراءات، وروى الحديث وكان ثقة محققاً بعيد الصيت. توفي بمصر في ١١٠٠ هـ وله ثمانون سنة، وأخذ عنه خلق كثير^(٢).

ومن شيوخه في الأندلس:

○ يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث، قاضي الجماعة بقرطبة تولّى الصلاة والخطبة بجامعها، يكنى: أبا الوليد ويُعرف بابن الصفار، وقد تولّى القضاء والصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بقرطبة مع الوزارة. وقد كان أبو الحزم جَهْوَراً قلَّد مَكِّيًّا الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بعد وفاة القاضي يونس وكان قبل ذلك يستخلفه القاضي يونس على الخطبة، توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة^(٣).

٢ / أبرز تلاميذه:

أخذ عن مَكِّي جماعة كثيرة من العلماء، وأبرز من تتلمذ عليه:

○ أبو عمر المقرئ، واسمه أحمد بن محمد الكلاعي، توفي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة^(٤).

١ / يُنظر، إنباه الرواة على أنباه النُّحاة: ١٨٨/٣.

٢ / يُنظر، شذرات الذهب: ٢٦١/٣.

٣ / يُنظر، الصلة: لابن بشكوال، ٦٤٦/٢؛ ويُنظر، مَكِّي بن أبي طالب وتفسير القرآن:

ص ٦١.

٤ / يُنظر، شذرات الذهب: ٢٥٤/٣.

○ ومنهم أبو طالب محمد بن الشيخ مكي رحمه الله، روى عن أبيه أكثر الذي عنده كما سمع معه على: القاضي يونس، وكان محمد وافر الحظ من الأدب، وكثير من مصنفات أبيه إنما كان مخرجها عن طريقه، توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة^(١).

○ ومن أشهر تلاميذه: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي المالكي الأندلسي الباجي، رحل إلى المشرق سنة ست وعشرين وأربعمائة فأقام بمكة، وكان مقامه بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاماً.

ألف الباجي كتباً كثيرة منها كتاب (المنتقى) وكتاب (أحكام الفصول في أحكام الأصول) توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة^(٢).

○ ومن تلاميذه: ابن عتاب عبد الرحمن بن محمد بن محسن القرطبي أبو محمد، وهو من جلة علماء الأندلس وأكابرها، كان عالي الإسناد واسع الرواية، وقد أجاز له مكي بن أبي طالب، وكان ابن عتاب من أهل الفضل والحلم والتواضع، وكان حافظاً للقرآن الكريم وله تصانيف حسنة، وجمع كتاباً حفيلاً في الزهد والرقائق سمّاه (شفاء الصدور). طال عمره وكثر أخذ الناس عنه، توفي سنة عشرين وخمسمائة^(٣).

١/ يُنظر، الصّلة: لابن بشكوال، ٥٢٣/٢.

٢/ يُنظر، وفيات الأعيان: ٣٤٠/٢.

٣/ يُنظر، الصّلة: لابن بشكوال، ٣٣٢/١.

٣ / أبرز معاصريه:

من معاصريه في القيروان "أصبع بن راشد اللّحمي، من أهل إشبيلية لكنه رحل إلى القيروان، وأخذ الفقه على (ابن أبي زيد) و(أبي الحسن القابسي) مع مَكِّي وكانت وفاته قريباً من سنة (٤٤٠هـ) أربعين وأربعمائة"^(١).

ومن معاصريه كذلك أبو العبّاس المهدي أحمد بن عمّار "كان رأساً في القراءات، صنّف كتباً مفيدة"^(٢). وهو من أفذاذ العلماء المبرزين والأئمة المعتمد عليهم في القراءات والتفسير.

ومن أنداده: (أبو عمر الطلمنكي أحمد بن محمد)^(٣) نزيل قرطبة، وهو أول من أدخل القراءات إلى قرطبة، وكثير من تلاميذه هم تلاميذ لِمَكِّي أيضاً، توفي سنة ٤٢٠هـ عشرين وأربعمائة^(٤). وقد ذكره الذهبي في كتابه المشهور (معرفة القراء الكبار)^(٥) في الطبقة العاشرة التي من أشهر رجالها: أبو عمر الطلمنكي، ومَكِّي بن أبي طالب.

١ / جذوة المقتبس: ص ١٦٤.

٢ / معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: للإمام شمس الدين أبي عبد الله الذهبي، حققه وضبط أعلامه وعلّق عليه: محمد سيّد جاد الحق، طبع مطبعة دار التأليف، مصر، نشر دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى، (د.ت)، ٣١٦/١.

٣ / هو: أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الطلمنكي وأصله منها، رحل إلى المشرق فحجّ ولقي العلماء ورحل إلى مصر ولقي ابن غلبون والأدفوي، كان أحد الأئمة في علم القرآن، ت ٤٢٩؛ [ينظر، الصّلة: لابن بشكوال، ٤٤/١-٤٥].

٤ / جذوة المقتبس: ص ١٠٦.

٥ / معرفة القراء الكبار: للذهبي، ٣٢٠/١.

المبحث الخامس عقيدته

كثيرٌ من الدلائل تشير إلى أَنَّ مَكِّيًّا سلفيًّا في اعتقاده فكان - رحمه الله - من الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، لَمْ يخرج في أقواله وأفعاله عن جادة أهل السُّنَّة والجماعة، فالتزم مذهبهم ودعا إليه وكان سلفياً مقتفياً أثر السَّلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم مِمَّن قفا أثرهم في جميع أبواب الدين من التوحيد والعبادات ونحوها متميزاً بالتزام آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم موظفاً السُّنن على نفسه تاركاً الجدال والمراء والخوض في علم الكلام، وكل ما يصدُّ عن الشرع ويجلب الآثام. يقول مَكِّي^(١):

قُلْ لِمَنْ يَبْغِي الْمِرَا وَالْجَدَلَا * * فِي الْبَرَاهِينِ وَذَكَرِ الْبُدَلَا
وَحِكَايَاتِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي * * تُورِثُ الْعَجْزَ وَتُبْذِلُ الْكَسَلَا

وهكذا نرى مَكِّيًّا يلزم منهاج أهل السُّنَّة والجماعة وهم: "نقاوة المسلمين. وهم خيرُ الناس للناس"^(٢).

لذلك فقد اهتدى بهداهم واقتفى أثرهم. يقول في كتابه (التبصرة):
"وفيما قد أُلِّفه من تقدمنا من السلف الصالح رضي الله عنهم كفاية ومقنع، ونحن معترفون لهم بالفضل والتقدم في العلم، رحمة الله عليهم أجمعين"^(٣).

١/ إنباه الرواة على أنباه النُّحاة: للقفطي، ٣/ ٣١٥ وما بعدها.

٢/ منهاج السُّنَّة: لابن تيمية، طبع جامعة الإمام، السعودية، (د.ت)، ٥/ ١٥٨.

٣/ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لِمَكِّي بن أبي طالب، تحقيق=

ومن الدلائل التي تشير إلى أنه سلفي الاعتقاد أنه تتلمذ على ابن أبي زيد القيرواني -صاحب الرسالة- وكان ابن أبي زيد سلفياً في اعتقاده على مذهب مالك شأنه شأن المالكية في ذلك العصر^(١).

ومِمَّا يتضح به مذهبه الاعتقادي تفسيره لآيات الصفات خاصة. فإنه يثبت الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه وينفي الشبه بينه وبين مخلوقاته اعتماداً على قوله تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)**^(٢).

وقد نقل الدكتور أحمد حسن فرحات^(٣) عن كتاب (الهداية إلى بلوغ النهاية) لِمَكِّي ما يدل على ذلك، خاصة تفسيره لبعض الآيات مثل قوله تعالى: **(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)**^(٤). "أي على عرشه ارتفع وعلا. وأحسن الأقوال في هذه: علا، والذي يعتقده أهل السُّنَّة ويقولونه

=محيي الدين رمضان، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ-
١٩٩٧م، مقدمة التحقيق، ١/١٦؛ ويُنظر، العمدة في غريب القرآن: لِمَكِّي، تحقيق:
يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ-
١٩٨٤م، مقدمة التحقيق، ص ٤٨.

١/ يُنظر، شذرات الذهب: ابن الفلاح، ٣/٢٦١.

٢/ سورة الشورى: الآية (١١).

٣/ هو: الدكتور أحمد حسن فرحات، عمل أستاذاً في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، وهو من أكثر المهتمين بِمَكِّي، جمع العديد من مخطوطاته، وصنّف عدداً من كتبه، وله دراسة خاصة بِمَكِّي بعنوان: مَكِّي ابن أبي طالب وتفسير القرآن.

٤/ سورة طه: الآية (٥).

في هذه إنَّ الله -جلَّ ذكره- فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وأنه في كل مكان بعلمه، وله -تعالى ذكره- كرسي وسع السماوات والأرض - كما قال جلَّ ذكره- وكذلك ذكر شيخنا أبو محمد بن أبي زيد -رحمه الله-

وقد سأل رجلٌ مالكا عن هذا فقال له: كيف استوى؟ فاحمرَّت وجنتا مالك وطأطأ رأسه فقال: الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً^(١).

ومن الدلائل على أنه على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة قوله في القرآن: "كلام الله غير مخلوق"^(٢) نافياً الشبه بين الله ومخلوقاته في كل شيء.

قال في كتاب (الرعاية) في باب ذكر فيه فضل القرآن والترغيب فيه: "فأعظم ما يستشعره المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق، كلام مَنْ ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ند"^(٣).

ومِمَّا يسير وفاقاً لذلك قصيدةٌ ألَّفها يدعو فيها إلى التمسُّك بالكتاب والسُّنَّة ويحذر من البدع والخرافة ويُناهض الجهل والزيغ والباطل. يقول فيها^(٤):

١/ مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن، نقلاً عن الهداية إلى بلوغ النهاية: لمكي، مخطوطة الرباط، ص ٣٢٦-٣٢٧.

٢/ الرعاية: ص ٥٥.

٣/ المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

٤/ إنباه الرواة: ٣/٣١٩؛ هذه القصيدة رواها القفطي عن ابن مكتوم وأنشدها له شيخه أبو حيَّان الذي أنشدها له أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الأنصاري، المعروف بابن شق الليل.

قُلْ لِمَنْ يَبْغِي الْمِرَا وَالْجَدَلَا * * فِي الْبَرَاهِينِ وَذِكْرِ الْبُدَلَا
 وَحِكَايَاتِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي * * تَوَرَّثُ الْعَجَزَ وَتُبْدِي الْكِسَلَا
 وَيُكَ دَع عَنْكَ الْخُرَافَاتِ وَلَا * * تُكْثِرُ الْمَزْحَ أَخِي وَالْهَزَلَا
 هَلْ يَجُوزُ الْجَهْلُ عِنْدَ الْعُلَمَا * * أَمْ يَجُوزُ الْحُمُقُ عِنْدَ الْعُقَلَا
 أَيْنَ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَلَمْ * * تَخْشَ مِنْهُ قَدَمَاهُ الْبَلَلَا
 أَوْ يَلْتِ الرَّمْلَ بِالْمَاءِ فَإِنْ * * شَاءَ زُبْدًا رَدَّهُ أَوْ عَسَلَا
 أَوْ يَكُونُ الطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمََا * * فَإِذَا أَوْمَى إِلَيْهِ نَزَلَا
 أَوْ يَحِجُّ الْبَيْتَ فِي يَوْمٍ لَقَدْ * * كَذَبَ النَّاقِلُ فِيمَا نَقَلَا
 بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ فِي الْوَحْيِ فَلَنْ * * يَبْلُغُوهُ دُونَ جَهْدٍ وَبَلَا
 هَذِهِ الْأَخْبَارُ لَا أَصْلَ لَهَا * * لَا وَلَا فَرْعُ بِهَا مُتَّصِلَا
 مَنْ عَدَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ فَقَدْ * * خَالَفَ اللَّهَ وَخَانَ الرُّسُلَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابًا وَاضِحًا * * حَسْبُنَا لَا نَبْغِ عَنْهُ حِوَلَا
 ثُمَّ مِنْهَاجُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى * * فَبِهِ اللَّهُ هَدَانَا السُّبُلَا
 مَالَنَا وَالْخَوْضُ فِي غَيْرِهِمَا * * أَوْ بِغَيْرِ الْعِلْمِ نَبْغِي بَدَلَا
 يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ سَعْيِهَا * * يَنْدِمُ الْمَرءُ عَلَى مَا فَعَلَا
 فَالْزَمُوا السُّنَّةَ لَا تَبْتَدِعُوا * * وَاحْذَرُوا الزَّيْغَ وَخَافُوا الزَّلَلَا
 فَازَ مَنْ زِيحَ عَنِ النَّارِ إِلَى * * جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ خَيْرٌ مَنْزِلَا
 بِقُصُورٍ فِي الْعُلَا مِنْ ذَهَبٍ * * تَجِدُ الْحُورَ بِهَا وَالْحُلَلَا

المبحث السادس أخلاقه وصفاته

تعرف الباحث على أخلاق مكي وصفاته من مصدرين:

المصدر الأول : كُتِبَ التراجم التي ترجمت له ووصفت أخلاقه وأوردت ثناء العلماء عليه.

المصدر الثاني : أقواله المنشورة في كتبه حينما يتحدث ويبحث على فضائل الأخلاق وخاصة كتابه (الرعاية).

ومما وقف عليه الباحث من المصدر الأول الأقوال التالية:

- قال ابن بشكوال: "كان نفعه الله من أهل التبخر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم، جيد الدين والعقل"^(١).
- وقال الوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي: "... وكان من الصُّلحاء الأولياء"^(٢).
- وقال الذهبي: "وكان من أوعية العلم مع الدين والسكينة والفهم"^(٣).
- وقال الذهبي أيضاً: "... كان مع ذلك ديناً فاضلاً تقياً صوّماً متواضعاً عالماً قوّماً"^(٤).

١/ الصُّلَّة: لابن بشكوال، ٣٦١/٢؛ وقد نقله ابن بشكوال عن أبي عمر بن مهدي، صاحب مكي.

٢/ إنباه الرواة على أنباه النُّحاة: ٣١٤/٣.

٣/ سِير أعلام النبلاء: ٥٩١/١٧.

٤/ معرفة القُرَّاء الكبار: ٣١٦/١.

أمّا المصدر الثاني الذي يرسم لنا شخصيته ويحكى عن أخلاقه وصفاته فهو كلامه وحثه على التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن سيئها.

من ذلك نصائحه لصاحب القرآن وما ينبغي أن يأخذ نفسه به، ولا شك أنه كان متحلياً بهذه الأخلاق التي دعا إليها، وتُعتبر من أخلاقه. فالشجرة لا تثمر إلا نوعها. والمرء مخبوء تحت لسانه.

"قال أبو محمد عليه السلام: أول ما ينبغي لطالب القرآن فعله أن يخلص طلبه لله تعالى، وينبغي له ألا يطلب بالقرآن شرف المترلة عند أبناء الدنيا من الملوك وغيرهم... وينبغي له أن يكون لله حامداً ولنعمه شاكراً وله ذاكراً وعليه متوكلاً وبه مستعيناً وإليه راغباً وبه معتصماً وللموت ذاكراً وله مستعداً.

وينبغي له أن يكون خائفاً من ذنبه راجياً عفو ربه، وينبغي له أن يكون عالماً بأهل زمانه متحفظاً من شيطانه"^(١).

ولمكي شعرٌ رصين يدل على دماثة أخلاقه وورعه وتقواه، ومن ذلك قصيدته التي أشار إليها الباحث عند الحديث عن عقيدته. ومن ذلك أيضاً قوله:

عَلَيْكَ بِإِقْلَالِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا * * إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلُكًا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا * * وَيُطْلَبُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ

من خلال هذه الدراسة يخلص الباحث إلى أن مكياً لبس حُلّةً من مكارم الأخلاق وتوّج بخلق الإخلاص، فقد كان ظاهر الإخلاص -نحسبه

١/ الرعاية: ص ٧٧ وما بعدها.

كذلك - لأنه دائم التذكير به، ودائم التنبيه عليه واتخاذ قرينة للأعمال. وكثيراً ما يبدأ كلامه في تدريسه وتأليفه بالتنبيه على إخلاص العمل والطلب لله تعالى. وقد بلغ منزلة من الإخلاص مكنته من معرفة أسرارهِ ومعرفة أسباب تحصيله، والطريق إلى جَنِّي ثماره. وكان هذا الإخلاص ثمرة من ثمرات العلم.

قال في أول كتابه (الرعاية) إنه يرجو أن يكون تأليفه "سبباً لأجر وسلاماً لزخر جعله الله لوجهه خالصاً"^(١).

وقال أيضاً في باب أدب طالب القرآن: "ينبغي لطالب القرآن بعد إخلاص طلبه لله أن يتحفظ في نقله"^(٢)، ومثله كثير.

١/ ص ٥٣.

٢/ المصدر السابق: ص ٨٤.

المبحث السابع

وفاته

"توفي مكي - رحمه الله - يوم السبت ودُفن ضُحى يوم الأحد لليلتين خَلَّتَا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (٤٣٧هـ) ودُفن بالربض^(١) وصلى عليه ابنه أبو طالب^(٢) محمد بن مكي^(٣)."

وبذلك يكون التاريخ قد طوى صفحةً من أنصع صفحاته، ظلَّت مفتوحةً على مدى اثنين وثمانين عاماً. حَبَّرَهَا مكي بمداد من نور أشرفت منها صفاته، وتألَّأت أخلاقه، وأضاء منها علمه.

وكان - رحمه الله - قمةً في النشاط العلمي، من رحلةٍ في طلب العلم، إلى جلوسٍ للتدريس والإقراء، إلى عكوفٍ على التأليف والتصنيف. وكان منارةً من منارات العلم يشهد بذلك كثرة تأليفه وكثرة تلاميذه، فأصبح علماً من أعلام هذه الأمة، وقمة من القمم الشامخة.

١/ قال ياقوت: الربضُ - بالتحريك وآخره ضاد معجمة - وهو في الأصل حريم الشيء، ويُقال لزوجة الرجل رُبضة ورُبضة.. وقال أبو منصور: الرُّبض... أساس المدينة.. والرُّبض ما حوله... والأرباض كثيرة جداً وقلَّ أن تخلو مدينة من ربض. ثم ذكر ربض قرطبة وقال عنه: إنه محلة بها؛ [يُنظر، معجم البلدان: بتصحيح محمد أمين الخانجي، طبع مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م، ٢٢٢/٤، ٢٢٤؛ ويُنظر، لسان العرب: ١٥٢/٧، (مادة: ربض)].

٢/ هو: محمد بن مكي بن أبي طالب، يُكنى أبا طالب، روى عن أبيه أكثر ما عنده، ولي أحكام السوق والشرطة بقرطبة، وكان محموداً فيما تولَّاه، توفي ٤٧٤هـ؛ [الصَّلَّة: لابن بشكوال، ٥٥٢/٢].

٣/ الصَّلَّة: لابن بشكوال، ٦٣٢/٢.

وعلى الباحثين والدارسين أن يصعدوا إليه بدراسة آثاره وتقديمها للناس. ويرجو الباحث أن تكون هذه الدراسة من الجهود التي تبعثُ آثار هذا الرجل، وتردُّ إليه بعض الجميل، وتعترف بفضله.

الفصل الثالث

علمه

المبحث الأول - معرفته بالعلوم وعنايته بالتأليف

المطلب الأول : معرفته بالعلوم.

المطلب الثاني : عنايته بالتأليف.

المبحث الثاني - معرفته بعلم الأصوات ومؤلفاته فيه

المطلب الأول : معرفته بعلم الأصوات.

المطلب الثاني : مؤلفاته في علم الأصوات.

المبحث الأول

معرفته بالعلوم وعنايته بالتأليف

المطلب الأول

معرفته بالعلوم

مارس مكي كل أوجه النشاط العلمي -تقريباً- فقد ارتحل في ريعان شبابه وسنيه الغضة إلى كل من مصر، والحجاز غادياً يدفعه شوق ونهم للعلم والتعلم، ورائحاً يتوهج من نور العلم. وانتهى به المطاف إلى الأندلس التي استقر فيها بعد أن أحسَّ بديب العلم يسري بين جنبه، فدفعه ذلك إلى تصدٍ للإقراء والتدريس، وعُكوفٍ على التأليف والتصنيف. فكان من ثمرة هذا النشاط الجُم علمٌ متدفقٌ وتصانيف مبهرة تظل تشهد بتفرد الرجل وشمول علمه وموسوعيته. والدليل على ذلك أن من ترجموا له كانوا يختلفون في تعيين اختصاصه بعض الاختلاف، فرى صاحب كتاب (الصلة) ينقل عن أبي عمر^(١) بن مهدي أنه كان من أهل التبخر في علوم القرآن والعربية^(٢). والقاضي عيَّاض يقول إنه كان فقيهاً مقرئاً أديباً^(٣). والحميدي يصفه بالإمامة في الإقراء^(٤). ويصفه الضبي بالشهرة في الإقراء ويضيف وصفه بالنحو والأدب^(٥). ويقول

١/ سبقت ترجمته: ص ٨٠ من هذا البحث.

٢/ الصلة: لابن بشكوال، ٦٣١/٢.

٣/ ترتيب المدارك وتقريب المسالك: ٧٣٧/٣.

٤/ جذوة المقتبس: ص ٣٥١.

٥/ بغية الملتبس: ص ٤٦٩.

عنه جمال الدين بن تغري بردي إنه كان إماماً عالماً محدثاً^(١) فيشير إلى معرفته بالحديث.

ومِمَّا يدل على شمول علمه وموسوعيته ما قاله ياقوت والذهبي. فأما الأول فوصفه بالتفُّن^(٢)، والتفُّن من لوازم شمول العلم. وأما الثاني فيقول عنه مرة إنه: "من أوعية العلم"^(٣). ولا أظن أن وعاء العلم إلا شاملاً لكل أجزائه حاوياً لأطرافه جامعاً لشتى مذاهبه. ويقول عنه مرة أخرى "المقرئ صاحب التصانيف"^(٤). وهذا من لوازم سعة العلم لأن كثرة التصانيف تنبئ عن تعدُّد المواهب وزخم العلم، ولا يمكن للباحث -مع كل هذا- أن يدَّعي إحاطة مَكِّي بكل العلم؛ إذ إنَّ ذلك ليس من وسع البشر، وحسبه أن يقول إنَّ مَكِّيًّا من العلماء الذين اتَّصفوا بسعة العلم وشمولية المعرفة.

العلوم التي اضطلع بها مَكِّي:

أ/ علوم القرآن:

يتعيَّن على مَكِّي الذي لازم القرآن الكريم ولمَّا يتجاوز عمره العشر سنين، والذي أكمل القراءات بالقيروان وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. ثم بدأها ثانيةً وأكملها في مصر على: أبي الطيب بن غلبون^(٥)، وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة، يتعيَّن عليه أن يكون واسع المعرفة بعلوم القرآن، ساعده على ذلك استعداده وإمكاناته الذاتية.

١/ النجوم الزاهرة: ٤١/٥.

٢/ معجم الأدباء: ١٦٧/١٩.

٣/ سِير أعلام النبلاء: ٥٩١/١٧.

٤/ طبقات القُرَّاء: ٦٠٠/٢.

٥/ سبقت ترجمته: ص ٨٣ من هذا البحث؛ ويُنظر، شذرات الذهب: ٢٦١/٣.

١ / علم القراءات:

لا شك أن مكياً كان إماماً في ذلك مقدّماً، وقد أجمع المؤلفون والمترجمون على نعته بصفة (المقرئ). فكان له علم واسع بالقراءات روايةً واحتجاجاً وتعليلاً، وكانت أكثر مؤلفاته في علم القراءات.

لقد كان واسع الاطلاع في علم القراءات، يدل على ذلك قوله في كتاب (التبصرة): "ولولا ما فرق من الكتب مما نحن جامعوه، وما عُدِم فيه القول مما نحن قائلوه، وما صُعِب مأخذه على الطلاب مما نحن مقرّبوه، وما طُوِّل فيه الكلام لغير كثير فائدة لما نحن مُوجِزوه ومُبينوه، لكان لنا عمّا قصدنا إليه شغل، وفيما قد ألّفه من تقدّمنا من السلف الصالح عليه السلام كفاية ومقنع، ونحن معترفون لهم بالفضل والتقدّم لهم في العلم رحمة الله عليهم أجمعين" (١).

وكان لمكي أثر كبير في نشر علم القراءات في الأندلس، وهو الذي رحل إليها بعد أن أجاد هذا العلم في القيروان ثم مصر. قال ابن الجزري: "ولم يكن بالأندلس ولا ببلاد المغرب شيء من هذه القراءات إلى أواخر المائة الرابعة، فرحل منهم من روى القراءات بمصر ودخل بها، وكان أبو عمر الطلمنكي -مؤلف الروضة- أوّل من أدخل القراءات إلى الأندلس... ثم تبعه أبو محمد مكّي بن أبي طالب القيسي مؤلف التبصرة والكشف وغير ذلك، وتوفي سنة ٤٣٧هـ... (٢).

١ / الكشف عن وجوه القراءات: ١٦/١؛ مقدمة التحقيق نقلاً عن التبصرة له.

٢ / النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، تحقيق: الضباع، مطبعة مصطفى محمد = بمصر، نشر المكتبة التجارية، ص ٣٤.

٢ / علم التفسير:

اشتهر مكي بن أبي طالب عند الباحثين بكونه مشغلاً بالقراءات والنحو أكثر من اشتغاله بالتفسير "ولئن كان بعض المفسرين كابن عطية والقرطبي ينقلون عنه أقوالاً في التفسير، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لاعتباره من المفسرين... حتى قيض الله لهذا الأمر الدكتور أحمد حسن فرحات - حفظه الله - ليؤلف كتاباً خاصاً عن جهود مكي في التفسير" (١).

وقد كانت دراسة الدكتور فرحات -بحق- جليلة القدر كشف فيها عن مكي بن أبي طالب المفسر العظيم وخلص إلى أن لمكي تفسيراً تاماً لكتاب الله عز وجل وهو كتاب: (الهداية) (٢) إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه).

واعتمد مكي في تفسيره هذا على مصادر أساسية وأخرى ثانوية، أمّا الأساسية مثل كتاب (الإستخناء) لشيخه أبي بكر الأدفوي، ومثل كتاب الطبري (٣). وأمّا الثانوية فككتاب الزجاج (٤) وكتاب الفراء (٥).

١ / ملامح الإبداع في التفسير عند مكي بن أبي طالب، لمصطفى فوزيل: مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، المغرب، ذو الحجة ١٤١٦هـ - مايو يونيو ١٩٩٦م، العدد ٣١٩، السنة ٣٧، ص ٢٧.

٢ / يُنظر، إنباه الرواة: ٣/٣١٣؛ ويُنظر، مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن: ص ١٠٩.

٣ / كتاب جامع البيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر الطبري، ت ٣١٠هـ.

٤ / معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحق الزجاج، ت ٣١١هـ.

٥ / كتاب معاني القرآن: لأبي زكريا الفراء، ت ٢٠٧هـ؛ يُنظر، مجلة دعوة الحق: ص ٢٧.

لقد كان مَكِّي مبدعاً^(١) في تفسيره هذا الذي نال شهادة الشفاء من العلماء القدماء قبل المتأخرين، فهذا ابن حزم يقول عنه: "وأما القرآن فمن أجل ما صنف في تفسيره كتاب (الهداية إلى بلوغ النهاية)"^(٢). وقال مُحَقِّقُ كتاب (الكشف) للدكتور محيي الدين رمضان: "فقد كان له في التفسير كتاب ضخم تيسَّر لي الاطلاع على ثلثه الأول فوجدته متميزاً من دون أغلب التفاسير المعتدة بأنَّ مَكِّيَّاً قد رسم خطة تأليفه، وأحكم بناءه بما يتجنب فيه كل ما رأى من الذين تقدَّموه وقعوا في الغلط فيه من حيث حشد الأسانيد، أو متفرق المتشابه والمتمائل، أو إعادة المكرور، أو الإغراق في جانب والاختصار في آخر وغير ذلك ممَّا حرص مَكِّي على اجتنابه"^(٣). ويقصد المحقق كتاب (الهداية إلى بلوغ النهاية)؛ لأنه نقل كلام ابن حزم آنف الذكر^(٤).

٣ / علم التجويد:

إنَّ العلاقة بين علم القراءات وعلم التجويد علاقة عموم وخصوص؛ لأنَّ علم القراءات علم يشتمل على الكثير من العلوم من بينها علم التجويد. فهو إذن أحد أركان علم القراءات. فلا بد أن يكون مَكِّي بارعاً فيه. وله في هذا الفن من المؤلفات كثير. أهمها كتاب (الرعاية) الذي يتنازعه إلى جانب هذا العلم: علم الأصوات. وهذا الكتاب يُعدُّ

١ / كتاب معاني القرآن: لأبي زكريا الفراء: ص ٢٧.

٢ / نفح الطيب: للمقري، ١٧١/٤.

٣ / الكشف عن وجوه القراءات: مقدمة التحقيق، ص ١٥.

٤ / المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

من أعظم ما أُلِّفَ في أصوات العربية والقرآن. كذلك فإن لِمَكِّي مؤلفات كثيرة في علم التجويد سنعرض لها فيما يأتي من حديث.

٤/ ومَكِّي كذلك عالم بناسخ القرآن ومنسوخه، وبغريب القرآن، وبالقراءات الشاذة "وفي استدراكه على ابن مسرة فيما أُلِّفه في القراءات الشاذة وإصلاحه له وما أغفله، ما يقطع من تمكنه من العلم بشاذ القراءة ويكشف عن قدرته فيه" ^(١).

ب/ علوم العربية:

العلاقة بين علوم اللغة العربية وعلوم القرآن وثيقة، ومتكاملة، لأن القارئ والمفسر وكل من يتصدى لعلوم القرآن لا بد أن يكون مُتَقِنًا لعلوم العربية مقتدرًا فيها. وكان الإمام مَكِّي واحدًا مِمَّنْ ظهرت براعتهم في علوم العربية، وكان مُتَقِنًا لها وله فيها اطلاع واسع وتأليف كثيرة، منها مؤلفات في النحو وإعراب القرآن مثل كتاب (مشكل إعراب القرآن)، وكتاب (الزاهي في اللمح الجالة على مشتملات الإعراب)، وغيرها.

ولِمَكِّي معرفة وعلم عظيم بعلم الأصوات بمجاليه أصوات اللغة عامة وأصوات القرآن الكريم خاصة. وقد سبق الحديث عن بعض مؤلفاته في الأصوات والتجويد أهمها كتاب (الرعاية). وله آراء صوتية متناثرة هنا وهناك.

هذا ولَمَّا كان الباحث يرى أنَّ مَكِّيَّ يُعَدُّ واحدًا من أهم وألع علماء

١/ الكشف عن وجوه القراءات: مقدمة التحقيق، ١٥/١.

الأصوات العرب القدامى، فإن هذه الدراسة تكشف للقارئ عن هذا الجانب.

كذلك فإن مكيّاً كان أديباً وشاعراً يصدر عن طبع سليم وذوق رفيع وسليقة معربة. وقد وقف الباحث على بعض شعره وخاصة قصيدته التي سبق الحديث حولها في الفصل الثاني من هذا الباب.

ج/ علوم أخرى:

لِمَكِّي معرفة بعلم الحديث والرواية "بل إنَّ مَكِّيَّ يُعَدُّ شيخاً في العلم والرواية"^(١). وقد وصفه القاضي عياض بقوله: "كان فقيهاً مقرئاً أديباً متفنناً راوية"^(٢). وكانت له معرفة عميقة بالفقه، وقد تتلمذ على جهابذة من شيوخ الفقه مثل ابن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي والذي كان يُسمَّى: مالكا الأصغر^(٣) ولا شك أنَّ مَكِّيَّ تأثر به كثيراً وهو في هذه السن المبكرة.

ولِمَكِّي معرفة بعلم الكلام، وعلم الفلسفة، وعلم تعبير الرؤيا، وغير ذلك من العلوم.

١/ الكشف عن وجوه القراءات: مقدمة التحقيق، ١٩/١.

٢/ ترتيب المدارك: ٧٣٧/٣.

٣/ شذرات الذهب: ٣١٠/٣؛ ويُنظر، وفيات الأعيان: ٢٨٠/٣.

المطلب الثاني عنايته بالتأليف

يُعدُّ مَكِّي من العلماء الذين يولون أمر التأليف والتصنيف عناية عظيمة تشهد له بذلك مؤلفاته في ضروب شتى من العلوم، فهي كثيرة العدد وليس ذلك فحسب، بل هي عظيمة القدر وذات فائدة واضحة. إذن فإنه تمَدَّد أفقياً فكان ذا علمٍ غزير، ومؤلفاتٍ وافرة، وعلا رأسياً فأفاد الناس بما أَلَّف وصنَّف، وما كان له أن يتمدَّد أو يعلو إلا إذا كان معنياً بالتأليف عناية فائقة. وتتضح عنايته بالتأليف فيما يلي:

أ/ منهجه في التأليف:

لِمَكِّي منهج في التأليف وأسلوب في الكتابة يدل كذلك على عنايته بالتأليف، من ذلك:

١ [التوسُّع في التأليف:

كانت تصانيفه كثيرة للغاية وقد ذكر القفطي^(١) في كتابه (إنباه الرواة) ثبناً بمؤلفاته.

وكل من تناول مَكِّيًّا بالدراسة ذكر ثبناً لمؤلفاته^(٢). وهي أكثر من تسعين مؤلفاً. وقد ذكر الضبي في كتابه (بخية الملتمس) أن بعض

١/ ص ٣١٣-٣١٥.

٢/ يُنظر، الإبانة عن معاني القراءات: لِمَكِّي بن أبي طالب، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، نشر المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ص ١٣-٢٠، ويُنظر، الرعاية له: ص ١٥.

أشياخه جمعوا ذكر أسماء تواليفه في جزء، وكان مبلغها عندهم خمسة وثمانين تأليفاً^(١).

٢ [التفنُّن وحسن التأليف:

هذا أيضاً من مظاهر عنايته بالتأليف وقد قال القاضي عياض^(٢): إنه كان متفنناً. وكان تفنُّنه ظاهراً في تأليفه نحو: التزامه بموضوع الكتاب المعين، وعدم الاستطراد، وتخصيصه للموضوعات وإفراده لها بكتب خاصة. وكان بارعاً في اختيار عناوين كتبه بحيث تدل على الموضوع أحسن دلالة وتُعبّر عنه أصدق تعبير، مثل عنوان كتاب (الرعاية) فهو: (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتحليلها وبيان الحركات التي تلزمها).

إنه يقصد بكل كلمة في هذا العنوان معنىً يبيِّن غرضه ويشير إلى هدفه، ومن الواضح أنَّ الشيخ قد جمع في عنوان كتابه بين التجويد والقراءة من جهة؛ وبين التحقيق والتلاوة من جهة أخرى، والتلاوة هي نوع من أنواع القراءة يدخله عنصر المتابعة. فجعل غاية القراءة التجويد، وغاية التلاوة تحقيق اللفظ أي النطق.

٣ [الاختصار والإيجاز:

وقد أشار هو نفسه إلى الإيجاز غير المُخل. قال في كتاب (الكشف): "قال أبو محمد: قد أتينا على ما شرطنا واختصرنا الكلام

١/ يُنظر، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس: ص ٤٦٩.

٢/ ترتيب المدارك: ٧٣٧/٣.

في العلل غاية ما قدرنا من غير أن نكون قد أحللنا بعلة أو تركنا حجة مشهورة" (١).

٤ [وضوح الأسلوب وتنوعه:

كان مَكِّي يختار في مؤلفاته أساليب لم يكن للناس -حينها- عهد بها وهي أقرب إلى أساليب المتأخرين، حرصاً منه على اتخاذ أيسر الطرق وأقومها في التعليم، ويدل أسلوبه على فهمه الراقي لقضية التربية وتعليم النشء، لا ريب؛ فهو من القلائل الذين لم يقصروا مهنة التعليم على المشافهة والتلقين فقط، بل تعدى ذلك. وأصبح أسلوبه في الكتابة ينوب عن مشافهته ومشاهدته وممارسته للتعليم، فكل كتاب تعليمي لمَكِّي يقوم مقام المعلم والمربي الذي يحرص على إكمال جميع أدوات التعليم ووسائل المعرفة ويتخذ من أسلوب المجادلة والمشاركة طريقة مثلى لتربية النشء وتعليم الطلاب.

ولِمَكِّي أسلوب في مقدّمات كُتِبَ تدل على الوضوح والتنوع، فكانت مقدّماته قصيرة، إمّا أن يحاول الرد فيها على تساؤلات المتسائلين، مثل قوله في مقدمة كتاب (تمكين المد في آتى وآمن وآدم) قال: "سألت نفعنا الله وإياك عن تمكين المد في..." (٢). ومثل هذا ورد في مقدمة

١ / ٢ / ٣٩٣.

٢ / تمكين المد في آتى وآمن وآدم: كتاب لمَكِّي، مقدمة المؤلف، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، مُحَرَّم ١٤٠٥هـ، نوفمبر ١٩٨٤م، العدد الثاني، السنة الأولى، ص ٦٠.

كتاب (شرح كلا وبلى ونعم) وكتاب (الياءات المشدّجات) ^(١). وإمّا أن يدير الكلام على طريقة السؤال والجواب كما يظهر ذلك جلياً في كتابيه (الكشف) و(الإبانة).

قال في مقدمة كتاب (الكشف): "وأرتب الكلام في علل الأصول على السؤال والجواب" ^(٢).

وقال في كتاب (الإبانة): "فإن سألت سائل فقال: هل القراءات التي يقرأ بها الناس اليوم هي السبعة الأحرف؟" ^(٣).

ومِمّا يدل على تنوع أسلوبه أنّ له عدداً من الكتب النقدية، يظهر فيها أسلوبه النقدي، وتبدو فيها ملامح شخصيته النقدية، وبراعة معالجته للقضايا العلمية المطروحة، وهذا أسلوب آخر يدل على إبداعه. ومن كتبه التي توضح ذلك:

١ / كتاب: تمكين المحدث في آتى وآمن وأدم.

٢ / كتاب: ما أغفله القاضي منذر ووههم فيه في كتاب الأحكام.

٣ / كتاب: انتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن وإصلاح غلطه.

٤ / كتاب: الانتصاف فيما رده على أبي بكر الأديفوي وزعم أنه غلط فيه في كتاب الإبانة.

١ / المصدر السابق: ص ٥١.

٢ / الكشف عن وجوه القراءات: المقدمة، ص ٥.

٣ / الإبانة عن معاني القراءات: ص ٣٣.

٥ / كتاب: الرسالة إلى أصحاب الإنطاكي في تصحيح المد لورش.

٦ / كتاب: إصلاح ما أغفله ابن مسرة في قراءات شاذة.

ب / مؤلفاته^(١):

أولاً- مؤلفاته في علوم القرآن:

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
/١	الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه.	٧٠	موجود
/٢	المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره.	١٠	مفقود
/٣	التبصرة في القراءات.	٥	موجود
/٤	المهجز في القراءات.	٢	مفقود
/٥	منتخب حجة أبي علي الفارسي.	٣٠	مفقود
/٦	الرعاية لتجويد القراءة.	٤	موجود
/٧	اختصار أحكام القرآن.	٤	مفقود
/٨	الكشف عن وجوه القراءات.	٢٠	موجود
/٩	الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه.	٣	موجود
/١٠	الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه.	١	مفقود

١ / رجع الباحث - لمعرفة مؤلفات مكّي - إلى ثبت مصنفاته في كتاب إنباه الرواة للقفطي. وتعرّف على الموجود منها والمفقود ممّا كتبه الدكتور أحمد حسن فرحات وأودعه كتابه المسمى: (مكّي بن أبي طالب وتفسير القرآن)، والذي عرّف بمؤلفات مكّي تعريفاً دقيقاً مع ذكر الموجود منها والمفقود إلى سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
/١١	التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه.	٢	مفقود
/١٢	الانتصاف فيما رده على أبي بكر الأدفوي وزعم أنه غلط فيه في كتاب الإبانة.	٣	مفقود
/١٣	الرسالة إلى أصحاب الأنطاكي في تصحيح المد لورث.	٢	مفقود
/١٤	الإبانة عن معاني القراءة.	١	موجود
/١٥	انتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن وإصلاح غلطه.	٤	مفقود
/١٦	الوقف على (كلا وبلى) في القرآن.	٢	موجود
/١٧	الاختلاف في عدد الأعشار.	١	مفقود
/١٨	الاختلاف بين قالون وأبي عمرو.	١	مفقود
/١٩	الاختلاف بين قالون وابن كثير.	١	مفقود
/٢٠	الاختلاف بين قالون وابن عامر.	١	مفقود
/٢١	الاختلاف بين قالون وعاصم.	١	مفقود
/٢٢	الاختلاف بين قالون وحمزة.	١	مفقود
/٢٣	الاختلاف بين قالون والكسائي.	١	مفقود
/٢٤	التبيان في اختلاف قالون وورث.	١	مفقود
/٢٥	شرح رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم.	١	مفقود
/٢٦	شرح الإدغام الكبير في المخارج.	١	موجود
/٢٧	اختصار الألفات.	١	مفقود
/٢٨	شرح الفرق لحمزة وهشام.	١	مفقود

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٢٩ /	بَيَانُ الصَّخَائِرِ وَالْكَبَائِرِ.	٢	مفقود
٣٠ /	شرح اختلاف العلماء في قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ^(١) .	١	مفقود
٣١ /	الاستيفاء في قوله عز وجل: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ^(٢) .	١	مفقود
٣٢ /	الاختلاف في الذبيح من هو؟	١	مفقود
٣٣ /	الاختلاف في الرسم من (هؤلاء) والحجة لكل فريق.	١	مفقود
٣٤ /	تنزيه الملائكة من الذنوب وفضلهم على بني آدم.	١	مفقود
٣٥ /	الياءات المشددة في القرآن والكلام.	١	مفقود
٣٦ /	بَيَانُ إعْجَازِ الْقُرْآنِ.	١	مفقود
٣٧ /	بَيَانُ اختلاف العلماء في النفس والروح	١	مفقود
٣٨ /	شرح اختلاف العلماء في الوقف على قوله تعالى: (يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) ^(٣) .	١	مفقود
٣٩ /	شرح قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ^(٤) .	١	مفقود
٤٠ /	شرح قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ) ^(٥) .	٢	مفقود
٤١ /	أصول الخطاء في القرآن والكلام وذكر مواضعها في	١	مفقود

١ / سورة آل عمران: الآية (٧).

٢ / سورة هود: الآية (١٠٧).

٣ / سورة الحج: الآية (١٣).

٤ / سورة الذاريات: الآية (٥٦).

٥ / سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
	القرآن.		
/ ٤٢	الاختلاف بين أبي عمرو وجمرة.	١	مفقود
/ ٤٣	اختصار الإدغام الكبير على ألف: باء تاء ثاء.	١	مفقود
/ ٤٤	شرح مشكل غريب القرآن.	٣	موجود
/ ٤٥	شرح الراءات على قراءة ورش وغيره.	١	مفقود
/ ٤٦	اتفاق القراء.	١	مفقود
/ ٤٧	اختلاف القراء في ياءات الإضافة وفي الزوائد.	١	موجود
/ ٤٨	اختصار الوقف على كلاً، وبلى، ونعم	١	موجود
/ ٤٩	منح الوقف على قوله: (إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى) ^(١) .	١	موجود
/ ٥٠	شرح الاختلاف في قوله: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ) ^(٢) .	١	مفقود
/ ٥١	شرح معنى الوقف على: (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ) ^(٣) .	١	مفقود
/ ٥٢	التذكرة لاختلاف القراء السبعة.	١	—
/ ٥٣	قسمة الأحزاب.	١	مفقود
/ ٥٤	التهجُّت في القرآن.	٤	مفقود
/ ٥٥	قوله تعالى: (مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي) ^(٤) .	١	مفقود

١/ سورة التوبة: الآية (١٠٧).

٢/ سورة المائدة: الآية (١٠٣).

٣/ سورة يونس: الآية (٦٥).

٤/ سورة النساء: الآية (٢٣).

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٥٦ /	إصلاح ما أغفله ابن مسرة من قراءات شاذة.	١	مفقود
٥٧ /	الاختلاف في قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا) ^(١) .	١	مفقود
٥٨ /	شرح قوله تعالى: (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) ^(٢) الآيات الثلاث.	١	مفقود
٥٩ /	وجوه كشف اللبس التي لبس بها أصحاب الإنطاكي في المد لورث.	١	مفقود
٦٠ /	شرح قوله تعالى: (فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ) ^(٣) .	١	مفقود
٦١ /	فرش الحروف المدغمة.	٢	مفقود
٦٢ /	شرح التمام والوقف.	٤	مفقود
٦٣ /	تفسير ^(٤) مشكل المعاني والتفسير.	١٥	موجود
٦٤ /	علل هجاء المصاحف.	٢	مفقود
٦٥ /	ما أغفله القاضي منذر ووههم فيه في كتاب الأحكام.	٢	مفقود
٦٦ /	تمكين المد في آتى وآمن وما أشبهه.	١	موجود

١ / سورة فاطر: الآية (٣٢).

٢ / سورة المائدة: الآية (١٠٦).

٣ / سورة الشعراء: الآية (٦١).

٤ / وهو الكتاب المسمى: مشكل إعراب القرآن.

ثانياً- مؤلفاته في علوم العربية^(١):

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
/٦٧	الزاهي في اللحن الدالة على أصول مستعمل الإعراب.	٤	مفقود
/٦٨	دخول حروف الجر بعضها مكان بعض.	١	مفقود
/٦٩	مسائل الإخبار بالذي وباللألف واللام.	١	موجود
/٧٠	الوصول إلى تذكرة كتاب الأصول لابن السراج في النحو.	١	مفقود
/٧١	التذكرة لأصول العربية ومعرفة العوامل.	١	مفقود
/٧٢	شرح ^(٢) حاجة وجوائج وأصلها.	١	مفقود
/٧٣	(الرياض) ^(٣) مجموع.	٥	مفقود

ثالثاً- مؤلفاته في علوم أخرى:

أ/ في الفقه والمواظع:

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
/٧٤	شرح إيجاب الجزاء على قاتل الصيد في الحرم خطأً على مذهب مالك والحجة في ذلك.	١	مفقود
/٧٥	المدخل إلى علم الفرائض.	١	مفقود
/٧٦	الرد على الأئمة فيما يقح في الصلاة من الخطأ واللحن في شهر رمضان وغيره.	١	مفقود

١/ تُعدُّ مؤلفات مكِّي في علم التجويد التي وردت في مؤلفاته في علوم القرآن جزءاً من مؤلفاته في علوم العربية؛ لأنها تتناول أصوات الكلام وأصوات القرآن.

٢/ الكتاب من مؤلفاته في النحو والأدب.

٣/ الكتاب من مؤلفاته في النحو والأدب كذلك.

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٧٧/	بياض العمل في الحج من أول الإجماع إلى الزيارة لقبر النبي ﷺ.	١	مفقود
٧٨/	فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً.	١	مفقود
٧٩/	دعاء خاتمة القرآن.	١	مفقود
٨٠/	شرح الحارثية والحريّة.	١	مفقود
٨١/	الترغيب في النوافل.	١	مفقود
٨٢/	الترغيب في الصيام.	١	مفقود
٨٣/	منتقى الجواهر في الدعاء.	١	مفقود
٨٤/	الموعظة المنبهة.	١	مفقود
٨٥/	المبالغة في الذكر.	١	مفقود
٨٦/	تحميد القرآن وتهليله وتسبيحه.	١	مفقود
٨٧/	الهداية في الفقه المالكي ^(١) .	—	—
٨٨/	الواعي في الفرائض.	—	مفقود

ب/ في التاريخ والتراجم:

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٨٩/	المنتقى في الأخبار.	٤	مفقود
٩٠/	إسلام الصحابة (مختصر).	١	مفقود
٩١/	فهرس ^(٢) مكّي بأسماء شيوخه وتآليفه.	—	مفقود

١/ ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك: ٧٣٧/٣.

٢/ ذكره الزركلي في الأعلام: طبع دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م، =

ج / في تعبير الرؤيا:

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٩٢ /	الإشارة ^(١) في تعبير الرؤيا.	١	مفقود
٩٣ /	الممتح ^(٢) في تعبير الرؤيا.	١	مفقود

$$= ٢٨٦ / ٧٠.$$

١ / ذكره صاحب إيضاح المكنون: طبعة ١٩٤٥ م، بإسلامبول، ٨٥/١.

٢ / ذكره صاحب إيضاح المكنون: ٥٥٤/٢؛ وذكره كذلك صاحب هدية العارفين:

$$= ٢٧١ / ٢.$$

المبحث الثاني معرفته بعلم الأصوات ومؤلفاته فيه

المطلب الأول معرفته بعلم الأصوات

إِنَّ لِمَكِّيَّ بن أبي طالب جُهْدًا جَبَّارًا، وَشِقًّا كُبَّارًا، وَقَلَمًا حَبَّارًا، وَمَنْهَجًا سَبَّارًا، فِي دِرَاسَةِ أَصْوَاتِ اللُّغَةِ وَالْكَلامِ، وَأَصْوَاتِ الْقُرْآنِ. فَقَدْ بَيَّنَّ قَدْرَهَا، وَرَتَّبَ مَخَارِجَهَا، وَحَدَّدَ صِفَاتَهَا، وَوَضَعَ أَلْقَابَهَا، وَفَسَّرَ مَعَانِيَهَا، وَأَجَادَ فِي تَعْلِيلِهَا، وَوَضَّحَ أَحْكَامَهَا، وَبَيَّنَّ مَا يَلْزِمُهَا.

لَقَدْ عَاشَ الْبَاحِثُ مَعَ مَكِّيٍّ مِنْذُ كَانَ يَعِدُّ رِسَالَتَهُ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الْمَاجِسْتِيرِ. فَكَانَ مَكِّيٌّ مِنْ أَمِيرِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ أَفَادَ مِنْهُمْ فِي آرَائِهِمُ الصَّوْتِيَّةَ، وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ بَدَأَتْ صَحْبَةُ مَكِّيٍّ تَقْوَى يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، إِلَى أَنْ صَارَتْ جَهُودُهُ الصَّوْتِيَّةَ عُنْوَانًا لِهَذَا الْبَحْثِ، فَكَانَ الدَّافِعُ قَوِيًّا لِكِتَابَتِهِ بَعْدَ أَنْ قَوَّى اللَّهُ النِّيَّةَ وَحَدَّدَ الْبَصِيرَةَ فَسَهَّلَ أَمْرَهُ وَيَسَّرَ جَمْعَهُ وَأَعَانَ عَلَى كِتَابَتِهِ.

إِنَّ كُلَّ مَا بَيْنَ دَفْتِي هَذَا الْبَحْثِ وَسِيلَةٌ وَنَهْجٌ قُصِدَ مِنْهُ الْوُقُوفُ عَلَى مَدَى مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ مَكِّيٍّ بِعِلْمِ الْأَصْوَاتِ، وَلَقَدْ أَشَارَ الْبَاحِثُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِعِلْمِ الْأَصْوَاتِ فِي تَمْهِيدِ هَذَا الْبَحْثِ، حِينَمَا تَنَاولَ جُهُودَ الْعَرَبِ السَّابِقِينَ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ، وَكَانَتْ إِشَارَاتٌ وَاضِحَةٌ وَقَوِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ وَأَسْبَقِيَّتِهِ إِلَيْهِ^(١). وَيَجْدُرُ بِنَا هُنَا أَنْ نَعْضُدَ مَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي التَّمْهِيدِ بِنَمَازِجٍ وَضَاءَةٍ، وَذَلِكَ وَفَاقًا لِمَنْهَجِ الْبَاحِثِ فِي تَرْتِيبِ الْبَحْثِ مُتَدَرِّجًا فِي

١/ يُنْظَرُ، التَّمْهِيدُ: ص ٣٦-٣٨.

كشف حقيقة الجهود الصوتية لِمَكِّي وإبراز آرائه النيرة فيها، الأمر الذي عسى أن يتّضح أكثر في الأبواب التالية.

لقد درس مَكِّي أصوات اللّغة والكلام وأصوات القرآن الكريم دراسة نظرية وتطبيقية، وقد عنى في الجانب النظري بالتنبيه على أهمية هذه الأصوات الكلامية، مبيناً وظائفها الحيوية.

يقول عن القرآن الكريم: "أنزله بلسان العرب المبين، ونظمه من الحروف التي في حكتها عبرة للمعتبرين، ودلالة للمتوسّمين، إذ قد استولت مع قلّتها على جميع لغات العرب مع اتساعها اعتباراً في الخطب والكلام والأشعار، ورُتّب تبارك وتعالى اسمه لها مخارج تخرج منها عند النطق بها من آخر الصدر الأعلى وما يليه من الحلق والفم إلى أطراف الشفتين وإلى الخياشيم، لا يخرج حرف من مخرج غير مخرجه إلاّ بتغيّر لفظه، ولا يتعدّى كل حرف عند النطق به عن مخرجه ورُتّبته التي أنزله الله فيها"^(١).

يدل هذا أنها على أهمية وظائف الأصوات في نسج الكلام. ويربط ذلك بتصور إسلامي ينبع من إيمان صاحبه ويقينه بأن هذه الأصوات تخرج من أعضاء لها وظائف نطقية جنباً إلى جنب مع الوظائف الحيوية (البيولوجية) وليس كما يرى أكثر علماء الأصوات المحدثين وخاصة الغربيين الذين يرون أنّ الوظائف النطقية لهذه الأعضاء تُعدّ ثانوية وأنّ وظائفها الأساسية هي الوظائف الحيوية. فالرئتان -مثلاً- وظيفتهما الأساسية التنفّس لحفظ الحياة. أمّا وظيفتها النطقية وهي توفير مادة للأصوات أثناء عملية الزفير فإنما تُعدّ وظيفة ثانوية. واللسان وظيفته الأساسية الحيوية هي تحريك الطعام وتذوقه

ومدّه بالإفرازات المساعدة، ومن ثمّ ازدراده، أمّا وظيفته النطقية فهي أمر ثانوي.

ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها عند كل ذي نظر أنّ هذه الأعضاء وظائفها النطقية لا تُعدّ ثانوية على الإطلاق، والأصوات التي تخرج بواسطة هذه الأعضاء مهمة للغاية ومرتبطة بغاية خلق الإنسان؛ لأن الإنسان مكلف من قبل الله تبارك وتعالى، ولا يكون تكليف إلا بوجود مزيّة، وهذه المزيّة هي العقل، واللغة -التي هي عبارة عن نظام من الأصوات المتعارف عليها- إنما هي دليل على العقل، ودليل على القدرات، وقد أرسل الله تعالى الرسل إلى الناس بلغاتهم، فأقام عليهم الحجة، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(١).

لقد أدرك مكّي هذه الحقيقة، فكان تنظيره وتصوره مبنياً على عقيدته الإسلامية. والحقيقة مفادها أنّ العلم بالأصوات واللغات لا يُعدّ -بعد- هدفاً في حد ذاته، وإنما العلم بذلك وسيلة لغاية عظيمة هي: عبادة الله تعالى.

من هنا يدعو الباحث كل الباحثين المسلمين وخاصة الباحثين في مجال علم اللغة أن يحدوا حذو أسلافهم في اعتمادهم في أبحاثهم وتنظيرهم على تصور إسلامي مبني على العقيدة. ويحث على إعادة النظر في تعريف علم اللغة الذي أصبح عند الكثيرين غاية في ذاته؛ لأنهم عرّفوه بأنه دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها^(٢).

١/ سورة إبراهيم: الآية (٤).

٢/ يُنظر، محاضرات في علم اللغة العام: لفردينان ديسوسير، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز،

مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلي، طبع بيت الموصل، ١٩٨٨م،

ص ٢٥٣؛ ويُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: لمحمد السعران، ص ٤٩، نقلاً =

يمكن لقارئ كتاب مَكِّي المسمَّى بـ(الرعاية) أن يدرك فهم مَكِّي العميق للأصوات اللُّغوية، ويُلاحظ مدى اهتمامه بهذه الأصوات وحثه على العناية بها، وَلَمْ يقتصر في معالجته على الجانب القرآني منها، وقد ذكر ذلك في مقدمته وفي عناوين فصوله التي كان أولها: "باب معرفة الحروف التي يؤلّف منها الكلام..."^(١).

وكان يردّد دائماً لفظ (الكلام) أو (كلام العرب) كقوله في المقدمة: "... ثم نذكر علل الحروف والحركات وما استعملت العرب من ذلك"^(٢). وكقوله في الحديث عن الهمزة: "فلَمَّا لَمْ تثبت الهمزة في كلام العرب على لفظ واحد كما ثبتت كل الحروف..."^(٣).

ومع ذلك فإنه كان على وعي كامل بالفرق بين المستوى القرآني والمستوى الكلامي العام، وقد نبه إلى هذه الفروق بين مستويات الأداء مثل قوله في آخر حديثه عن الحروف الزائدة عن التسعة والعشرين وهي الحروف التي سماها بـ(الحروف الزائدة) وتسمى عند النحاة بالحروف الفروع. قال عن الحرف السادس من هذه الحروف: "وأما الحرف السادس فهو حرف لَمْ يُستعمل في القرآن، وهو حرف بين السين والجيم وهي لغة لبعض العرب"^(٤). وكقوله عما يزيد عن هذه الخمسة والثلاثين: "وبعض العرب يزيد عند الاضطرار إلى هذه الخمسة والثلاثين حرفاً سبعة أحرف، وهي قليلة

= عن كتاب دي سوسير السابق ذكره.

١/ الرعاية: ص ٩٣.

٢/ المصدر السابق: ص ٥٣.

٣/ المصدر السابق: ص ٩٥-٩٦.

٤/ المصدر السابق: ص ١١١.

الاستعمال في الكلام ولا تُستعمل في القرآن وهي شاذة، فتبلغ الحروف في عدتها اثنين وأربعين حرفاً^(١).

لقد كان لِمَكِّي حِكْمَةٌ وإدراك نافذ وعِلْم بالأصوات عموماً ممّا جعله يُدرك العلاقة بين أصوات الكلام وأصوات القرآن. وبهذا يجب عن السؤال الذي كنا قد طرحناه والذي هو: هل من الممكن دراسة الأصوات القرآنية وتعليمها بمعزلٍ عن دراسة الأصوات في كلام العرب؟
والواضح أنه لا يمكن ذلك بأي حال. وجهود مَكِّي بن أبي طالب خير دليل يؤكّد ارتباط نوعي الدراسة.

لقد تحدّث مَكِّي في مواضع كثيرة من كتابه (الرعاية) مبيّناً أهمية الأصوات داعياً إلى الاهتمام بها، وكأنه كان يُدرك أنّ الناس سينسّون هذا العِلْم. فقال عن الحروف: "فهذه التسعة والعشرون الحروف المذكورة عظيمة القدر، جليلة الخطر، لأنه بها أفهمنا الله كتبه كلها، وبها يُعرف التوحيد ويُفهم، وبها افتتح الله عامة السور، وبها أقسم، وبها نزلت أسماؤه وصفاته، وبها قامت حجة الله على خلقه، وبها تعقل الأشياء وتُفهم الفرائض والأحكام، وغير ذلك من شرفها كثير لا يُحصى"^(٢).

وبهذا وغيره يضع مَكِّي يده على أماكن أدوائنا الصوتية ومشكلاتنا التجويدية، ويجب عن أسئلة لازمت الكثيرين، ومن هذه الأسئلة: هل تُعدُّ دراسة الأصوات اللغوية مفردة أو مركّبة أمراً لا طائل وراءه؟، وأنها بدعٌ من القول ونافلةٌ في تفكيرنا الإسلامي؟

١/ الرعاية: ص ١١١-١١٢.

٢/ المصدر السابق: ص ٩٤.

ولكنه - كما مرّ - يؤكّد على أهمية الأصوات لأنّها اللّغة، فهي
-إذن- عظيمة القدر جليلة الخطر، وأجاب عن تلك التساؤلات عملياً بعدم
فصله بين الأصوات والمعاني، وبتأكيده على ارتباط العِلْمين ارتباط الجسم
بالروح والشكل بالمضمون. وهذا واضح من النص السابق.

ويعضي في ربطه بين الأصوات والدلالة. فهذا هو يوصي بالمحافظة أو بما
سمّاه هو بـ(التحفظ) على أصوات الكلام حتّى لا يضيع المعنى، ولأن المعنى
منوط بالأصوات. فيقول: "فاعرف هذه الصفات والألقاب واختلاف معانيها
وأحكامها وطبائعها، فلولا اختلاف صفات الحروف ومخارجها وأحكامها
وطبائعها التي خلقها الله -جلّ ذكره- عليها، ما فهم الكلام ولا علّم معنى
الخطاب، ولكانت الأصوات مُمتدة لا تُفهم. من مخرج واحد وعلى صفة
واحدة كأصوات البهائم"^(١).

ثم ينقل عن المازني^(٢) قوله: "إنّ الذي فصل بين الحروف التي ألف منها
الكلام سبعة أشياء: الجهر والهمس والشدة والإرخاء والإطباق والمد واللين.
قال: لأنك إذا جهرت أو همست أو أطبقت أو شددت أو مددت أو ليّنت،
اختلفت أصوات الحروف التي من مخرج واحد. قال: فعند ذلك يأتلف
الكلام ويُفهم المراد"^(٣).

١/ الرعاية: ص ١٤٢-١٤٣.

٢/ هو: بكر بن محمد بن بقية المازني أبو عثمان النحوي، من أهل البصرة، وهو أستاذ
المبرّد، مات سنة ٢٤٩هـ؛ [ينظر، معجم الأدباء: لياقوت الحموي، تحقيق الدكتور
إحسان عباس، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة
١٩٩٣م، ٢/٧٥٧].

٣/ الرعاية: ص ١٤٣.

وكان مكي دائم التنبيه على عدم إهمال التجويد والتحقيق لما يترتب عليه من تشويه صوتي وإخلال في ميزان المعنى والدلالة كقوله في باب الظاء: "وإذا وقعت الظاء في كلمة، تُشبه كلمة أخرى بالذال بمعنى آخر وجب البيان للظاء لئلا ينتقل إلى معنى آخر وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(١)، أي ممنوعاً، فهو بالظاء، فبيَّنه لئلا يشته في اللفظ بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٢) فهذا بالذال من الحذر"^(٣).

إنَّ آراء مكي ومناقشاته وتوجيهاته في كتبه التي ألفها، وخاصة كتابي (الرعاية) و(الكشف)، لتؤكد جهوده في علم الأصوات، وتدل على معرفته التامة بهذا العلم، وهذا ما سيبدو -إن شاء الله- أكثر وضوحاً في الفصول والأبواب التالية.

١ / سورة الإسراء: الآية (٢٠).

٢ / سورة الإسراء: الآية (٥٧).

٣ / الرعاية: ص ٢٢١-٢٢٢.

المطلب الثاني

مؤلفاته في علم الأصوات

كان مَكِّي - رحمه الله - كثير التأليف، يدل على ذلك مؤلفاته التي ذكرها عدد غير قليل مِمَّن ترجموا له^(١). ومن بين تلك المؤلفات، مؤلفات في التجويد ومؤلفات في القراءات وأخرى في اللغة والنحو. وكانت مؤلفاته في التجويد تدل على عبقرية فذة ومعرفة واسعة بعلم الأصوات. ومعلوم أنَّ العلاقة بين علم الأصوات وعلم التجويد متشابكة ومتكاملة بحيث "... إنَّ المسافة بين علماء التجويد وعلماء الأصوات المحدثين قد تضيق جداً أو تنعدم في كثير من الموضوعات"^(٢). لذا فإنَّ بعض كُتُب التجويد تحمل اسم (الأصوات) ككتاب التجويد التعليمي: (أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها) للبروفسور يوسف الخليفة أبو بكر^(٣).

لهذا يعدُّ الباحث كل كُتُب مَكِّي في التجويد كُتباً في علم الأصوات. أمَّا أشهر كُتبه في القراءات التي تناول فيها الأصوات فهو كتاب (الكشف عن

١/ أورد القفطي ثبثاً بمؤلفاته إلى آخر سنة ٤٢٣هـ، وفيه تسعة وثمانون تأليفاً. يُنظر، فهرست ابن خير الإشيلي: ط بيروت، ١٩٦٢م، ص ٤٤٤؛ ويُنظر، بغية الملتبس: ص ٤٦٩؛ ويُنظر، هدية العارفين: ص ٤٧٠.

٢/ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: د. غانم قدوري الحمد، ص ١٦٦؛ ويُنظر، رواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء (دراسة صوتية تحليلية): للباحث، رسالة ماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٩٨م، ص ٥٢-٥٣.

٣/ هو: البروفسور يوسف الخليفة أبو بكر، أستاذ علم اللغة والقراءات، وهو من طلائع السودانيين المتخصصين في علم الأصوات، وكانت له جهود جبَّارة في كتابة المصحف الشريف وطباعته برواية الدُّوري عن أبي عمرو.

وجوه القراءات السبع) الذي ضمَّه كثيراً من آرائه الصوتية.

أمَّا كُتُبُ النَّحْوِ فقد وقف الباحث على كتاب (مشكل إعراب القرآن)، وقد وجد فيه ملاحظات صوتية متناثرة هنا وهناك ممزوجة في أحيان كثيرة بالمستوى الصَّرْفِي، وأكثر جهوده وآرائه الصوتية في هذا الكتاب إنما تتعلق بجانب الأصوات الصائتة (Vowels).

وهذه هي الكتب التي يرى الباحث أنها تمثل جهود مكي ابن أبي طالب في علم الأصوات:

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
١/	الرعاية ^(١) .	٤	موجود
٢/	الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها ^(٢) .	٢	موجود
٣/	تمكين المجد في آتى وأمن وما أشبهه ^(٣) .	١	موجود
٤/	مشكل إعراب القرآن ^(٤) .	٢	موجود

١/ حققه: د. أحمد حسن فرحات، طبع في دار عمار بالأردن، (عمان)، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م؛ يُنظر، إنباه الرواة: ٣/٣١٣ وما بعدها؛ وذكر أنه أربعة أجزاء.

٢/ حققه: د. محيي الدين رمضان، ونشر وطبع في مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م؛ يُنظر، إنباه الرواة: ٣/٣١٣ وما بعدها؛ وذكر أنه عشرون جزءاً.

٣/ عثر الباحث على نسخة منه، حققها: د. أحمد حسن فرحات، منشورة في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م؛ يُنظر، إنباه الرواة: ٣/٣١٣ وما بعدها.

٤/ ورد كذلك باسم: تفسير مشكل المعاني والتفسير، حققه: د. حاتم صالح الضامن، طبع

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
٥/	الرسالة إلى أصحاب الأنطاكي في تصحيح المد لورث ^(١) .	٢	مفقود ^(٢)
٦/	شرح الإلغام الكبير ^(٣) (في المخارج).	١	مفقود
٧/	الياءات المشددة في القرآن والكلام ^(٤) .	١	مفقود ^(٥)
٨/	أصول الظاء في القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن ^(٦) .	١	مفقود
٩/	اختصار الإلغام الكبير على ألف: با - تا - ثا ^(٧) .	-	مفقود
١٠/	شرح الراءات على قراءة ورث وغيره ^(٨) .	١	مفقود

ونشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م؛ يُنظر، إنباه =
= الرواة: ٣١٣/٣ وما بعدها؛ وذكر القفطي إنه خمسة عشر جزءاً.

١/ إنباه الرواة: ٣١٣/٣ وما بعدها.

٢/ يُنظر، عنايته بالتأليف من المبحث الأول الفقرة (ب) لمعرفة الكتب المفقودة.

٣/ إنباه الرواة: ٣١٣/٣ وما بعدها.

٤/ المصدر السابق: إنباه الرواة: ٣١٣/٣ وما بعدها.

٥/ وجد الدكتور أحمد حسن فرحات نسخة منه في المكتبة الوطنية التونسية؛ يُنظر، مكي
وتفسير القرآن: ص ١٣٢.

٦/ إنباه الرواة: ٣١٣/٣ وما بعدها.

٧/ المصدر السابق: ٣١٣/٣ وما بعدها.

٨/ المصدر السابق: ٣١٣/٣ وما بعدها.

الرقم	الكتاب	أجزاؤه	بيانه
١١ /	وجوه كشف اللبس التي لبس بها أصحاب الإنطاكى في المد لورش ^(١) .	-	مفقود
١٢ /	فرش الحروف المدغمة ^(٢) .	٢	مفقود

هذه مؤلفات مكّي بن أبي طالب التي توضح جهوده - حسب علم الباحث - في علم الأصوات، منها أربعة فقط موجودة وثمانية مفقودة، وتمكّن الباحث من العثور على الموجود منها إلاّ كتاب (شرح الإدغام الكبير). أمّا كتاب (الرعاية) فيُعدُّ أهم هذه الكتب التي تُعالج الأصوات اللغوية عموماً، وأصوات القرآن الكريم على وجه التحديد، لأنه: "يتمتع بالأصالة والأولية في موضوعه، والتفرد في هدفه ومنهجه، والتمثيل الصادق للمشكلات الصوتية والتجويدية إلى عصره وكيفية معالجتها، خاصة عندما تتصل بقراءة القرآن الكريم وتلاوته"^(٣).

ولأنه يدرس الأصوات القرآنية وأصوات الكلام بجانبها النظري والتطبيقي. ويُعدُّ الكتاب سفرًا قيماً وأصيلاً في دراسة الأصوات على مستوياتها التحليلية والتركيبي. فهو إذن يدرس الأصوات ويعالجها في أفرادها وفي سياقها مشابهاً إلى حد كبير دراسة المحدثين وفقاً لمصطلحي (Phonetic) و (Phonology).

أمّا كتاب (الكشف) فهو كتاب في القراءات ويُعدُّ أحد الأصول فيها

١ / المصدر السابق: ٣/٣١٣ وما بعدها.

٢ / المصدر السابق: ٣/٣١٣ وما بعدها.

٣ / يُنظر، الرعاية: المقدمة، (مقدمة الطبعة الثانية)، ص ٧.

مع التعليل والاحتجاج لاختلاف القراءات القرآنية الصحيحة، لذلك فالكتاب يبحث في أصول اللغة ولهجاتها، ويتعرض لمناهج ومذاهب المتقدمين من اللغويين والنحاة والقراء.

لقد حوى الكتاب العديد من الآراء الصوتية القيّمة عند معالجة الاختلافات، وكانت النتائج دائماً في غاية الأهمية، وظهرت فيه مهارات المؤلف كالضبط والوضوح والإحاطة.

والكتاب يُعدُّ من الجهود التي تُضاف إلى علم الأصوات اللغوية الوظيفي (*Functional Phonetics*) والذي يُسمّى بـ (علم الفونولوجيا) (*Phonology*).

ولقد تعرض الكتاب إلى ظواهر لغوية كثيرة تعرضاً واضحاً ومهماً. وهي ظواهر لغوية ناتجة عن تأثر الأصوات الصامتة والصائتة بعضها ببعض نتيجة لانتظامها في سلسلة من الكلام، فلا تكاد تظهر فقرات هذه السلسلة ظهوراً صوتياً ملموساً إلاّ بجلجلة هذه الفقرات نتيجة لاحتكاكها. وهذا الاحتكاك ناتج عن تفاعلها وتداخلها لاختلاف أماكن نطقها وكيفياته. فنجد الكتاب يدرس ظواهر مثل: الإدغام الكبير والصغير، والفتح والإمالة، وتحقيق الهمز وتخفيفه. وظواهر مثل: الرّوم، والإشمام، والاختلاس، والمد، وغير ذلك.

أمّا كتاب (تمكين المد في آتى وأمن وما أشبهه) فهو كتاب نقدي يبيّن أنّ إشباع المد وتمكينه في نحو هذه الكلمات لا يخرجها من حيّز الخبر إلى حيّز الاستفهام. وهو كتاب أُلّف لحاجة مُلحّة في عصر المؤلف كما هو واضح في مقدمته.

وقد جاء الكتاب حاوياً لآراء صوتية عتيقة وأصيلة، مشتملاً على العديد من المصطلحات الصوتية التي ابتدعها مكّي واستطاع الباحث -بعد عون الله تعالى- أن يجد لها ما يقابلها من مصطلحات علم الأصوات الحديث التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

أمّا كتاب (مشكل إعراب القرآن) فهو كتاب في النحو وإعراب القرآن ظهرت فيه براعة المؤلّف في هذا الفن، وقد وجد الباحث -من خلال اطلاعه على الكتاب- أن تناول المؤلّف للأصوات فيه واضح.

وبعد، فهذه هي الكتب الموجودة والمطبوعة التي توضّح مجهودات مكّي ابن أبي طالب في علم الأصوات. وهي التي اعتمد عليها الباحث في دراسته هذه آملاً أن تؤدي إلى توجيه الاهتمام بدراسة جهود هذا العالم في الدراسات اللغوية عموماً فهي مجال ما زال خصباً للدارسين والباحثين.

البَابُ الثَّانِي

الأصوات اللخوية عند مكي
على المستوى التحليلي

الفَصْلُ الأوَّلُ

وصف لأعضاء النطق

الفَصْلُ الثَّانِي

نصيفه للأصوات الصامتة

الفَصْلُ الثَّالِثُ

نصيفه للأصوات الصائتة

الفصل الأول

وصف أعضاء النطق عند مكّي

درجت الدراسات الصوتية الحديثة على توسيع دائرة البحث في الأصوات، فتعددت مجالاتها وتشعبت فروعها، وأصبح علم الأصوات من العلوم الزاخرة ذات الأصول والفروع، وأفاد الدارسون للأصوات من نتائج علم الفيزياء وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح، وقد اعتمد الدارسون المحدثون كثيراً على نتائج علم التشريح في تحديد أعضاء النطق أو الجهاز النطقي فوصفوا هذه الأعضاء وصفاً دقيقاً مستفيدين مما توفر لهم من أجهزة إلكترونية، وقد أشار الباحث إلى ذلك في تمهيد هذا البحث.

لَمْ يتعرض مكّي لتفصيل الحديث في أعضاء النطق، وما تحدث عنها في إطار مبحث أو فصل أو باب في مؤلفاته، وَلَمْ يعقد حولها دراسة خاصة بها وإنما كان يذكرها عَرَضاً حينما يعرض لقضايا المخارج والصفات. والمتصفح لكتاب (الرعاية) لا يجد فيه أيّ مبحث أو دراسة مستقلة لأعضاء النطق. ويبدو أن لذلك أسباباً، منها:

١/ أن علم الأصوات كان في بدايات ظهوره آنذاك وأنّ قضايا أصوات اللغة لَمْ تبحث مستقلة، وإنما كانت متفرقة وغير مشروحة، لا غَرَوَ فمكّي من أوائل الذين أَلْفُوا في هذا الفن^(١).

٢/ لَمْ تكن دراسة الأصوات لذاتها، وإنما كانت لغرض تجويد أصوات القرآن خاصة، وأصوات اللغة بشكل عام، على الرغم من أن دراسة مكّي

١/ يُنظر، الرعاية: ص ٥٢.

للأصوات إنما تفسر الظواهر الموجودة فعلاً وتصفها^(١).

٣/ اعتماده - كغيره من القدماء - على الملاحظة الذاتية والوصف النظري وإعوازهم للأجهزة المساعدة على تحديد أعضاء النطق تحديداً دقيقاً.

٤/ ربما كان يرى أن الحديث عن أعضاء النطق أمرٌ لا طائل وراءه ولا يفيد الدرس الصوتي فائدة عملية؛ لذلك فهو ليس ضرورياً في تعلم وتعليم الأصوات اللغوية، خاصةً وأنَّ منهج مكي يقوم على أسس تعليمية عملية وأنه كان كثير الاهتمام بالأصوات في جوانبها الوظيفية والتطبيقية، ولكن مع ذلك نستطيع أن نُبرز وصفاً لأعضاء النطق عنده من كتابه (الرعاية):

أ- الرئتان^(٢):

لَمْ يتعرض مكي للرئتين بالذكر في حديثه عن الأصوات أو الحروف في كتبه - حسب اطلاع الباحث - شأنه في ذلك شأن المتقدمين من علماء العربية، والسبب في ذلك هو أنَّ عنايتهم كانت بالصوت الذي يبدأ تشكيله من الحنجرة، ولأنَّ الرئتين لا تنتجان صوتاً، وإنما دورهما الأساسي هو إنتاج الهواء، ولكن إغفالهم ذكر الرئتين غير موفق؛ لأنهما تُعدَّان "العضو الفعال الذي يمد جهاز النطق بمادة الصوت (الهواء) ويكسبه خصوصية الحركة"^(٣).

١/ يُنظر: التمهيد لهذا البحث.

٢/ يكتفي الباحث في حديثه حول أعضاء النطق بما يتصل بجهود وآراء مكي فقط دون شرح لهذه الأعضاء فقد فصل فيها القول في التمهيد.

٣/ الأصوات ووظائفها: محمد منصف القماطي، ط ١، ١٩٨٦م، نشر جامعة الفاتح، ليبيا، ص ٣٦.

ب- القصبة الهوائية:

كذلك لَمْ يتعرض لها مَكِّي بالحديث لاتصالها بالرئة لكنه أشار^(١) - في حديثه عن الحروف الجوفية حينما تحدث عن ألقاب الحروف عند الخليل - إلى ما يدل على المقصود من الجوف؛ أنه ما دون الحلق، وهذا يشمل الحنجرة والقصبة الهوائية معاً. ولذا فإن تجويف القصبة الهوائية هو جزء كبير مِمَّا يسميه مَكِّي والمتقدمون بالجوف والذي يُعدُّ مخرجاً أو حيزاً لخروج الأصوات المدّية.

ج- الحنجرة:

لَمْ يشر مَكِّي إلى الحنجرة وَلَمْ يتطرق لها كما تطرق لها المحدثون، غير أنه أشار إشارة غامضة وذلك في حديثه عن مخرج الهمزة حيث قال: "..... لأن مخرجها من أقصى الحلق وهو يتصل بالجوف"^(٢). ومعلوم أن نقطة اتصال أقصى الحلق بالجوف تمثلها الحنجرة التي تُعدُّ أقصى الحلق وأدنى القصبة الهوائية التي تدل على الجوف، ومِمَّا يؤكد هذا عبارته في وصف مخرج الهمزة حين قال: "وهي تخرج من أول مخارج الحلق من آخر الحلق مِمَّا يلي الصدر"^(٣). كذلك لَمْ يشر إلى كل ما يتعلق بالحنجرة مثل الوترين الصوتيين ولسان المزمار. هذا يعني أن مَكِّيَّاً لَمْ تُتَح له الفرصة من تحقيق الدراية بالحنجرة وإلا فإننا سنرث علماً عظيماً وحُكماً دقيقاً في وصف الحنجرة التي تعد عند

١/ يُنظر، الرعاية: ص ١٤٢.

٢/ المصدر السابق: ص ١٤٢.

٣/ المصدر السابق: ص ١٤٥.

المحدثين أهم أعضاء النطق بعد اللسان؛ لأنها تجويف يُكسب الصوت صفات متنوعة، وقد رأيناها مُولعاً بتعداد ألقاب الحروف (الأصوات) وصفاتها^(١)، لذا فقد فاتته وفات غيره من القدماء معرفة الحنجرة وأهميتها لأسبابٍ ذُكرت^(٢).

د- الحلق:

الحلق معروف لدى مكِّي ذكره حينما تحدث عن ألقاب الحروف فلَقَّب بعضها -موافقاً للخليل- بالحروف الحلقية، وذكره كذلك حينما أنهى حديثه عن ألقاب الحروف مُمهّداً للحديث عن مخارج الحروف فقال: "فيجب أن تعلم أن للحروف التي تألف منها الكلام ستة عشر مخرجاً، للحلق منها ثلاثة مخارج"^(٣). وذكر الحلق كذلك حينما تحدث عن المخارج والهمزة عنده من الحروف الحلقية.

يُفهم من عبارات مكِّي حين قسّم الحلق إلى ثلاثة أقسام أقصاه ووسطه وأدناه وحين يضم الهمزة إلى مخارج الحلق معتبراً إياها آخر الحلق ممّا يلي الصدر وحين يعتبر الهمزة من الحروف الجوفية أحياناً ويعلل لذلك بقوله: "لأن مخرجها من أقصى الحلق وهو ما يتصل بالجوف"^(٤)، يُفهم من كل ذلك أن لفظ الحلق عنده يُطلق ليدل على المنطقة الممتدة من الحنجرة حتّى الطبقة أو اللهاة.

١/ ينظر، الرعاية: ص ١٢٨، فقد ذكر وشرح فيه أربعة وأربعين لقباً.

٢/ يُنظر بداية هذا الفصل.

٣/ الرعاية: ص ١٤٤.

٤/ المصدر السابق: ص ١٤٢.

هـ- اللهة:

اللهة كذلك من أعضاء النطق المعروفة لدى مكّي، ويقول عنها: "اللهة ما بين الفم والحلق"^(١). فيحدد موضعها ويبدو واضحاً أنه يحدد الفراغ الفموي من اللهة صعوداً إلى أعلى وأنّ الحلق يبدأ كذلك من اللهة هبوطاً إلى أسفل.

و- الحنك:

يُفهم من حديث مكّي حول المخارج أنه كان يركّز على الفم عموماً مهماً الحديث في تفاصيل الأعضاء الموزعة داخل تجويف الفم وهي اللثة أو أصول الثنايا (*Tooth ridge*) والحنك الصلب أو الغار (*Hard Palate*) والحنك اللين أو الطبق (*Soft Palate*) واللهة (*Uvula*)، ولكنه ذكر الحنك في مواضع من كتاب (*الرعاية*) منها حديثه عن مخرج الشين حيث قال: "الشين تخرج من المخرج الثالث من مخارج الفم بعد مخرج الكاف من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك"^(٢). من هنا يُفهم أنّه خصّ منطقة الغار بمصطلح (وسط الحنك) ويُفهم كذلك أنه يقسم الحنك أفقياً إلى ثلاثة أقسام (أقصى الحنك، وسط الحنك، وأدنى الحنك) وكذلك فعل سيوييه وابن جنّي^(٣). بل لقد أشار في كتاب (*الرعاية*) إلى لفظ الغار^(٤) وأضافه إلى لفظ

١/ الرعاية: ص ١٤٥.

٢/ المصدر السابق: ص ١٧٥، وقد ذكر ذلك صريحاً عند حديثه عن حروف الإطباق فقال: "وتنحصر الريح بين اللسان والحنك الأعلى".

٣/ يُنظر، الكتاب: ٤/٤٣٣؛ وسر الصناعة: ١/٤٧.

٤/ الرعاية: ص ٤٢٠.

الحلق حينما تحدث عن الغنة، وفي هامش الصفحة ذاتها أشار محقق الكتاب الدكتور أحمد حسن فرحات إلى ما يُفهم منه أن لفظ الغار مضاف إلى لفظ الحنك كما وُجد على هامش النسخة التي اعتبرها أصلاً للتحقيق، وعليه فإن الباحث يرى أن مَكِّيَّاً يقسم الحنك إلى أقسام يضيفها إليه فيقول مثلاً: لثة الحنك ويقصد به أدنى الحنك ويشمل الأسنان ويقول غار الحنك مثل ما فعل ذلك في حديثه عن الغنة ويقصد به وسط الحنك أو الحنك الصلب، ويقول طبق الحنك ويقصد به أقصى الحنك، إذن فإن الكلمة الصحيحة مضاف إليها كلمة (غار) هي كلمة (الحنك) لا الحلق، يدل على ذلك أنه أردف كلمة الأعلى وهي صفة للحنك ولا يصح أن تكون صفة للحلق. وفي هذا دليل على أن الحنك يُقسم عنده رأسياً إلى أعلى وهو الثابت، وأسفل وهو المتحرك.

ز- اللثة:

كما سبق ذكره فإن اللثة جزءٌ من الفم، ولقد علمنا أن عناية مَكِّي في توصيفه إنما انصرفت إلى الفم باعتباره مقسماً إلى عدة أقسام. ورغم ذلك فقد أشار إلى اللثة بقوله: "واللثة اللحم المركب فيه الأسنان"^(١).

ح- التجويف الأنفي:

يسميه مَكِّي الخياشيم شأنه شأن جميع المتقدمين من علماء العربية. وقد ذكر الخياشيم في عدة مواضع من كتاب الرعاية فذكرها في أبواب الحروف ومخارجها في باب النون^(٢)، وذكرها كذلك في باب

١/ الرعاية: ص ١٤٠.

٢/ المصدر السابق: ص ١٣٧.

الميم^(١)، وفي باب الغنة^(٢). وذكر الخياشيم كذلك عند حديثه عن صفات الحروف وألقابها.

عرّف مكي الخيشوم بقوله: "هو المركب فوق غار الحلق الأعلى"^(٣). والكلمة الصحيحة المضاف إليها كلمة (غار) كما بيّنا هي الحنك وليس الحلق.

واختياره لكلمة (المركب) فيها من الدلالة التي توحى بأن الخياشيم أو التجويف الأنفي عضو إضافي يزيد من تحسين أداء الأصوات وإكسابها لوناً من ألوان الزينة والجمال.

ط - اللسان:

لَمَّا كان اللسان العضو الفَعَّال في النطق فإننا وجدناه من أكثر الأعضاء ذكراً عنده. ولقد تكرر وتعدد ذكره في كتاب الرعاية حينما عرض لصفات الحروف وألقابها وحين تقسيمه لمخارج الحروف. ومن المهم أن نعلم أنه قسّم الفم إلى اثني عشر مخرجاً يكون اللسان في عشرة منها ناطقاً أساسياً. ونرى أن اللسان يُقسّم عنده أفقياً إلى:

(أ) أفقي فوقي.

(ب) أفقي جانبي.

١ / الرعاية: ص ٢٣٢.

٢ / المصدر السابق: ص ٢٤٠.

٣ / المصدر السابق: ص ٢٤٠، وقد أضاف محقق الكتاب في الهامش كلمة الحنك بدلاً من الحلق لتصحيح (غار الحلق) كما وجدها على هامش الأصل الذي اعتمد عليه.

أمّا التقسيم على الأساس الأول (أفقي فوقي) فنحصل منه على:

١ / أقصى اللسان^(١).

٢ / وسط اللسان^(٢).

٣ / طرف اللسان^(٣).

وأمّا التقسيم على الأساس الثاني (أفقي جانبي) فنحصل منه على:

١ / أول حافة اللسان^(٤)، أي أقصاه.

٢ / أدنى حافة اللسان^(٥).

ي- الأسنان:

لَمْ يتحدث مَكِّي عن الأسنان بالتفصيل والتقسيم الذي نجده عند بعض القدماء^(٦)؛ لأنه - كما سبقت الإشارة إليه - كان يركز على وظائف هذه الأعضاء دون اللجوء إلى تشريحها كما يفعل علماء الأصوات المحدثون.

لقد ورد ذكر الأسنان عنده عند حديثه حول ألقاب الحروف العشرة التي لُقِّبها بها الخليل، وعند حديثه حول الحروف اللثوية (الظاء، الثاء، والذال) وكأني بِمَكِّي يجعل اللثة والأسنان شيئاً واحداً، قال: "واللثة

١ / الرعاية: ص ١٧١.

٢ / المصدر السابق: ص ١٧٥.

٣ / المصدر السابق: ص ١٩٣، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٢٠.

٤ / المصدر السابق: ص ١٨٤.

٥ / المصدر السابق: ص ١٨٨.

٦ / يُنظر، أدب الكاتب: لابن قتيبة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة،

مصر، (د.ت)، ص ١٢٥.

اللحم المركَّب فيه الأسنان" (١).

ذكر كذلك الأضراس (٢) حينما تحدَّث عن الضاد وأشار إلى أصول الثنايا (٣) عند حديثه حول الطاء والذال والطاء، وذكر الثنايا السفلى (٤) كذلك حينما تحدث عن الزاي والسين والصاد، والثنايا العليا (٥) حينما تحدث عن الطاء والطاء والذال والفاء.

ك- الشفتان:

أشار مكِّي إلى الشفتين حينما أورد تلقيب الخليل للحروف اشتقاقاً من أسماء مواضعها التي تخرج منها، وسمى الحروف التي تخرج منهما بالشفهية أو الشفوية، وهي: الفاء والباء والميم (٦). وأشار إلى الشفتين أيضاً حينما عمد إلى دراسته التطبيقية في كتابه حول هذه الأصوات (الباء والفاء والميم) كلاً على حدة، وزاد إليها حرف الواو (٧). سواءً أكان حرف مدٍّ ولين أم حرف لينٍ فقط، وهو بهذا يجعل الشفتين مخرجاً لأربعة صوامت هي الفاء والباء والميم والواو غير المدّية وصائت واحد ذي مقدارين كميّين هما الضمة الطويلة (الواو المدّية) والضمة القصيرة.

١/ الرعاية: ص ١٤٠.

٢/ المصدر السابق: ص ١٨٤-١٨٥.

٣/ المصدر السابق: ص ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٤.

٤/ المصدر السابق: ص ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥.

٥/ المصدر السابق: ص ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤.

٦/ الرعاية: ص ١٤٢.

٧/ المصدر السابق: ص ٢٣٥.

الفصل الثاني

تصنيف الأصوات الصامتة عند مكّي

المبحث الأول - التصنيف باعتبار المخارج

المطلب الأول : عدد الأصوات العربية عنده.

المطلب الثاني : عدد المخارج عنده.

المطلب الثالث : ترتيب المخارج عنده.

المطلب الرابع : مخارج الأصوات عنده.

المبحث الثاني - التصنيف باعتبار الصفات

المطلب الأول : أهمية صفة الصوت عنده.

المطلب الثاني : تقسيم الصفات عنده.

المبحث الأول

التصنيف باعتبار المخارج

المطلب الأول

عدد الأصوات العربية عند مكِّي

إنَّ عدد أصوات اللغة العربية وترتيبها لا بد أن يعنى فيه بمخارجها، لذا فإنه من الأفضل الحديث عن عدد الأصوات العربية عند مكِّي قبل حديثنا عن تقسيمه وعرضه لمخارجها.

لقد عرض مكِّي لعدد الحروف لعربية في كتابه (الرعاية) ووضح المشهور منها وغير المشهور، والمستعمل بكثرة والمستعمل بقلة، وتعرض إلى علة تسميتها بالحروف، وبيّن أهميتها، وأشار إلى صورها الخطية، ومِمَّا قال:

"الحروف التي يؤلف منها الكلام تسعة وعشرون حرفاً وهي حروف (ا ب ت ث)، وشهرتها تغني عن ذكرها. وقد أُضيف إلى ذلك أحرف مستعملة وأحرف أُخر قليلة الاستعمال"^(١).

إذن فإنَّ عدد الأصوات عنده يبلغ تسعة وعشرين صوتاً نظرياً كما أشار إلى ذلك آنفاً، وتطبيقاً لما شرع يصف كل صوتٍ على حدة مبتدئاً بالهمزة منتهاً بالواو، وعقد لكل حرفٍ باباً على الترتيب الآتي:

الهمزة، الهاء، الألف، العين، الحاء، الخاء، الغين، القاف، الكاف، الشين، الجيم، الياء، الضاد، اللام، النون، الراء، الطاء، الدال، التاء، الزاي، السين، الصاد، الظاء، الثاء، الذال، الفاء، الباء، الميم، الواو.

المطلب الثاني عدد المخارج عند مكّي

سبقت إشارة من الباحث إلى عدد المخارج عند مكّي في تمهيد هذه الرسالة، ولكن بقيت أمور لا بد من ذكرها وإيضاحها لإزالة غموضها، ولقد وقف الباحث على حديث مكّي حول المخارج صراحة وتضميناً في كتابيه: (الكشف) و(الرعاية).

قال في (الكشف): "اعلم أنّ المخارج على الاختصار ثلاثة: الفم والحلق والشفتان"^(١). وأخذ يبيّن الأصوات التي تخرج من كل مخرج من هذه المخارج العامة، ومِمّا أشار إليه أنّ قوماً يجعلون الألف تخرج من الحلق، فقال: "وقد زاد قوم الألف"^(٢).

إنّ اختصاره في هذا الكتاب على ثلاثة مخارج عامة هي الحلق والفم والشفتان، وعدم ذكره للجوف والخيشوم يجعل عدة المخارج المفصلة خمسة عشر مخرجاً؛ لأنه طفق يذكر كل هذه الأصوات التي تخرج من المخارج التي اختصرها فكان عددها ثمانية وعشرين صوتاً ليس فيها حروف المد ولا حروف الغنة.

وقال في (الرعاية): "فيجب أن تعلم أنّ للحروف التي تألف منها الكلام ستة عشر مخرجاً"^(٣). ويقول في موضع آخر: "اعلم أنّ سيويوه"^(٤)

١/ الكشف: ص ١٣٩.

٢/ المصدر السابق: ص ١٣٩.

٣/ الرعاية: ص ١٤٤.

٤/ يُنظر، كتاب سيويوه: ٤/٤٣٣.

وأكثر النحويين يقولون إنّ للحروف ستة عشر مخرجاً، للحلق منها ثلاثة مخارج، وللفم ثلاثة عشر مخرجاً^(١).

فناه في كتاب (الرعاية) مرة ينص صراحة أنّ عدد المخارج ستة عشر مخرجاً، ومرة يبدو مؤيداً لكلام سيبويه وأكثر النحويين دون أن يوضح رأيه الصريح.

ثم نجده في مواضع أخرى من كتاب (الرعاية) يذكر جملة من القول، يفهم منه أنّ عدد المخارج سبعة عشر مخرجاً، متأثراً بمنهج الخليل بن أحمد، وذلك من خلال عرضه لألقاب الحروف عند الخليل، ومن تلك الألقاب التي عرضها: (الحروف الجوفية) وهي الألف والواو والياء، ويسمّيها أحياناً (الحروف الهوائية)^(٢). فناه يجعل الجوف من مخارج الأصوات، وكان قبلُ قد أهمله فلم يذكره.

ثم إنه أفرد باباً للغنة وجعل مخرجها من الخياشيم، قال: "الغنة نون ساكنة تخرج من الخياشيم"^(٣). وفي حديثه عن أحكام النون الساكنة والتنوين يفهم ذلك أيضاً إذ جعل للنون مخرجين "مخرج لها ومخرج لغنتها"^(٤). وبذا يُضاف الخيشوم - كما أُضيف الجوف - إلى المخارج لتصبح سبعة عشر مخرجاً. وكان ابن الجزري في كتابه (النشر)^(٥) قد أشار إلى أنّ المحققين

١ / الرعاية: ص ٢٤٣.

٢ / الرعاية: ص ١٣٨-١٤٢.

٣ / المصدر السابق: ص ٢٤٠.

٤ / المصدر السابق: ص ٢٦٧؛ ويُنظر، الكشف: ١/١٦٦.

٥ / النشر: ١/١٩٨.

يجعلون عدد المخارج سبعة عشر، وقال إنه الصحيح المختار، وذكر من أولئك الخليل بن أحمد ومكي بن أبي طالب.

على الرغم من تصريح مكي بأن عدد المخارج ستة عشر مخرجاً، وعلى الرغم مما يفهم من حديثه في (الكشف) من أن مخارج الأصوات خمسة عشر مخرجاً، فإن الباحث يرى أن الأقرب إلى الصواب عدده للمخارج سبعة عشر مخرجاً للأدلة التي قدمت، ولأنه كان متأثراً بمنهج الخليل، والدليل على ذلك أن الخليل كان أكثر الأسماء التي ترددت في كتاب (الرعاية)، ومعلوم أن الخليل هو رائد الدراسات الصوتية عند العرب، فلا بد أن يكون مكي متأثراً به مقتفياً لأثره.

يرجح الباحث أن يكون عدد المخارج ستة عشر مخرجاً بإخراج الخيشوم؛ لأنه حيز يكسب صوت الميم والنون أحياناً قيمة صوتية إضافية تعتبر من الصفات المحسنة وهذه الصفة هي الغنة. والمخرج هو الموضع الذي ينحبس عنده الهواء أو يضيق مجراه عند النطق بالأصوات ولا تحدث هذه الكيفية مع صفة الغنة، فالغنة -إذن- صفة وليست صوتاً حتى يصبح لها مخرج.

المطلب الثالث

ترتيب المخارج عند مكّي

الحديث حول ترتيب المخارج عنده يقتضي الوقوف على ترتيبه للأصوات ذاتها؛ لأن منهج مكّي والقدماء في الدرس الصوتي كان دقيقاً ومتجانساً، تضم فيه الأفكار المتشابهة، وتحد فيه الحدود بين النقائص، وكانت الآراء فيه مرتبة، والأفكار تجمع بين الدقة والوضوح، ومِمَّا يؤكد ذلك أنهم يرتبون الأصوات ترتيباً يوافق ترتيب مخارجها في دقة متناهية وعرض سافر، وكذلك فعل مكّي حينما جعل لكل حرف باباً مبتدئاً بالهمزة ومنتهاً بالواو^(١).

لذلك فقد كان ترتيب المخارج عنده تصاعدياً إلى أعلى مبتدئاً من أقصى الحلق متدرجاً حتّى ينتهي بالشفيتين، على عكس طريقة المحدثين، فإنهم يبدؤون من الشفتين هبوطاً إلى أسفل. ودرج كثير من المحدثين^(٢) العرب على تقليد علماء الأصوات الغربيين في هذا الشأن، ولا عذر لهم في سلوكهم هذا المسلك، إذ الأحرى اتباع طريقة القدماء العرب، خاصة أنه لا يترتب عليها ما يعيق الدرس الصوتي أو يقعد به عن التطور.

إنَّ أكثر ما يهمننا من هذا المبحث تعيين مخارج الأصوات عند مكّي مع شيءٍ من المقارنة بينه وبين المحدثين وبيان بعض وجوه الاختلاف وأسبابه.

١/ يُنظر، الرعاية: ص ١٤٥-٢٣٩.

٢/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: لأحمد مختار عمر، ص ٣١٥-٣١٩.

المطلب الرابع مخارج الأصوات عند مكّي

المخرج الأول - أقصى الحلق:

ويُقسَّم إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يخرج منه صوت، والأقسام هي:
أقصى أقصى الحلق، ووسط أقصى الحلق، وأدنى أقصى الحلق، ولم
يُشر مكّي -فيما وقف عليه الباحث- إلى عبارة أقصى الحلق، ولكن
عباراته تدل على هذا المعنى.

١/ أقصى أقصى الحلق: تخرج منه الهمزة، قال مكّي: "الهمزة أول
الحروف خروجاً، وهي تخرج من أول مخارج الحلق من آخر الحلق
مِمَّا يلي الصدر"^(١). إذن فإنَّ الهمزة أول الحروف خروجاً.
والمحدثون من علماء الأصوات ينسبونها إلى الحنجرة^(٢) أو المزمار^(٣).
ولمَّا كان المزمار يقع في أعلى الحنجرة، فإنَّ عبارة مكّي تدل على
أنَّ الحلق يشمل الحنجرة ولا خلاف -إذن- بينه وبين المحدثين في
تعيين مخرج الهمزة.

٢/ وسط أقصى الحلق: ويخرج منه صوت الهاء، قال مكّي: "الهاء
تخرج من مخرج الهمزة، من وسط المخرج الأول من مخارج
الحلق"^(٤).

١/ الرعاية: ص ١٤٥.

٢/ علم اللغة العام - الأصوات: كمال محمد بشر، ص ١١٢.

٣/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٨٩.

٤/ الرعاية: ص ١٥٥.

ورغم أنَّ مخرج الهاء هو مخرج الهمزة، لكن مَكِّيًّا يظل أكثر دقة في وصفه لمخرجها بإثباته للفرق الدقيق بين المخرجين وتفاوتهما، بينما يرى المحدثون أنَّ صوت الهاء يخرج من الحنجرة - كما الهمزة - ولا فرق بينهما إلا أنَّ الوترين الصوتيين يتباعداً^(١) مع الهاء وينطبقان مع الهمزة، أو يقتربان، فتضيق الفتحة بينهما مع الهاء وتغلق الفتحة مع الهمزة^(٢). ومثلما ذكر الفرق بين المخرجين - وهو أمر أكثر خفاءً - نجده - كذلك - يلاحظ الفرق بين الصفات ويشير إلى ما أشار إليه المحدثون فيقول: "ولولا الهمس والرخاوة اللذان في الهاء مع شدة الخفاء لكانت همزة"^(٣). فذكر الهمس الناتج عن عدم تذبذب الحبال الصوتية، وذكر الرخاوة الناتجة عن انفتاح ممر الهواء، وهو ما نصَّ عليه المحدثون.

٣/ أدنى أقصى الحلق: وقد جعله مخرجاً للألف، قال: "الألف مخرجها من مخرج الهمزة والهاء، من أول الحلق"^(٤). وقد قرر الباحث في حديثه^(٥) عن المخارج وعددها أنها عند مَكِّي سبعة عشر مخرجاً، وهو المختار، وذكره ابن الجزري في (النشر)^(٦). ولذلك عُدَّت

١/ يُنظر، علم اللغة: محمود السعران، ص ١٧٨.

٢/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار، ص ١١٥.

٣/ الرعاية: ص ١٥٥.

٤/ الرعاية: ص ١٦٠.

٥/ يُنظر، التمهيد: ص ٢٣؛ ويُنظر، المخارج عند مَكِّي: ص ١٤٠.

٦/ النشر: ١/ ١٩٨.

الألف عنده من مخرج الجوف، ومِمَّا يَقْوِي هذا ويؤكد قوله في كتاب (الكشف): "فأما الحروف التي تخرج من الحلق فسته، الهمزة والهاء والحاء والعين والحاء والغين"^(١). ثم قال: "وقد زاد قوم الألف"^(٢). فالأصل عنده أن الألف ليست من أصوات الحلق وإن عدّها بعضهم كذلك. ومن ذلك أيضاً قوله في باب الألف "لكن الألف حرف يهوي في الفم، حتّى ينقطع مخرجه في الحلق، فنسب في المخرج إلى الحلق لأنه آخر خروجه"^(٣). كأنه يريد أن يعلل ويحتج لمن جعل الألف من الأصوات التي تخرج من الحلق، بدليل قوله: "فنسب" وكان احتجاجه لهم أن الألف ينقطع النَّفس به في الحلق فيتوقف اندفاعه فتوهموا خروجه من الحلق.

لكن خروج الألف من الحلق يجعله صوتاً صامتاً يتمتع بكل خواص الصوامت، ومن ذلك خروجه من مخرج محدد. ولكن الألف ليس صوتاً صامتاً على الإطلاق وهو كذلك عند مكّي لذلك نقول ليس للألف مكان نطق محدد لأنه صوت صائت وجميع الصوائت تشترك في أنها ليس لها مكان نطق محدد كما أنه ليس لها ناطق محدد، ولكن يبدو أن مكّيّاً يغلب عليه منهجه كثيراً في إعطاء رأي واضح وقاطع فيميل إلى التوسع والاستطراد فيذكر كل ما قيل في الموضوع، ولو كان أحياناً مخالفاً لرأيه. ولا يخفى ذلك في مؤلفاته.

١ / الكشف: ١/١٣٩.

٢ / المصدر السابق: ١/١٣٩.

٣ / الرعاية: ص ١٦٠.

فانظر إلى قوله: "وقد زاد قوم الألف"^(١). وإلى قوله: "فُنُسب في المخرج إلى الحلق"^(٢). فيبدو هنا وصفاً أكثر منه معيارياً.

المخرج الثاني- وسط الحلق:

لَمْ يشر كذلك إلى وسط الحلق وإنما سماه المخرج الثاني من مخارج الحلق وقسّمه إلى قسمين:

أولاه: ويخرج منه صوت العين.

آخره: ويخرج منه صوت الحاء.

وترتيب مَكِّي لهذين الصوتين موافق لترتيب بعض المحدثين^(٣) مخالف لترتيب سيبويه^(٤)، فهو يرى أن العين أسبق ترتيباً من الحاء لذلك عدّها من أول المخرج الثاني من مخارج الحلق، بينما عدّ الحاء من آخر المخرج الثاني. والمحدثون كذلك يرتّبون هذين الصوتين فيبدءون بالحاء ثم العين؛ لأنهم يهبطون في ترتيبهم من أعلى إلى أدنى.

المخرج الثالث- أدنى الحلق:

سماه مَكِّي المخرج الثالث من مخارج الحلق، وقسّمه كذلك إلى قسمين: أوله وآخره ممّا يلي الفم.

١/ الرعاية: ص ١٣٩.

٢/ المصدر السابق: ص ١٦٠.

٣/ يُنظر، علم اللغة: لمحمود السعران، ص ١٧٨.

٤/ يُنظر، كتاب سيبويه: ٤/٤٣٣.

١/ أوله: لصوت الخاء، قال: "الحاء تخرج من أول المخرج الثالث من مخارج الحلق ممّا يلي الفم"^(١).

٢/ آخره: لصوت الغين، قال: "الغين تخرج من مخرج الخاء وبعدها، وهو آخر المخرج الثالث من مخارج الحلق ممّا يلي الفم"^(٢).

قدّم مكّي الحاء على الغين، وقدّم سيبويه^(٣) الغين على الخاء وكذلك فعل بعض المحدثين^(٤).

لكن يترجح لدى الباحث أنّ الحاء أعمق من الغين، وأنّ الغين أقرب إلى اللهة منها إلى أدنى الحلق. بدليل أنّ الغين تتبادل مع القاف والكاف في بعض اللهجات العربية، والقاف صوت لهوي^(٥) والكاف حنكي قصي^(٦)، فهما إذن أقرب إلى اللهة.

وكذلك فإنّ وصف القاف عند القدماء بالجهري يدل على أنّها تشبه إلى حدّ كبير صوت الغين، "والسودانيون يبدّلونها في قراءتهم للقرآن غيناً أو شيئاً قريباً من الغين"^(٧). لذلك تكون الحاء أقرب إلى الحلق، والغين أقرب إلى اللهة، فكان ترتيبهما عند مكّي بحسب ذلك. والمخارج الثلاثة المتقدمة يجمعها مخرج عام هو الحلق.

١/ الرعاية: ص ١٦٨.

٢/ المصدر السابق: ص ١٦٩.

٣/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

٤/ يُنظر، علم اللغة: لمحمود السعران، ص ١٧٧.

٥/ المصدر السابق: ص ١٥٦.

٦/ المصدر السابق: ص ١٥٦.

٧/ أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها: يوسف الخليفة أبو بكر، ص ٨٨.

المخرج الرابع- أقصى اللسان وما فوقه من الحنك:

وهو أول مخرج الفم مِمَّا يلي الحلق، ويخرج منه صوت القاف. قال مَكِّي: "القاف تخرج من المخرج الأول من مخرج الفم مِمَّا يلي الحلق من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك"^(١).

وينسب المحدثون من علماء الأصوات القاف إلى اللهة، فهو عندهم صوت لهوي، ومَكِّي كذلك لَمْ يفت عليه دور اللهة في إنتاج القاف فقد نقل عن الخليل أَنَّ القاف من الأصوات اللهوية، وأضاف إليه الكاف، قال: "سماهما الخليل بذلك لأنه نسبهما إلى الموضع الذي يخرجان منه وهو اللهة ما بين الفم والحلق"^(٢). فقد علل - كما ترى - تسمية الخليل لها باللهوية بخروجها من اللهة، وكذلك جعل القاف سابقة للكاف في الترتيب، وهو مذهب علماء العربية القدامى وعلماء التجويد.

المخرج الخامس:

لَمْ يسمّه، ولكنه قال عنه: "المخرج الثاني من مخرج الفم بعد القاف مِمَّا يلي الفم"^(٣). ويخرج منه صوت الكاف. وقد تابع مَكِّي سيبويه في عباراته وهو يتحدث عن مخرجي القاف والكاف. قال سيبويه: "ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى من مخرج القاف. ومن أسفل موضع القاف من اللسان قليلاً ومِمَّا يليه من الحنك الأعلى

١/ الرعاية: ص ١٧١.

٢/ المصدر السابق: ص ١٣٧.

٣/ المصدر السابق: ص ١٧٣.

مخرج الكاف" ^(١). ولا فرق بين كلام مكي وسيبويه. بل وافق مكي سيبويه في الترتيب. وقال مكي في موضع آخر: "وأما حروف الفم فقد تتشارك في المخرج وهي ثمانية عشر: القاف ثم الكاف....." ^(٢). إنَّ صوتي القاف والكاف وقبلهما الخاء والغين دار حولهما جدل في ترتيبها وخلاف بين علماء الأصوات القدامى والمحدثين. وحتىَّ المحدثين اختلفوا فيما بينهم حول ترتيبها ولكنهم -أي المحدثين- يخرجون الخاء والغين ولا يعدونهما من أصوات الحلق.

أمَّا اختلاف المحدثين في ترتيب هذه الأصوات الأربعة فقد بسطه الدكتور غانم قدوري الحمد ^(٣) في رسالته للدكتوراه، ملخصه: أنَّ بعض المحدثين يقدم مخرج القاف على مخارج الغين والحاء والكاف هكذا (ق/غ خ ك) فتخرج الغين والحاء -عندهم- عن كونهما صوتين حليقيين إلى كونهما صوتين حنكيين قصيين، وتكون القاف من اللهة ^(٤). وذهب بعضهم إلى ضم الغين والحاء إلى القاف بدلاً من ضمهما إلى الكاف فيكونان من اللهة ليصبح الترتيب: (غ خ ق/ك) ^(٥). بينما مال بعض المحدثين إلى نهج علماء العربية القدامى

١/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

٢/ الكشف: ١/ ١٣٩.

٣/ أستاذ جامعي عراقي، ألَّف رسالة دكتوراه في كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٨٥م، بعنوان: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد.

٤/ الدراسات الصوتية: لغانم قدوري الحمد، ص ١٩٥؛ يُنظر، علم اللغة العام - الأصوات: لكمال محمد بشر، ص ١١٣.

٥/ دروس في علم أصوات العربية: جان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، نشر مركز=

وعلماء التجويد فاعتبروا الغين والحاء من أصوات أدنى الحلق إلى الفم،
والقاف من اللهاة أو أقصى اللسان، والكاف أدنى من ذلك^(١)، وهذا
مذهب مقبول.

المخرج السادس- وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك:

يُقسَّم هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية هي:

١/ **أقصاه:** وتخرج منه الشين. قال مكي: "الشين تخرج من المخرج
الثالث من مخارج الفم بعد مخرج الكاف من وسط اللسان بينه
وبين وسط الحنك"^(٢). والشين عند مكي مُقدِّمة على الجيم
والياء^(٣).

والمرجح عند الباحث أن ترتيب هذه الأصوات من الناحية الصوتية
يتسق مع ترتيب مكي هكذا (ش ج ي)، خلافاً لترتيب سيبويه
وبعض علماء التجويد. قال سيبويه: "ومن وسط اللسان بينه وبين
وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء"^(٤). فإنه يقدم الجيم
على الشين. والسبب في هذا الترجيح أن ترتيب مكي لا يفصل بين
صوتي الجيم والياء؛ لأن الشين عنده تسبق الجيم والياء. وهذا
الترتيب يتسق مع ما جاء في بعض اللهجات العربية القديمة فيما
يخص ظاهرة الإبدال، لأنه لو لم تكن الشين بعد الكاف في الترتيب

=الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٦٦م، ص ٢٣.

١/ يُنظر، الأصوات اللغوية: لإبراهيم أنيس، ص ٨٥-٨٨.

٢/ الرعاية: ص ١٧٥.

٣/ يُنظر، الكشف: ١/ ١٣٩.

٤/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

ما تسنى إبدال كاف المؤنثة شيئاً عند الوقف، وهذا الإبدال يُلقَّب في اللهجات بالكشكشة. قال سيبويه: "فأما ناس كثير من تميم وناس من أسد فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين"^(١). وذلك مثل قولهم: (إئش). يريدون: (إنك). كذلك لو فصل بين الجيم والياء بالشين كما هو حاصل في ترتيب سيبويه (ج ش ي) ما تسنى تحويل الياء جيماً. وهو نوع من الإبدال يُلقَّب بالعجعة ويُنسب إلى قضاة. قال السيوطي: "ومن ذلك العجعة في لغة قضاة، يجعلون الياء المشددة جيماً، يقولون في تميمي: تميج"^(٢). ولهذا كان ترتيب مكّي من الناحية الصوتية أوفق. لأن من أهم أسباب الإبدال بين الأصوات تقارب المخارج.

٢/ **وسطه**: وهو مخرج الجيم. قال مكّي: "الجيم تخرج من مخرج الشين"^(٣). فهي تخرج من وسط اللسان، لكن من الجزء الأوسط من وسط اللسان وهي في الترتيب بعد الشين كما تقدّم.

٣/ **أدناه**: وتخرج منه الياء. قال مكّي: "الياء تخرج من مخرج الشين والجيم المذكورين وهو المخرج الثالث من مخارج الفم"^(٤).

١/ الكتاب: ٢/ ٢٩٥.

٢/ المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ط القاهرة، ١٩٥٨م، ١/ ٢٢٢؛ ولقد لاحظتُ أن ابنتي الكبيرة في صغرها تبدل الياء - أحياناً - جيماً، فتقول: (جدي) تريد (يدي)، ومن ذلك قول السودانيين: مسيد، يريدون (مسجد).

٣/ الرعاية: ص ١٧٦؛ ويُنظر، الكشف: ١/ ١٣٩.

٤/ الرعاية: ص ١٧٩؛ ويُنظر، الكشف: ١/ ١٣٩.

المخرج السابع- أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس:

وهذا المخرج تخرج منه الضاد. قال مكي: "الضاد تخرج من المخرج الرابع من مخارج الفم. من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس"^(١) وهو نفس كلام سيويه الذي قال: "ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد"^(٢).

والمحدثون يجعلون مخرجها من الأسنان لذلك توصف بأنها صوت سني^(٣). فهناك خلاف -إذن- بين وصف القدماء ووصف المحدثين لمخرج هذا الصوت؛ لأنّ الوصف الذي ذكره مكي وكذلك القدماء لا ينطبق على الضاد التي ينطقها الناس اليوم. وسوف يأتي الحديث حول الفرق بين الضاد القديمة والضاد الحديثة لاحقاً^(٤).

المخرج الثامن- أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه:

وتخرج منه اللام. قال مكي: "اللام تخرج من المخرج الخامس من مخارج الفم. بعد مخرج الضاد، وهي تخرج من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه"^(٥).

ويتميز مخرج اللام بالطول كما يتميز بأن الصوت معه لا يخرج من ملتقى العضوين وإنما يتخذ مسرباً آخر. وقد كان سيويه يصف

١/ الرعاية: ص ١٨٤؛ ويُنظر، الكشف: ١٣٩/١.

٢/ الكتاب: ٤٣٣/٤.

٣/ يُنظر مثلاً، علم اللغة: لمحمود السعران، ص ١٥٥.

٤/ يُنظر، ص ١٩٩-٢٠٠ من هذا البحث.

٥/ الرعاية: ص ١٨٨.

صوت اللام بأنه: "ليس كالرخوة، لأنَّ طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه، وليس يخرج الصوت من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك"^(١).

المخرج التاسع- طرف اللسان وفويق الثنايا:

وهو مخرج النون، قال مكي: "قال سيبويه: مخرجها من طرف اللسان، بينه وبين ما فويق الثنايا"^(٢).

ومكي يجعل النون نوعين، لكل واحدة منهما مخرج. فالنون المخففة أو الخفيفة مخرجها من الخياشيم، والنون المتحركة وهي المظهرة مخرجها ما أشار إليه. ويبدو أنَّه قد ربط بين مخرج النون من الفم وهو طرف اللسان مع ما يحاذيه من فويق الثنايا العليا وبين خروج النَّفس معها من الأنف فجعل لها مخرجين أحدهما مبني على أساس عضوي وذلك كائن في الفم، والآخر مبني على أساس صوتي سمعي وهو كائن في الأنف الذي هو الخيشوم، فقويت الصفة عنده حتَّى أصبحت مخرجاً للصوت وربما لم يقصد بالمخرج الثاني (الخيشوم) المكان الذي تحدث فيه العوائق والعقبات التي تعترض طريق الهواء، وهنا لا بد من وجود ناطق ومكان نطق، وإنما قصد بالمخرج خروج الهواء عن طريق الأنف (الخيشوم) أثناء نطق النون، أي أثناء التقاء طرف اللسان بالثثة، إذن فإنَّ الخيشوم مكان خروج الهواء فهو مخرج أو منفذ ويكون قصد بالمخرج معناه اللغوي دون ما اصطلاح عليه من تسمية.

١/ الكتاب: ٤/٤٣٥.

٢/ الرعاية: ص ١٩٣؛ ويُنظر، الكتاب: ٤/٤٣٣.

وقد صاغ مكي أمثلة لاختلاف مخرج النون - كعادته في منهجه التعليمي - فقال: "فإذا قلت: (عَنكَ) و(مِنْكَ) فمخرج هذه النون من الخياشيم لا غير؛ لأنها مخفاة عند الكاف، باقية غنتها ظاهرة. وإذا قلت: (مِنْهُ) و(عَنْهُ) فمخرج هذه النون من طرف اللسان ومعها غنة تخرج من الخياشيم؛ لأنها غير مخفاة والغنة ظاهرة"^(١).

أمّا النون عند علماء الأصوات المحدثين فمخرجها واحد كبقية الأصوات وهو ما بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا^(٢) أو اللثة^(٣). أمّا الغنة التي أشار إليها القدماء فلا تعدو عن كونها صفة إضافية للصوت ولا يترتب عليها أن تصبح مخرجاً مهماً قويت. وهو الأقرب إلى الصواب إن شاء الله تعالى.

المخرج العاشر- مخرج النون، أدخل إلى ظهر اللسان:

هذا المخرج تخرج منه الراء. قال مكي: "الراء تخرج من المخرج السابع من مخارج الفم، من مخرج النون غير أنها أدخل إلى ظهر اللسان قليلاً"^(٤).

قد يبدو أن ترتيبه لصوتي النون والراء مخالفٌ لوصفه لهما، فبينما يجعل النون في الترتيب قبل الراء نجدّه يقول في مخرج الراء: "غير أنها أدخل إلى ظهر اللسان"^(٥). فيفهم أن الراء متقدمة على النون، وهذا يعني أن

١/ الرعاية: ص ٢٦٨.

٢/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٦٩.

٣/ دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ٣١٦.

٤/ الرعاية: ص ١٩٥.

٥/ المصدر السابق: ص ١٩٥؛ ويُنظر، الكشف عن وجوه القراءات: ١/ ١٣٩.

الراء أعمق من النون. ولكن إذا أمعنا النظر يتضح لنا أنه قدّم النون في الترتيب على الراء على اعتبار مكان النطق، ومكان النطق هو اللثة، ولا شك أن طرف اللسان مع النون يلامس اللثة في مكانٍ أعمق من ملامسته إياها مع الراء.

أمّا إذا كان التقديم والتأخير على اعتبار الناطق وهو اللسان أو طرفه، فلم يجد بداً من تقديم الراء على النون؛ لأنّ الراء أدخل في اللسان من النون، ولذا فإنه لا ينبغي أن يُفهم من عبارته أنه قدم الراء على النون في الترتيب قولاً وآخرها عليها عملاً، والمعتبر في تحديد المخرج هو مكان النطق.

لقد جعل المحدثون النون والراء واللام من مخرج واحد هو اللثة وذلك اللسان، وينسبونها إلى مكان النطق فيقولون لثوية^(١). وما قاله المحدثون بشأن هذه الأصوات الثلاثة لم يكن جديداً وغريباً على القدماء، فهذا هو مكّي بيدي هذه الملاحظة فيقول: "وقد قيل إنّ اللام والنون والراء أخوات في المخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا"^(٢). ممّا يدل على أنّ القدماء كانت لهم ملاحظاتهم الدقيقة رغم اعتمادهم على النظر وإعوازهم للأجهزة الحديثة.

المخرج الحادي عشر- طرف اللّسان وأصول الثنايا:

ويقسم هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية تضم الطاء والdal والتاء.
المخرج الأول: مخرج الطاء. قال مكّي: "الطاء تخرج من المخرج

١/ يُنظر، التمهيد، ص ٢٧.

٢/ الكشف: ١/١٣٩؛ والمقصود بطرف اللسان هنا: اللثة.

الثامن من مخارج الفم، تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا"^(١).

المخرج الثاني: مخرج الدال. قال مَكِّي: "الدال تخرج من مخرج الطاء المذكور"^(٢).

المخرج الثالث: مخرج التاء. قال مَكِّي: "التاء تخرج من مخرج الطاء والدال المذكور"^(٣).

وقال في (الكشف): "..... ثم الطاء والدال والتاء أخوات يخرجن من طرف اللسان وأصول الثنايا"^(٤).

ويرى الباحث أن هذا الترتيب جرى على غير الأصل الذي سار عليه مَكِّي والقدماء، إذ إنهم يرتبون الأصوات من أسفل صعوداً إلى أعلى. والدليل على أن مَكِّيًّا بدأ بأدناها ولم يبدأ بأقصاها -وفقاً لمنهجه في الترتيب- أنه قال: "والطاء أمكن مماسة للثنايا للإطباق وللاستعلاء اللذين فيها"^(٥). وهذا يعني -وفقاً للتقسيم الجزئي لهذا المخرج- أن أول المخارج ممّا يلي الثنايا هو مخرج الطاء ومن بعده الدال ومن بعده التاء، وكان تعليل مَكِّي لكون الطاء أمكن مماسة للثنايا بالإطباق والاستعلاء تعليلاً ممتازاً؛ لأنه وعلى الرغم من خروج الأصوات الثلاثة من مخرج واحد لكن الطاء ينجذب معها طرف اللسان ناحية الثنايا

١ / الرعاية: ص ١٩٨؛ ويُنظر، الكشف: ١٣٩/١.

٢ / الرعاية: ص ٢٠١.

٣ / المصدر السابق: ص ٢٠٤.

٤ / الكشف: ١٣٩/١.

٥ / المصدر السابق: ١٣٩/١.

العليا نسبة لارتفاعه وتقعره عند الإطباق. ولكن لَمَّا كان المعتبر في ترتيب الأصوات هو مكان النطق فكان يجب أن يكون ترتيب هذه الأصوات كالآتي: (ت، د، ط) وعليه نقول إنَّ تقديمه للطاء قائم على أساس النظر إلى الصفة دون المخرج؛ لأنَّ صفة الإطباق التي في الطاء قيمة صوتية تحدث في مؤخرة اللسان ممَّا يجعل الطاء تبدو أكثر عمقاً من الدال والتاء.

المخرج الثاني عشر- ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى:

ينقسم هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية هي:

المخرج الأول: مخرج الزاي. ويقول مَكِّي في ذلك: "الزاي تخرج من المخرج التاسع من مخارج الفم ممَّا بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى"^(١).

المخرج الثاني: مخرج السين. ويقول في ذلك: "السين تخرج من مخرج الزاي"^(٢).

المخرج الثالث: مخرج الصاد. ويقول في ذلك: "الصاد تخرج من مخرج الزاي والسين"^(٣).

ويجمعهن بقوله: "..... ثم الزاي والسين والصاد أخوات يخرجن ممَّا بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى"^(٤).

١/ الرعاية: ص ٢٠٩.

٢/ المصدر السابق: ص ٢١١.

٣/ المصدر السابق: ص ٢١٥.

٤/ الكشف: ١/١٣٩.

وهو يوافق قول سيبويه: "ومِمَّا بين طرف اللسان وفوق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد"^(١).

والفرق بين كلام مَكِّي وكلام سيبويه أَنَّ سيبويه لَمْ يحدد الثنايا أهى السفلى أم العليا. كما يلاحظ أَنَّ طرف اللسان يلامس الثنيتين العلين من الداخل بينما يكون اعتماده فوق الثنيتين السفليين.

أمَّا المحدثون فقد ظهر في عباراتهم -وهم يتحدثون عن مخارج هذه الأصوات- اختلافهم حول تحديد مخارجها، فمنهم من ينسبها إلى اللثة والأسنان^(٢). ومنهم من ينسبها إلى اللثة فقط^(٣). ومنهم من يجعل طرف اللسان يلتقي بالثنايا السفلى أو العليا^(٤).

المخرج الثالث عشر- ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا:

وينقسم هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية، هي:

المخرج الأول: مخرج الظاء. وقال فيه: "الظاء تخرج من المخرج العاشر من مخارج الفم وذلك ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العلى"^(٥).

١/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

٢/ يُنظر، اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٧٩.

٣/ يُنظر، علم اللغة العام- القسم الثاني (الأصوات): كمال بشر، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م، ص ٨٩؛ ويُنظر، أثر القراءات والأصوات في النحو العربي: عبد الصبور شاهين، ص ٢٢٤-٢٢٥.

٤/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٧٧.

٥/ الرعاية: ص ٢٢٠.

المخرج الثاني: مخرج الشاء. وقال فيه: "الشاء تخرج من مخرج الظاء"^(١).

المخرج الثالث: مخرج الذال. وقال فيه: "الذال تخرج من مخرج الظاء والشاء المذكور"^(٢).

وجمعهن في قوله: "ثم الظاء والشاء والذال أخوات، يخرجن مِمَّا بين طرف اللسان وأطراف الشايات العليا"^(٣).

أمَّا المحدثون فعلى خلافٍ يسير مع مَكِّي في تحديد مخرج هذه الأصوات الثلاثة، يقول بعضهم: "يوضع طرف اللسان بين أطراف الشايات بحيث يكون هناك منفذ ضيق"^(٤). إذ يُلاحظ دقة وصف مَكِّي لحصره للمخرج بين طرف اللسان وأطراف الشايات العليا، ولأنَّ بطن اللسان لا دخل له في إنتاج الأصوات.

يختلف ترتيب مَكِّي عن ترتيب سيبويه لهذه الأصوات في تقديمه الشاء على الذال^(٥).

لقد وصف مَكِّي هذه الأصوات الثلاثة بأنها لثوية مؤيداً كلام الخليل فقال: "الحروف اللثوية وهي ثلاثة (الطاء) و(الشاء) و(الذال) سماهنَّ الخليل بذلك"^(٦).

١/ الرعاية: ص ٢٢٣.

٢/ المصدر السابق: ص ٢٢٤.

٣/ الكشف: ١/ ١٣٩.

٤/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٣.

٥/ يُنظر، الكشف: ١/ ١٣٩؛ ويُنظر، الرعاية: ص ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤.

٦/ الرعاية: ص ١٤٠.

وهذا الوصف - كما يبدو - اشتقاق من المخرج وهو (اللثة) ولكن هل اللثة هي مكان خروج ونطق هذه الأصوات؟ وقد سبق أن أشار الباحث إلى الغموض المصاحب لهذا الوصف، ولكن بتعليل لهذه التسمية^(١). وهو أن هذه الأصوات إنما تبدأ لثوية انفجارية وتنتهي سنية احتكاكية. ويحدث ذلك بمخالجة أصوات انفجارية أخرى وهي التاء مع الثاء والذال مع الدال والظاء مع الطاء القديمة أو الضاد الحديثة.

المخرج الرابع عشر- باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا:

وتخرج منه الفاء. قال مكي: "الفاء تخرج من المخرج الحادي عشر من مخارج الفم من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا"^(٢). وقال سيويو: "من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء"^(٣). كان مكي وعلماء العربية القدامى أكثر دقة في وصف مخرج الفاء، وكعادة مكي في الاستقصاء فإنه في مقدمة أولئك دقة ووصفاً وشدة تحديد في وصف هذا المخرج ويتضح ذلك بما يلي:

أولاً: على الرغم من وصفه الفاء ضمن حروف الشفتين إلا أنه جعلها تستغل بنفسها في مخرجها الجزئي، قال: "وأما حروف الشفتين فأربعة: الفاء منفردة، ثم الباء والميم والواو أخوات"^(٤).

١/ يُنظر، التمهيد: ص ٢٠.

٢/ الرعاية: ص ٢٢٧.

٣/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

٤/ الكشف: ١/ ١٣٩.

وهذا الانفراد الذي ذكره ناتج من انفراد الشفة السفلى فقط في إخراج صوت الفاء، إذ لا تشترك الشفة العليا في إخراجها، كذلك تمثل الأسنان ناطقاً مع الفاء وليس للأسنان دور في إخراج الباء والميم والواو.

ثانياً: تخصيصه باطن الشفة السفلى أكثر دقة ممّا لو عمم، فقال: الشفة السفلى؛ لأنّ الميم والواو ليس لباطن الشفة السفلى دور في إنتاجهما.

وقد حدد بعض علماء الأصوات المحدثين مخرج الفاء فوصفوه قريباً من وصف مكّي والقدماء، فهو عندهم: "يتكون بأن تضغط الشفة السفلى على الأسنان العليا"^(١). إذن فهو "يتم إنتاجه عن طريق ملاصقة الشفة السفلى للأسنان العليا"^(٢).

المخرج الخامس عشر- ما بين الشفتين:

وينقسم هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية:

المخرج الأول: مخرج الباء. قال مكّي: "الباء تخرج من المخرج الثاني عشر من مخارج الفم ممّا بين الشفتين مع تلاصقهما"^(٣).

المخرج الثاني: مخرج الميم. قال مكّي: "الميم تخرج من مخرج الباء، وهو المخرج الثاني عشر من مخارج الفم"^(٤).

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٣.

٢/ دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ٣١٥.

٣/ الرعاية: ص ٢٢٩.

٤/ المصدر السابق: ص ٢٣٢.

المخرج الثالث: مخرج الواو. قال مكي: "الواو تخرج من مخرج الباء والميم من المخرج الثاني عشر من بين الشفتين"^(١).

وقال سيوييه "ومِمَّا بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو"^(٢).

يبدو أنَّ هذا الترتيب يحالفه الصواب لاتساقه خاصة إذا روعي فيه شدة انطباق الشفتين وقوته. فالشفتان مع الباء أشد انطباقاً لانحباس الهواء خلفهما وكون الصوت ذا طبيعة انفجارية. وهما مع الميم أقل قوة والسبب عدم انحباس الهواء خلف الشفتين أثناء النطق بهذا الصوت، لأنه يجد طريقاً عبر فتحتي الأنف أو (الخياشيم) ممَّا يجعل الاعتماد ضعيفاً. أمَّا الشفتان مع الواو فإنهما تتباعدان عن بعضهما قليلاً ولكنهما تنضمان انضماماً شديداً تاركتين فتحة صغيرة يمر خلالها الهواء.

والمحدثون كذلك يجعلون هذه الأصوات الثلاثة من الشفتين لكنهم يختلفون مع القدماء في وصفهم للواو مخرجاً وطريقةً وتكويناً؛ لأنهم لاحظوا اقتراب مؤخرة اللسان من أقصى الحنك عند النطق بالواو، ولا خلاف في ذلك بين الواو المدية والواو اللينة، فكلاهما تبدأ أعضاء النطق معهما في اتخاذ وضعٍ مشابه لوضع النطق بالضمّة لذلك وصفت الواو غير المدية عند المحدثين بأنها "شبه صائت مجهور شفوي حنكي قصي"^(٣).

١/ الرعاية: ص ٢٣٥.

٢/ الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

٣/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٨٠.

والفرق بين الواو المدّية وغير المدّية من الناحية المخرّجية هو أنّ مؤخّرة اللسان مع الواو المدّية ترتفع ناحية الطبق من غير أن يحدث أي احتكاك مسموع. وهذا يعني أنّ الهواء يمرّ بلا عوائق. والصوت حينئذٍ يعدُّ من الصوائت أو العلل. أما الواو غير المدّية فإنّ مؤخّرة اللسان معها ترتفع ناحية الطبق أيضاً، ولكن بزيادة في الارتفاع ينتج عنه احتكاك طفيف، والصوت حينئذٍ يعدُّ من الصوامت، وقد عدّه بعض المحدثين نصف عِلَّة^(١) (Semivowel).

المخرج السادس عشر- الخياشيم:

وتخرج منه الغنة وهي النون الساكنة، قال مكيّ: "الغنة نون ساكنة خفيفة تخرج من الخياشيم وهي تكون تابعة للنون الساكنة الخالصة السكون غير المخفّاة -وهي التي تتحرك مرة وتسكن مرة- وللتنوين -لأنه نون ساكنة- وللميم الساكنة ومخرجه هو المخرج الثالث عشر من مخارج الفم"^(٢). ومكيّ يعد الغنة حرفاً من الحروف. قال: "الغنة حرف مجهور شديد لا عمل للسان فيها"^(٣).

وقد ناقش الباحث عند حديثه عن عدد المخارج عند مكيّ قضية النون الساكنة وأنها غير النون المتحركة أو المشددة^(٤).

١/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ٣١٨.

٢/ الرعاية: ص ٢٤٠.

٣/ المصدر السابق: ص ٢٤٠.

٤/ يُنظر، ص ١٤٠ من هذا البحث.

المخرج السابع عشر- الجوف:

وهو مخرج أصوات المد الثلاثة: الألف والواو الساكنة المضموم ما قبلها والياء الساكنة المكسور ما قبلها.

ورغم أن مَكِّيًّا لَمْ يصرح بهذا المخرج إلا أنه - كما سبقت الإشارة إلى ذلك- كان يميل إلى جعل المخارج سبعة عشر مخرجاً، وقد ذكر ذلك بعض متأخري علماء التجويد الذين يعدون الجوف المخرج السابع عشر ومنهم ابن الجزري الذي صرَّح بذلك في كتابه النشر^(١).

لقد تأثر مَكِّي بالخليل في تخصيص مخرج الجوف ونقل عنه وصفه لحروف المد بأنها هوائية، وارتضى منهجه وقَبَلَهُ، ويبدو ذلك في عرضه لصفات الحروف وألقابها وعللها إذ قال: "وبقيت عشرة ألقاب تمام (أربعة وأربعين) لقباً لقبها بذلك الخليل بن أحمد في أول كتاب العين جعل ألقابها عشرة مشتقة من أسماء المواضع التي تخرج منها الحروف"^(٢). وذكر من هذه الألقاب: الحروف الجوفية وقال عنها: "وهن ثلاث: الألف والواو والياء، وهي حروف المد واللين المتقدمة الذكر، سماهنَّ الخليل بذلك لأنه نسبهن إلى آخر انقطاع مخرجهن وهو الجوف"^(٣).

١/ قال ابن الجزري: إنَّ المحققين يجعلون عدد المخارج سبعة عشر مخرجاً، وقال إنه الصحيح المختار، وذكر من أولئك المحققين مَكِّي بن أبي طالب؛ يُنظر، المطلب الثاني من هذا المبحث (عدد المخارج عند مَكِّي): ص ١٤١؛ ويُنظر، النشر: ١/ ١٩٨.

٢/ الرعاية: ص ١٣٨-١٣٩.

٣/ المصدر السابق: ص ١٤٢؛ ويُنظر، معجم العين: للخليل، ١/ ٥٧.

لذلك فهذا المخرج معتبر عند مَكِّي تخرج منه هذه الأصوات الثلاثة.

وهكذا نرى أنَّه تحدث عن مخارج الأصوات بدقة، وكان في حديثه
مراعياً للنظام الصوتي للأصوات العربية فجاء ترتيبه لهذه الأصوات بحسب
مخارجها، وقد حقق نتائج طيبة مع توضيح كثير من الحقائق التي تتعلق بهذه
الأصوات.

المبحث الثاني التصنيف باعتبار الصفات

المطلب الأول

أهمية صفة الصوت عند مكّي

إنَّ تحديد صفة الصوت من الأمور المهمة لتوضيح حقيقته التي لا تقل أهمية عن بيان مكان خروجه؛ لأنَّ صفة الصوت من الأعراض المصاحبة له التي تضيف إلى ملامحه صوراً واضحة تكشف عن كنهه وتبرز مزاياه الضرورية في الدراسة الصوتية. لقد علمنا أنَّ كفيات نطق الأصوات من الأمور المعول عليها في التمييز بينها، ولذا فإنَّ التصنيف بالنظر إلى الصفات أمرٌ لا بدَّ منه ويقف جنباً إلى جنب مع التصنيف باعتبار المخارج.

كان مكّي من أكثر علماء التجويد وعلماء الأصوات القدامى تفناً في ابتكار الصفات والألقاب، لما كان يتمتع به من إدراكٍ عميق، وإلمامٍ واسع بعلم الأصوات، فكان يلتقط هذه الألقاب من سلته المليئة بالكلمات فيختار أحسنها فيصف بها الأصوات. ولو أراد أن يلقّب كل صوت من أصوات هذه اللغة بلقبٍ خاص ويصفه بصفةٍ خاصة لما أعجزه ذلك. والمطلّع على كتاب (الرعاية) يدرك هذا ويعلمه من خلال العرض الشامل والدقيق لألقاب الحروف. وقد قال في استهلاله لباب صفات الحروف: "قال أبو محمد: لم أزل أتتبع ألقاب الحروف التسعة والعشرين وصفاتها وعللها حتّى وجدتُ من ذلك أربعةً وأربعين لقباً"^(١)، مع إدراكه - كسائر علماء التجويد - أنَّ صفة

١/ الرعاية: ص ١١٥.

الصوت لا تعدُّ شيئاً منفصلاً عنه، قال في ذلك: "وهذه الصفات والألقاب إنما هي طبائع في الحروف"^(١).

لقد بلغ عدد صفات الحروف عنده أربعة وأربعين صفة، وهو رقم دعا بعض أهل فن التجويد أن يصفه بالمبالغة^(٢).

لكن مَكِّيًّا أراد بهذا التفصيل والإسهاب في ذكر الصفات تبين أهمية الأمر لطالب التجويد حتَّى يبلغ درجةً يصبح معها قادراً على التمييز بين الأصوات وإدراك العلاقات بين أصوات الكلام، وقد استصحب أقوال وآراء علماء اللغة في هذا الشأن وزاد عليها كثيراً. وكانت إفاضته في تعديد الصفات بدافع تزويد القارئ بمهارات نطق الأصوات حتَّى يصبح متمكناً من أداء أصوات القرآن؛ لأنَّ ذلك يصب في خانة الدراية المطلوبة والمفضلة عنده على الرواية، ومِمَّا يؤكد تفضيله للدراية على الرواية قوله: "..... فاعرف هذه الصفات والألقاب واختلاف معانيها وأحكامها وطباعها فلو لا اختلاف صفات الحروف ومخارجها وأحكامها وطباعها التي خلقها الله جلَّ ذكره عليها ما فهم الكلام ولا علم معنى الخطاب ولكانت الأصوات ممتدة لا تُفهم من مخرج واحد وعلى صفة واحدة كأصوات البهائم"^(٣).

لقد كان مَكِّي مهتماً أشدَّ ما يكون الاهتمام بتوضيح صفات الحروف

١/ الرعاية: ص ١١٥.

٢/ يُنظر، الجهود الصوتية لعلماء التجويد: غانم قدوري، ص ٢٢٩؛ نقلاً عن اللآلئ الفريدة: لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد، ت ٦٥٦هـ، مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد (الرقم ١٦٣٤)، ص ٢١١.

٣/ الرعاية: ص ١٤٣-١٤٤.

لإدراكه أنَّ ثمة تنوعات صوتية تنشأ نتيجة لتغير صفات الأصوات واختلاف مقاديرها يتبعها عادةً تغيُّر في الدلالة أو تشويش في المضمون، لذلك كان يركز على تحديد هذه الصفات والتمييز بينها.

ومعلوم أنَّ تغير الصفة إذا أدى إلى تغير المعنى فإنَّ هذا يعني أننا أمام صوتين متغايرين تماماً، بحيث لو وضعنا أحد الصوتين مكان الآخر في كلمة أدى ذلك إلى تغيُّر المعنى، فتصبح الصفة حينئذٍ فاصلاً بين صوتين اثنين يُعدُّ كل واحد منهما فونيماً^(١) مستقلاً عن الآخر.

لنأخذ مثلاً لذلك: الكلمة (سال) بحرف (السين)، فإنَّ معناها يغاير كل المغايرة الكلمة التي تكون بحرف (الزاي) وهي (زال)، والذي فرَّق بين الكلمتين في المعنى هو اختلاف الصفة من الهمس إلى الجهر.

وكذلك يمكن أن نحصل على مثل هذا لو قابلنا بين صوتي السين والصاد في الكلمتين (سال) و(صال) حيث يختلف المعنى بين الكلمتين، ومؤدى ذلك اختلاف الصفة من الانفتاح إلى الإطباق.

ويفهم هذا -أيضاً- من قول مكِّي: "ولولا الهمس الذي في السين لكانت زايًا. كذلك لولا الجهر الذي في الزاي لكانت سيناً، إذ قد اشتركا في المخرج والصفير والرخاوة والانفتاح والتسفل، وإنما اختلفا في الجهر والهمس لا غير، فباختلاف هاتين الصفتين افترقا في السمع، فاعرف ذلك، فيجب أن تعلم أيضاً أنَّ السين حرف مؤاخ للصاد لاشتراكهما في المخرج

١/ الفونيم هو: "أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني؛ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ١٧٩.

والصغير والهمس والرخاوة. ولولا الإطباق والاستعلاء اللذان في الصاد - ليسا في السين - لكانت الصاد سيناً. وكذلك لولا التسفل والانفتاح اللذان في السين - ليسا في الصاد - لكانت السين صاداً. فاعرف من أين اختلف السمع في هذه الحروف والمخرج واحد" ^(١).

والاختلاف في السمع في هذه الحال يصل إلى درجة الاختلاف في المعنى.

لقد ضرب مكِّي أمثلة لكلمات متقابلة من القرآن الكريم، تتغير معانيها بتغير صفاتها لذلك حثَّ على بيان صفة الصوت حتَّى لا يصبح المعنى مشوشاً. وهذا يعني أنَّ بيان الصوت الذي يتحقق ببيان مخرجه وصفته يؤدي إلى بيان المعنى ووضوح الدلالة خاصة إذا كان التعامل مع أصوات القرآن الكريم لأنها وسيلة الوصول إلى معانيه وهي بلا شك قمة المعاني.

قال مكِّي: "وإذا وقع لفظ لمعنى هو بالسين أشبه لفظاً آخر لمعنى آخر هو بالصاد وجب البيان للسين لاشتباه اللفظين وذلك نحو قوله تعالى: {وَأَسْرُوا النَّجْوى} ^(٢). و{وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ} ^(٣) يتعين لفظ السين لئلا يصير إلى لفظ قوله: {وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا} ^(٤). فالأول من السر والثاني من الإصرار" ^(٥).

ومن ذلك قوله: "وإذا وقعت الظاء في كلمة تُشبه كلمة أخرى بالذال

١ / الرعاية: ص ٢١١.

٢ / سورة طه: الآية (٦٢).

٣ / سورة يونس: الآية (٥٤).

٤ / سورة نوح: الآية (٧).

٥ / الرعاية: ص ٢١٤.

بمعنى آخر، وجب البيان للظاء لئلا ينتقل إلى معنى آخر وذلك نحو قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}**^(١)، أي ممنوعاً، فهو بالظاء فبيّنه لئلا يشتبه في اللفظ بقوله: **{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}**^(٢)، فهذا بالذال من الحذر"^(٣).

إنه بهذا ليؤكد على ضرورة الاهتمام -الذي سماه التحفظ- بصفات الأصوات، وهذا يعني الاهتمام الشديد بما يسمى حديثاً بالمهارات الصوتية التي تعدّ أولى المهارات اللغوية التي يجب أن يعنى بها المتعلم "فالمهارة الأولية هي الصوتية، بمعنى أن الطالب لا يكتسب المهارات الأخرى بصفة كاملة قبل الوصول إلى مهارة آلية في مستوى الصوتيات فيستطيع حينئذ أن ينتبه إلى الرسالة التي من أجل نقلها إلى المستمع يتكلم الإنسان"^(٤).

وهذه فكرة الثنائيات الصغرى وإثبات فونيمية الصوت.

١/ سورة الإسراء: الآية (٢٠).

٢/ سورة الإسراء: الآية (٥٧).

٣/ الرعاية: ص ٢٢٢.

٤/ أصوات العربية والقرآن الكريم - منهج دراستها وتعليمها عند مكّي بن أبي طالب: عبد الله ربيع محمود، ص ٢٥٣؛ [نقلاً عن بحث ألقاه ستوتز (دوليم) في الندوة العالمية الأولى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، الرياض، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م].

المطلب الثاني

تقسيم الصفات عند مكّي

بالإمكان تقسيم الصفات عند مكّي إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: صفات عامة.

القسم الثاني: صفات خاصة.

أمّا الصفات العامة فهي الصفات التي لا تمثل كصفات نطقية معيّنة كما لا تشير إلى مكان النطق. وأمّا الصفات الخاصة فهي الصفات التي تمثل كصفات نطقية معيّنة تصاحب تكوين الصوت وتُعلم من خلال طريقة النطق وكيفية، وهي كذلك صفات تشير إلى مكان خروج الصوت، أي تشير إلى المخارج.

وتنقسم الصفات التي تمثل كصفات نطقية إلى قسمين^(١):

أ/ صفات مُميّزة.

ب/ صفات مُحسّنة.

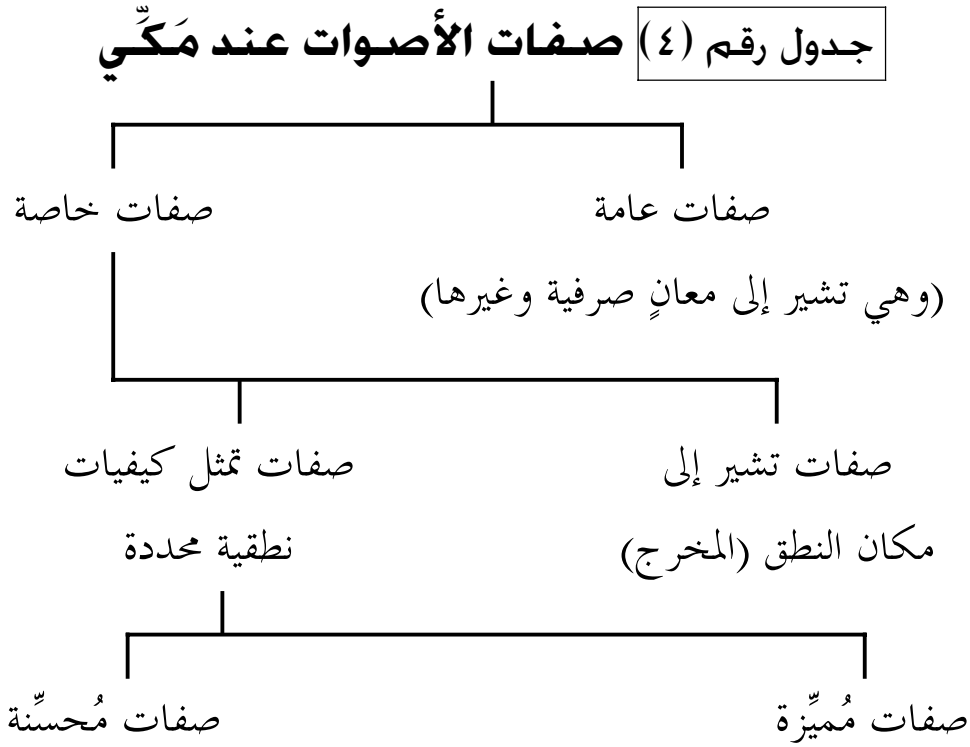
أمّا الصفات المميّزة فهي الصفات التي توجد -عادةً- في تقابلات ثنائية تتكون من الصفة وضدها، وسُمّيت هذه الصفات صفات تمييز لأنها تميز الأصوات المشتركة في المخرج^(٢)، إذ لا نستطيع التمييز مثلاً بين الزاي

١/ يرى الباحث أنّ هذا التقسيم أنسب وأجود، وهو مذهب بعض علماء التجويد ولعل أول من أشار إليه الحسن بن قاسم المرادي (٧٤٩هـ) في كتابه (المفيد في شرح عمدة المجيد)، وقد ذكره الدكتور غانم قدوري الحمّد في كتابه الجهود الصوتية لعلماء التجويد: ص ٢٣١ وارتضاه.

٢/ الجهود الصوتية لعلماء التجويد: غانم قدروي، ص ٢٣٢.

والسين إلا بالنظر إلى كيفية حدوث الصوتين، فالأول مجهور والثاني مهموس رغم أن المخرج واحد.

وأما الصفات المحسنة (بكسر السين) فهي صفات لا توجد في تقابلات ثنائية وإنما هي لتحسين لفظ الحروف المختلفة المخارج^(١). وذلك كالتفشي الذي في صوت الشين، وكالاستطالة التي في الضاد، وهكذا. وفيما يلي جدول لإيضاح هذه الصفات عند مكّي:



أولاً- الصفات العامة:

يقصد الباحث بالصفات العامة الصفات التي لم تراعى فيها الأسس المعول عليها في التمييز بين الأصوات. أي الصفات التي لم يعتمد فيها على الأمور الثلاثة التي تضمنها التمهيد، وهي:

١/ الجهود الصوتية لعلماء التجويد: غانم قدروي، ص ٢٣٢.

الأمر الأول: مكان اعتراض الهواء وهو المخرج.

الأمر الثاني: كيفية الاعتراض.

الأمر الثالث: ذبذبة الحبال الصوتية عند النطق وعدمها.

وهاهي الصفات العامة التي استخلصها الباحث من خلال سرد مكي لها في كتاب (الرعاية).

أ/ الحروف الزوائد:

وهي الأصوات المعروفة، والتي يجمعها قولك: (سألتمونيها). قال مكي: "ومعنى تسميتهم لها بالزوائد أنه لا يقع في كلام العرب حرف زائد في اسم ولا فعل إلا من هذه العشرة أحرف المذكورة"^(١).

ب/ الحروف المذبذبة:

وهي الأصوات آنفة الذكر "وإنما سُميت بالمذبذبة لأنها لا تستقر على حال تقع مرة زوائد ومرة أصولاً"^(٢).

جـ/ الحروف الأصلية:

وعدتها تسعة عشر "وهي ما عدا الحروف الزوائد المذكورة، وهي حروف المعجم كلها ما عدا هجاء (اليوم تنساه) وإنما سُميت بالحروف الأصلية لأنها لا تقع أبداً في كلام العرب في الأسماء والأفعال إلا أصولاً إمّا فاء الفعل أو عينه أو لامه"^(٣).

١/ الرعاية: ص ١٢٠-١٢١.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٠-١٢١.

٣/ المصدر السابق: ص ١٢١-١٢٢.

د/ حروف الإبدال:

وحروف الإبدال في كلام العرب هي الحروف التي تبدل من غيرها، وهي اثنا عشر "يجمعها هجاء قولك: (طال يوم أنجدته) وإنما سُميت بحروف الإبدال لأنها تُبدل من غيرها، تقول هذا أمر لازب ولازم..... فالميم بدل من الباء، ولا تقول الباء بدل من الميم؛ لأنَّ الباء ليس من حروف الإبدال"^(١).

والإبدال -عموماً- مبني على السماع فلا قياس فيه أحياناً. وهذه الصفة -التي هي الإبدال- تجمع أصواتاً وإن كانت في عداد الفونيمات أو الوحدات الصوتية المستقلة، إلا أنها في هذه الحالة تعد متغيرات سياقية وتنوعات صوتية فحسب؛ لأنها حينئذٍ تُبدل من أصوات أخرى ذات صفات مختلفة ولكنها مع ذلك لا تؤدي إلى تغير في المعنى، لذلك فإنَّ تبادلهما ينتج عنه صيغ ذات مقادير صوتية مختلفة المسموع مؤتلفة المفهوم.

هـ/ حرفا اللين:

وهما الواو الساكنة التي قبلها فتحة، والياء الساكنة التي قبلها فتحة^(٢).

و/ حروف المد واللين:

وهي الألف، والواو والياء المديَّتين، ويسميهما كذلك الهوائية^(٣).

١/ الرعاية: ص ١٢٢.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٦.

٣/ المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

ز/ حروف العلة:

وهي عنده أربعة: الهمزة وحروف المد واللين، "وإنما سُمِّيت بحروف العلة لأنَّ التغيُّر والعلة والانقلاب لا يكون في جميع كلام العرب إلا في أحدها"^(١).

ح/ الحروف الخفية:

وهي عنده أربعة: الهاء وحروف المد واللين، "وإنما سُمِّيت بالخفية لأنها تُخفى في اللفظ إذا اندرجت بعد حرف قبلها، إنما لفظها في هذا خفيً بين حرفين أو بعد حرفٍ أو حروف هواء"^(٢).

إذا أراد مكي بالخفاء عدم الوضوح السمعي فإنَّ الهاء وحدها هي التي ينطبق عليها هذا الوصف، لأنها صوت ضعيف يمر معه الهواء "خلال الانفراج الواسع الناتج عن تباعد الوترين الصوتيين بالخنجرة"^(٣). أمَّا أصوات المد فهي أكثر الأصوات وضوحاً في السمع لأنها كلها مجهورة^(٤)، وإذا أراد بالخفاء اتساع المخرج، فهو القاسم المشترك بين جميع هذه الأصوات التي وصفها بالخفية.

يرجِّح الباحث أن يكون المقصود من الخفاء صعوبة تحديد المخرج ونعني بالمخرج الناطق ومكان النطق ونقطة الالتقاء بينهما، الشيء الذي لا يتوفر مع أصوات العلة الثلاثة والهاء، وقد يُعترض على هذا بما

١/ الرعاية: ص ١٢٨.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٧.

٣/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: لمحمد السعران، ص ١٧٨-١٧٩.

٤/ الجهر ممَّا تميَّز به الصوائت على الصوامت؛ لأنَّ الصوامت منها المجهور ومنها

المهموس؛ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: للسعران، ص ١٥٠.

سبق تقريره أن هذه الأصوات تشترك في اتساع المخرج حيث أثبتنا لها مخرجاً، ولكن يرد على هذا الاعتراض بأن المقصود من اتساع المخرج تباعد أعضاء النطق واتساع ممر الهواء. وهذا ما ينطبق على هذه الأصوات بما فيها الهاء لأنها متسعة المخرج أيضاً وهي شبيهة بالألف والواو والياء حتى وصفت بأنها "صائت مهموس"^(١).

ط/ الحروف المشربة:

أو المخالطة - بكسر اللام وفتحها - وهي ستة أحرف^(٢)، وإنما سماها بالمشربة لأنها أصوات اتسعت بها العرب في كلامها وأخذتها من الأصوات المعروفة، فالصوت فيها عادةً ما يكون خليطاً من صوتين، وهذه الأصوات زادت العرب على التسعة والعشرين، وهي: النون الحفيفة، والألف الممالة، والألف المفخمة، والصاد التي بين الصاد والزاي، والهمزة المسهلة، والشين التي يخالط لفظها الجيم^(٣). وهذه الأصوات الستة إنما هي فروع وأصلها من التسعة والعشرين وذكرها سيبويه^(٤). وسماها مستحسنة، وقد تبعه اللغويون والنحاة من

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٨.

٢/ الرعاية: ص ١٣٠.

٣/ هذا الصوت الأخير لم يُستعمل في القرآن الكريم، ولكنه مستعمل في اللهجات العربية، ومثاله ظاهرة الكشكشة؛ لأنَّ الشين - كما يلاحظ الباحث - في هذه الظاهرة لا تخلو من مخالطة الجيم.

٤/ يُنظر، كتاب سيبويه: ط دار الجيل، بيروت، ٤/ ٤٣٢؛ ويُنظر، رسالة الماجستير

للباحث - رواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء (دراسة صوتية وصفية تحليلية):

ص ٥٤.

بعده، كما تبعه القراء وعلماء التجويد.

ي/ حروف الإمالة:

وهي ثلاثة أحرف: الألف والراء وهاء التأنيث، "وإنما سُمّيت حروف الإمالة لأنَّ الإمالة في كلام العرب لا تكون إلا فيها"^(١).

ك/ الحروف الصم:

وهي الحروف التي ليست من الحلق، أي هي: "ما عدا السبعة الأحرف الخارجة من الحلق..... وإنَّما سُمّيت صُماً لتمكُّنها في خروجها من الفم واستحكامها فيه"^(٢).

ل/ الحرف الجرسي:

وهو عند مكِّي صوت الهمزة. قال: "..... الحرف الجرسي وهو الهمزة. سُمّيت بذلك لأنَّ الصوت يعلو بها عند النطق بها..... والجرس في اللغة: الصوت، فكأنه الحرف الصوتي، أي المصوَّت به عند النطق، وكل الحروف يصوَّت بها عند النطق بها، لكنَّ الهمزة لها مزية زائدة في ذلك"^(٣).

وخلاصة كلامه في وصف الهمزة بالصوت الجرسي أنَّ هذا الصوت أكثر تصويّناً من باقي الأصوات. والمقصود بالتصويت الوضوح السمعي الذي يجلبه الصوت الصائت للصوت الصامت أثناء الكلام،

١/ الرعاية: ص ١٢٩.

٢/ المصدر السابق: ص ١٣٧.

٣/ المصدر السابق: ص ١٣٣.

وهذا التصويت يكون مع صوت الهمزة أكثر وضوحاً لقوة الانفجار، وهذا ما دعاه لأن يصف الهمزة بالحرف الجرسى.

م/ الحرف المهتوف:

وهو كذلك صوت الهمزة، قال مكي: "سُميت بذلك لخروجها من الصدر كالتهوع، فتحتاج إلى ظهور صوت قوي شديد، والهتف: الصوت الشديد"^(١).

إنَّ وصفه للهمزة مرةً بالحرف الجرسى، ومرةً بالحرف المهتوف يدل على أنَّها صوتٌ متميِّز عن بقية أصوات اللغة، وهذا التميِّز ناتج عن الغموض الذي يكتنف هذا الصوت في حقيقته ووصفه وإنتاجه وتأثيره في الأصوات وتأثره بها وعدم ثباته على هيئة خطية ونطقية، ومع ذلك فهو -في رأي مكي- أقوى الأصوات، لذلك وصفها بأوصاف تدل على القوة والتميُّز، والذي دعاه لوصفها بهذه الأوصاف أنَّ الانحباس والانفجار المفاجئ "عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، ممَّا يجعلنا نعد الهمزة أشق الأصوات"^(٢).

إنَّ السبب الحقيقي لاحتياج هذا الجهد -في رأي الباحث- ناشئ من أنَّ موضع الانفجار مع هذا الصوت أقرب المواضع من الرئتين، حيث إنَّ تيار الهواء الخارج من الرئتين يكون في عنفوانه فيحتاج إلى شدة في الحبس تقابلها قوة في الانفجار. ألا ترى كيف تسمع للماء خريراً شديداً حين يعيقه شلال على نهر في أعاليه نتيجة لانحباس التيار وقوته.

١/ الرعاية: ص ١٣٧.

٢/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة، ١٩٧٥م، ص ٩٠.

فهكذا صوت الهمزة في مخرجه وكيفية حدوثه.

ن/ الحرف الراجع:

وهو الميم الساكنة. قال مكي: "سُميت بذلك لأنها ترجع في مخرجها إلى الخياشيم لما فيها من الغنة، ويجب أن يشاركها في هذا القلب النون الساكنة لأنها ترجع أيضاً إلى الخياشيم للغنة التي فيها"^(١).

نستطيع أن نفسّر الحرف الراجع بالحرف الأنفي، وسماه بالراجع لرجوع الهواء عن مساره عبر الفم ليجد فتحتي الأنف منفحتين فيعبر خلالهما، وسبب رجوعه انحباسه خلف الشفتين مع الميم، وخلف طرف اللسان مع اللثة في حالة النون، ولكن انخفاض الحنك اللين -ولا ينخفض إلا مع الميم والنون- يسمح للهواء بالمرور عن طريق التجويف الأنفي، ولولا انخفاض الحنك اللين لَصارت الميم باءً^(٢)، ولَصارت النون دالاً.

س/ الحرف المتصل:

"وهو الواو، وذلك لأنها تهوي في مخرجها من الفم لما فيها من اللين حتّى تتصل بمخرج الألف"^(٣). فهو يجعل مخرج الواو متصلاً بمخرج الألف، ولم يجعل مخرج الياء كذلك، والسبب في ذلك أنه نظر إلى

١/ الرعاية: ص ١٣٨.

٢/ الباء المقصودة هي الباء العربية؛ لأنها مجهورة، والميم كذلك مجهورة. أمّا الباء التي تسمى في الإنجليزية الباء الثقيلة فهي نَفَسِيَّة ومهموسة وهي فونيم قائم لذاته ويُرمز إليها هكذا (P).

٣/ الرعاية: ص ١٣٨.

وضع اللسان، إذ إنَّ وضعه مع الواو يجعلها قريبة من الألف لأنَّ مقدمة اللسان تكون بعيدة عن سقف الفم، بينما تشكل مقدمة اللسان مع الياء تضيقاً في المخرج، فلم يجعلها متصلة المخرج بالألف. ولكنه ربما لم يلاحظ أنَّ مؤخرة اللسان مع الواو هي الأخرى تحدث تضيقاً مع ما يحاذيها من الطبق واللهاة.

ثانياً- الصفات الخاصة:

وهي قسمان:

أ/ صفات تشير إلى مكان النطق.

ب/ صفات تمثل كيفيات النطق.

أ/ الصفات التي تشير إلى مكان النطق:

هي صفات وألقاب عرض لها مكِّي^(١). وقال إنَّ الخليل لقَّب بها بعض الحروف وجعل ألقابها عشرة مشتقة من أسماء المواضع التي تخرج منها، وهي:

١/ الحروف الحلقية: وهي ستة أصوات: العين والحاء والهاء والخاء والغين والهمزة.

٢/ الحروف اللهوية: وهما حرفان: القاف والكاف، سُمِّيتا باللهوية نسبةً إلى اللهاة.

٣/ الحروف الشجرية: وهي: الشين والضاد والجيم، وسُمِّيت بذلك نسبةً إلى الشجر وهو مفرج الفم.

٤/ الحروف الأسلية: وهي: الصاد والسين والزاي، وسُمِّيت بذلك نسبةً إلى أسلة اللسان، أي طرفه.

١/ الرعاية: ص ١٣٨-١٣٩.

٥/ الحروف النّطعية: وهي: الطاء والذال والتاء، وسُمّيت بذلك لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى وهو سقفه وجاء في لسان العرب: "والنّطعُ والنّطعُ والنّطعُ والنّطعُ: ما ظهر من غار الفم الأعلى... والجمع نُطوعٌ لا غير" (١).

٦/ الحروف اللثوية: وهي: الظاء والثاء والذال، وسُمّيت بذلك نسبةً إلى اللثة (٢).

٧/ الحروف الذّلقية: ويُقال الذّلقية والذولقية، وهي: الراء واللام والنون، وسُمّيت بذلك نسبةً إلى ذلق اللسان، وهو طرفه.

٨/ الحروف الشفهية: ويُقال الشفوية، وهي: الفاء والباء والميم، وسُمّيت بذلك نسبةً إلى موضع خروجها وهو الشفتان.

٩/ الحروف الجوفية: أو الجُوف، وهي: الألف والواو والياء، وهي حروف المد واللين، قال مكّي: "سماهنّ الخليل بذلك لأنه نسبهنّ إلى آخر انقطاع مخرجهن وهو الجوف وزاد غيره معهن الهمزة لأنّ مخرجها من (أقصى الحلق) وهو يتصل بالجوف" (٣).

١/ لسان العرب: لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (مادة نطع)، ٣٥٧/٨.

٢/ لقد مرّ بنا في تمهيد هذا البحث عند الحديث عن منهج القدماء ومقارنتهم بالمحدثين في تحديد المخارج وصف القدماء لهذه الأصوات باللثوية، وقد عالج الباحث وناقش طرفاً من هذه القضية؛ يُنظر، ص ٢٦.

٣/ الرعاية: ص ١٤٢.

يستطيع الباحث أن يستخلص ثلاثة مذاهب لمخرج الهمزة:
المذهب الأول: يرى أصحابه أن مخرجها هو الحنجرة، وقد بين
الباحث ذلك في حديثه عن المخارج وفي كلام مكّي ما يدل
على ذلك. وهذا المذهب هو مذهب المحدثين^(١) من علماء
الأصوات.

المذهب الثاني: يرى أصحابه أن الهمزة حلقيّة، وهو مذهب
علماء التجويد.

المذهب الثالث: يرى أصحابه أن الهمزة جوفية، أي تخرج من
الجوف، وقد أشار مكّي إلى أن بعضهم أضاف الهمزة إلى
حروف المد واللين فسمّاها جوفية.

ويمكن أن يُحتجّ لهذه المذاهب الثلاثة بالآتي:

إنّ الحنجرة تقع بين الحلق والقصبة الهوائية، فتكون الهمزة إما:
أ- متوسطة بين أصوات الحلق والأصوات الجوفية -وهي التي
يُطلق عليها الباحث الأصوات القصبية- والهمزة حنجريّة.

ب- أو تكون الهمزة آخر أصوات الحلق هبوطاً إلى أدنى
وتوصف وقتئذٍ بأنها حلقيّة، وهو مذهب شائع.

ج- أو تكون الهمزة أول أصوات الجوف صعوداً إلى أعلى
(أي ما يلي الحنجرة) وتوصف في هذه الحال بأنها جوفية أو

١/ يُنظر، علم اللغة العام (الأصوات): كمال محمد بشر، ص ١١٢؛ والأصوات اللغوية:

إبراهيم أنيس: ص ٨٩؛ ودراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، طبعة عالم

الكتب، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ١١٥.

قصبة بحسب رأي الباحث. فالهمزة إذن توصف بأنها حنجرية وحلقية وجوفية (قصبة).

١٠ / الحروف الهوائية: وهي الحروف الجوفية ذاتها، وتسمية هذه الحروف بالهوائية يدل على دقة الوصف، ويؤيد ما ذهب إليه الباحث من أن المقصود بالحواف: القصبة الهوائية، ويُلاحظ أن القصبة التي تعلوها الحنجرة وُصفت بأنها هوائية، فقل: القصبة الهوائية، وتسمية مكّي والقدماء لهذه الأصوات هوائية بسبب أن الهواء المندفع من الرئتين يكون مناسباً ولا يعترضه أي عارض إلا عند الحنجرة التي يبدأ منها التشكيل الصوتي، ومن ثم تكتسب الأصوات صفاتها المتعددة حسب طريقة مرور الهواء وكيفية الاعتراض.

ب / الصفات النكي تمثل كصفات نطقية محددة:

وهي الصفات الناتجة عن كيفية مرور الهواء أثناء النطق. وتنقسم إلى قسمين: صفات مُميّزة وصفات مُحسّنة.

القسم الأول - الصفات المميّزة:

ويُقصد بها الصفات التي توجد في تقابلات ثنائية كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والإطباق والانفتاح، وهي الصفات التي تميّز بين الأصوات بحيث تصبح هذه الأصوات ولو اتحدت مخارجها فونيمات مختلفة.

١ [الجهر والهمس]:

لا نريد الدخول في تفصيلات وتحليلات عن مفهوم الجهر والهمس عند مكّي والقدماء الذين اعتمدوا على كلام سيبويه ونقارن ذلك بمفهومه

عند المحدثين، ولو حاولنا التوفيق بين هذه الاتجاهات لأصبح ذلك ضرباً من الصنعة ونوعاً من التأويل. والمهم في الأمر أنه برغم التباين والاختلاف بين القدماء والمحدثين في تعريف الجهر والهمس إلا أنهم يكادون يتفقون على تحديد الأصوات المهموسة والأصوات المجهورة. يرى الباحث أن تعريف الجهر والهمس عند المحدثين أقرب إلى الصواب بل يُعدُّ مقبولاً وذلك لاستناده على النظر والتطبيق واعتمادهم على ما أُتيح لهم من أجهزة وتجارب معملية.

إذن فالصوت المجهور هو الصوت المصحوب بذبذبة الحبال الصوتية داخل الحنجرة والصوت المهموس هو الذي لا تصحبه تلك الذبذبة^(١). لقد أدرك مكّي أن للجهر والهمس دوراً أساسياً في تمييز الأصوات، وكان يعتني عناية فائقة بتحصيل المعنى الذي لا يدخله لبس ولا يكتنفه غموض، الأمر الذي جعله أكثر حرصاً على إجراء التقابلات الصوتية على أساس من اختلاف الصفات والمخارج، كما كان دائم التنبيه بضرورة التحفظ والانتباه في إخراج الأصوات. قال في باب الغين: "ولولا ما بينهما -يعني الغين والحاء- من الجهر والهمس لكانت الحاء غيناً، إذ المخرج واحد والصفات متقاربة"^(٢). وقال أيضاً وهو يتحدث عن التاء: "ولولا الهمس الذي فيه لكان دالاً، كذلك (الدال) لولا الجهر الذي فيه لكان تاءً، إذ المخرج واحد"^(٣).

١/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ط الأنجلو، ط ٤، ١٩٧١م، ص ٢٠؛ وكثير من كتب المحدثين.

٢/ الرعاية: ص ١٦٩.

٣/ المصدر السابق: ص ٢٠٤.

وقال في باب السين: "ولولا الهمس الذي في السين لكانت زايًا، كذلك لولا الجهر الذي في الزاي لكانت سينًا، إذ قد اشتركا في المخرج والصفير والرخاوة والانفتاح والتسفل، وإنما اختلفا في الجهر والهمس لا غير فباختلاف هاتين الصفتين افرقا في السمع فاعرف ذلك"^(١). والافتراق في السمع يعني - كما بينا - أن كل صوت من الصوتين يعد فونيمًا مستقلًا رغم هذا التشابه، وأن أيًّا منهما إذا وُضع في مكان الآخر يتغير المعنى أو يصبح غامضًا ومشوشًا.

معنى الهمس والجهر عند مكي:

كانت عبارات مكي في تحديده لمعنى الجهر والهمس مقتبسة - إلى حد كبير - من عبارات سيبويه، وكذلك معظم النحاة والقُرَّاء من بعده. فقد عرّف مكي الهمس بقوله: "ومعنى الحرف المهموس أنه حرف جرى مع النَّفس عند النطق به لضعفه وضعف الاعتماد عليه عند خروجه"^(٢). بينما يُعرّفه سيبويه بأنه: "حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتّى جرى النَّفس معه"^(٣). وقال مكي في تعريف الجهر: "ومعنى الحرف المجهور أنه حرف قوي يمنع النفس أن يجري معه عند النطق به لِقُوَّتِهِ وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه"^(٤). بينما يُعرّفه سيبويه بقوله: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النَّفس أن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد عليه ويجري

١ / الرعاية: ص ٢١١.

٢ / المصدر السابق: ص ١١٦.

٣ / الكتاب: لسيبويه، بتحقيق: عبد السلام هارون، ٤/٤٣٤.

٤ / الرعاية: ص ١١٧.

الصوت" (١). وليس هناك فرق كبير بين عبارات مَكِّي وسيبويه، غير أن مَكِّيَّاً وصف الحرف المهموس بالضعف، ووصف الحرف المجهور بالقوة. وقد تحدث مَكِّي كثيراً عن مفهوم القوة والضعف بالنظر إلى صفات الأصوات.

الأصوات المهموسة عند مَكِّي: هي: السين والتاء والشين والحاء والكاف والثاء والصاد والحاء والفاء والهاء.

الأصوات المجهورة عند مَكِّي: هي ما عدا المهموسة المذكورة، وعددها ثمانية عشر صوتاً، هي: الهمزة والعين والغين والقاف والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء والزاي والذال والذال والطاء والظاء والباء والواو والميم.

أمّا الأصوات المهموسة عند المحدثين فهي نفسها التي ذكرها مَكِّي، لكن بزيادة الهمزة -عند بعضهم- والطاء والقاف. والأصوات المجهورة عندهم هي نفسها التي ذكرها مَكِّي ولكن ينقص الأصوات الثلاثة: الهمزة والطاء والقاف. ولتوضيح ذلك انظر إلى الجدول التالي:

جدول رقم (٥) جدول توزيع الأصوات العربية وفقاً

لصفتي الجهر والهمس مقارنة بين مَكِّي والمحدثين

الأصوات المجهورة	الأصوات المهموسة	
ء ب ج د ذ ر ز ض ط ظ ع غ ق ل م ن و ي	ت ث ح خ س ش ص ف ك هـ	مَكِّي
ء ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن و ي	ء ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك هـ	المحدثون

يُلاحظ من هذا التقسيم أنَّ مَكِّيًّا عدَّ الهمزة صوتاً مجهوراً ومعها الطاء والقاف بينما يعد ثلاثتها المحدثون أصواتاً مهموسة. يترتب على هذه الملاحظة قضايا وإشكالات تحتمل المناقشة وإبداء الرأي.

أولاً- قضية الهمزة:

إنَّ الاختلاف في ماهية الهمزة أدى إلى الاختلاف في وصفها وطريقة نطقها وتحديد مخرجها، فقد وصفها القدماء -بِمَنْ فيهم مَكِّي- بأنها صوت مجهور. أمَّا المحدثون فقد اتفقوا على نفي صفة الجهر عنها، لكنهم اختلفوا في وصفها بالهمس، ففريقٌ وصفها بأنها ليست مجهورة ولا مهموسة^(١)، وفريقٌ آخر عدّها مهموسة^(٢).

وكانت حجة الفريق الأول أنَّ وضع الحبال الصوتية ينفي عن الهمزة صفة الجهر لعدم الذبذبة عند النطق كما ينفي عنها أيضاً صفة الهمس لانطباق الحبال الصوتية وعدم السماح للهواء بالمرور.

أمَّا حجة الفريق الآخر فتعتمد على أنَّ الأساس في تقسيم الأصوات إلى مجهورة ومهموسة هو ذبذبة الحبال الصوتية وعدمها وعلى هذا يكون الصوت المنتج إمَّا مجهوراً وإمَّا مهموساً لا غير، ولَمَّا كانت الهمزة متفقاً على عدم جهرها فلا بد من جعلها في حظيرة الأصوات المهموسة.

يميل الباحث إلى رأي الفريق الذي يعدُّ الهمزة صوتاً لا مجهوراً ولا مهموساً على أساس حججهم. وعليه يمكن الحصول على ثلاثة أنواع

١/ Danyal J.: *An outline of English phonetics*, Cambridge, ١٩٧٢, p. ١٥٠.

ويُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مُختار عمر، ص ١٢٩؛ والأصوات اللغوية:

إبراهيم أنيس، ص ٩٠؛ وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي: للسعران، ص ١٥٧.

٢/ يُنظر دروس في علم أصوات العربية: جان كاتنينو، ترجمة: صالح القرمادي، ص ٣٥.

للأصوات وفقاً لذبذبة الحبال الصوتية وعدمها وهي:

أ- أصوات مجهورة: وهي المصحوبة بذبذبة الحبال الصوتية، كالباء والزاي.

ب- أصوات مهموسة: وهي التي لا تصحبها ذبذبة الحبال الصوتية، كالطاء والسين.

ج- أصوات لا مجهورة ولا مهموسة: وهي الأصوات التي تكون فيها الحنجرة مُعدّة لإنتاج الهمزة (*Glottal stop*)، الوقفة الحنجرية، وأصوات أخرى غير لغوية^(١).

يمكن أن نعلّل لِمَكِّي ولعلماء العربية القدامى وعلماء التجويد في وصفهم للهمزة بالجهر بأمرين:

أولهما: تصورهم أنّ الهمزة تنطق أحياناً مسهلة بين بين، أي بينها وبين حرف اللين الذي يناسب حركتها، وذلك كقولك: (لؤم الرجل) إذا رُمت التخفيف فتنتطق بها بين الهمزة والواو الساكنة.

يقول المبرّد عن هذه الهمزة إنها: "بوزنها محققة إلا أنّ النبر بها أقل؛ لأنك تزيجها عن مخرج الهمزة المحققة"^(٢). وكلام المبرّد يدل على أنّ للهمزة أكثر من صورة إلا أنّ صورتها الأساسية هي صورة الهمزة المحققة كما ذكر. أمّا الهمزة غير المحققة فهي مختلطة بأصوات المد

١/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨هـ —

١٩٩٧م، ص ١٢٨، [نقلاً عن: *Aber Crombie, DGB, Elements of general*

. [phonetics, ١٩٦٧, p. ٢٨٠].

٢/ المقتضب: للمبرّد، بتحقيق: محمد عبد القادر عزيمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

١٩٦٦م، ١/٢٩٣.

واللين، وهذا الاختلاط أدى إلى خلط القدماء في وصفهم لها فوصفوها بالجر نسبةً لمصاحبتها لهذه الأصوات المجهورة، فأطلقوا عليها صفة الجر محققة ومخففة.

ثانيهما: يتطلب إنتاج الهمزة قوة كبيرة واستعداداً تاماً لأعضاء النطق حتى تتمكن من إخراجها فهي "أشق الأصوات"^(١). لأنها تحدث عندما ينطبق الوتران الصوتيان الغشائيان انطباقاً كاملاً، حتى تسد فتحة المزمار، وينطبق معهما الغضروفان الهرميان انطباقاً كاملاً فلا ينفذ الهواء من فتحة المزمار، ثم يتبع ذلك انفراج الوترين الصوتيين انفراجاً فجائياً يحدث عقبه انفجار صوتي هو صوت الهمزة المحققة. وهذه العملية المعقدة عضوياً الشاقة صوتياً جعلت مَكِّيَّاً والقدماء يصفون الهمزة بالجر لقوتها من الناحيتين العضوية والصوتية، وقد كان مَكِّي مهتماً بتصنيف الأصوات حسب صفاتها قوةً وضعفاً. ولما كانت الحروف المجهورة عنده أقوى من المهموسة^(٢). فإن الهمزة بهذه القوة والتعقيد لا بد أن تجد مكانها ضمن الأصوات المجهورة فوصفها لذلك بالجر كما فعل القدماء.

ثانياً- قضية الطاء:

وصف مَكِّي الطاء بقوله: "الطاء من أقوى الحروف لأنه حرف مجهور شديد منطبق مستعل"^(٣). فنراه يصفه بالجر كما فعل

١/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٩٠.

٢/ يُنظر، الرعاية: ص ١١٦.

٣/ المصدر السابق: ص ١٩٨.

سيبويه والمتقدمون من علماء العربية. قال سيبويه: "لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً"^(١). لكن المحدثين يصفونه بالهمس^(٢). وهو كذلك في نطق العرب اليوم. على المستويين العربي الفصح والعربي العامي. وهنا لا بد من إشارة إلى أن وصف القدماء لصوت الطاء بالجر ينطبق على الضاد التي تُنطق اليوم وهو الصوت المطبق للدال. ومِمَّا يؤيد هذا قول سيبويه السابق، ونص له آخر يتحدث فيه عن إدغام لام المعرفة يقول فيه: "..... كما أن الطاء ليس حرف أقرب إليها ولا أشبه بها من الدال"^(٣).

وانظر إلى قول مكي: "ولولا التسفل والانفتاح اللذان في الدال لكانت طاءً، كذلك لولا الإطباق والاستعلاء اللذان في الطاء لكانت دالاً، فإنما فرق بينهما في السمع اختلاف بعض الصفات لا غير"^(٤).

إذن لا فرق عند مكي والقدماء بين الطاء والدال إلا في الإطباق والاستعلاء اللذين في الطاء، والانفتاح والاستفال اللذين في الدال. بينما النطق الحديث للطاء يجعل من الفروق كذلك الجهر والهمس، إذ الدال مجهورة والطاء مهموسة، وبهذا ينتفي القرب الشديد الناتج من التشابه بين الصوتين، وتنتفي تلك المقارنة القائمة على التشابه

١ / الكتاب: تحقيق عبد السلام هارون، ٤/ ٤٣٦.

٢ / يُنظر، علم اللغة: للسعران، ص ١٥٥؛ ويُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار

عمر، ص ٣٢٤.

٣ / الكتاب: ٤/ ٤٥٧.

٤ / الرعاية: ص ٢٠١.

عند مَكِّي وسيبويه.

لقد حدث تطور وانتقال من الجهر إلى الهمس في صوت الطاء، على الرغم من وجود نماذج صوتية حديثة تشبه وصف القدماء إلى حدٍّ كبير. فقد لاحظ الباحث أنَّ بعض سكان الخليج العربي ومن خلال إذاعة الكويت ينطقون الطاء مثل صوت الضاد الحديثة الذي نسمعه عند السودانيين والمصريين فيقولون (ضريق) يريدون (طريق).

ثالثاً- قضية القاف:

القاف صوت مجهور عند مَكِّي وكذلك عند المتقدمين من علماء العربية. قال مَكِّي: "والقاف حرف متمكن قوي لأنه من الحروف المجهورة الشديدة المستعلية"^(١). "أمَّا القاف التي يشيع نطقها بين العرب اليوم والتي نسمعها لدى من يجيدون القراءة فقد اتضح أنها مهموسة وليست مجهورة، وقد أمكن معرفة ذلك عن طريق الأجهزة الالكترونية الخاصة بمعمل الأصوات (*Spectrograph Machine*). وهذا الجهاز يوضح بشكل قاطع حالة الأوتار الصوتية من حيث الذبذبة وعدمها"^(٢).

لقد لفَّ صوت القاف كثير من الغموض. فإنَّ نطقها اليوم على المستويين الفصيح والعامي فيه كثير من التباين والاختلاف، فهي على المستوى الفصيح مهموسة وهي حينئذٍ القاف النموذجية الفصيحة،

١/ الرعاية: ص ١٧١.

٢/ أصوات القرآن الكريم كيف نتعلَّمها ونعلِّمها: يوسف الخليفة، ص ٨٨.

وقد وصفها المحدثون من علماء الأصوات كذلك بالهمس^(١)، وعلى المستوى العامي مجهورة سواءً أكانت تشبه نطق السودانين الذين يجعلونها في قراءتهم غيناً أو شيئاً قريباً من الغين^(٢)، أم كانت تشبه نطق بعض العرب لها كافاً مجهورة وهي كذلك في عاميات السودان واليمن، وتشبه كذلك نطق الجيم عند المصريين وهي ما يسمى بالجيم القاهرية.

لقد أثبت كثير من الباحثين -اعتماداً على وصف القدماء للقاف بالجهر- تطور هذا الصوت الذي كان مجهوراً في نطقه الفصيح فأصبح مهموساً في نطقه الفصيح أيضاً. وهذا أمر جائز في أصوات اللغة والكلام إذ تتضافر عوامل كثيرة تؤدي إلى حدوث تغير واضح في نطق الأصوات في مخارجها وفي صفاتها وكيفيات حدوثها.

رغم أن مَكِيّاً اتفق مع سيبويه في وصف هذا الصوت بالجهر، لكنه حينما حدد مخرجه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك وحدد مخرج الكاف من مخرج القاف نفسه بعده ممّا يلي الفم وقال: "ولولا الجهر والاستعلاء اللذان في القاف لكانت كافاً، لذلك لولا الهمس والتسفل اللذان في الكاف لكانت قافاً"^(٣). يصبح من اليسير ملاحظة الفرق بينه وبين سيبويه في وصفهما لمخرج القاف لأنّ سيبويه حدد

١/ يُنظر مثلاً، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٥٦.

٢/ أصوات القرآن: يوسف الخليفة، ص ٨٨.

٣/ الرعاية: ص ١٧٣.

مخرجه من مكان أعمق وأبعد من مخرج الكاف^(١). ولذا يمكن القول إنَّ سيويه حينما وصف القاف بالجره لم يرد (الكاف المجهورة) التي أرادها مكّي أو أراد صوتاً يشبهها إلى حدّ كبير، لأنّ مخرجيهما عنده متحداً وهما عند سيويه ليسا كذلك. والدليل على ذلك أنّ مكّيّاً لم يفرق بين القاف والكاف إلاّ في الصفات^(٢). من هنا نستطيع القول إنّ القاف التي وصفها مكّي بالجره هي الكاف المجهورة أو تشبهها إلى حدّ كبير وينطبق هذا الصوت على ما يُسمع من السودانيين واليمنيين.

٢ [الشدة والرخاوة:

الشدة والرخاوة تقابل عند المحدثين بالانفجار والاحتكاك، ولا فرق في المعنى بين الاستعمالين. ووصف الصوت بالشدة ناتج من الاعتماد على كيفية مرور الهواء مع الصوت وطريقة نطقه. إذ لوحظ أنّ الصوت الشديد (الانفجاري) يتكوّن من حبس النّفس في نقطة مُعيّنة وذلك بالتقاء عضوين برهة من الزمن ينحبس الهواء خلف نقطة تلاقيهما ثم يسمح له بعد ذلك بالخروج مُحدثاً دويّاً وانفجاراً. ونطق الصوت الشديد (الانفجاري) يتطلب أمرين^(٣):

- ١ / اتصال عضوين ينتج عنه قفل الممر الهوائي.
- ٢ / انفصال العضوين فجأة يعقبه مباشرة الصوت الشديد أو

١ / الكتاب: ٤/٤٣٣.

٢ / الرعاية: ص ١٧٣.

٣ / يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٥٧.

الانفجاري.

والصوت الشديد أو الانفجاري قد يكون مهموساً مثل (التاء) وقد يكون مجهوراً مثل (الذال) وموضع الانفجار أو انحباس الهواء قد يكون قريباً من الفم مثل (الباء) وقد يكون بعيداً مثل (الهمزة) وقد يصحب بعض الأصوات الانفجارية نفس مثل الـ (P) الإنجليزية في نحو (Park) فتسمى حينئذ انفجارية نفسية. أو لا يصحبها نفس فتسمى انفجارية غير نفسية^(١)، فالأصوات الشديدة (الانفجارية) تختلف طبائعها باختلاف كفايات نطقها.

تسمى الأصوات الشديدة أو الانفجارية أيضاً^(٢): الوقفية (Stops) وتسمى اللحظية (Momentary) أو الآنية.

الأصوات الشديدة عند مكّي ثمانية، هي: (الهمزة والجيم والذال والكاف والقاف والطاء والباء والتاء).

أمّا مفهوم الشدة عنده فقد عبّر عنه بقوله: "ومعنى الحرف الشديد أنه حرف اشتد لزومه لموضعه وقوي فيه حتّى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به"^(٣).

إذا تأملنا كلامه في تعريفه للصوت الشديد نرى أنّ ألفاظه ومعانيه لتدل على نفس مفهوم المحدثين، ويتلخص ذلك في أمرين:

١/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٥٩.

٢/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مُختار عمر، ص ١١٧.

٣/ الرعاية: ص ١١٧.

أ- قال عن الصوت الشديد إنه حرف اشتد لزومه لموضعه وقوي فيه. وهذا يطابق معنى اتصال العضوين وغلق الممر الهوائي، واستخدامه للفعليين: (اشتد) و(لزم) يؤدي إلى نفس معنى الاتصال والتلاصق بقوة وقفل الممر الهوائي عند نقطة التلاقي وهو الذي عبر عنه بالموضع.

ب- قال: حتّى منع الصوت أن يجري معه (عند اللفظ به) فعبارة (عند اللفظ به) تدل على انفصال العضوين، لأنه لولا انفصالهما ما سمع لفظ الصوت ثم إنَّ الانفجار الذي يعني شدة خروج الهواء نتيجةً لشدة الضغط الناتج عنه قصر زمن الصوت نجد معناه في قوله: حتّى منع الصوت أن يجري معه، وكان يمكن أن يكون تعبيره كالآتي: "إنه حرف اشتد لزومه لموضعه وقوي فيه ثم لفظ به دون أن يجري معه الصوت"؛ لأنَّ عملية اللفظ تأتي مباشرة بعد انفصال العضوين، أمّا الصوت فيعقب اللفظ. ولكن يبدو أنه لم يرد تفصيل وترتيب عملية نطق الأصوات الشديدة (الانفجارية) بقدر ما يريد توضيح علة منع جريان الصوت عند النطق بهذه الأصوات. وهذه العلة التي عناها مكّي يفسرها الباحث بما يلي:

عند نطق الصوت الانفجاري تضعف قوة تسرب الهواء لاشتداد لزوم الحرف للموضع أو المخرج، ولشدة ضغط الهواء ممّا ينتج عنه -بعد انفراج الأعضاء- خروج الهواء المحبوس خلف نقطة التلاقي دفعة واحدة وبقوة مع نفاد كميته في الفم فيصبح سريان الصوت وجيزاً، ولذلك يوصف الصوت بأنه آني أو لحظي لهذه العلة. وهذه

الفكرة عبّر عنها مكي بقوله "حتّى منع الصوت أن يجري معه"^(١).
أمّا الأصوات الرخوة فهي الأصوات الاحتكاكية في التعبير الحديث
(*Fricatives*). وطبيعة هذه الأصوات أنه يحدث معها تضيق للمر
الهوائي وليس قفلاً كما في حالة الانفجارية ويسمع للهواء أثناء
خروجه احتكاك^(٢).

"ومعنى الحرف الرخو أنه حرف ضعف الاعتماد عليه في موضعه
عند النطق به فجرى معه الصوت. فهو أضعف من الشديد. ألا
ترى أنك تقول: (أَلْسْ) (أَلْشْ) فيجري النفس والصوت معهما
وكذلك أخواتهما بخلاف الشديدة"^(٣).

ومعنى هذا النص موافق لما يقوله المحدثون من وجهين:

١/ قوله في تعريف الرخو أنه حرف ضعف الاعتماد عليه في
موضعه يعني القفل غير الكامل لمر الهواء لأنه لو كان كاملاً
لما ضعف الاعتماد عليه وهذا يعني التضيق^(٤).

٢/ قوله: "فجرى معه الصوت" يوضح طبيعة الأصوات الاحتكاكية
وهي كونها استمرارية (*Continuant*)^(٥)، أي يستمر جريان

١/ الرعاية: ص ١١٧.

٢/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٢.

٣/ الرعاية: ص ١١٩.

٤/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ص ١٧٢.

٥/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ١١٨.

الصوت أثناء النطق بها.

أمّا عدد الأصوات الرخوة (الاحتكاكية) عند مكّي فقد بلغ ثلاثة عشر صوتاً وجمعها في هجاء: "تخذ ظغش زحف صه ضس" ^(١). وهذا التقسيم هو نفسه الذي قسمه سيبويه ^(٢) ومَن سار على نهجه، وبذا يصبح عدد الأصوات الشديدة والرخوة واحداً وعشرين صوتاً فقط، وبقية الأصوات يسميه علماء التجويد وعلماء العربية القدامى الحروف المتوسطة أي الحروف التي توسّطت بين الشدة والرخاوة فلا هي شديدة ولا هي رخوة. بمعنى أنّ أعضاء النطق لا تتخذ الأشكال التي تتخذها مع الأصوات الشديدة وهي القفل التام، كما أنّها لا تكون في حالة تضيق ينتج عنه احتكاك مثلما يكون مع الأصوات الرخوة.

لَمْ يجد الباحث -فيما اطلع عليه من كتب مكّي- إشارة إلى اصطلاح (الأصوات المتوسطة) التي ذكرها سيبويه وذكرها علماء التجويد، غير أنّه في حديثه عن الأصوات الرخوة قال: "وهي ما عدا الشديدة المذكورة، وما عدا هجاء قولك: (لَمْ يرو عنا) ^(٣)". ولا شك أنّ هذه الأصوات هي المتوسطة، صرف مكّي عنها النظر فلا يود الباحث أن يخوض في تفاصيلها.

١/ الرعاية: ص ١١٩.

٢/ يُنظر، الكتاب: ٤/٤٣٤.

٣/ الرعاية: ص ١١٩.

ولمزيد من الإيضاح لتقسيم مَكِّي للأصوات إلى شديدة ورخوة
نقارن بين تقسيمه وتقسيم المحدثين من خلال الجدول التالي:

جدول رقم (٦) تقسيم الأصوات إلى شديدة ورخوة		
طبيعة الصوت	مَكِّي	المحدثون
الأصوات الشديدة	ء ج د ت ب ط ق ك	ء ب ت د ط ض ك ق
الأصوات الرخوة	ث خ ذ ظ غ ش ز ح ف ص هـ ض س	ث خ ذ ظ ش ز ح ف ص هـ س ع

نلاحظ من خلال الجدول الاتفاق بين مَكِّي والمحدثين في الكم
واختلافهم اليسير جداً في النوع. فعدد الأصوات الشديدة عنده
ثمانية أصوات، وهي كذلك عند المحدثين^(١). لكن الاختلاف بينهم
في الآتي:

١/ الجيم عند مَكِّي صوت شديد، لكنها عند المحدثين ليست
كذلك، وهذا يعني أنها متوسطة عندهم.

٢/ الضاد عند مَكِّي صوت رخو، أمّا المحدثون فيصفونها وينطقونها
شديدة.

٣/ العين عند المحدثين صوت رخو، أمّا مَكِّي فلا تنتمي عنده إلى
أي من الأصوات الشديدة أو الرخوة، فهي إذن من الأصوات
التي تسمى بالمتوسطة.

١/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السمران، ص ١٥٤-١٥٧.

نخلص من هذا إلى قضيتين تحتاجان إلى توضيح:

القضية الأولى - قضية الضاد:

رغم أنَّ هذا الصوت يعد أشهر الأصوات العربية إلا أنَّ القدماء يصفونه بأوصاف لا تنطبق كل الانطباق على ما يسمع من نطق الضاد اليوم، والضاد القديمة صامت مجهور رخو (احتكاكي) مطبق مستعلٍ ولا نظير له حينئذٍ من الأصوات المفتحة، أمَّا مخرجه فيمتد في الفم حتَّى يتصل بمخرج اللام، ولذلك وصف بالاستطالة، وهذا المخرج من أول حافة اللسان والأضراس^(١).

إنَّ الاختلاف بين القدماء والمحدثين في وصف الضاد يعني التطور في نطقها إلى حدٍّ كبير ولكن متى وأين بدأ هذا التطور؟.

يجيب عن هذا السؤال الدكتور إبراهيم أنيس الذي أرجع هذا التطور إلى عهد ابن الجزري إبان القرن الثامن الهجري ونقل عنه قوله: "إنَّ المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المفخمة طاءً مهملة"^(٢).

وهذا النص يدل على الذي سبق أن قرر من أنَّ الضاد التي تُنطق اليوم هي -في الواقع- صوت للطاء الفصيحة القديمة.

ويبدو من وصف مكِّي لصوت الضاد تأكيده على صعوبته حيث كان ينصح القارئ بضرورة التمكن من نطقه صحيحاً ويقول في ذلك: "..... ولا بد له من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصر

١/ يُنظر، الرعاية: ص ١٨٤؛ ويُنظر، الكتاب: ٤/٤٣٣.

٢/ الأصوات اللغوية: ص ٥٠.

فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبته على من لم يدرّب فيه. فلا بد للقارئ المجود أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية مطبقة مستطيلة فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها ومتى فرّط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مبدلاً ومغيّراً. والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج وأشدّها صعوبة على اللافظ فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها وأخل بقراءته ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعاً وسجية"^(١).

بالتأكيد أنّ النطق القديم لصوت الضاد موافق لمراد مكّي ووصفه وقد يكون هذا النطق موجوداً على أرض الواقع في مكان ما لأنّ أصوات اللغة العربية تظل محفوظة ولو في نطاق ضئيل لأنها نقلت بالتواتر والمشافهة والسماع.

أمّا الضاد التي يشيع نطقها اليوم فهي ذلك الصامت المجهور الشديد (الانفجاري) المطبق الذي احتل مكانة الطاء القديمة بعد أن تخلص عنها، في نظير أن تخلص صوت الضاد عن صفتي الرخاوة والاستطالة^(٢).

القضية الثانية- قضية الجيم:

وصف مكّي الجيم بقوله: "الجيم تخرج من مخرج الشين وهي حرف

١/ الرعاية: ص ١٨٤-١٨٥.

٢/ يُنظر، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: أبو عمرو بن العلاء، د. عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م، ص ٢٢٨.

قوي للجهر الذي فيها والشدة"^(١). فحدد مخرجها من وسط اللسان وهو مخرج الشين، وليس هنالك خلاف كبير بين وصفه ووصف القدماء إلا أنَّ المحدثين يتحفظون قليلاً في وصفها بالشدة، فيرى الدكتور إبراهيم أنيس^(٢) أنَّ الجيم رغم وصفها بالشدة لكنها حسب ما تسمع من مُجيدي القراءات القرآنية يمكن أن تُسمَّى صوتاً قليل الشدة، ويرى أنَّ الجيم الفصيحة ما تزال تُسمع في صعيد مصر وعند بعض القبائل السودانية.

لم يذكر مكِّي في دراسته التطبيقية في كتاب (الرعاية) صفة الجيم التي تشتق من مخرجها كما فعل الخليل^(٣). الذي نسبها إلى شجر الفم وهو مفرجه فقال الشجرية لكنه ذكر ذلك في دراسته النظرية حينما تحدث في كتاب (الرعاية) عن صفات الحروف وألقابها^(٤). مورداً الألقاب التي لقبها بها الخليل.

يتكون صوت الجيم بعد أن يجري الهواء في الحلق والفم حتَّى يصل المخرج فيلتقي وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاءً فيه شيء من التراخي، ويرتفع الحنك اللين لئلا يخرج الهواء عن طريق الأنف ويتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق، فإذا

١/ الرعاية: ص ١٧٦.

٢/ الأصوات اللغوية: ص ٦٦.

٣/ العين: تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت،

دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ١/ ٥٨.

٤/ يُنظر، الرعاية: ص ١٣٩.

انفصل العضوان سمعنا هذا الصوت الانفجاري أو الشبيه بالانفجاري،
لأنه رغم كونه شديداً (انفجارياً) لكنه يتحلى في نهاية نطقه
"بعض الرخاوة التي تُنتج ما يسمى بالتعطيش"^(١). ولذا ينطقه بعض
العرب رخواً.

٣ [الإطباق والانفتاح]:

الإطباق والانفتاح ظاهرتان صوتيتان توصف بهما الأصوات وتتميز
بهما عن بعضهما، فالصوت إمّا مطبقاً وإمّا منفطحاً، ولقد عني القدماء
منذ سيبويه بتحديد معنى الإطباق ووصفوه وصفاً دقيقاً.

أمّا مكيّ فشرح ظاهرة الإطباق عندما تحدث عن ألقاب الحروف،
فقال عن اللقب التاسع: "حروف الإطباق وهي أربعة أحرف الطاء
والظاء والصاد والضاد، وإنما سُميت بحروف الإطباق؛ لأنّ طائفة من
اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بهذه الحروف وتنحصر
الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في
الفم"^(٢). ومعنى كلامه موافق لكلام سيبويه مع اختلاف يسير، فذكر
مكيّ أنّ طائفة من اللسان تنطبق إلى أعلى بينما ذكر سيبويه^(٣) انطباق
كل اللسان إلى أعلى.

إنّ تحديد مكيّ بارتفاع طائفة من اللسان يؤكّد مدى دقته في

١/ أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: عبد الصبور شاهين، ص ٢٢٩.

٢/ الرعاية: ص ١٢٢.

٣/ الكتاب: ٤/ ٤٣٦، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣ م.

الوصف؛ لأنَّ هذه الطائفة - كما لا يخفى - هي مؤخرة اللسان والتي بارتفاعها إلى جهة الطبق تكون للصوت حينها قيمة إطباقية أو تفخيمية، وهذا أمر أثبتته الدراسات الحديثة.

أضاف بعض المحدثين إلى ارتفاع مؤخرة اللسان تقعر وسطه نتيجة لارتفاع طرفه وأقصاه. قال محمود السعران متحدثاً عن الطاء: "ففي حالة النطق بالطاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه"^(١). لكننا نفهم معنى تقعر اللسان من قوله: "وتنحصر الريح" لأنَّ الحصر فيه معنى التضيق والإحاطة^(٢). ولا تحصل الإحاطة إلا من جهة الأطراف. لذلك يُفهم أنَّ حصر الريح ناتج من ارتفاع مؤخرة اللسان إلى الطبق وارتفاع طرفه إلى أي موضع من مواضع خروج أصوات الإطباق الأربعة. وإذا تقعر اللسان لا بدَّ من ارتفاع طرفه أيضاً.

أمَّا الحروف المفتحة فهي ما عدا حروف الإطباق ويبلغ عددها خمسة وعشرين حرفاً. ويعلّل مكّي سبب تسميتها بالمفتحة بقوله: "وإنما سُمّيت بالمفتحة لأنَّ اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها، ولا تنحصر الريح بين اللسان والحنك، بل ينفث ما بين اللسان

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ص ١٥٥؛ ويُنظر: الأصوات اللغوية: لإبراهيم أنيس، ص ٤٧.

٢/ حَصَرُهُ يَحْصُرُهُ حَصْرًا: ضَيَّقَ عَلَيْهِ وَأَحَاطَ بِهِ، يُنْظَرُ، لسان العرب: مادة (حصر)، طبعة جديدة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٢٠١.

والحنك وتخرج الريح عند النطق بها" (١).

لقد شرح مكي معنى الإطباق والانفتاح، وفهم من كلامه أن هاتين الصفتين صفتا تمييز بين الأصوات. انظر مثلاً شرحه للعلاقة بين الظاء والذال قال: "ويجب أن تعلم أن الظاء تشبه في لفظها أيضاً الذال، فإذا أزلت لفظ الإطباق من الظاء صارت ذالاً. كذلك لو زدت لفظ الإطباق في الذال لصارت ظاء. وإنما كان ذلك كذلك لأن الظاء والذال من مخرج واحد وهما مجهوران ولولا الإطباق والاستعلاء اللذان في الظاء لكانت ذالاً" (٢).

٤ [الاستعلاء والاستفال:

أضيفت إلى أصوات الإطباق المعروفة ثلاثة أصوات أخرى هي الغين والحاء والقاف، وسميت جميعها أصوات الاستعلاء، قال مكي عنها: "..... وهي سبعة منها الأربعة الأحرف التي هي حروف الإطباق المذكورة والغين والحاء والقاف" (٣). وعلل هذه التسمية بقوله: "وإنما سميت بالاستعلاء لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعلياً بالريح" (٤).

إذن فإن أصوات الاستعلاء تنقسم عنده إلى قسمين:

١ / الرعاية: ص ١٢٣.

٢ / الرعاية: ص ٢٢٠-٢٢١.

٣ / المصدر السابق: ص ١٢٣.

٤ / المصدر السابق: ص ١٢٣.

القسم الأول: ما يُسمى بأصوات الإطباق وهي: (الطاء والظاء والصاد والضاد).

والقسم الثاني: مجموعة مكوّنة من (الغين والحاء والقاف) وَلَمْ يُسمَّها مَكِّي باسم لكن بعض المحدثين يسمونها الأصوات الطبقيّة، وهم بهذا ينسبونها إلى المخرج وهو الحنك اللَّيّن الذي يُسمى بالطبق، وقد فرّق المحدثون بين أصوات الإطباق والأصوات الطبقيّة وحذروا من الخلط بينهما^(١). ولو تأملنا قول مَكِّي لبدا واضحاً تفريقه بين هذين النوعين من الأصوات وإن لَمْ يسمَّ (الغين والقاف والحاء) باسم كما فعل المحدثون لأنه لَمْ يكن يريد تسمية الأصوات -هنا- بالنظر إلى أماكن خروجها بقدر ما كان يريد تسميتها ووصفها اعتماداً على هيئة خروجها وكيفيته وقد وضّح ذلك بقوله: "فينطبق الصوت مستعليّاً بالريح مع طائفة من اللسان مع الحنك مع حروف الإطباق المذكورة على هيئة ما ذكرنا ولا ينطبق مع الحاء والغين والقاف إنما يستعلي الصوت غير المنطبق بالحنك"^(٢).

والفرق بين هاتين المجموعتين واضح من النص وهو أنّ المجموعة الأولى وهي أصوات الإطباق (ط ظ ص ض) ينطبق معها الصوت مع الحنك، ولا ينطبق مع (خ غ ق) فما معنى انطباق الصوت؟

١/ يُنظر، مناهج البحث في اللغة: تمام حسان، ط٢، دار الثقافة، الدار البيضاء،

١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص ١١٥.

٢/ الرعاية: ص ١٢٣.

يرى الباحث أن مَكِّيًّا يريد بانطباق الصوت حصره^(١) نتيجةً لارتفاع مؤخرة اللسان وطرفه لأنَّ حصر الصوت لا يتحقق مع الحاء والغين والقاف. وقد يكون حصر الصوت عنده مرادفًا لمعنى التفخيم، ومِمَّا يدل على ذلك قوله في حروف التفخيم: "وهي حروف الإطباق المذكورة يتفخم اللفظ بها لانطباق الصوت بها بالريح من الحنك"^(٢). أمَّا أصوات الاستفال فعددها اثنان وعشرون صوتاً "وهي ما عدا الحروف المستعلية المذكورة، وإنما سُمِّيت مستفلة لأنَّ اللسان والصوت لا يستعلی عند النطق بها إلى الحنك كما يستعلی عند النطق بالحروف المستفلة"^(٣).

هـ : الإصمات والذلاقة:

رغم أن الخليل هو الذي يرجع إليه أصل هذه التسمية في مقدمة كتاب (العين)^(٤) إلا أن مَكِّيًّا نقل كلام ابن دريد في (جمهرة اللغة)^(٥) واعتنى به وأسند الكلام إليه قائلاً: "قال: ومعنى المصمته -على ما فسرہ الأخفش- أنها حروف أُصمَّت -أي مُنعت- أن تختص ببناء كلمة في لغة العرب، إذا كثرت حروفها لاعتياصها"^(٦) على اللسان،

١/ يُنظر، المصدر السابق: ص ١٢٢.

٢/ الرعاية: ص ١٢٨-١٢٩.

٣/ الرعاية: ص ١٢٤.

٤/ العين: ١/٥١-٥٢.

٥/ جمهرة اللغة: لابن دريد، مطبعة دائرة المعارف، حيدر أباد الدكن، ١٣٤٤هـ، ٧/١.

٦/ اعتياص: على وزن افتعال، من العوص وهو ضد الإمكان واليسر؛ جاء في اللسان:

شيء أعوص وعَوِص؛ يُنظر لسان العرب: ط ٢، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م،

فهي حروف لا تنفرد بنفسها في كلمة كثيرة الحروف - أعني على أكثر من ثلاثة أحرف - حتّى يكون معها غيرها من الحروف المذلة..... فمعنى المصمتة الممنوعة من أن تنفرد في كلمة طويلة، من قولهم: صمت إذا منع نفسه الكلام^(١).

وحتّى يتضح المعنى تُورد قول مكّي عن الحروف المذلة، حيث قال فيها: "ومعنى الحروف المذلة - على ما فسرّه الأخفش - أنها حروف عملها وخروجها من طرف اللسان وما يليه من الشفتين، وسُمّيت بذلك إذ هي من طرف اللسان وهو ذلقه وهي أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً وأكثرها امتزاجاً بغيرها"^(٢).

يُلاحظ أنّ ابن دريد هو الآخر نقل عن الأخفش تفسيره للمصمت والمذلق بينما ترجع الفكرة أصلاً إلى الخليل.

يبلغ عدد أصوات الذلاقة ستة: الفاء والباء والميم، وثلاثتها شفوية، والراء والنون واللام، وثلاثتها من طرف اللسان والثة. أمّا الأصوات المصمتة فهي ما عدا هذه الستة عند مكّي وعددها اثنان وعشرون صوتاً، "ثلاثة منها معتلات وهنّ الواو والياء والهمزة، وتسعة عشر صحاح، والألف خارجة عن المذلة والمصمتة لأنها هواء لا مستقر لها في المخرج"^(٣).

٤٧٣/٩.

١ / الرعاية: ص ١٣٥-١٣٦.

٢ / الرعاية: ص ١٣٥-١٣٦.

٣ / المصدر السابق والصفحة.

هكذا قسّم مَكِّي الأصوات إلى مصمّطة ومذلّقة باعتبار خروجها من طرف اللسان والشفّتين. ولكنّ مدار الأمر كله يرجع إلى ما أشار إليه مَكِّي بقوله: "فاعرف هذا الأصل فإنه أصل مثقّف لكلام العرب دال على حكمة الله -جلّ ذكره- في لغتها منبهاً على أنّ في الحروف مستثقلاً ومستخفّاً"^(١).

لذلك يجب أن يعتمد التقسيم والتصنيف على أساس الخفة والثقل، وبذا نستطيع أن نقول إنّ الأصوات المصمّطة هي الأصوات الثقيلة التي لا تنفرد في كلمة رباعية أو خماسية في لغة العرب إلا ومعها من الأصوات الخفيفة وهي ما تسمى (حروف الذلاقة) وسبب خفتها قرب مخرجها وسهولة لفظها وقلة ما تحتاجه من جهد عضلي، لأنّ اعتمادها على طرف اللسان والشفّتين. أمّا طرف اللسان فمجمع قوته واشتداد أمره لقلة لحمه وقوة عضله وأمّا الشفتان فهما عضلتان قويتان تتشكّلان وتقويان حتّى مع أصوات المدّ واللّين، فهي مع الأصوات الصّحاح (الصوامت) أقوى موضعاً وأشدّ معتمداً. وهذا كما ترى تعليل واضح لقلة الجهد وخفة النطق مع هذه الأصوات.

القسم الثاني- الصفات المحسّنة:

المقصود بالمحسّنة تلك التي ليس لها أضداد ولمّ توجد في تقابلات ثنائية كالجهر والهمس.

وهذه الصفات هي: القلقلّة، الصّفير، الغنة، التكرير، الانحراف، التفشي، الاستطالة.

أولاً - القلقة:

هذه الصفة تختص بها خمسة أصوات جمعها لغويو العرب ونحاتهم في عبارة (قطب جد) سماها مَكِّي بحروف القلقة والَّلقلقة. قال: "وقد قال الخليل: القلقة: شدة الصياح، وقال: اللَّقلقة: شدة الصوت"^(١). ويجمع بين هذه الأصوات اتصافها بالشدة (الانفجار) والجهر.

هنالك مجموعة قضايا وأسئلة تتعلق بصفة القلقة، فكيف ناقشها مَكِّي وتعامل معها؟ وهي:

١ / ما سبب التسمية؟

٢ / كم عدد حروفها؟

٣ / ما موضعها؟

أمَّا سبب التسمية فقد لخصه بقوله: "وإنما سُمِّيَتْ بذلك لظهور صوت يشبه النبرة"^(٢).

لقد أدرك مَكِّي هذه الخاصية التي تصاحب أصوات القلقة خاصة عندما يوقف عليها وشبه الصوت المسموع والمصاحب لهذه الأصوات بالنبرة، وقد سمي المحدثون هذا الصوت بعدة أسماء من بينها النبرة"^(٣).

والحقيقة أنَّ كل صوت مجهور انفجاري (شديد) يكون عرضة

١ / الرعاية: ص ١٢٥.

٢ / الرعاية: ص ١٢٤.

٣ / يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٦١.

لأنَّ يصبح مهموساً^(١). وحتى لا يفقد أي صوت مجهور (انفجاري) صفة الجهر يجب على الناطق أن يحرص على إظهار هذه الصفة. أمَّا الصوت الانفجاري المهموس فلا يحتاج إلى قلقلة.

ولتوضيح ذلك نقول: إذا سُكِّنَ الصوت المجهور الاحتكاكي (المتما) أو وُقِفَ عليه فإنَّ انفتاح الممر الهوائي رغم تضيقه كفيل بإظهار جهره. فلا يحتاج إلى تحريك أو إضافة صوت مثلما نقول: (لَمْ يَجُزْ).

أمَّا إذا سُكَّتِ الصوت المجهور الانفجاري (الآني) أو وُقِفَ عليه فإنَّه يحتاج لإظهار جهره إلى صوت يتبعه مثلما نقول: (لَمْ يَجِدْ) لأنه آني لحظي لا يظهر جهره إلا بهذا الصوت -والذي يسميه المحدثون الحركة المركزية- وإلا فسيعرض للهمس.

أمَّا عدد حروف القلقلة فخمسة وهي الجيم والـدال والباء والطاء والقاف. ومِمَّا يُلاحظ أنَّ الطاء القديمة كانت مجهورة وكذلك القاف ولكن نطقهما اليوم لا يدل على جهرهما بل هما مهموستان، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ القُرَّاء تواتروا إثبات صفة القلقلة لهذه الأصوات الخمسة رغم ما شاب الطاء والقاف من تغير، والقُرَّاء اليوم عندما يقفون على القاف أو الطاء أو يُسَكِّنُونَهُمَا فإننا نلاحظ قلقلتهما منهم لا تشبه قلقلة بقية الأصوات. والصوت الذي يعقبهما حينئذٍ يُسمع نفساً أقرب إلى

١ / الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ١٥٦.

الهمس، فلما افتقدتا شرط الجهر في نطقنا اليوم صار الصوت الذي يتبعهما مهموساً أو قريباً من المهموس. ولكنَّ الأرجح أنَّ هذا الصوت الزائد "صوت صائت مركزي ضعيف"^(١). وبما أنه صائت فلا بد أن يكون مجهوراً، لكنه مع الطاء والقاف اقترب إلى الهمس لما عللنا.

تنطبق شروط القلقلّة على صوت الهمزة لأنه يجمع بين الجهر والشدة (الانفجار) ولكنه أُخرج من هذه الأصوات. وقد نجد تعليلاً لذلك عند مكّي حينما وصفها بأنها كالتهوّع^(٢). لذلك كان ينصح بالتلطف في إخراجها وعدم التعسف فيه^(٣)، ومعلوم أنَّ القلقلّة زيادة في الصوت، فإذا أُضيفت إلى الهمزة لُخرجت بتعسف وشدة وأصبحت عبئاً زائداً على ما هي عليه.

أمّا موضعها فيعلم من كلام مكّي التالي: "فذلك الصوت في الوقف عليهن أبين منه في الوصل لهن"^(٤). فهذا الكلام يدل على أنه يرى - كما يرى كثير من العلماء المتأخرين - سكون حروف القلقلّة وقف عليها أم وصل بها، ولذلك فإنَّ المراد بالوقف السكون^(٥)، وليس المراد به نقيض الوصل.

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٦٢.

٢/ الرعاية: ص ١٣٧.

٣/ يُنظر، المصدر السابق: ص ١٤٥.

٤/ المصدر السابق: ص ١٢٤.

٥/ يُنظر، النشر: لابن الجزري، مطبعة مصطفى محمد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر،

ثانياً - الصغير:

يضيق ممر الهواء مع الأصوات الاحتكاكية ولكنَّ نسبة التضيق تكون أعلى مع السين والصاد والزاي حتَّى تبلغ درجة الصغير، وهي أقصى درجة تضيق إذا ما زادت انغلق الممر وخرج الصوت عن كونه احتكاكياً إلى كونه انفجارياً.

ولذا فإنَّ الصغير زيادة في الاحتكاك، وقد بيَّن مكِّي هذه الزيادة وجعلها سبباً في التسمية. فقال عن اللقب الثالث عشر: "حروف الصغير وهي ثلاثة..... وإنما سُمِّيت بحروف الصغير لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصغير، ففيهن قوة لأجل هذه الزيادة"^(١).

هذه الأصوات الثلاثة تخرج من مخرج واحد وتجمع بينها هذه الصفة وهي الصغير، ومع ذلك تفرَّق بينها صفات مميزة هي الهمس في السين، والجهر في الزاي، والإطباق في الصاد.

قال مكِّي: "والصغير من علامات قوة الحرف"^(٢). وهذه القوة التي ذكرها أشار إليها المحدثون فعَلَّلُوا لتسميتها بالصغيرة بقوة الاحتكاك معها"^(٣).

بل إنَّ القوة عند مكِّي متدرجة "فالصاد أقواها للإطباق

٢٠٣/١.

١/ الرعاية: ص ١٢٤.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٤.

٣/ دراسة الصوت اللغوي: أحمد مُختار، ص ١١٨.

والاستعلاء اللذين فيها و(الزاي) تليها في القوة للجهر الذي فيها و(السين) أضعفها للهمس الذي فيها"^(١).

ثالثاً - الغنة:

قال مكي عن اللقب الرابع والعشرين: "حرفا الغنة وهما النون والميم الساكنتان سُميتا بذلك لأنَّ فيهما غنة تخرج من الخياشيم عند النطق بها فهي زائدة فيهما كالإطباق الزائد في حروف الإطباق، وكالصفير الزائد في حروف الصفير، فالغنة من علامات قوة الحرف ومثلها التنوين"^(٢).

نخرج من التعريف، بالآتي: ١/ أصوات الغنة ثلاثة هي: الميم والنون والتنوين بمستوياته الثلاثة: (in)، (an)، (un).

٢/ تخرج الغنة من الخياشيم وهو الفراغ الأنفي، وفي هذا دلالة على أنَّ الغنة تحدث عندما ينخفض الحنك اللَّيِّن لِيَسْمَح للهواء بالمرور من فتحتي الأنف ليكتسب الصوت هذه الصفة المحسنة.

٣/ الغنة صفة قوة كالصفير والإطباق.

تسمى أصوات الغنة بالأنفية^(٣) (Nasals) أو الغناء^(٤). فهي

١/ الرعاية: ص ١٢٤.

٢/ الرعاية: ص ١٣١؛ ويُنظر، الكشف: ١/١٣٧.

٣/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مُختار، ص ١٢١.

٤/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٦٨.

أنفية لخروج الهواء معها من الأنف دون سائر الأصوات. وهي غناء لما يصاحبها من رنين وطنين.

إنَّ العملية العضوية التي تحدث داخل الفم عند النطق بأصوات الغنة تجعلها أقرب إلى الأصوات الانفجارية (الشديدة). قال مكي: "والغنة حرف مجهور شديد"^(١) نتيجة لاعتراض الهواء في الفم، والمحدثون أشاروا إلى حبس الهواء حبساً تاماً في موضع من الفم^(٢)، ولكن سرعان ما يرجع الهواء فيخرج عن طريق الأنف. وقد ألمح مكي إلى هذا المعنى عند حديثه عن الحرف الراجع وهو الميم^(٣).

لَمْ تصل أصوات الغنة إلى درجة الأصوات الانفجارية لذلك يسمي المحدثون صورة التعديل في طريق الهواء معها إقفالاً جزئياً^(٤). ولذا فإنَّ الأصوات الأنفية هذه إذا افتقدت صفة الغنة تصبح أصواتاً فموية انفجارية (شديدة).

يُلاحظ أنه لا خلاف يُذكر بين مكي والمحدثين حول الغنة سوى ما أشار إليه المحدثون من انخفاض الحنك اللِّين إلى أدنى مع أصوات الغنة ليمر الهواء عبر التجويف الأنفي الأمر الذي لَمْ يصرح به مكي ولكنه ألمح إليه.

١/ الرعاية: ص ٢٤٠.

٢/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٦٨.

٣/ يُنظر، الرعاية: ص ١٣٩.

٤/ دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار، ص ١٢٠.

رابعاً - التكرير:

هذه الصفة تكون لصوت الراء والذي يسميه مَكِّي الحرف المكرر ويعلل لهذه التسمية بقوله: "سُمِّي بذلك لأنه يتكرر على اللسان عند النطق به كأنَّ طرف اللسان يرتعد به"^(١).

ويسميه المحدثون بالمكرر فهو صامت مجهور لثوي مكرر^(٢).
إنَّ صفة التكرير التي يتمتع بها صوت الراء جعلته يجمع بين الانفجارية والاحتكاكية (أي بين الشدة والرخاوة) والسبب في ذلك هو أنَّ الإقفال متكرر فلا هو حبس يتبعه انفجار ولا هو تسريح يُسمع معه حفيف واحتكاك.

كان مَكِّي يحث على الاعتدال في تكرير الراء إذ لا بد أن يصحبه تكرير لتبيين صفته، كما أنه لا بد من إخفائه وعدم المبالغة في التكرير خاصة إذا كانت الراء مشددة، ومِمَّا قال: "ولا بد في القراءة من إخفاء التكرير"^(٣). ويُقصد بإخفاء التكرير التحفظ وعدم المبالغة.

أمَّا المحدثون فقد أشاروا إلى شيءٍ من هذا المعنى وهو التحفظ، قال إبراهيم أنيس واصفاً الراء: "يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً لِيناً يسيراً مرتين أو ثلاثاً"^(٤). وعباراته تدل على

١/ الرعاية: ص ١٣١.

٢/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧١.

٣/ الرعاية: ص ١٣١.

٤/ الأصوات اللغوية: ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٦٦.

مُرَاد مَكِّي لِأَنَّهُ:

أولاً: وصف الطرق باللين واليسر.

ثانياً: حدده بأن يكون مرتين أو ثلاثاً.

خامساً - الانحراف:

من المعروف عند علماء الأصوات المحدثين أنَّ الأصوات المنحرفة هي تلك الأصوات الناشئة من عقبة في وسط الممر الهوائي مع ترك منفذ عند أحد جانبي الفم أو جانبيه ليخرج منه الهواء بعد انحرافه.

وفي أصوات اللغة العربية صوت واحد يتكون بهذه الكيفية، وهو صوت اللام مرققة ومفخمة.

ويوصف اللام العربي بأنه "صامت مجهور سني منحرف جانبي"^(١).

إنَّ صفة الانحراف تعني عند أكثر القدماء وخاصة البصريين وعند كل المحدثين تقريباً انحراف الصوت أو الهواء إلى جهة المنفذ الموجود في أحد جانبي الفم أو كليهما.

أمَّا مَكِّي فَإِنَّ معنى الانحراف عنده يختلف عن أولئك وهؤلاء وكان له منهج خاص ونظر خاص في تسميته وتعليله لذلك، فيشمل الانحراف عنده صوتي اللام والراء.

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٠.

قال عن اللقب الخامس والعشرين: "حرفا الانحراف وهما اللام والراء وإنما سُمِّيَا بذلك لأنهما انخرفا عن مخرجهما حتَّى اتصلا بمخرج غيرهما وعن صفتيهما إلى صفة غيرهما، أمَّا اللام فهو من الحروف الرخوة لكنه انحرف به اللسان مع الصوت إلى الشدة فلم يعترض في منع خروج الصوت اعتراض الشديدة ولا خرج معه الصوت كله خروجه مع الرخوة، فسمي منحرفاً لانحرافه عن حكم الشديدة وعن حكم الرخوة فهو بين صفتين"^(١).
وقال عن الراء: "وقيل إنما سُمِّيَت الراء منحرفة لأنها في الأصل من الحروف الشديدة لكنها انحرفت عن الشدة إلى الرخاوة حتَّى جرى معها الصوت ما لا يجري مع الشديدة"^(٢).

لا يخفى أنه يعلل هذه التسمية بانحراف اللام والراء عن صفتيهما، فانحرفتا عن حكم صفتي الانفجار (الشدة) والاحتكاك (الرخاوة)، وبهذا يكون معنى الانحراف عنده أشبه بمعنى صفة التوسط بين الشدة والرخاوة عند علماء التجويد.

والانحراف عن المخرج سبب لهذه التسمية عنده كذلك، فقد قال عن الراء: "فهو حرف انحرف عن مخرج النون إلى مخرج اللام"^(٣).

١ / الرعاية: ص ١٣١-١٣٢.

٢ / الرعاية: ص ١٣٢.

٣ / المصدر السابق والصفحة.

إنَّ مذهب مَكِّي في قوله بانحراف اللام ومعها الراء موافق لمذهب الكوفيين مخالف لمذهب البصريين^(١).

لكن الباحث يرجح اختصاص اللام وحده بصفة الانحراف، لأنَّ هذه الصفة بهذا المعنى إنما تصف كيفية مرور الهواء أثناء النطق، وهذه الكيفية مع اللام طابعها القفل الجزئي الذي يؤدي إلى انحراف الهواء، وطابعها مع الراء القفل المتكرر الذي يؤدي إلى تقطيع الهواء، وبذا تكون التسمية موافقة لصوت اللام وغير موافقة لصوت الراء. وصفة الانحراف توافق معنى صفة الجانبية^(٢) التي أشار إليها المحدثون.

سادساً - التفشي:

يُفهم من كلام مَكِّي أنَّ التفشي يعني امتداد الصوت مع الشين حتَّى تتصل بمخرج الطاء^(٣)، ويعني كذلك كما قال: "كثرة انتشار خروج الريح"^(٤). فالتفشي إذن زيادة في الريح كما قال هو -أي الهواء- وامتداد للصوت في المخرج ينتج عنه انتشار الهواء في الفم.

١/ يُنظر، التحديد: للداني، ص ١٩؛ ويُنظر، المفيد: للمرادي، ص ١١٢.

٢/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٠؛ ويُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ١٢٠.

٣/ يُنظر، الرعاية: ص ١٣٤؛ وقد اختار محقق الكتاب الطاء، وهو تصحيف ولأن نسخة من الكتاب حددت الطاء، وكذلك ذكرها مَكِّي في باب الشين.

٤/ الرعاية: ص ١٣٥.

لَمْ يَعْرِ المحدثون^(١) من علماء الأصوات اهتماماً يُذكر بصفة التفشي وَلَمْ يَعْتَنُوا بِهَا اعتناء القدماء.

والحق أَنَّ الشين في تكوينها ترتفع معها مقدمة اللسان بما فيها طرفه نحو الحنك الصلب فيحدث تضيق فيما بين اللسان واللثة لكن ليس كالتضيق الذي مع السين^(٢)، بينما يكون الامتداد الأفقي للسان أقرب إلى الحنك مع الشين وأبعد عنه في حالة السين، لذلك تتقارب الأسنان السفلى مع العليا نتيجة لارتفاع معظم اللسان.

أَمَّا الثاء والضاد فلم يخصهما بما خص به الشين من التفشي رغم أنه قال: "وقد قيل إِنَّ في الثاء تفشياً"^(٣). وقال: "والضاد تتفشى حتَّى تتصل بمخرج اللام"^(٤).

أَمَّا التفشي الذي في الثاء فيُقابل بكثرة انتشار الريح (الهواء) مع الشين. وأَمَّا التفشي الذي في الضاد فيُقابل بامتداد الصوت في مخرج الشين واستطالته.

١/ بعض المحدثين ذكرها، منهم: عبد الرحمن أيوب في كتابه: الكلام إنتاجه وتحليله: ص ٤٣، وجان كانتينو في دروس في علم الأصوات: ترجمة القرمادي، الجامعة التونسية، ١٩٦٦م.

٢/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٧٦.

٣/ الرعاية: ص ١٣٤.

٤/ المصدر السابق: ص ١٣٥.

سابعاً - الاستطالة:

هذه الصفة لصوت الضاد، قال مَكِّي: "الحرف المستطيل وهو الضاد سُمِّيَتْ بذلك لأنها استطالت على الفم عند النطق بها حتَّى اتصلت بمخرج اللام"^(١).

ومعنى الاستطالة أنَّ الصوت يتمدد على اللسان ويشغل منه أكبر مساحة لدرجة اختلاطه بصوت آخر. ولقد استطالت الضاد فيما بين اللسان وما يليه من الأضراس حتَّى اتصلت بمخرج اللام. وهذا المعنى يلتقي مع معنى التفشي حين يعني امتداد الشين واتصاله بمخرج الطاء، "وهذه الاستطالة تكسب الصوت ميزة على غيره من الأصوات"^(٢).

ما لا شك فيه أنَّ هذا الوصف إنما ينطبق على الضاد القديمة والتي افتقدت استطالتها وتخلت عنها وأصبحت تُنطق آنية لحظية مثلما كانت تُنطق الطاء القديمة. وقد تحدث الباحث عمَّا أصاب صوتي الضاد والطاء من تطور.

بقي أن نشير إلى صفتين تتكون كل واحدة منهما من مجموعة صفات إذا توافرت مجموعة مُعيَّنة من هذه الصفات في صوت من الأصوات وصفه مَكِّي بصفة القوة وإذا توافرت مجموعة مُعيَّنة أخرى وصفه بصفة الضعف.

لَمْ يجعل مَكِّي صفتي القوة والشدة من الألقاب المستقلة حينما تحدث

١/ المصدر السابق: ص ١٣٤.

٢/ أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: عبد الصبور شاهين، ص ٢٠٩.

عن ألقاب الحروف وصفاتها في كتاب (الرعاية)، لكنه اعتنى بها في كتاب (الكشف).

ويعدُّ مَكِّي أول من تكلم عن قوة الحرف وضعفه استناداً على ما يتحلى به من صفات. فهو -إذن- واضع نظرية قوة الحرف وضعفه^(١).

لقد لاحظ الباحث اهتمام مَكِّي البالغ في وصفه لأي صوت بتحديد موقعه -حسب صفاته- من القوة والضعف، ونشر ذلك في كتابيه: (الرعاية) و(الكشف). ولا نستطيع أن نأتي بكل ما قال عن قوة الصوت وضعفه ولكننا نقتطف بعض ما قال. من ذلك قوله: "والشدة من علامات قوة الحرف فإن كان مع الشدة جهر وإطباق واستعلاء فذلك غاية القوة في الحرف لأن كل واحدة من هذه الصفات تدل على القوة في الحرف فإذا اجتمع اثنتان من هذه الصفات في الحرف أو أكثر فهي غاية القوة كالطاء. فعلى قدر ما في الحرف من الصفات القوية كذلك قوته، وعلى قدر ما فيه من الصفات الضعيفة كذلك وضعفه.... فالجهر والشدة والصفير والإطباق والاستعلاء من علامات قوة الحرف، والهمس والرخاوة والخفاء من علامات ضعف الحرف"^(٢).

وقد تحدث عن القوة والضعف في مواضع كثيرة من كتاب (الرعاية) متعرضاً لها دون تفصيل. فذكرها عند حديثه عن حروف الإطباق^(٣). وعند حديثه عن حروف الصفير^(٤)، والحرف المكرر^(١)، وحر في الغنة^(٢)، وكذلك

١/ يُنظر، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: غانم قدوري الحمّد، ص ٣٢٨.

٢/ الرعاية: ص ١١٨.

٣/ المصدر السابق: ص ١٢٢.

٤/ المصدر السابق: ص ١٢٣.

عند حديثه عن أبواب الحروف كل حرف على حدة، ذكر صفتي القوة والضعف مع ما يناسب كل صوت.

ولمّا كانت قوة الحرف وضعفه لا تُعرف إلا من خلال السياق والتراكيب كان من الطبيعي أن يخصّص باباً في كتاب (الكشف) للحديث عن الحروف القوية والحروف الضعيفة لأنّ هذا الكتاب يتعرض للأصوات في تراكيبها وسياقاتها، والدليل على ذلك أنه عرض لهذا المفهوم (القوة والضعف) عند حديثه عن الإدغام^(٣). وقبل ذلك سمى باباً مستقلاً في هذا الكتاب باسم: "باب في معرفة الحروف القوية والضعيفة"^(٤). جمع فيه تسع صفات سماها صفات القوة وهي: الجهر والشدة والإطباق والتفخيم والتكرير والاستعلاء والصفير والاستطالة والغنة والتفشي^(٥).

لكن ماذا يريد مكّي ويعني بقوة الحرف وضعفه؟ ولماذا خص صفات مُعيّنة تدل على القوة وصفات أخرى تدل على الضعف؟

يرجّح الباحث أنّ مفهوم مكّي لقوة الصوت يتلخص في قوة وضوحه في السمع واتساعه في المخرج. وأنّ ضعف الصوت عنده يعني قلة وضوحه في السمع وانحصاره في المخرج.

١/ المصدر السابق: ص ١٣١.

٢/ المصدر السابق: ص ١٣١.

٣/ الكشف عن وجوه القراءات: ١/١٤١-١٦٠.

٤/ المصدر السابق: ١/١٣٧.

٥/ المصدر السابق: ١/١٣٧.

الفصل الثالث

تصنيف الأصوات الصائتة عند مكّي

المبحث الأول

التصنيف العام للأصوات إلى صامتة وصائتة
والفرق بين كل منهما

المبحث الثاني

أسبقية الحروف والحركات

المبحث الثالث

العلاقة بين (حروف المدّ واللين) والحركات الثلاث

المبحث الرابع

أنواع أخرى من الأصوات الصائتة

المبحث الخامس

تصنيف الأصوات الصائتة في علم الأصوات الحديث

المبحث الأول

التصنيف العام للأصوات إلى صامتة وصائتة

والفرق بين كل منهما

يقسّم العلماء الأصوات إلى قسمين عامّين هما: الأصوات الصامتة (Consonants) والأصوات الصائتة (Vowels)، بغض النظر عن الاختلافات في تعيين أصح الأسماء، وبغض النظر عن التفسيرات والاختلافات داخل هذا التقسيم الثنائي.

يقوم تقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت على أساسين:

الأول: عضوي (فسيولوجي).

والثاني: سمعي.

أمّا الأساس العضوي فقد لوحظ أنّ أعضاء النطق أثناء عملية النطق بالصوائت تتجافى عن بعضها تاركة الممر مفتوحاً ليخرج الهواء دون أن يعيقه عائق^(١) شديد أو خفيف، كما لوحظ كذلك أنّ أعضاء النطق تتقارب^(٢) إلى بعضها حتّى تصل أحياناً إلى درجة الإغلاق.

وعلى هذا الأساس يكون "الفرق الأساسي في الكلام الصوتي بين الصائت والصامت هو: أنه في تكوين الصامت يكون مجرى الهواء عبر الفم في مكان (ما) إمّا مقفلاً قفلاً تاماً أو قفلاً جزئياً، بينما في تكوين الصائت يمر

١/ Bronsahan, L. F. Malmberg, B.: Introduction to Phonetics, Cambridge,

١٩٧٠, p. ٨٣.

٢/ Martinet, A.: Elements of General Linguistics, London, ١٩٦٤, p. ٥٦.

الهواء معه دون عائق" (١).

تناول مكي فكرة تأليف الكلام من الحروف الساكنة والحروف المتحركة، الأمر الذي يدل على معالجته للأصوات وتصنيفه إياها إلى الصنفين آنفي الذكر. قال: "الكلام كله أُلّف من أربعة أشياء: من حرف متحرك ومن حرف ساكن ومن حركة ومن سكون، وذلك يرجع إلى شيئين حرف متحرك وحرف ساكن، والحرف المتحرك في كلام العرب أكثر من الساكن كما أنّ الحركة أكثر من السكون" (٢). وقد علّل ذلك بتعليل مهم يمكن أن يُستفاد منه في معرفة النظام المقطعي للغة العربية، فقال: "وإنما كان الحرف المتحرك في الكلام أكثر من الساكن لأنك لا تبتدئ إلا بمتحرك وقد يتصل به حرف آخر متحرك وآخر بعد ذلك متحرك، ولا يجوز أن يُبتدأ بساكن ولا أن يتصل ساكن بساكن أبداً" (٣).

أمّا فيما يخص الفرق بينهما فقد بيّنه على هذا الأساس العضوي بياناً حسناً فقال وهو يتحدث عن حروف المدّ واللين: "وإنما سُمّين بحروف اللين لأنهن يخرجن من اللفظ في لين من غير كلفة على اللسان واللهوات، بخلاف سائر الحروف، وإنما ينسلن بين الحروف عند النطق بهن انسلالاً بغير تكلف" (٤).

يبين هذا النص تبييناً قاطعاً معرفة مكي بخصائص تكوين الصوامت والصوائت والفرق بينهما، وقد عبّر عن ذلك بكلمات مناسبة تشكل معنىً

J. F.: *Language and Linguistics, wall work*, London, ١٩٧٤, p. ٢٧. /١

/٢ الرعاية: ص. ٩٧.

/٣ المصدر السابق: ص. ٩٧.

/٤ المصدر السابق: ص. ١٢٦.

عاماً تجتمع عليه هذه الكلمات، وهذا المعنى هو (حرية الخروج) فهو حين قال: "يخرجن من اللفظ في لين" فقد أضفى على حروف المد واللين الحرية المطلقة، الشيء الذي لا يُتاح لباقي الأصوات وهي الصوامت التي تظل حبيسة المخارج فتكون في لفظ الكلام أكثر تقييداً به.

ويلاحظ كذلك معنى حرية الخروج هذه بقوله: "..... من غير كلفة على اللسان واللهوات بخلاف سائر الحروف" فقد عبّر عن أعضاء النطق المتحركة بـ(اللسان واللهوات) لأنّ أعضاء النطق المتحركة هي التي يقع عليها عبء كثيف حين النطق بالصوامت، وقوله: "من غير كلفة" إنما يعني من غير عائق، سواءً أكان تاماً أم ناقصاً، وقوله: "وإنما ينسلن" دليل كذلك على حرية الخروج بدون عوائق لأنّ الانسلال يعني الخروج المتواصل والمنتظم ولأنّ خروج الصوت خروجاً متقطعاً أو غير منتظم ربما يكون بسبب العقبات التي تعترض طريقه أثناء الخروج.

هناك صوتان من أصوات العربية هما: الواو الساكنة التي قبلها فتحة، في نحو (يَوْمٌ)، والياء الساكنة التي قبلها فتحة، في نحو (بَيْتٌ)، يكون اعتراض الهواء عند النطق بهما بدرجة أقل منه عند النطق ببقية الصوامت لذلك فهما "من الناحية العضوية أقرب إلى الصوائت منهما إلى الصوامت"^(١). لذلك سُمّي كل واحد منهما نصف صائت^(٢). ويطلق عليهما: (diphthong)

١/ الدراسات الصوتية عند علماء العربية: عبد الحميد الهادي إبراهيم الأصيبي، كلية الدراسات الإسلامية، ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٩٢م، ص ٥٤.

٢/ علم اللغة العام (الأصوات): كمال محمد بشر، ص ١٣٤.

وكون كل من حرفي اللين نصف صائت أو نصف حركة يدل على قلة
اعتراض الهواء أثناء النطق بهما، وقد أشار إلى ذلك مكي بقوله: "حرفا اللين
وهما الواو الساكنة التي قبلها فتحة، والياء الساكنة التي قبلها فتحة، وإنما
سُمّيتا بذلك لأنهما يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان"^(١). فلم ينفِ
الكلفة أو الإعاقة، وإنما أشار إلى قِلَّتِها، الشيء الذي بسببه سُمّي كل منهما
نصف حركة أو نصف صائت.

لقد سمي مكي والقدماء^(٢) حروف المد واللين بالهوائية كذلك،
وهذه التسمية مبنية على أساس من التفريق العضوي بينها وبين الصوامت
لأنَّ الصوائت -وهي حروف المد واللين- لا تعتمد على مخرج مُعَيَّن
و"لأنَّ كل واحدة منهن تَهْوِي عند اللفظ بها في الفم فمدة خروجها في هواء
الفم"^(٣).

أمَّا الأساس الثاني في تقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت فهو
الأساس السمعي أو الصوتي فقد لُوْحِظ أنَّ الأصوات الصائتة أكثر وضوحاً
في السمع من الأصوات الصامتة والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين:
الأول: أنَّ الصوائت كلها مجهورة، بمعنى أنَّ الحنجرة تقوم بدور
أساسي في إنتاجها لذبذبة الحبال الصوتية ممَّا يؤدي ذلك إلى قوة
السمع ووضوحه.

١/ الرعاية: ص ١٢٦.

٢/ وصفهن الخليل كذلك بهذا الوصف فقال: "والياء والواو والألف والهمزة هوائية في
حيز واحد لأنها لا يتعلق بها شيء"؛ يُنظر، العين: بتحقيق عبد الله درويش،

ط بغداد، ٥٨/١

٣/ الرعاية: ص ١٢٦.

الثاني: أنَّ الهواء يخرج طليقاً عبر ممر واسع بعد أن اكتسب طابع التصويت بفعل الحبال الصوتية فتخرج الأصوات بدون إعاقه مع كونها واضحة في السمع.

إنَّ نسبة الوضوح السمعي وكثرتها للصوائت لَمْ يُشِرْ إليها القدماء -حسب علم الباحث- ربما لأنَّ الأصوات الصائتة لَمْ تنل حظها من البحث والوصف مثلما نالت الأصوات الصامتة، ولعل هذا يفسره خلو الكتابة العربية في مراحلها الأولى من النقط والشكل.

أَمَّا مَكِّي فقد عرض إلى شيء من ذلك حينما علَّل تسمية حروف المد بقوله: "وإنما سُمِّيَتْ بحروف المد لأنَّ مد الصوت لا يكون في شيء من الكلام إلا فيهن"^(١).

ومعلوم أنَّ أصوات المد تتولد من إشباع الحركة التي قبلها. وفي كلام مَكِّي إشارات إلى وضوح الصوت بالمد، وقوله: "لا يكون في شيء من الكلام إلا فيهن" يعني لا يكون وضوح الصوت إلا في الأصوات الصائتة وهي العلل وهذا يعني بالضرورة أنَّ الصوامت^(٢) لا تحتوي على نسبة وضوح سمعي كما نجدها في الصوائت.

يُمكن أن نحصل على التقسيم العام عند مَكِّي كما قسمها القدماء والمحدثون وهو كالآتي:

١ / الأصوات الصامتة أو الفونيمات الصامتة، وعددها ثمانية وعشرون.

١ / الرعاية: ص ١٢٥.

٢ / بعض الصوامت ذات وضوح سمعي مثل الأصوات الرنانة (اللام، الراء، النون).

٢ / الأصوات الصائتة^(١) أو الفونيمات الصائتة، وهي العلل بمقاديرها الستة: الفتحة، والفتحة الطويلة (ألف المد)، والضمّة، والضمّة الطويلة (واو المد)، والكسرة، والكسرة الطويلة (ياء المد).

١ / يكتفي الباحث بالإشارة إليها فقط تاركاً أمر تفصيلها للباب الثالث خوفاً من التكرار.

المبحث الثاني أسبقية الحروف والحركات

لَمْ يُعِرَّ المحدثون هذه القضية اهتماماً يُذكر - فيما وقف عليه الباحث - وكانت دراساتهم تصب في الجوانب الوظيفية والتطبيقية لنوعي الأصوات (الصوامت والصوائت) أمّا القدماء من علماء العربية فقد عُنيوا بالحديث عن الحروف والحركات وأيهما أسبق لدرجة أن ظهر خلاف بين اللغويين في هذا الأمر، وقد ناقش مَكِّي هذا الخلاف بدقة وأمانة ورجَّح في نهاية الأمر رأي من ذهب إلى أن الحروف أو الحركات لَمْ يسبق أحدهما الآخر في الاستعمال، بل كان استعمالهما معاً وقد شبه ذلك بالجسم والعرض اللذين لَمْ يسبق أحدهما الآخر^(١).

وقد أيّد مَكِّي ترجيحه لهذا الرأي بقوله: "ومن الدليل على صحة هذا القول أن الكلام الذي جيء به للإفهام مبنيٌّ من الحروف، والحروف إن لَمْ تكن في أول أمرها متحركة فهي ساكنة، والساكن لا يمكن أن يُبتدأ به ولا يمكن أن يتصل به ساكن آخر في سرد الكلام لا فاصل بينهما فلا بد ضرورة من كون الحركة مع الحرف لا تتقدم أحدهما الآخر إذ لا يمكن وجود حركة على غير حرف، وأيضاً فإنّ الكلام إنما جيء به لتفهم المعاني التي في نفس المتكلم، وبالحركات واختلافها تفهم المعاني، فهي منوطة بالكلام مرتبطة به إذ بها يفرق بين المعاني التي من أجلها جيء بالكلام"^(٢).

١/ الرعاية: ص ١٠٠.

٢/ الرعاية: ص ١٠١-١٠٢.

وهكذا نجد مَكِّيًّا - في حديثه عن هذه القضية التي أثّرت من قبله - يؤكد على وظيفة كل من الحروف والحركات (الصوامت والصوائت) ويُعنى بأهمية كليهما في التفريق بين المعاني، ويشير إلى مساواتهما وتعادلهما في الاستعمال مِمَّا يؤكد عدم إهماله للحركات (الأصوات الصائتة) الأمر الذي أصبح اتهاماً يوجهه المحدثون - دائماً - إلى القدماء لذلك يجب ألا يكون هذا الاتهام معممًا.

إن لَمْ تُحْظَ الأصوات الصائتة من قدامى اللغويين العرب بما حظيت به الأصوات الصامتة، وَلَمْ يَعتدوا بها فجعلوها تابعة غير مستغلة بنفسها فَإِنَّ مَكِّيًّا كما بيَّنَّا قد أشار إلى استغلالها ومساواتها للأصوات الصامتة.

كان اعتماد المحدثين في إصدار أحكامهم على القدماء ورميهم لهم بالوهم في بعض نواحي الدرس الصوتي على مثل قول سيبويه في تعليقه لقوة الحروف مقارنة بالحركة: "لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف كان أقوى من أن يفصلوا بحركة"^(١).

وعلى مثل قول ابن جني في نظره إلى الأصوات الصائتة على أنها تابعة للأصوات الصامتة حين قال: "لَمَّا كان الحرف قد يوجد ولا حركة معه وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف صارت كأنها قد حلتها وصار هو كأنه قد تضمنها"^(٢).

ثم لننظر في قول مَكِّي: "..... فلا بد ضرورة من كون حركة مع

١ / كتاب سيبويه: ٢٩٥/٢.

٢ / سر صناعة الإعراب: ٣٧/١.

الحرف لا تتقدم أحدهما الآخر^(١). وفي قوله: "وبالحركات واختلافها تفهم المعاني، فهي منوطة بالكلام مرتبطة به"^(٢).

فهل في كلامه إلا اعتناء بالصوائت واعتداد بها لمساواته بينها وبين الصوامت في الاستعمال وذلك ببيان وظيفة كلٍّ منهما.

١ / الرعاية: ص ١٠٢.

٢ / المصدر السابق: ص ١٠٢.

المبحث الثالث

العلاقة بين (حروف المدّ واللّين) والحركات الثلاث

الحديث عن الصوائت سيأتي -إن شاء الله- في مكانه، ولكن لا بد من إيراد الإشارات والملاحظات التي أثارها مكي كما أثارها من تقدمه من اللّغويين حول العلاقة بين (أصوات المدّ واللّين) والحركات الثلاث.

إنّ الفرق بين هذه الأصوات يقوم على أساس من كمية الصوت وزمنه الذي يستغرقه، وعلى هذا فلا فرق بين أصوات المدّ والحركات إلا في الكمية والزمن "فإنك تقول: (ضَرَبَ)، ثم تطيل الزمن الذي تستغرقه في نطق الفتحة بعد الضاد فتصير الكلمة: (ضَارَبَ) ومثل ذلك في (ضَرَبَ) المبني للمجهول، و(ضُورِبَ)، و(مساكن)، و(مساكين)، وأشباه ذلك"^(١).

أمّا مكي فقد ناقش هذه القضية وعقد لها باباً في كتابه (الرعاية) بعنوان: [باب الاختلاف في حروف المدّ واللّين والحركات الثلاث أيهما مأخوذ من الآخر وعِلل ذلك]^(٢). وقد أورد اختلاف النحويين في هذا الأمر، فمنهم من يقول إنّ حروف المدّ واللّين أصل أخذت عنه الحركات الثلاث وبيّن استدلالهم^(٣) وآراءهم، ومنهم من يقول إنّ حروف المدّ واللّين الثلاثة مأخوذة من الحركات الثلاث، وأورد كذلك استدلالهم الكثيرة، ومنها أنّ

١/ فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، ط٦، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص ٤٠٦.

٢/ الرعاية: ص ١٠٣.

٣/ المصدر السابق: ص ١٠٣-١٠٤.

الحركات إذا أُشْبِعَتْ تولدت هذه الحروف الثلاثة^(١).

ومنهم من يسميهم بأهل النظر ويرى رأيهم فيقول: "وقال بعض أهل النظر ليست هذه الحروف مأخوذة من الحركات الثلاث ولا الحركات مأخوذة من الحروف، إذ لم يسبق أحد الصنفين الآخر، على ما قدمنا من قول من قال: إن الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر، وهو قول صحيح إن شاء الله تعالى"^(٢).

والحق أن أصوات المد لا تُعدُّ إطلاقاً من الأصوات الصامتة، فهي إذن نوع من الصوائت يختلف عن الحركات في كميات الصوت وأمده. ولذلك فلا سبيل إلى إدراجها ضمن الأصوات الصامتة أبداً، لأنَّ تكوينها -وفقاً- للأساسين العضوي والسمعي المعمول بهما في تصنيف نوعي الأصوات- يضعها في خانة الأصوات الصائتة.

ولم يكن مكِّي بدعاً من كثير من لغويي العرب السابقين حينما عدَّ هذه الأصوات حروفاً، وهي ما تُسمى حديثاً (فونيمات صامتة) توجد ساكنة -أي خالية من الحركة- كما توجد متحركة شأنها شأن الصوائت، يقول مكِّي عن الواو: "..... فإن كانت الحركة التي عليها ضمة ازدادت ثقلاً"^(٣).

ويقول عن الياء: "كذلك الياء المتحركة ثقيلة"^(٤).

١/ الرعاية: ص ١٠٥.

٢/ المصدر السابق: ص ١٠٦.

٣/ المصدر السابق: ص ٢٣٥.

٤/ المصدر السابق: ص ٢٣٥.

ويبدو أنَّ هذا الخطأ - وهو عدُّ أصوات المدِّ أصواتاً صامتة عند القدامى بمن فيهم مكِّي - يرجع إلى عدة أسباب أهمها: أنَّ الخط العربي عرَّف أصوات المدِّ فأوجد لها رموزاً ولم يوجِد للحركات رموزاً كتابية في بادئ الأمر، وهذا العيب في الخط العربي يرجع إلى أصوله التي منها أُخذ، وقد أُخذ من الخط النبطي^(١) الذي كان يكتب به بعض الساميين في شمال جزيرة العرب^(٢). وكان هذا الخط يخلو من رموز لأصوات العلة بمقاديرها الستة.

وعليه يمكن القول إنَّ أصوات المدِّ تُعدُّ عند مكِّي من الناحية الوظيفية أصواتاً صامتة، ومن الناحية العضوية (الفسيولوجية) أصواتاً صائتة.

على حين أنَّ صوتي اللَّين وهما: الواو في نحو (يَوْم)، والياء في نحو (يَيْت) يقتربان - عضوياً - من الصوامت لكنهما إلى الصوائت أقرب، ويكونان - وظيفياً - من الصوامت. فتساوى أصوات المدِّ واللَّين في أنها من الناحية الوظيفية والكتابية تُعدُّ أصواتاً صامتة.

ورغم أنَّ مكِّيَّاً يحسب أصوات المدِّ واللَّين - على الأساس السابق - أصواتاً صامتة إلا أنه - في وصفه لهذه الأصوات - يحدد السمة العضوية التي يشير إليها المحدثون في تكوين الأصوات الصائتة، وهي اتساع المجرى وحرية مرور الهواء بلا عوائق.

وأيضاً يمكن أن نقول إنَّ العلاقة بين أصوات المدِّ واللَّين الثلاثة

١/ الخط النبطي منسوب إلى النَّبط وهم شعب من الشعوب السَّاميَّة، كانوا يتكلمون لهجة

آرامية، وقد اشتقوا خطوط أبجديتهم من الخط الفينيقي.

٢/ يُنظر، فصول في فقه اللغة العربية: رمضان عبد التواب، ص ٣٩٨.

والحركات الثلاث عنده هي التماثل من الناحية العضوية والتباين من الناحية الوظيفية.

المبحث الرابع أنواع أخرى من الأصوات الصائتة

علمنا فيما تقدم أنَّ الأصوات الصائتة الأساسية عند مَكِّي ستة أصوات، وهي: الفتحة، الضمة، والكسرة، بمقاديرها الستة. وعلمنا كذلك إدراكه لأهمية هذه الأصوات في الوظائف اللغوية، لكنَّ هنالك أنواعاً أخرى من الصوائت أقل شيوعاً في العربية وقد وردت بها بعض القراءات القرآنية. وأهم هذه الأنواع الرَّوم والإشمام والإمالة. إذن فإنَّ ما تقدم من الأصوات الصائتة إنما يمثل الصوائت الرئيسية في اللغة العربية.

لقد تحدث مَكِّي عن الرَّوم والإشمام في كتاب (الكشف) ووضح معنى كليهما عنده وعند الكوفيين. قال: "وأصل الرَّوم أظهر للحركة من أصل الإشمام لأنَّ الرَّوم يُسمع ويُرى والإشمام يُرى ولا يُسمع"^(١).

ثم قال عن الكوفيين إنهم: "يُترجمون عن الإشمام -الذي لا يُسمع- بالرَّوم، ويترجمون عن الرَّوم -الذي يُسمع- بالإشمام -الذي لا يُسمع-"^(٢).

وعلى رأي مَكِّي وكثير من علماء التجويد كابن الجزري^(٣) فإنَّ الإشمام عبارة عن إشارة إلى الحركة من دون أن تُسمع، ويُعرف عليه بحركة الشفتين، والإشمام كما يبدو هو أدنى درجات الحركة لشدة شبهه بالسكون، والصوت الذي فيه الإشمام كالساكن، لذلك فإنه ربما يفقد قيمته المقطعية،

١/ الكشف: ١٢٢/١.

٢/ المصدر السابق: ١٢٢/١.

٣/ راجع كلامه عن الرَّوم والإشمام في كتابه النشر: ١٢١/٢.

ولو سَمَّينا الإِشْمام بالحركة فإنه حركة لا يُعتدُّ بها، وليس بوزن الحركة المحققة. أمَّا الرُّوم على رأيه فعبارة عن حركة قصيرة جداً، مثل الحركة وهو حينئذ له ما للحركة من القيمة المقطعية. إذن فإنَّ الرُّوم والإِشْمام درجتان كلٌّ منهما أقل من الحركة القصيرة في الكمية.

وعلى كل حال فإنَّ مَكِّيًّا قد تحدث عن ظاهرتي الرُّوم والإِشْمام في كتابه (الكشف) مرتبطين بالوقف مركزاً على التحليل النحوي في تعليقه. وسيأتي تفصيل القول عن الرُّوم والإِشْمام من حيث التأثير والتأثر عند الحديث عن الظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصائتة في الفصل الثالث من الباب الثالث، صفحة ٣٦٧-٣٧١.

لقد لاحظ المتقدمون أنَّ هنالك أنواعاً أخرى من الحركات تتوسط بين الحركات المعروفة نتيجة لمزجها في السياق، وكان ابن جَنِّي يرى أنَّ: "ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر فثلاث، وهي: الضمة والكسرة والفتحة. ومحصولها على الحقيقة ستة. وذلك أنَّ بين كل حركتين حركة"^(١). ويُمثَّل ابن جَنِّي للحركة التي بين الكسرة والضمة بكسرة القاف في الفعل (قيل) ويمثَّل للحركة التي بين الضمة والكسرة بضمة العين في الاسم (مذعور) فالأولى حركة أمامية مرتفعة تُنطق بتدوير الشفتين، والثانية حركة خلفية مرتفعة تُنطق بدون استدارة الشفتين. وفي علم الأصوات الحديث تُعدُّ هاتان الحركتان من الحركات المعيارية الثواني^(٢) (Secondary Cardinal Vowels)

١/ الخصائص: لابن جَنِّي، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة دار الهدى للطباعة والنشر،

١٢٠/٢-١٢١.

٢/ Daniel Jones: An Outline of English Phonetics, p. ٥٢.

ويُرمز إلى الكسرة المشممة ضمّاً بالرمز (Y) ويُرمز إلى الضمة المشممة كسراً بالرمز (W).

أمّا الإمالة فقد كان كلامه فيها أكثر وضوحاً، وفصل فيها القول في كتابه (الكشف) وهي ظاهرة صوتية أكثر ارتباطاً باللهجات العربية، ولكنها تدخل ضمن الظواهر اللهجية الفصيحة، ويكفيها فصاحة ورودها في بعض القراءات القرآنية المتواترة.

يقرر مكّي أنّ الإمالة ليست أصلاً في الكلام، لأنّ الأصل فيه الفتح، يقول: "اعلم أنّ أصل الكلام كله الفتح، والإمالة تدخل في بعضه، في بعض اللغات لعلّة. والدليل على ذلك أنّ جميع الكلام الفتح فيه سائغ جائز، وليست الإمالة بداخلة إلا في بعضه، في بعض اللغات، لعلّة. فالأصل ما عمّ وهو الفتح" (١).

سيأتي الحديث مفصلاً -إن شاء الله- عن الإمالة في الفصل الثالث من الباب الثالث، صفحة ٣٤٨، لنعلم حين ذاك مدى تأثير الأصوات الصائتة ببعضها وكيف كانت معالجة مكّي لها.

المبحث الخامس

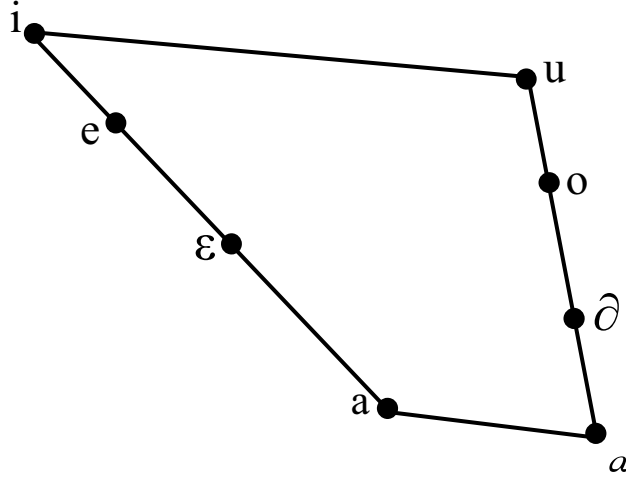
تصنيف الأصوات الصائتة في علم الأصوات الحديث

تصدى علم الأصوات الحديث إلى قياس الأصوات الصائتة باعتبارها أصواتاً تربط بين الأصوات الصامتة وتعبر خلالها إلى بعضها، فهي تمثل الرابط الذي يربط أجزاء الكلام في السلسلة الكلامية للغة ولها أهمية بالغة في أدائها.

لقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية): أن البروفيسور دانيال جونز أول من أشار إلى مقاييس أصوات اللين وعُني بها في جامعة لندن، ويُنَّ أن أصوات اللين منحصرة بين أقصى ما يُمكن أن يصل إليه اللسان من الصعود إلى الحنك الأعلى وأقصى ما يُمكن أن يصل إليه من الهبوط في الفم، مع ملاحظة عدم حدوث أي نوع من الاحتكاك بين اللسان -طرفه أو أقصاه- وما يليه من الحنك الأعلى غاره أو طبقه. حتَّى لا تخرج أصوات اللين عن كونها أصواتاً صائتة يمر معها الهواء بدون إحداث أي نوع من الحفيف المسموع.

لقد رمز المحدثون من علماء الأصوات لأصوات اللين هذه -والتي تسمى بالحركات المعيارية- برموز تتَّزَل على أي لغة، معتمدين على وضع اللسان من أمامه وخلفه في ارتفاعه وانخفاضه، ولاحظوا أن هذه الحركات وتنوعها، إنما يتوقف على ارتفاع اللسان نحو الحنك الأعلى وانخفاضه إلى قاع الفم، ونتج عن ذلك أنماط حركية رئيسية تقسم إلى قسمين: حركات أمامية، وحركات خلفية، كل قسم يضم أربعة أصوات، ليكون مجموعها ثمانية مقاييس تبدأ بصوت اللين (i) وهو يحدث حين يرتفع أول اللسان

أقصى ارتفاع نحو الحنك الأعلى بدون حدوث احتكاك، وتنتهي بصوت اللين (u) وهو يحدث حين يرتفع أقصى اللسان أقصى ارتفاع نحو الحنك بدون إحداث أي نوع من الاحتكاك. وقد رسمت هذه الأنماط الثمانية بالشكل الآتي^(١) وهي الحركات المعيارية الأساسية:



على يمين الشكل الأصوات الخلفية وعلى يساره الأصوات الأمامية. تصنيف الأصوات الصائتة (الحركات المعيارية) الأساسية اعتماداً على ثلاثة اعتبارات:

أ- بالنظر إلى الجزء الذي يفوق غيره في الارتفاع أو الانخفاض من اللسان.

ب- بالنظر إلى درجة العلو أو الانخفاض التي يصل إليها اللسان.

ج- بالنظر إلى أوضاع الشفتين.

١/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٣٢-٣٣؛ ويُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ١٤٨-١٥٧.

وعليه نحصل على المجموعات الحركية التالية:

١ / إذا نظرنا إلى الجزء من اللسان الذي يفوق غيره ارتفاعاً أو انخفاضاً

نحصل على مجموعتين، هما:

أ- حركات أمامية، وهي: [i، e، ε، a].

ب- حركات خلفية، وهي: [a، ∂، o، u].

٢ / إذا نظرنا إلى درجة العلو أو الانخفاض من اللسان نحصل على أربع

مجموعات، هي:

أ- حركات مرتفعة، وهي: [i، u].

ب- حركات شبه مرتفعة، وهي: [e، o].

ج- حركات منخفضة، وهي: [a، a].

د- حركات شبه منخفضة، وهي: [ε، ∂].

٣ / إذا نظرنا إلى أوضاع الشفتين نحصل على خمس مجموعات، هي:

أ- حركة تكون معها الشفتان في حالة انفراج شديد، وهي

الحركة المعيارية: [i].

ب- حركة تكون معها الشفتان في حالة انضمام شديد، وهي

الحركة المعيارية: [u].

ج- حركات تكون معها الشفتان في حالة انفراج خفيف،

وهي: [e، ε].

د- حركات تكون معها الشفتان في حالة انضمام خفيف،

وهي: [∂، o].

هـ- حركات تكون معها الشفتان في حالة انفراج محايد، وهي:

[a، a].

يتضح ذلك أكثر بالنظر إلى هذا الجدول:

جدول رقم (٧)

جدول يوضح تصنيف الحركات المعيارية^(١)

الحركة	الجزء المرتفع من اللسان	درجة الارتفاع والاختفاض	وضع الشفتين
[i]	أمامية	مرتفعة	انفراج شديد
[e]	أمامية	شبه مرتفعة	انفراج خفيف
[ɛ]	أمامية	شبه منخفضة	انفراج خفيف
[a]	أمامية	منخفضة	انفراج محايد
[ɑ]	خلفية	منخفضة	انفراج محايد
[ɔ]	خلفية	شبه منخفضة	انضمام خفيف
[o]	خلفية	شبه مرتفعة	انضمام خفيف
[u]	خلفية	مرتفعة	انضمام شديد

والسؤال المطروح هو: هل صَنَّف القدماء من علماء العربية بمن فيهم مَكِّي الأصوات الصائتة هذا التصنيف أم لهم تصنيفات أخرى مشابهة له؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: لَمْ يصنف مَكِّي ولا القدماء الأصوات الصائتة مثل هذا التصنيف، بل انصرفت عنايتهم أو معظم جهودهم إلى الكلام حول الأصوات الصامتة. وعلى الرغم من اهتمام مَكِّي^(٢) الشديد بالأصوات على مستوييها الصامت والصائت فإننا لا نجد عنده توصيفاً للأصوات الصائتة كالذي جاء به المحدثون، وتظهر المفارقة بين هؤلاء وأولئك

١/ يُنظر، الأصوات اللغوية: ص ٢٩-٣٦؛ وقد تعرضت كتب المحدثين إلى هذا الأمر.

٢/ يُنظر، الرعاية: ص ١٠٢.

في أنّ المتقدمين قد أغفلوا دور اللسان في قياس الصوائت. والدليل على ذلك أنّ مَكِّيًّا^(١) كان يرى أنّ اللسان يتصعد إلى أعلى مع الفتحة ويتسفل مع الكسرة، بينما أثبتت الدراسات الحديثة عكس ذلك تماماً.

١/ يُنظر، الكشف: ١٧٠/١-١٧١.

البَابُ الثَّالِثُ

الأصوات اللُّخْوِيَّةُ عِنْدَ مَكِّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ
عَلَى مَسْتَوَى التَّرْكِيْبِ

الفَصْلُ الأوَّلُ

دراسته لظواهر نبي الناثير والناثر في الاصوات

الفَصْلُ الثاني

دراسته للظواهر الصوتية المتعلقة بالاصوات الصائنة

الفَصْلُ الثالث

دراسته للظواهر الصوتية المتعلقة بالاصوات الصائنة

الفصل الأول

دراسته لظاهرتي النثر والناثر في الأصوات

المبحث الأول

عنايته بظاهرتي التأثر والتأثر

المبحث الثاني

موقفه من المماثلة الصوتية (*Assimilation*)

المبحث الأول

عنايته بظاهري التأثير والتأثر

إنَّ أي لغة من اللغات عبارة عن نظام من الأصوات المتصلة، تتكون منها الكلمات، وهذه الكلمات تتصل ببعضها اتصالاً أشبه بالسلسلة أو العقد، لذلك تُعرَّف اللغة أحياناً بأنها نظام أو نظم. و"حين ينطق المرء بلغته نطقاً طبيعياً لا تكلف فيه، نلاحظ أنَّ أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في البعض الآخر، كما نلاحظ أنَّ اتصال الكلمات في النطق المتواصل قد يخضع أيضاً لهذا التأثير"^(١).

لقد درس علماء الأصوات القدامى والمحدثون أصوات اللغة، موجهين عنايتهم إلى مستويين: المستوى الأول هو المستوى التحليلي، الذي يُعنى بدراسة الأصوات مفردة ببيان خصائصها النطقية، وذلك مثل بيان مخارجها وصفاتها وكل ما يتعلق بالصوت المفرد. والمستوى الثاني هو المستوى التركيبي والسياقي، وهذا يدرس الأصوات بالنظر إلى ما ينشأ من ظواهر صوتية نتيجة لاتصال الأصوات والتحامها في سياق متصل من الكلام.

ولكن وفيما وقف عليه الباحث، فإنَّ القدماء من علماء العربية، وعلماء القراءات القرآنية، كانت عنايتهم بالظواهر الصوتية الناشئة من تركيب الأصوات، أكبر من عناية علماء الأصوات المحدثين.

أمَّا مكي، فكان من أكثر المهتمين بقضية التأثير والتأثر في الأصوات، وقدَّم لنا نماذج نظرية وتطبيقية تشير إلى تلك الظواهر الصوتية الناشئة عن

١ / الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ١٧٨.

التركيب. وقد امتلأ كتابه (الرعاية) بالعديد من النصوص التي تدل على اهتمامه بفكرة التأثير والتأثر. فكان يصف الظاهرة الصوتية وصفاً دقيقاً، ثم يأتي بالأمثلة التطبيقية، ثم يعمل منهجه المعيارى فى قبول الظاهرة أو ردها؛ لأنه لغوى صاحب رسالة، فلا يكتفى بوصف الظاهرة وإنما يوضح ويعلل ويبين الخطأ من الصواب فى نطق القرآن، ولأنه يعلم أن إطلاق العنان للسان لينطق الصوت بما يشاء وكيفما يشاء، يهدد النطق القرآنى بل يصيبه بشيء من التغير الصوتى.

وكان الحكم -دائماً- فى قبول بعض الظواهر الصوتية الناشئة من التركيب ورفض البعض الآخر، هو تواتر القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، إذ إن أصوات القرآن الكريم تلقاها الأجيال عن الأجيال بطريق التواتر.

كان مكى فى كتبه التى اعتنى فيها بالأصوات دائم التحذير للطلاب من الزلل، ودائم التوصية لهم بتوخى الحذر فى نطق الأصوات، احترازاً من تغير الأصوات لتجاوزها، حتى لا تلبس المعاني.

والأمثلة التى تدل على ذلك كثيرة، يستطيع الباحث -بعد عون الله تعالى- أن يخرج من كتاب (الرعاية) جملة مصطلحات أطلقها مكى على نماذج من الأخطاء فى نطق الأصوات، تبين معرفته وعنايته بظاهرتى التأثير والتأثر فى الأصوات وتوضيح منهجه فى دراستها على أساس من التفريق بين أصوات القرآن وأصوات الكلام، والمصطلحات هى:

١] التصحيف:

وهو عنده أحد أمرين:

الأول: أن يقترب نطق الصوت من نطق صوت آخر، ومثّل لذلك بمجاورة التاء للطاء، فكلاهما من مخرج واحد، إلا أن الطاء لها مزية الإطباق. قال في ذلك: "فإن لم يتحفظ القارئ بإظهار لفظ التاء على حقها من اللفظ، قرب لفظها من لفظ الطاء ودخل في التصحيف"^(١).

الثاني: خروج نطق الصوت إلى صوت آخر، أو صيرورته صوتاً آخر، وممّا قال في ذلك: "وإذا وقعت الطاء بعد ضاد كان البيان للطاء أكد على القارئ.... وذلك نحو قوله تعالى: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}^(٢)"^(٣).

وقال قبل ذلك: "..... ومتى قصر القارئ في تجويد لفظ الطاء أخرجها إلى لفظ الضاد أو الدال..... وذلك تصحيف وخطأ ظاهر"^(٤).

وقال أيضاً في حديثه عن الدال: "وإذا وقع بعد الدال حرف مفخّم: راء أو لام. وجب التحفظ بترقيقها لئلا تتبع تفخيم ما بعدها فيدخلها الإطباق وتصير ظاءً وذلك تصحيف"^(٥).

١ / الرعاية: ص ٢٢٥.

٢ / سورة الشرح: الآية (٣).

٣ / الرعاية: ص ٢٢١.

٤ / المصدر السابق: ص ٢٢٠.

٥ / المصدر السابق: ص ٢٢٥.

٢ [الشَّوْبُ:]

وهو أن يختلط الصوت بالصوت. وقد حذر مَكِّي منه عند التقاء الكاف بالقاف بقوله في باب القاف: "وإذا وقعت الكاف بعدها أو قبلها وجب بيانها لئلا يشوبها شيء من لفظ الكاف يقربها منها، أو يشوب الكاف شيء من لفظ القاف، نحو: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)"^(١)^(٢). وأشار إليه أيضاً في حديثه عن التقاء الدال بالتاء قائلاً: "..... فلا بد من التحفظ بإظهار لفظ الدال في ذلك وبيانها لئلا يشوبها لفظ التاء"^(٣).

٣ [المخالطة:]

وهي تحمل معنى الشَّوْب. ولكنه صرَّح بها وحذر منها إذا التقت الجيم الساكنة بالتاء بعدها، فقال: "وإذا سكنت الجيم وأتت بعدها تاء وجب أن يتحفظ القارئ بإخراج الجيم من موضعها وإعطائها حقها، وإن لم يفعل ذلك سارع اللفظ إلى أن يُخالط لفظ الجيم لفظ الشَّيْن"^(٤).

وذكرها أيضاً في باب السين حين قال: "وإذا وقعت السين وبعدها حرف إطباق، وجبت المحافظة على إظهار لفظ السين وبيان صفيها لئلا يخالطها لفظ الإطباق الذي بعدها"^(٥).

١ / سورة الأنعام: الآية (١٠٢).

٢ / الرعاية: ص ١٧١.

٣ / المصدر السابق: ص ٢٠٣.

٤ / الرعاية: ص ١٧٧.

٥ / المصدر السابق: ص ٢١٢.

٤ [الخطأ:

وقد حذر منه حين تلتقي الهاء بالحاء فتأثر الأولى بالثانية، ولئلا تضعيع معالم الأولى (الهاء) وصّى بالتحفظ بنطقها لضعفها، قال: "وإذا وقعت الهاء قبل حاءٍ أو بعد حاءٍ وجب إظهار الهاء، والتحفظ بها"^(١). ومن الآيات التي استدل بها قوله تعالى: {وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا}^(٢)، وقوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}^(٣). قال: "فتحفظ ببيان الهاء لئلا تزداد خفاءً عند الحاء، أو تصير مدغمة في الحاء وذلك كله خطأ"^(٤).

٥ [الالتباس:

أشار إلى هذا المعنى عندما تسبق النون الياء أو الواو في كلمة. وهو هنا يبحث على الإظهار، وإلا فسيلجأ القارئ إلى الإدغام، قال: "ولو وقعت النون قبل الياء والواو في كلمة لأظهرت، ولم يحسن أن تُدغم لئلا يقع الالتباس بالمضاعف وذلك نحو: بنيان وقنوان، فافهم ذلك"^(٥).

ونبه إلى هذا الخطأ أيضاً إذا وقع بعد الغين عينٌ أو قاف لقرب مخرجها منهما، لذلك أوجب "أن يُتَحَفَّظ ببيان الغين إذا وقع بعدها عين أو قاف.... لأنَّ العين في المخرج قبلها قريبة منها، والقاف بعدها قريبة

١ / الرعاية: ص ١٥٨.

٢ / سورة الإنسان: الآية (٢٦).

٣ / سورة الأنعام: الآية (٩١).

٤ / الرعاية: ص ١٥٨-١٥٩.

٥ / المصدر السابق: ص ٢٦٥.

منها، فيحافُ أن يلتبس اللفظ بالإخفاء أو بالإدغام^(١). وذلك نحو قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}^(٢). وقوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}^(٣).

١ [الحذف:

ويُقصد به حذف الحرف عند عدم التحفظ بالإظهار. ويحدث هذا في حالات ذكر منها:

أ/ عند عدم التحفظ بإظهار الهمزة في الوقف في نحو شاء وشيء ودفع؛ لأنه إن "لَمْ" تتحفظ من إظهار الهمزة في هذا في وقفك كنت حاذفاً حرفاً ولا حناً في ذلك"^(٤).

ب/ عند عدم إظهار التشديد وتمكينه في الوقف على المختوم بياء مشددة وذلك نحو قوله تعالى: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}^(٥). ونحو: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيٍّ}^(٦). وذلك مخافة أن يخفى المشدد بالوقف إذا تطرف "لا اجتماع ساكنين غير منفصلين..... تُمكن التشديد في الوقف وتُظهره لئلا تخفيه فيذهب حرف من التلاوة"^(٧). فنراه عبر عن الحذف بـ(ذهاب حرف).

١/ الرعاية: ص ١٦٩.

٢/ سورة آل عمران: الآية (٨).

٣/ سورة البقرة: الآية (٢٥٠).

٤/ الرعاية: ص ١٥١.

٥/ سورة الشورى: الآية (٤٥).

٦/ سورة إبراهيم: الآية (٢٢).

٧/ الرعاية: ص ١٧٩-١٨٠.

ج/ عند عدم التحفظ في نطق الياء المكررة في كلمة أو كلمتين وواحدة منهما مشددة قال: "وإذا تكررت الياء في كلمة أو في كلمتين وإحدهما مشددة مكسورة، وجب على القارئ أن يبين ذلك بياناً ظاهراً، لثقل الياءات والتكرير، والكسر والتشديد، وإن لم يتحفظ في ذلك أسقط حرفاً من التلاوة"^(١).

وهو هنا يعبر عن الحذف بالإسقاط. ومثل لذلك بقول الله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ} ^(٢). وبقوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} ^(٣).

هذا، وهنالك العديد من العيوب التي تنشأ من تجاوز الأصوات وتأثيرها وتأثرها. أشار إليها مكي، ووضع لها مسميات كالتي ذكرناها، منها: الإحاطة، والتبديل، والتغيير، والتعسف، والغلط، والقبح، والخفاء، والتفكيك، والنبر، وزيادة بعض الحروف والإثقال والإدغام^(٤).

١/ الرعاية: ص ١٨٢.

٢/ سورة الأعراف: الآية (١٩٦).

٣/ سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

٤/ يُنظر، الرعاية: ص ١٤٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٢،

٢٠٧، ٢٢٣.

المبحث الثاني

موقفه من المماثلة الصوتية (Assimilation)

يقودنا سرد المصطلحات التي ذكرها مكي في المبحث السابق إلى بعض التساؤلات:

ما موقفه من المماثلة الصوتية؟

وهل هي مقبولة عنده أم مرفوضة؟

أم هل يقبلها أحياناً ويرفضها أحياناً أخرى؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لا بد أن نوضح أنه على الرغم من تفريقه بين الأصوات على مستوييها القرآني والكلامي العام وتعبيره عن ذلك بمثل قوله -وهو يتحدث عن الحرف السادس بعد التسعة والعشرين- "وأما الحرف السادس فهو حرف لَمْ يُستعمل في القرآن وهو حرف بين الشين والجيم وهي لغة لبعض العرب، يدلون من كاف المؤنث شيئاً يخالط لفظها لفظ الجيم"^(١). على الرغم من ذلك فإن الباحث يرى أن المطلوب في أداء أصوات القرآن يُعدُّ مقياساً لأداء أصوات الكلام العام، وأن أهم أسباب احتفاظ اللغة العربية بخصائصها الصوتية هو القرآن الكريم، لا ريب، وقد علمنا أن أصواته متواترة، وأصوات القرآن هي أصوات العربية، فهي إذن محفوظة بهذا التواتر والنقل الأمين، غير أن التريث والتلطف والتحفظ والحذر أمور أكثر طلباً مع أصوات القرآن الكريم.

وإذا أدركنا هذا الأمر نستطيع أن نجيب فنقول:

يُعتبر كتاب (الرعاية) لمكي سفرًا مليئًا بالأبحاث والأقوال التي تجلّي لنا

موقفه من فكرة تأثير الأصوات وتأثرها، فهو مدرك لهذه الظاهرة ملم بخصائص الأصوات في أفرادها، عالم بالظواهر الناتجة عن تركيبها في سياقاتها. وقد قدم الباحث العديد من الأمثلة التي توضح إلمامه بهذه الفكرة.

أمّا قبوله وعدم قبوله لما يسميه المحدثون: المماثلة الصوتية الناتجة من تجاور الأصوات، فنجد أنه يقف موقفاً متوازناً من هذا الأمر، فهو لا ينكر ضرورة الانسجام بين الأصوات، كما أنه يحث على عدم ترك اللسان يلفظ الأصوات بلا نظام. فلا بد من الموازنة بين مراعاة النظام وتوحي الانسجام. وإذا كانت العملية الكلامية تتم -ضرورة- بين متكلم ومتلق (مخاطب)، فإن لكل منهما حقاً على الآخر. فحق المتلقي على المتكلم البيان من المتكلم، وذلك بالعدل والإحسان في إخراج الأصوات واضحة بيّنة مصونة من رياح التبدل والتغير التي قد تتناها جراً تجاورها. وحق المتكلم على السامع أن يتخفف من أعباء النطق متى ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وأن يتحاشى ويتخلص من ثقل القيود النطقية ما دام ذلك لا يؤدي إلى لبس أو غموض تذهب معه وظيفة الكلام. فالسامع دائماً يطلب البيان الكامل لعناصر الكلام ولا يسمح لمبدأ (الخفة والثقل) أن يُضيّع جوهر الكلام، إنما يسمح به إذا أمن اللبس، والمتكلم يميل -شأن كل مجتهد- إلى أن يقلل اجتهاده بتوحي الخفة والتحليل من الثقل وأعباء النطق.

وعلى هذا الأساس قبل مكي أو لم يقبل مبدأ المماثلة الصوتية، وكان في دراسته لأصوات القرآن متبّعاً لمنهج الرواية والدراية. فهو يصف الأصوات في أفرادها وفي سياقها فتتعدد عنده الصور النطقية، راوياً لها كما سمعها ممن روى عنهم، ولم يسمح لمبدأ الاستتقال والاستخفاف أن يعلو على مبدأ

الرواية والنقل، ولكنه مع ذلك يورد النماذج المتعددة والأنماط المتواردة، ويحتج لكل نمط ومثال احتجاجاً صوتياً ويسمح بنطق كل هذه النماذج ما دامت موافقة للرواية.

إذن فإنَّ المماثلة الصوتية أو الانسجام بين الأصوات عنده مقبول أحياناً، ومرفوض أحياناً أخرى، فهو غير مقبول إذا خالف الرواية التي لم تكن من فراغ، وإنما هي خلاصة النطق العربي الفصيح، ومقبول إذا وافقها. لكنه لم يقف عند حدِّ الرواية حافظاً لها دون إدراك، ناشراً لها دون تعليم، مردداً لها دون تفسير وتعليل، مدافعاً عنها دون احتجاج. وإنما تعدّاها إلى الدراية. وهذا يدل على عنايته بأصوات القرآن والعربية، وانظر إليه يصف القراء في علمهم بالتجويد فيقول: "فمنهم من يعلمه رواية وقياساً وتمييزاً فذلك الحاذق الفطن. ومنهم من يعرفه سماعاً وتقليداً، فذلك الوهن الضعيف لا يلبث أن يشكَّ ويدخله التحريف والتصحيف، إذ لم يبن على أصل ولا نقل عن فهمهم..... فنقل القرآن فطنة ودراية أحسن منه سماعاً ورواية"^(١).

ومن أمثلة الظواهر الصوتية الناشئة عن التركيب والتي يكون فيها عنصر المماثلة الصوتية واضحاً، ظاهرة الإدغام، وظاهرة الإمالة، وغيرهما. وسيأتي الحديث عنهما في الفصول التالية^(٢) - إن شاء الله تعالى - وهما من أنواع المماثلة الصوتية المقبولة عند مكِّي وعند علماء التجويد. رواهما في قراءته وحكماهما في دروسه، ولم يقف عند حد الرواية، بل تعدّاها إلى الاحتجاج والتعليل.

١/ الرعاية: ص ٨٩-٩٠

٢/ يُنظر إلى الإدغام في ص ٢٦٢-٢٧٧؛ ويُنظر إلى الإمالة في ص ٣٤٨-٣٦٥.

وقد فسّر مكي لظاهرة الإدغام بعد روايتها تفسيراً يدل - في عمومته - على إرادة السهولة والاقتصاد في الجهد وذلك بالعدول عن الثقل إلى الخفيف. فقال مثلاً:

"واعلم أن أصل الإدغام إنما هو في الحرفين المثليين. وعِلَّة ذلك إرادة التخفيف، لأن اللسان إذا لفظ بالحرف من مخرجه، ثم عاد مرة أخرى إلى المخرج بعينه، ليلفظ بحرف آخر مثله صعب ذلك، وشبهه النحويون بمشي المقيد، لأنه يرفع رجلاً ثم يعيدها إلى موضعها أو قريب منه، وشبهه بعضهم بإعادة الحديث مرتين وذلك ثقل على السامع"^(١).

ومن تفسيراته وتعليلاته التي تدل - أيضاً - على أنه لم يقف عند حد الإشارة إلى الأحكام الصوتية الناشئة من التركيب، قوله بعد أن ذكر مذهب (ورث) دون باقي القراء في تفخيم اللام: "وعِلَّة من فخّم هذا النوع أنه لمّا تقدم الحرف اللام حرف مفخّم مطبق مستعل، أراد أن يقرب الكلام نحو لفظه، فيعمل اللسان في التفخيم عملاً واحداً، وهذا هو معظم مذاهب العرب في مثل هذا، يقربون الحرف من الحرف، ليعمل اللسان عملاً واحداً، وعلى هذا أتت الإمالات في عِلَلِها، وعلى هذا أبدلوا من السين صاداً إذا أتى بعدها طاء أو قاف أو غين، أو خاء ليعمل اللسان في الإطباق عملاً واحداً فذلك أخف عليهم من أن يتسفل اللسان بالحرف، ثم يتصعد إلى ما بعده"^(٢).

هذه النصوص تدل على اهتمام مكي وتمسكه بضرورة المحافظة على كيان الصوت العربي مهما تجنت عليه عوامل الضعف، وحرصه على سلامة

١/ الكشف: ١٣٤/١.

٢/ المصدر السابق: ص ٢١٩.

نطقه في الكلام المتصل، واجتهاده في أن يبقى الصوت محتفظاً بخصائصه النطقية، وهذا لا يعني عدم اعترافه بفكرة تأثير الصوت وتأثره وإنما كان يسمح بذلك عند أمن اللبس ووضوح المعنى، وذلك كالتأثير الذي ينتج أحياناً عن إدغام أو إطباق أو تفخيم أو إمالة أو غير ذلك.

إنَّ نظرية السهولة من أهم عوامل تطور الأصوات اللغوية عند المحدثين^(١). لذلك كان لازماً على مكِّي وأمثاله التصدي لكل ما من شأنه طمس المعالم النطقية للأصوات حفاظاً على سلامة المعنى.

لا يشك امرؤ أنَّ تطوراً ما قد حدث في نطق الأصوات العربية نتيجة لعوامل التطور المعروفة، مثلما حدث لصوت الضاد، وصوت الطاء، وصوت القاف. ولقد وقف الباحث على هذا التطور من خلال عرضه لوصف القدماء لهذه الأصوات، ولا شك أنَّ هنالك أنواعاً شتى من مظاهر التطور في الأصوات العربية، وأنَّ نطقنا اليوم لا ينطبق على نطق القدماء تمام الانطباق. ولكن مع ذلك فإنَّ نوعاً من الثبات والحفظ لأصوات العربية لم ولن يتوفر لأصوات أي لغة من اللغات قديماً وحديثاً.

١/ هنالك عدة عوامل ذكرها الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية) يُعزى إليها تطور الأصوات اللغوية، منها: اختلاف أعضاء النطق، والبيئة الجغرافية، والحالة النفسية، ونظرية السهولة، ونظرية الشيوع؛ يُنظر، الأصوات اللغوية: ص ٢٣٠ -

الفصل الثاني

دراسته للظواهر الصوتية المنعلقة بالأصوات الصامتة

المبحث الأول- التأثير الشامل للأصوات عند مَكِّي

المطلب الأول : الإدغام عند النحاة.

المطلب الثاني : الإدغام عند مَكِّي.

المبحث الثاني- التأثير غير الشامل للأصوات عند مَكِّي

المطلب الأول : الجهر والهمس.

المطلب الثاني : الإطباق والانفتاح.

المطلب الثالث : الغنة.

المبحث الثالث- بعض الظواهر الصوتية التأثرية التي
عالجها مَكِّي

المطلب الأول : أحكام النون الساكنة.

المطلب الثاني : المشدّات.

المطلب الثالث : الهمزة.

المبحث الأول التأثر الشامل للأصوات عند مَكِّي

هنالك نماذج متعددة عاجلها مَكِّي توضح تأثر الأصوات ببعضها وقام بوصفها على المستوى القرآني والمستوى الكلامي ثم حلّلها وعلّق عليها وعلّلها تعليلاً لغوياً، مؤسساً على خبرته في هذا المجال وسعة علمه فيه.

يمكن أن نقسم صور التأثر بين الأصوات الصامتة التي عاجلها مَكِّي إلى ثلاثة مباحث.

أمّا هذا المبحث وهو التأثر الشامل للأصوات، فيقصد الباحث به كمال التأثر والتأثير بين الأصوات، بحيث يشمل التأثير مخرج الصوت وصفاته. بمعنى أن يذوب الصوت في الصوت ويفنى فيه، ويتحقق هذا النوع من التأثر في ظاهرة الإدغام.

المطلب الأول الإدغام عند النحاة

وهذا المطلب تلخيص لظاهرة الإدغام عند النحاة يراه الباحث مُهِمًّا قبل الشروع في الحديث عن معالجة مَكِّي له.

أ/ مفهوم الإدغام لدى النحاة:

اعتنى النحاة بظاهرة الإدغام وأفاضوا في الحديث فيها وكانوا منذ سيبويه قد ضَمَّنُوا مصنفاتهم الحديث عن قواعد الإبدال والإعلال والإدغام، ولكنهم مهَّدُوا للحديث عن الإدغام بدراسة صوتية وافية عن الأصوات مخارجها وصفاتها وما يعرض لها في الكلام. وكانوا حينما يفرغون من الحديث عن إدغام المثلين ويريدون أن يتحدثوا عن إدغام المتقاربين يقدمون بين يدي مناقشتهم الحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها، لأنَّ إدغام المتقاربين ينشأ وفقاً للعلاقة الصوتية بينهما، وهذه العلاقة تُعرف من خلال معرفة المخارج والصفات.

وكل النحاة -تقريباً- تأثروا بمنهج سيبويه في معالجته لظاهرة الإدغام، فقد عالج المبرِّد هذه الظاهرة في كتابه (المقتضب) في الجزء الأول وقَدَّمَ له بدراسة للأصوات. وكذلك فعل الزجاجي في كتابه (الجُمْل) الذي أنهاه بالحديث عن الإدغام، وكذلك فعل ابن عصفور الإشبيلي في كتابه (الممتح في التصريف)، ومن تصفَّح كتاب (شرح المفصَّل) يبدو له تأثيره الواضح بسيبويه.

يُعرِّف النحاة الإدغام بأنه: "أنَّ تصل حرفاً ساكناً بحرف مثله متحرك، من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيصيران لشدة اتصاليهما كحرفٍ

واحد، يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة، فيصير الحرف الأول كالمستهلك^(١).

إنَّ مفهوم الإدغام الاصطلاحي الذي قال به متأخرو النحاة وقال به القراء، أضيق من مفهوم الإدغام لدى سيبويه، لأنَّ مفهوم الإدغام عند سيبويه يعني تقريب^(٢) الصوت من الصوت. وقد مثَّل لذلك بالفعل (صدر) الذي يتأثر فيه صوت الصاد المتقدم بصوت الدال المتأخر، لأنَّ الدال صوت مجهور والصاد صوت مهموس، فحدث تأثير رجعي (*Regressive*) بأن قُرَّب صوت الصاد من أشبه الأصوات المجهورة به وهو صوت الزاي؛ لأنه من مخرجه، وإشمام الصاد صوت الزاي ينتج لنا صوتاً أشبه بصوت الظاء في نطق السودانيين.

ومِمَّن تأثر بسيبويه من النحاة واللغويين ابن جني الذي عرَّف الإدغام بأنه "تقريب صوت من صوت"^(٣). وقد شمل الإدغام عند ابن جني الإدغام الذي يوجد في بعض اللهجات كإدغام (ود) التي يدغمها التميميون، وأصلها (وتد) وشمل كذلك الإدغام الاصطلاحي المعروف، وشمل إدناء الحرف من الحرف من غير ممازجة وخلط كالإمالة، وقلب تاء افتعل طاءً في نحو اضطبر وغيرها وذكر من التقريب قولهم^(٤): الحمدُ لله، والحمدُ لله، بتصيير كسرة اللام ضمة لضمة الدال، وتصيير ضمة الدال كسرة لكسرة اللام، التماساً للخفة في النطق وهروباً من القيود النحوية. وهذا يدل على أنَّ القواعد

١/ شرح المفصل: لابن يعيش، ١٢١/١٠.

٢/ كتاب سيبويه: ١١١/٤.

٣/ الخصائص: ١٤١/٢؛ وقد سمَّاه الإدغام الأصغر.

٤/ يُنظر، الخصائص: ١٤٤/٢.

الصوتية مقدمة أحياناً على القواعد النحوية والصرفية، فالمثال الأول يوضح أن القواعد الصوتية مقدّمة على القواعد الصرفية، والمثال الثاني يوضّح أن القواعد الصوتية مقدّمة على القواعد النحوية والإعرابية.

لكن الإدغام قد استقر أخيراً على مفهومه الاصطلاحي المعروف عند النحاة المتأخرين وعند القراء على السواء، وليس هنالك خلاف يُذكر بينهم، فهو إذن "النطق بالحرفين حرفاً كالثاني مشدداً"^(١). وهو: "وصل حرف ساكن بحرف مثله متحرك بلا سكتة على الأول"^(٢).

وبهذا يكون الإدغام عبارة عن عملية صوتية تتكون من ثلاث مراحل،

هي:

أولاً: إسكان أول المثليين أو المتقاربين.

ثانياً: قلب الأول صوتاً مثل الثاني إن لم يكونا مثليين.

ثالثاً: إدغام الأول في الثاني.

ولا بد للمرحلة الثالثة من تمهيد لها بالمرحلة الثانية، ولا بد للمرحلة الثانية من تمهيد لها بالمرحلة الأولى.

والغالب في الإدغام هو قلب الأول إلى الثاني دون العكس ولا يخرج عن ذلك إلا لأمرين هما:

١ / كون الصوت الأول أخف من الصوت الثاني، نحو: (اذبح

١ / الرائد في تجويد القرآن الكريم: محمد سالم المحيسن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧؛ وهو التعريف المشهور في كتب التجويد.

٢ / شرح شافية ابن الحاجب للإستراباذي، تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م، ٣/٢٣٥.

عتوداً) لأنه لا يدغم حلقي في حلقي آخر أدخل منه.
٢ / إذا كان الصوت الأول يمتاز عن الثاني بأن كانت فيه إحدى
صفات الامتياز كالاستطالة والغنة والتفشي والصفير^(١).

ب / عِلَّةُ الإِدْغَامِ عِنْدَ النِّحَاةِ:

إنَّ الإِدْغَامَ إجراءً صوتيًّا باعثه التماس الخفة في النطق واقتصاد الجهد العضلي وتحقيق الانسجام الصوتي بين الأصوات المنطوقة، والخفة المطلوبة قد تكون خفة إعرابية، وهي: حذف الحركة الإعرابية قبل عملية المماثلة الصوتية. وقد تكون خفة صوتية وتشتمل على عملية قلب الصوت إلى مثيله وعلى عملية إدغام الصوت في مثيله.

لقد أشار سيوييه إلى هذا الباحث في بداية حديثه عن الإدغام فقال:
"هذا باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول
عنه"^(٢). بعد أن فرغ من ذكر عدد الحروف وأحوالها.
وأشار شارح (المفصل) إلى عِلَّةِ الإدغام بقوله: "..... يرتفع اللسان
عنهما رفعة واحدة..."^(٣).

وقال ابن عصفور الإشبيلي معرّفاً الإدغام بأنه: "رفعك اللسان
بالحرفين رفعة واحدة ووضعك إياه بهما موضعاً واحداً"^(٤).

١ / شرح شافية ابن الحاجب: للإستراباذي، ٢٦٤/٣.

٢ / الكتاب: ٤٣٧/٤.

٣ / شرح المفصل: ١٢١/١٠.

٤ / الممتع في التصريف: لابن عصفور، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار المعرفة،

بيروت، ١٩٨٧م، ٦٣١/٢.

هذه النصوص تبين وضع اللسان في حالة الإدغام، فلا بد من ارتفاع اللسان ارتفاعاً واحدة، والسبب وجود الأصوات المتماثلة والمتقاربة التي يتعذر معها رفع اللسان وردّه إلى موضعه الذي منه ارتفع، ولولا الإدغام "لثقل عليهم التكرير والعودة إلى حرف بعد النطق به" ^(١). حتّى شبه النحاة ترك الإدغام عند الحاجة إليه بمشي المقيد ^(٢) الذي يوصله اجتهاده في الخطو إلى ردّ رجله إلى مكانها أو إلى ما يُقارب مكانها فيثقل ذلك عليه.

ولقد قرر العالم السويسري (فتنلر) كلام سيوييه: حينما أيّد ملاحظة القدماء بارتفاع اللسان في الإدغام مرة واحدة، فقد ذكر أنّ آلات النطق لكي تنطق الحرف الثاني من المتماثلين أو المتشابهين تتحرك نفس الحركة التي تحركتها عند النطق الأول ^(٣).

١/ شرح المفصل: ١٠/١٢١.

٢/ يُنظر، الممتع في التصريف: ٢/٦٣١؛ ويُنظر، شرح المفصل: ١٠/١٢١.

٣/ يُنظر، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: عبد الصبور شاهين، ص ٢١٣؛ نقلاً عن محاضرة للمستشرق أ. شادة ألقاها بعنوان (علم الأصوات عند سيوييه وعندنا).

المطلب الثاني الإدغام عند مكّي

لقد تأثر مكّي كما تأثر علماء التجويد بمنهج النحاة في دراسة الإدغام، ولكنه كان أكثر تفصيلاً من النحاة. ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً- معنى الإدغام عنده:

يُلخّص معنى الإدغام بقوله: "الإدغام معناه: إدخال شيء في شيء، فمعنى أدغمت الحرف في الحرف، أدخلته فيه، فجعلت لفظه كلفظة الثاني فصارا مثلين والأول ساكن فلم يكن بد من أن يُلفظ بهما لفظة واحدة، كما يصنع بكل مثلين اجتماعاً"^(١).

فهو كما نرى قد أشار إلى العملية الصوتية التي تحدث أثناء الإدغام وأشار إلى المراحل الثلاث التي ذكرناها آنفاً وهي: إسكان أول المثلين وقلب الأول صوتاً مثل الثاني وإدغام الأول في الثاني. ووضح من تعريفه أنه يتفق مع القراء ومتأخري النحاة في تعريفهم للإدغام.

ثانياً- أنواع الإدغام عنده:

ينقسم الإدغام عنده إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول- الإدغام الناقص:

قد يكون التأثير بين الأصوات شاملاً بالغاً لدرجة الإدغام ولكن مع ذلك يكون ناقصاً، بمعنى أنه قد يفنى الصوت في الصوت مع بقاء بعض الأثر للصوت الأول، فيكون الإدغام ناقصاً، ولذا فإن الإدغام الناقص

١/ الكشف: ١٤٣/١.

هو ما سُمع معه أثر وبقيت معه بقية للصوت المدغم. ويُيِّن مَكِّي هذا النوع من الإدغام بقوله: "..... مُدغم فيه نقص من الإدغام وذلك نحو ما ظهرت معه الغنة أو الإطباق أو الاستعلاء نحو: {مَنْ يُؤْمِنُ} ^(١) و{أَحَطْتُ} ^(٢) و{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ} ^(٣) ^(٤) .

والسبب في تسميته لهذا النوع بالناقص؛ عدم إدراج الصوت الأول في الصوت الثاني ذاتاً وصفةً مع حصول التأثير الشامل، فالمثال الأول أُدغمت فيه النون في الياء ولكن مع بقاء الغنة التي في النون. والمثال الثاني أُدغمت فيه الطاء في التاء مع بقاء الإطباق الذي في الطاء. والمثال الثالث أُدغمت فيه القاف في الكاف مع بقاء الاستعلاء الذي في القاف.

وقال أيضاً مُصَرِّحاً بهذا الاسم: "وقولك: مَنْ يُؤْمِنُ، فيها ضربٌ ناقصٌ يخالف الإظهار وهو الإدغام لا غير ونقصه هو إظهار الغنة معه، فهو إدغامٌ ناقصٌ" ^(٥) .

كذلك يشير إلى هذا النوع من الإدغام في باب القاف إذا سكنت قبل الكاف ^(٦) . ويشير إليه في باب الطاء إذا وقعت مدغمة في تاءٍ بعدها ^(٧) ،

١ / سورة سبأ: الآية (٢١).

٢ / سورة النمل: الآية (٢٢).

٣ / سورة المرسلات: الآية (٢٠).

٤ / الرعاية: ص ٢٥٥.

٥ / المصدر السابق: ص ٢٥٧.

٦ / المصدر السابق: ص ١٧٢.

٧ / المصدر السابق: ص ١٩٩.

وَيُسَمَّى هُنَا تَشْدِيدًا مُتَوَسِّطًا "غَيْرُ مُشْبِعٍ لِيَبْقَى بَعْضُ مَا كَانَ فِي الْحَرْفِ الْمُدْغَمِ"^(١).

النوع الثاني - الإدغام التام:

سَمَّاهُ إِدْغَامًا لَا زِيَادَةَ فِيهِ، وَهُوَ مَا يُجْعَلُ فِيهِ لَفْظُ الْأَوَّلِ كَلَفْظِ الثَّانِي دُونَ أَنْ يَبْقَى أَوْ يَذْهَبَ أَثَرٌ لِلصَّوْتِ الْمُدْغَمِ. وَعَرَّفَهُ بِقَوْلِهِ: "وَهُوَ كُلُّ مَا أُدْغِمَ لَا إِخْفَاءَ مَعَهُ، وَلَا إِظْهَارَ غِنًى، وَلَا إِطْبَاقَ، وَلَا اسْتِعْلَاءَ مَعَهُ؛ نَحْوُ: الْيَاءِ مِنْ (ذَرِيَّةٍ) وَالْيَاءِ وَالْجِيمِ مِنْ (لُجِّي) وَنَحْوُ: إِدْغَامِ (مَدٍّ)، وَإِدْغَامِ الدَّالِ فِي التَّاءِ مِثْلُ: {وَقَدْ تَبَيَّنَ}^(٢)".

النوع الثالث - الإدغام الزائد:

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِدْغَامِ انْفَرَدَ بِهِ مَكِّي دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالنَّحَاةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ - حَسَبَ عِلْمِ الْبَاحِثِ - وَلَقَدْ أَشَارَ عُلَمَاءُ التَّجْوِيدِ إِلَى الْإِدْغَامِ النَّاْقِصِ وَالْإِدْغَامِ التَّامِ وَلَمْ يَشِيرُوا إِلَى الْإِدْغَامِ الزَّائِدِ.

وَالْإِدْغَامُ الزَّائِدُ هُوَ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْ أَنْوَاعِ الْإِدْغَامِ الثَّلَاثَةِ يَلِيهِ التَّامُ ثُمَّ النَّاْقِصُ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الزِّيَادَةِ زِيَادَةُ التَّشْدِيدِ، وَيُحْصَلُ هَذَا بِفَقْدَانِ الصَّوْتِ الْمُدْغَمِ إِحْدَى صِفَاتِهِ الْمُمَيِّزَةِ، وَإِذَا كَانَ الْإِدْغَامُ النَّاْقِصُ تَبْقَى لِلصَّوْتِ الْمُدْغَمِ مَعَهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ فَيَكُونُ لِهَذَا الصَّوْتِ بَعْضُ مُمَيِّزَاتِهِ، فَإِنَّ الْإِدْغَامَ الزَّائِدَ تَذْهَبُ لِلصَّوْتِ الْمُدْغَمِ مَعَهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؛ فَيَكُونُ الْإِدْغَامُ أَوْضَحَ وَالتَّشْدِيدُ أَقْوَى.

١/ الرعاية: ص ٢٠٠.

٢/ سورة العنكبوت: الآية (٣٨).

يتحقق هذا النوع من الإدغام - كما قال مكي - مع الراء المشددة، إذ يجب على الناطق أن يشدّها "تشديداً بالغاً ويُخفي تكريرها ولا يُظهره، فإخفاء التكرير كأنه زيادة في التشديد، كما أن إظهار الغنة وظهور الإطباق والاستعلاء مع الإدغام نقصٌ في التشديد فافهم هذا، وذلك نحو قوله: (كرّة)، و(مرّة) و(فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا)^(١)، و(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ)^(٢)، وشبهه كثير^(٣).

وعلى الرغم من تعرض الدراسات الصوتية الحديثة لظاهرة الإدغام وتعبيرها عنه بعدة مصطلحات مثل: التشابه الكلّي والتشابه الجزئي^(٤)، ومثل المماثلة الكلية والمماثلة الجزئية والمماثلة الكاملة^(٥)، فإنّ الباحث يرى - وبعد اطلاعٍ على بعض كتب المحدثين - أن تقسيم مكي للإدغام دقيقٌ للغاية، ويُظهر براعة الرجل في إدراكه لعلاقة الأصوات في سياقاتها ومدى تأثر الصوت بالصوت.

وقد فصل القول في الإدغام الزائد الذي لم يشر إليه علماء القراءات وكذلك لم يشر إليه النحاة القدامى، ولا المحدثون.

وأفاض أيضاً في توضيح الإدغام الناقص، فلم يكتفِ بإدغام النون في

١ / سورة البقرة: الآية (١٦٧).

٢ / سورة البقرة: الآية (١٣٦).

٣ / الرعاية: ص ٢٥٥-٢٥٦.

٤ / يُنظر، التطور النحوي للغة العربية: برجشتراسر، تصحيح وتعليق د. رمضان

عبد التواب، ص ٢٩.

٥ / يُنظر، دراسات الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ٣٧٩، ٣٧٨.

الواو والياء أي لَمْ يكتفِ بقصر الإدغام الناقص على الإدغام بغنة بل تعدى ذلك عنده إلى الإدغام مع بقاء الإطباق والإدغام مع بقاء الاستعلاء.

ثالثاً- إدغام المتماثلين المتقاربين:

معلوم أن أسباب الإدغام عند علماء التجويد المتأخرين هي:

- التماثل: وذلك إذا اتفق الصوتان مخرجاً وصفةً.
 - التجانس: وهو كائنٌ في إدغام المتَّحدَيْن مخرجاً مختلفين صفةً.
 - التقارب: وهو إدغام صوتين متقاربين في المخرج والصفات.
- لقد استخدم مكي مصطلح (المثلين) و(المتقاربين) ولم يستخدم مصطلح (التجانس).
- وقد استخدم مصطلح المثلين في أماكن متفرقة من كتابه (الرعاية) و(الكشف) أمّا إدغام المثلين فهو عنده الأصل في الإدغام بل كان يوصي بأن يُبيّن الإدغام والتشديد^(١). وأمّا إدغام المتجانسين فيدخله في نطاق المثلين فهو عنده إدغام مثلين؛ والسبب في ذلك أنهما من مخرج واحد. يقول: "واعلم أنّ غير المثلين إذا تقاربا في المخرج وسكن الأول أشبه المثلين اللذين هما من مخرج واحد"^(٢).
- ولا يدري الباحث لماذا استخدم مكي عبارة (تقاربا) في المخرج وقد مثّل لهذا النوع من الإدغام بأصوات متّحدة المخارج مختلفة الصفات

١/ الرعاية: ص ٢٠٥.

٢/ الكشف: ١٣٤/١-١٣٥.

وذلك نحو قوله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ^{٢٠}}^(١)، و{وَدَّتْ طَائِفَةٌ^{٢١}}^(٢).

ويبدو أنَّ التسمية المناسبة التي قصدتها لهذا النوع من الإدغام هي إدغام الشبيهين بالمثلين؛ وما يؤكد ذلك قوله السابق: "..... أشبها المثلين اللذين هما من مخرج واحد"^(٣). فالصوتان ليسا مثلين لكنهما شبيهان بالمثلين. أمَّا مصطلح المتقاربين فهو كل إدغام ذكره مكِّي دون المتماثلين أو الشبيهين بالمتماثلين.

ومن المواضع التي ذكره فيها حديثه عن أحكام النون الساكنة والتنوين حين علَّل إدغام النون الساكنة والتنوين في الراء واللام بقوله: "والعلة في ذلك قرب مخرج النون من مخرج اللام والراء؛ لأنَّهم من حروف طرف اللسان، فتمكَّن الإدغام وحسُنَ لتقارب المخارج"^(٤).

رابعاً- الإدغام الكبير والإدغام الصغير:

ينقسم الإدغام إلى كبيرٍ وصغيرٍ وذلك اعتماداً على كثرة العمل النطقي وقلَّته.

فالكبير هو أن يتحرك الصوتان المدغم والمدغم فيه، وسُمِّي كبيراً لكثرة العمل فيه؛ وهو تسكين الحرف الأول ثم إدغامه. والصغير يكون فيه الحرف الأول ساكناً والثاني متحركاً، وسُمِّي صغيراً لقلة العمل فيه، وهو الإدغام فقط.

١/ سورة آل عمران: الآية (٧٢).

٢/ سورة آل عمران: الآية (٦٩)؛ ويُنظر، الكشف: ١/١٣٥.

٣/ الكشف: ١/١٣٤.

٤/ الرعاية: ص ٢٦٣.

لَمْ يجد الباحث تسمية لقسمي الإدغام الكبير والصغير فيما وقف عليه من مؤلفات لِمَكِّي، غير أَنَّ له كتابَيْن يحملان اسم (الإدغام الكبير) هما: كتاب (شرح الإدغام الكبير في المخارج) وكتاب (اختصار الإدغام الكبير على ألف، باء، تاء، ثاء)، الأول منهما موجود، والثاني مفقود.

وقد لاحظ الباحث أَنَّ عناية مَكِّي بالإدغام انصبت على ما اختلف فيه القُرَّاء مثل الإدغام الصغير ومثل إدغام دَال (قد) وذال (إذ) ولام (هل) و(بل). أمَّا ما اتفق فيه القُرَّاء فأهمله مثل إدغام لام التعريف وأغلب أحكام النون الساكنة والتنوين، وإدغام المتجانسين الذي لَمْ يسمِّه بهذا الاسم أصلاً. وأهمل أيضاً ما انفرد به بعضُ القُرَّاء كانفراد أبي عمرو بن العلاء^(١) بالإدغام الكبير.

وبذا يُلاحظ غلبة منهج القُرَّاء على تفكير مَكِّي في دراسته للإدغام؛ لأنَّ علماء التجويد ركزوا في دراساتهم حول الإدغام على ما اتفق فيه القُرَّاء.

خامساً- أثر قوة الصوت وضعفه في الإدغام:

يُعتبر مَكِّي رائداً في نظرية قوة الصوت وضعفه ولقد مر ذكرُ ذلك في ثنايا هذا البحث^(٢).

١/ يُنظر، السبعة في القراءات: ابن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف، طبع ونشر: دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ، الطبعة الثانية، ص ١١٦-١١٧؛ ويُنظر، تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة: ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص ٤١-٤٩.

٢/ يُنظر، ص ٢٢١-٢٢٣ من هذا البحث.

وملخص نظرية القوة والضعف التي طَبَّقَهَا مَكِّي على الإدغام هو: أنه متى ما تجاوز صوتان متجانسان أو متقاربان وأثَّرَ أحدهما في الآخر -وغالباً ما يكون هذا التأثير من الثاني على الأول أي تأثيراً رجعياً- فإنه يحدث غالباً إدغام الأول في الثاني وتتحدد مرتبة الإدغام من حيث الحسن والقبح بقوة الصوتين المدغم والمدغم فيه وضعفهما. فيكون الإدغام حَسَنًا إذا أُدْغِمَ الضعيف في القوي؛ لأنه حينئذٍ يُنْتَقَلُ بالإدغام من حال الضعف إلى حال القوة. ويكون الإدغام رديئاً إذا أُدْغِمَ القوي في الضعيف، وفي هذه الحال ينتقلُ القويُّ بالإدغام من حال القوة إلى حال الضعف.

لَمْ يَسْبِقْ مَكِّيَّ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي اعْتِمَادِ مِثْلِ هَذِهِ النِّظَرِيَّةِ وَتَطْبِيقِهَا عَلَى ظَاهِرَةِ الْإِدْغَامِ، فَكَانَ بِحَقِّ مَبْتَكراً لَهَا، وَتَوَصَّلَ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ مَنْهَجِهِ فِي دِرَاسَةِ الْأَصْوَاتِ الَّذِي لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ وَصَفِ الظُّوَاهِرِ الصَّوْتِيَّةِ وَإِنَّمَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى التَّعْلِيلِ وَالتَّفْسِيرِ، وَكَانَتْ هَذِهِ النِّظَرِيَّةُ ثَمَرَةً مِنْ ثَمَارِ تَعْلِيلَاتِهِ وَتَفْسِيرَاتِهِ.

هنا يمكن أن نتساءل: متى يوصف الصوت بالقوة ومتى يوصف بالضعف؛ حتَّى نستطيع أن نعلل لظاهرة الإدغام ونعيّن درجته قوة وضعفاً؟

ويجيبنا مَكِّي بقوله: "اعلم أن الضعف في الحرف يكون بالهمس وبالرخاوة فإذا اجتمعا في الحرف كان أضعف له..... واعلم أن القوة في الحرف تكون بالجر وبالشدة وبالإطباق والتفخيم وبالتكرير

وبالاستعلاء وبالصفير وبالاستطالة وبالغنة وبالتفشي"^(١).
لقد طبق مكي هذه النظرية في كتابيه (الرعاية) و(الكشف) واللذان
يُعدّان من أهم المؤلفات التي أفادت منها الدراسات الصوتية.
كان مكي يحث على معرفة الصفات القوية والصفات الضعيفة؛
ليتمكن القارئ والمتكلم من تجويد اللفظ وصولاً للبيان السليم.
قال في (الرعاية): "فاعرف الصفات الضعيفة والصفات القوية تقو
بذلك على تجويد لفظك بكتاب الله جل جلاله"^(٢).
ومن النصوص التي أيد بها نظريته قوله: "والقويُّ من الحروف إذا
تقدمه الضعيف مجاوراً له جذبه إلى نفسه إذا كان من مخرجه؛ ليعمل
اللسان عملاً واحداً في القوة من جهة واحدة"^(٣).
ومن أهم النصوص التي تشرح نظريته نصُّ يورده الباحث بكامله من
كتاب (الكشف)؛ ذلك لأنه أكثر تفصيلاً.
قال: "واعلم أنَّ الإدغام إنما يحسُن في غير المثلين ويقوى إذا سكن
الأول، وهو على ضربين:

أحدهما: إذا كان الحرفان متقاربين في المخرج، والحرف الأول أضعف
من الثاني، فيصير بالإدغام إلى زيادة قوة؛ لأنك تبدل من الأول حرفاً
من جنس الثاني. فإذا فعلت ذلك نقل لفظ الضعيف إلى لفظ القوة؛
فذلك حسنٌ جيّد.

١ / الكشف: ١/١٣٧.

٢ / الرعاية: ص ١١٩.

٣ / المصدر السابق: ص ٢٠٦.

والضرب الثاني: أن يكون الحرفان المتقاربان في القوة سواء كالمثلين فيحسن الإدغام، إذ لا ينتقص الأول من قوته قبل الإدغام.

وضرب ثالث: من إدغام المتقاربين ضعيفٌ قليل وهو أن يكون الحرف الأول أقوى من الثاني، فيصير بالإدغام أضعف من حاله قبل الإدغام.

فالذي يزداد قوة مع الإدغام هو كإدغام التاء في الطاء نحو: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ} ^(١)، و{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ} ^(٢) لأنَّ الطاء حرف ضعيف للهمس الذي فيه، والطاء حرف قوي للإطباق والجهر والاستعلاء والشدة اللواتي فيها، فهو أقوى من التاء كثيراً فإذا أدغمت التاء نقلتها من ضعفٍ إلى قوة مكررة، فهذا لا تكاد العرب تظهره، وكذلك أجمع القُراء على الإدغام في هذا، فإن نقصت قوة الحرف الثاني وهو مع نقص قوته أقوى من الأول حسن الإدغام والإظهار، نحو: {لَهْدَمْتُ صَوَامِعَ} ^(٣)، و{حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا} ^(٤)؛ لأنَّ الصاد نقصت عن قوة الطاء لعدم الجهر، وكون الهمس فيها، والطاء نقصت عن قوة الطاء لعدم التشديد، وكون الرخاوة فيها. والذي تتساوى قوة الحرفين فيه إدغام الذال في التاء، وذلك أنَّ الذال فيها ضعف وقوة، فالضعف من جهة أنها رخوة، والقوة من جهة أنها مجهورة كذلك التاء فيها ضعفٌ

١/ سورة آل عمران: الآية (٦٩).

٢/ سورة آل عمران: الآية (٧٢).

٣/ سورة الحج: الآية (٤٠).

٤/ سورة الأنعام: الآية (١٤٦).

وقوة، فالضعف من جهة أنها مهموسة والقوة من جهة أنها شديدة، فقد تقاربتا في القوة والضعف في صفاتهما، فجواز الإدغام حَسَن، والأول حسن في الإدغام؛ لأنك تزيد الحرف الأول قوَّةً بالإدغام.

والذي يقبح الإدغام فيه لقوة الأول وضعف الثاني فهو نحو إدغام الراء في اللام، وهو قبيح؛ لقوة الراء بالجر والتكرير اللذين فيه وضعف اللام لعدم التكرير فيه وضعف الجهر فيه، فإذا أدغمتَ نقلتَ الأقوى إلى الأضعف، وذلك مكروهٌ ضعيف، فقس عليه هذا فإنه الأصل الذي يُعتمد عليه^(١).

وقد تعرَّض بعض المحدثين إلى نظرية قوة الصوت وضعفه ومدى تأثير الصوت القوي في الصوت الضعيف^(٢).

١ / الكشف: ١٣٥/١-١٣٦.

٢ / أشار إلى ذلك: أحمد مُختار عمر في كتابه (دراسة الصوت اللغوي): ص ٣٧٢، تناوله لقانون الأقوى (*Law of Stronger*) لصاحبه الفرنسي جرامونت *Grammont* حيث لخصه بقوله: "إنه حينما يؤثر صوت في آخر فإنَّ الأضعف بموقعه في المقطع أو بامتداده النطقي هو الذي يكون عرضة للتأثر بالآخر".

المبحث الثاني

التأثر غير الشامل للأصوات عند مَكِّي

يُقصد بالتأثر غير الشامل بين الأصوات: اقتصار تأثير الصوت في الصوت على تغيير بعض ملامحه الذاتية حينما تؤثر صفة صوت في صوت مجاور له دون أن تسلبه كل خصائصه ولامحه، فقد يؤثر الصوت المجهور في المهموس، وقد يؤثر الانفجاري في الاحتكاكي، وقد يؤثر المطبق في المنفتح، وقد يؤثر الأنفي في الفموي وهكذا.

إذا كان التأثير الشامل والذي يتحقق في الإدغام يُقره مَكِّي ويُباح في قراءة القرآن الكريم، ويُعدُّ حينئذٍ من الأحرف التي نزل بها القرآن الكريم وهي أحرفُ أيَّدها الوحي النازل على الرسول ﷺ متطابقةً مع لهجات فصحاء العرب، إذا كان ذلك كذلك فإنَّ التأثير غير الشامل في معظم حالاته لم يُقره مَكِّي ولا الاستخدام اللُّغوي الفصيح وإنما يُعدُّ هذا النوع من تأثر الأصوات وتأثيرها في غالب^(١) أحواله نوعاً من اللحن الذي يلجأ إليه الناطق هروباً من الالتزام بتحديد المقادير الصوتية للأصوات المتجاورة وبيانها على صورتها الحقيقية من غير نقصٍ أو زيادة. وفي هذا ما لا يخفى من تطوُّر النطق العربي، وتشويه صورة الصوت حسبما تقتضيه الميول النطقية والعادات اللهجية للفرد؛ ممَّا ينتج عنه تغيُّر أصوات القرآن الكريم، الأمر الذي قيَّض الله له مَكِّيَّاً وأمثاله للوقوف في وجهه جهاداً بأصواتهم المنطوقة والمكتوبة؛ للحيلولة دون وقوعه، فكان النجاح حليفهم بعد عون الله تعالى.

١/ من الظواهر الصوتية المقبولة والمعترف بها والتي تندرج تحت مسمى التأثير غير الشامل: ظاهرة الإمالة بجميع مسمياتها، وظاهرة تفخيم اللام والراء في الحالات المعروفة.

يقدمّ الباحث مجموعة من النماذج التي يظهر فيها التأثير والتأثر بين الأصوات، اعتنى بها مكّي وحرص عليها، فوصفها وحذّر من جُلّها، وقدمّ الأمثلة والنماذج، وطبّق عليها منهجه التعليمي الذي يعتمد على القياس والتدريب، حرصاً منه على تقديم أصح الصور النطقية للقرآن الكريم والكلام العادي. وتظهر هذه النماذج في المطالب التالية.

المطلب الأول الجهر والهمس

لا يستطيع الباحث بيان كل ما قاله مكي عن تأثير الصوت المجهور في المهموس أو العكس؛ فهذا أمرٌ يطول، ويكتفي ببعض الأمثلة، وهي:

١ / تأثير الجيم في السين: حذر منه مكي بقوله: "وإذا سكنت السين وأتت بعدها جيم وجب بيان السين؛ لئلا يذهب اللفظ بها إلى الزاي؛ لأنَّ الزاي بالجيم أشبه من السين بالجيم، لأنَّ السين مهموسة والجيم مجهورة والزاي مجهورة، فهي بالجيم أشبه، وهي من مخرج السين، فاللفظ يُبادر إلى الزاي في موضع السين، لاتفاقها مع الجيم في الجهر، ولأنَّها من مخرج السين، وذلك نحو قوله تعالى: {وَاسْجُدْ} ^(١)."

٢ / تأثير العين في الحاء: حذر منه بقوله: "..... فإذا سكنت الحاء قبل العين قربت من الإدغام فيجب التحفظ ببيائها، وذلك نحو قوله تعالى: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ} ^(٢)، البيان واجب" ^(٣).

٣ / تأثير التاء في الزاي: وفي هذه الحالة يؤثر الصوت المهموس في الصوت المجهور والسبب -وفقاً لرأي الباحث ووفقاً لنظرية القوة والضعف التي ابتكرها مكي- أنَّ التاء أكثر قوةً من الزاي رغم همس الأول؛ لتمتع التاء بصفة الشدة أو الانفجار.

١ / الرعاية: ص ٢١٤.

٢ / سورة الزخرف: الآية (٨٩).

٣ / الرعاية: ص ١٦٦.

قال مَكِّي معللاً وجوب تبين لفظ الزاي الساكنة بعد التاء: "لئلا يقرب لفظها من لفظ السين؛ لأنَّ السين مؤاخية للتاء في الهمس ومؤاخية للزاي في المخرج والصغير..... وذلك نحو قوله: {هَذَا مَا كَنَزْتُمْ} ^(١) ^(٢) .

لقد أشار علماء الأصوات المحدثون إلى أنواع هذا التأثير بين الأصوات المجهورة والمهموسة حينما تحدثوا عن ظاهرة المماثلة الصوتية. فلو "التقى صوتٌ مهموس بصوتٍ مجهور، فقد يُقلب أحدهما إلى نظير الآخر بحيث يتكون منهما صوتان مهموسان ^(٣) أو مجهوران ^(٤) ^(٥) .

١ / سورة التوبة: الآية (٣٥).

٢ / الرعاية: ص ٢١٠.

٣ / مثل تأثير التاء في الزاي في نحو (كترتم).

٤ / مثل تأثير الزاي في التاء في نحو (ازدجر).

٥ / الأصوات اللغوية: ص ١٨٢.

المطلب الثاني الإطباق والانفتاح

يَعْدُ مَكِّي الإطباق من صفات قوة الحرف فكل صوت اتصف بها يصبح قادراً على أن يؤثر في الأصوات الأخرى خاصة إذا كان للصوت المنفتح نظير مطبق، فسرعان ما يَتَشَح بوشاح الإطباق. وأصوات الإطباق العربية هي: الطاء والظاء والصاد والضاد وجميعها لها نظائر منفتحة في النطق العربي اليوم، وهي: التاء نظير الطاء، والذال نظير الظاء، والسين نظير الصاد، والذال نظير الضاد. أمّا في النطق العربي القديم فإنّ لثلاثة أصوات فقط من أصوات الإطباق نظائر منفتحة، وهي: الدال نظير الطاء، والذال نظير الظاء، والسين نظير الصاد، ولا نظير منفتح للضاد القديمة^(١).

مثلما كانت هنالك نماذج مسموح بها في جهر الصوت وهمسه طلباً للخفة في النطق، وذلك كالإتيان بصيغة افتعل من الفعل الثلاثي الذي أوله زاي أو دال أو ذال، نحو: (زَادَ، ودَعَا، وذَكَرَ) لتصبح الصيغ: (ازداد، ادّعى، واذدكر أو ادّكر) فإنّ هنالك نماذج يُسمح فيها أيضاً بتأثير الصوت المطبق على المنفتح إذا كان نظيراً له، فإذا أردنا أن نصوغ (افتعل) من الفعل (ظلم) فلا بد من قلب التاء طاءً وذلك لتقريب التاء من الظاء فتُصبح: (اظْلَمَ) ثم (اظْلَمَ)^(٢). لقد حذّر مَكِّي كثيراً من بعض أنواع هذا التأثير بين الأصوات، نحو:

١/ يُنظر، كتاب سيبويه: ٤/٤٥٧.

٢/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ١٨٤.

١ / تأثير الطاء في التاء:

وهنا يُفرّق مَكِّي بين حالتين من هذا التأثير، الحالة الأولى يُحذر منها ولا يقبلها، وذلك إذا وقعت التاء متحركة قبل الطاء، يقول في ذلك: "....." وجب التحفظ ببيان التاء لئلا يقرب لفظها من الطاء، لأنّ التاء من مخرج الطاء. لكن الطاء حرفٌ قوي متمكن؛ لجهره ولشدته وإطباقه واستعلائه. والتاء حرفٌ مهموس فيه ضعف" (١).

ثم يقول: "فإن لم يتحفظ القارئ بإظهار لفظ التاء على حقها من اللفظ قرّب لفظها من لفظ الطاء ودخل في التصحيف وذلك نحو: (يستطيع) و(استطاع)" (٢).

أمّا الحالة الثانية من هذا التأثير فيقبلها؛ لأنّ نظام اللّغة سائرٌ على هذا النهج، ولأن القوانين الصوتية تُجيز ذلك أيضاً.

وتتحقق هذه الحالة إذا وقعت التاء بعد الطاء أو بعد أي صوت إطباق ففي هذه الحالة لا بد من تأثير الطاء أو أي صوتٍ من أصوات الإطباق في التاء، فيكون التأثير جائزاً وفصيحاً، والمماثلة حينئذٍ واجبة؛ ليعمل اللسان عملاً واحداً.

قد يسأل سائل: لماذا جاز التأثير إذا وقعت التاء بعد حروف الإطباق ولم يُجز إذا كانت قبل حروف الإطباق؟ والمتأمل في كلام مَكِّي يجد إجابة.

١ / الرعاية: ص ٢٠٦.

٢ / المصدر السابق: ص ٢٠٦.

حيث يقول: "والقويُّ من الحروف إذا تقدمه الضعيف مجاوراً له جذبه إلى نفسه إذا كان من مخرجه، ليعمل اللسان عملاً واحداً في القوة من جهة واحدة..... ألا ترى أنَّ التاء إذا وقعت بعد حرف إطباق لم يكن بدُّ من أن تُبدل منها طاء، لضعفها وذلك نحو قوله: {أَصْطَفَى} ^(١)، و{وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ} ^(٢)، و{فَمَنْ اضْطُرَّ} ^(٣)، وشبهه؛ ليعمل اللسان عملاً واحداً. وأصل الطاء في ذلك وشبهه تاء، وإنما تبقى التاء على لفظها مع حرف الإطباق إذا كانت قبله متحركة فافهمه" ^(٤). فهو هنا يُطبَّق نظريته في التأثير والإدغام وهي نظرية القوة والضعف.

وملخص ذلك - كما يرى الباحث - أنَّ أعضاء النطق إذا تهيأت لنطق صوت ذي مزية وقوة كالمطبق ويجاوره من بعده صوتٌ ليست له مزية يتأثر الصوت الثاني هذا تلقائياً وينقلب إلى مثيله المطبق حتَّى يحدث انسجام بين الأصوات وحتَّى يكون ذلك أيسر على اللسان وذلك نحو: (اصْطَفَى) وشبهها؛ لأنَّ أصلها (اصْتَفَى).

أمَّا إذا كان الصوت المتَّصف بمزية الإطباق متأخراً في النطق عن مجاوره الذي من مخرجه والذي له نظيرٌ مطبق، فإنَّ أعضاء النطق إنما تنهياً لنطق الصوت المطبق بعد نطق غير المطبق، فلا حاجة للتأثير؛ لأنَّ

١ / سورة الصافات: الآية (١٥٣).

٢ / سورة فاطر: الآية (٣٧).

٣ / سورة البقرة: الآية (١٧٣).

٤ / الرعاية: ص ٢٠٦-٢٠٧.

اللسان يبدو في هذه الحالة أكثر استعداداً لنطق الأصوات بدون تأثير. ولو حدث تأثير يكون لحناً سَمَاءَ مَكِّي (تصحيفاً)^(١). ومثلما يحذّر مَكِّي من عدم ضبط النطق وترك أمر تنظيم الأصوات المتسقة للمبالغة في توخّي السهولة واليسر والتحلل من أعباء النطق، فإنه لا يُنكر أن ترك المماثلة والمشابهة بين الأصوات أصعب على اللسان من توخّيها واعتيادها وذلك على الأقل في أصوات الكلام العادي. وفي ذلك يقول: "..... أبدلوا من السين صاداً إذا أتى بعدها طاءً أو قافاً أو غيناً أو خاء؛ ليعمل اللسان في الإطباق عملاً واحداً فذلك أخفُّ عليهم من أن يتسفلّ اللسان بالحرف ثم يتصعّد إلى ما بعده"^(٢).

يُفهم من قوله: (أَبْدَلُوا) و(أَخَفُّ عَلَيْهِمْ) أنه يقصد من هذه الضمائر المتكلمين بالعربية أو المتكلمين باللهجات العربية، لذلك تجوّز في الأمر وأباح التأثير والتأثير.

ثم هاهو يقول في كتاب (الرعاية): "وإذا وقعت السين وبعدها حرف إطباق وجبت المحافظة على إظهار لفظ السين..... لئلا يخالطها لفظ الإطباق الذي بعدها"^(٣).

ويرجع السبب في تحذيره من الاتساع في المماثلة في كتاب (الرعاية) وتجوّزه في إتيانها في كتاب (الكشف)؛ إلى أنّه في (الرعاية) تناول

١ / الرعاية: ص ٢٠٦.

٢ / الكشف: ٢١٩/١.

٣ / المصدر السابق: ص ٢١٢.

أصوات القرآن الكريم المصونة بحدود الرواية التي لا تخلو من مراعاة
للعادات النطقية، بينما يصف في (الكشف) نطق العرب لأصوات اللُّغة
العربية عامة.

٢ / تأثير التاء في الصاد:

وفي هذه الحالة يتأثر الصوت المطبق بمجاورة المنفتح، يقول مَكِّي:
"وإذا وقع بعد الصاد تاء المخبر، أو تاء المخاطب، أو المخاطب بادر
اللسان إلى لفظ السين في موضع الصاد؛ لأنَّ السين أقرب إلى التاء من
الصاد إلى التاء، إذ السين والتاء ليس فيهما إطباقٌ ولا استعلاء.....
فيجب أن يُبيِّن الإطباق في الصاد إذا أتت بعدها التاء المذكورة وذلك
نحو قوله: {حَرَصْتُمْ} ^(١)، و{وَلَوْ حَرَصْتَ} ^(٢)، وشبهه يُقاس عليه ما
كان مثله" ^(٣).

١ / سورة النساء: الآية (١٢٩).

٢ / سورة يوسف: الآية (١٠٣).

٣ / الرعاية: ص ٢١٩.

المطلب الثالث الغنة

هنالك صوتان عربيان يتميزان بخروج الهواء أثناء النطق بهما عن طريق الأنف ولذا سُمِّيَا أنفيين، وكل واحد منهما يُسمى الصوت الأنفي أو الأغْن. ولكنَّ النون يختلف عن الميم في أنه يشارك مجموعة أخرى من الأصوات غير الأنفية في المخرج الذي هو طرف اللسان مثل: اللام والراء، فإذا سكنت أصوات طرف اللسان قبل النون قد تلحقها الغنة؛ لأنَّ اللسان يبادر إلى ذلك نتيجة لانتقاله من أضعف إلى أقوى. فتتھياً أعضاء النطق لإظهار الغنة وذلك بانخفاض الحنك اللَّيْن وهي لَمْ تتجاوز بعد اللام الساكنة أو الراء الساكنة أو غيرهما من أصوات طرف اللسان. وقد حذر مَكِّي من مثل هذا التأثير مخافة تشويه اللفظ الذي قد يُفْضي إلى غموض المعنى. وهذه بعض الأمثلة:

١/ تأثير النون في اللام:

قال مَكِّي: "وإذا سكنت اللامُ وأتت بعدها نون، وجب التحفظ ببيان اللام ساكنة؛ لئلا تندغم في النون، للتناسب الذي بينهما.... فإدغام اللام إذا سكنت في النون يُسارع إليه اللسان؛ للتقارب الذي بينهما، وذلك نحو: (أَرْسَلْنَا)^(١)، و(وَجَعَلْنَا)^(٢)، و(وَأَسَلْنَا)^(٣)، وشبهه كثير"^(٤).

١/ سورة هود: الآية (٧٠).

٢/ سورة الأنبياء: الآية (٣١).

٣/ سورة سبأ: الآية (١٢).

٤/ الرعاية: ص ١٨٨-١٨٩.

والذي حذّر منه مكيّ في هذه الحال هو نهاية العملية التأثيرية التي تنتهي بالإدغام، وبالتالي يكون ما يوصل إلى هذه الهيئة النطقية محذراً منه أيضاً، وهو سماحنا للهواء أن يخرج من خلال فتحتي الأنف حين نطق بهذه اللام الساكنة فتتصف حينئذٍ بالغنة والفارق ضئيلٌ جداً بين نطق هذه اللام مُظهرة ومُدغمة في اللام التي بعدها.

٢ / تأثير النون في الدال:

قال مكيّ: "فإذا سكنت الدال وأتت بعدها نون، وجب أن تُبَيَّن الدال، لئلا تخفى عند النون؛ لسكونها واشتراكهما في الجهر وتقارب مخرجيهما وذلك نحو قوله: {أَدْنَى} ^(١)، و{وَأَعَدْنَا} ^(٢)، و{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ} ^(٣) ^(٤)."

إذا تحدث مكيّ في المثال السابق عن التأثير بالإدغام فإنه هنا يتحدث عن التأثير بالإخفاء وهو كذلك مُحذّرٌ منه.

توضح الآية الأخيرة في النص السابق أن التأثير بين الأصوات لا يقتصر على الأصوات المتجاورة في الكلمة الواحدة، وإنما يحدث أيضاً عند اتصال الكلمات في الكلام المتصل.

توضّح الأمثلة السابقة عناية مكيّ بأصوات القرآن الكريم وأصوات العربية، وتعكس إدراكه الواسع للظواهر الصوتية الناشئة من تجاور الأصوات.

١ / سورة النساء: الآية (٣).

٢ / سورة البقرة: الآية (٥١).

٣ / سورة آل عمران: الآية (١٢٣).

٤ / الرعاية: ص ٢٠١.

وكانت تحذيراته من الوقوع في الكثير منها مخافة الزلل والابتعاد عن النطق الصحيح إلى اللحن الخفي وحتّى لا يقع القارئ في هذا اللحن الخفي وجدناه دائماً التنبيه والتحذير منها؛ لترسيخ النطق الصحيح بتعويد الألسن ورياضتها وإلا فإنّ ألسن الناطقين دائماً تميل إلى السهولة واقتصاد الجهد.

فكان ما كان منه مع ما كان من علماء القراءات والتجويد وما كان من علماء اللّغة العربية، لتبقى اللّغة العربية وأصواتها مصونة محفوظة من رياح التطور والتحول بعد عون الله تعالى وحفظه.

المبحث الثالث بعض الظواهر الصوتية التأثرية التي عاجلها مكّي

المطلب الأول أحكام النون الساكنة

اعتنى علماء التجويد بالنون عناية خاصة فأفردوا لها فصلاً مستقلة درسوا فيها جميع أحوالها وأحكامها ساكنة ومتحركة، ودرسوا علاقتها مع بعض الأصوات المشابهة كالميم، ولعل السبب في هذا الاهتمام بالنون؛ أنها أكثر الأصوات سرعة في التأثر بما يجاورها من أصوات، ولأنها أكثر الأصوات شيوعاً في اللغة العربية بعد اللام^(١)، ولأنها تتوسط الفم.

وإذا جاورت النون الأصوات وهي ساكنة تكون أكثر عرضة للتأثر بما جاورها.

يذهب مكّي إلى جعل أحكام النون الساكنة والتنوين إذا تقدمت غيرها من الأصوات ستة خلافاً للمذهب الغالب لعلماء التجويد الذي يجعل الأحكام أربعة.

قال مكّي: "النون الساكنة والتنوين يجريان في الكلام والقرآن على ستة أقسام"^(٢). وهذه الأحكام -اختصاراً- هي:

١/ الإظهار:

وهو كائن عند حروف الحلق. قال مكّي: "إنهما يُظهران إذا لقيهما

١/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٦٧.

٢/ الكشف: ١/١٦١؛ ويُنظر، الرعاية: ص ٢٦٢.

حرفٌ من حروف الحلق المتقدمة الذكر^(١).

وقدّم أمثلة لذلك منها: قوله تعالى: {مِنْ هَادٍ}^(٢). وقوله: {مِنْ عَلَقٍ}^(٣). وقوله: {لَعَفُوْ غُفُوْرٌ}^(٤). وقوله: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}^(٥). وقوله: {وَالْمُنْخَنِقَةُ}^(٦).

ويبدو واضحاً إظهار النون الساكنة قبل أصوات الحلق سواءً في كلمة أو في كلمتين. أمّا التنوين فلا يقع قبل هذه الأصوات إلا في كلمتين لأنه لا يأتي إلا في آخر الكلمة.

يعلّل مكّي لإظهار النون الساكنة والتنوين مع أصوات الحلق بقوله: "وعِلَّةُ ذلك أن النون الساكنة والتنوين بُعد مخرجهما من الحلق فلم يحسّن الإدغام؛ لأنّ الإدغام إنما يحسّن مع تقارب المخارج، فلما تباعدت مخرجهما لم يكن بدُّ من الإظهار"^(٧).

وهذا التعليل واضحٌ وصريح، وقد قاله أيضاً سييويه^(٨) من قبل. إنّ الإظهار يكون أكثر طلباً مع أصوات الحلق الطرفية وهي الهمزة -إذا اعتبرنا الحنجرة جزءاً من الحلق كما يفهم ذلك من كلام

١/ الرعاية: ص ٢٦٢.

٢/ سورة الرعد: الآية (٣٣).

٣/ سورة العلق: الآية (٢).

٤/ سورة الحج: الآية (٦٠).

٥/ سورة الفاتحة: الآية (٧).

٦/ سورة المائدة: الآية (٣).

٧/ الكشف: ١/١٦١؛ ويُنظر، الرعاية: ص ٢٦٢-٢٦٣.

٨/ الكتاب: ٤/٤٥٤.

مَكِّي^(١) - والغين والحاء فالأولى بعيدة جداً من أصوات الفم التي تخفى معها النون الساكنة والتنوين، والغين والحاء قريبان من هذه الأصوات. أمّا الهاء والعين والحاء إذا وقعت قبلها النون الساكنة والتنوين فلا بد من إظهارها ولا يحتاج معها إلى جهد لإظهارها. وقد ذكر سيبويه أن "بعض العرب يجري الغين والحاء مجرى القاف"^(٢) في إخفاء النون قبلها. وقال: "ألا ترى أنه يقول بعض العرب مُنْخَل^(٣)، وَمَنْعَل^(٤)، فيخفي النون كما يخفيها مع حروف اللسان والفم لقرب المخرج من اللسان"^(٥).

٢ / إدغامهما في الراء واللام بلا غنة:

سماه مَكِّي إدغاماً مستكمل التشديد، والسبب في ذلك أن الصوت المدغم - وهو هنا النون الساكنة والتنوين - يَفني في الراء أو اللام فناءً تاماً بحيث يتحلل من صفة الغنة، والإدغام مع الراء أشدُّ استكمالاً، لِمَا ذهب إليه مَكِّي حينما جعل الراء المشددة إدغاماً فيه زيادة^(٦)، وسماه الباحث الإدغام الزائد^(٧).

-
- ١ / فهمنا هذا من كلام مَكِّي حيث تحدث عن مخرج الهمزة؛ يُنظر، الرعاية: ص ١٤٥.
 - ٢ / الكتاب: ٤/٤٥٤.
 - ٣ / جاء في اللسان: "والمُنْخَل والمُنْخَل ما ينخل به..... وانتخلت الشيء استقصيت أفضله"؛ يُنظر، اللسان: مادة (نخل).
 - ٤ / النَّغْل: الإفساد، والمنغل هنا بمعنى الفساد والإفساد؛ يُنظر، اللسان: مادة (نغل).
 - ٥ / الكتاب: ٤/٤٥١.
 - ٦ / الرعاية: ص ٢٥٢.
 - ٧ / يُنظر، ص ٢٦٧-٢٦٩ من البحث، والذي قسم فيه الباحث الإدغام عند مَكِّي إلى =

قال مَكِّي: "ولمَّا كان حق الإدغام دخول الحرف الأول في لفظ الثاني بكليته أدغمتُ الغنة التي في النون والتنوين معهما في الراء واللام، ولم يبقَ للغنة لفظ، وكُمِّل بذلك التشديد"^(١).

وسبب الإدغام - كما لا يخفى - هو تقارب المخارج بين النون واللام والراء "لأنهن من طرف اللسان"^(٢).

٣ / إدغامهما في النون والميم مع بقاء الغنة:

وسماه مَكِّي إدغاماً غير مستكمل التشديد^(٣)، أو ناقص التشديد^(٤)، والسبب في نقص التشديد هو بقاء بعض صفات الحروف مع الإدغام وهي الغنة. وقد أشار إليه أيضاً حينما تحدث عن أضرب الإدغام وقال عنه: "مدغمٌ فيه نقصٌ من الإدغام"^(٥).

وعِلَّةُ إدغامها في النون؛ هو اجتماع مثليين الأول ساكن^(٦). والعِلَّةُ في إدغامهما في الميم أنَّ الميم تشاركهما في الغنة فتقاربا للمشاركة. فحسُن الإدغام ولم يكن بدُّ من بقاء لفظ الغنة ظاهراً^(٧).

=ثلاثة أقسام: زائد، وتام، وناقص.

١ / الكشف: ١٦٢/١.

٢ / المصدر السابق: ص ١٦٢.

٣ / الرعاية: ص ٢٦٣.

٤ / الكشف: ١٦٢/١.

٥ / الرعاية: ص ٢٥٥.

٦ / الكشف: ١٦٣/١.

٧ / الرعاية: ص ٢٦٤.

٤ / إدغامهما في الياء والواو من كلمتين مع عدم بقاء الغنة:

وسماه مَكِّي أيضاً غير مستكمل التشديد؛ لبقاء بعض الحرف وهو الغنة^(١).

أمّا سبب الإدغام فعَلَّله بقوله: "والعِلَّة في إدغامهما في الياء والواو أنَّ الغنة التي في النون أشبهت المدَّ واللَّين اللَّذَيْن في الياء والواو فوجب الإدغام لهذه المشابهة"^(٢).

إنَّ الفرق بين هذا الإدغام وسابقه عند مَكِّي أنَّ الغنة مع هذا تظهر مع اللفظ بالمشدد لا في نفس الصوت الأول. وجعلها تظهر بين المدغم والمدغم فيه، فقال في (الكشف): "كأنها بين الحرفين المدغمين"^(٣). وقال في (الرعاية): "فصارت الغنة تظهر فيما بين الحرفين لا في نفس الحرف الأول"^(٤).

يتساءل الباحث: كيف حدد مَكِّي هذه الصورة الدقيقة لوضع الغنة مع الأصوات المدغمة؟

لقد عبَّر عن وضعها بعبارات وآراء في منتهى الدقة، مع اعتماده على الوصف النظري والملاحظة الذاتية وإعوازه للأجهزة والآلات التي لا بد منها لقياسها ووصفها وصفاً دقيقاً.

١ / الرعاية: ص ٢٦٥.

٢ / المصدر السابق: ص ٢٦٥.

٣ / الكشف: ١/ ١٦٣.

٤ / الرعاية: ص ٢٦٥.

إِذْنٌ فَإِنَّ الْغِنَةَ فِي حَالَةِ إِدْغَامِ النُّونِ السَّاكِنَةِ وَالتَّنْوِينِ فِي النُّونِ وَالْمِيمِ ظَاهِرَةٌ فِي الصَّوْتِ الْأَوَّلِ الْمَبْدَلِ مِنَ النُّونِ السَّاكِنَةِ أَوْ التَّنْوِينِ وَفِي حَالَةِ إِدْغَامِهَا فِي الْوَاوِ وَالْيَاءِ تَظْهَرُ فِيمَا بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ.

وَلَقَدْ حَاوَلَ الْبَاحِثُ إِجْرَاءَ عِدَّةٍ تَجَارِبَ لِتَحْدِيدِ مَوْقِعِ الْغِنَةِ فِي حَالَةِ إِدْغَامِ النُّونِ فِي الْيَاءِ وَالْوَاوِ وَالْمِيمِ وَالنُّونِ، فَوَجَدَ أَنَّ الْغِنَةَ تَسْتَغْرِقُ نَطْقَ الصَّوْتَيْنِ الْمَدْغَمِ وَالْمَدْغَمِ فِيهِ اسْتِغْرَاقًا تَامًا مَعَ ارْتِفَاعِ الصَّوْتِ مَعَهَا وَوَضُوحَهَا فِي حَالَةِ النُّونِ وَالْمِيمِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَغْرِقُ هَذَا الْاسْتِغْرَاقَ وَلَا يَرْتَفِعُ مَعَهَا الصَّوْتُ هَذَا الارتفاعَ مَعَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ. رُبَّمَا كَانَ هَذَا الْاسْتِغْرَاقُ وَهَذَا الْوَضُوحُ نَتَاجًا لِحَصُولِهَا مَعَ بَدَايَةِ نَطْقِ الصَّوْتِ الْأَوَّلِ، وَكَانَ عَدَمُ الْاسْتِغْرَاقِ وَانْخِفَاضُ الصَّوْتِ مَعَهَا نَتَاجًا لِتَوَسُّطِهَا بَيْنَ الْمَدْغَمِ وَالْمَدْغَمِ فِيهِ.

٥ / قَلْبُهُمَا مِيمًا إِذَا لَقِيْتَهُمَا بَاءً:

نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَنْ بُورِكَ} ^(١)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ} ^(٢)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَنْبِئْهُمْ} ^(٣).

تُقَلِّبُ النُّونَ السَّاكِنَةَ وَالتَّنْوِينَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ مِيمًا بَلَا إِدْغَامَ مَعَ بَقَاءِ الْغِنَةِ. وَلَا يَكَادُ يَخْفَى سَبَبُ قَلْبِ النُّونِ السَّاكِنَةِ وَالتَّنْوِينِ مِيمًا وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا امْتَنَعَ إِدْغَامُ النُّونِ فِي الْبَاءِ لِبَعْدِ مَا بَيْنَ مَخْرَجَيْهِمَا، كَانَ لَا بَدَّ مِنْ إِخْفَائِهَا فِي الْبَاءِ، وَإِخْفَاؤُهَا فِي الْبَاءِ يَتَوَلَّدُ عَنْهُ صَوْتُ مُؤَاخٍ لِلْبَاءِ فِي

١ / سورة النمل: الآية (٨).

٢ / سورة الطور: الآية (١٩).

٣ / سورة البقرة: الآية (٣٣).

المخرج ومؤاخ للنون في الغنة وهو صوت الميم ليحصل التناسب والتلاؤم.

قال مكي: "والعلة في إبدال النون الساكنة والتنوين ميماً عند الباء؛ أن الميم مؤاخية للباء لأنها من مخرجها، ومشاركة لها في الجهر والشدة وهي أيضاً مؤاخية للنون في الغنة والجهر"^(١).

إنَّ الصوت المتولد من لقاء النون الساكنة بالباء -وهو الميم- يخفى - ضرورة- عند الباء ولا يُدغم، فيصير فيه إخفاءً مع بقاء الغنة.

٦/ إخفاؤهما عند باقي الأصوات التي لم يتقدم ذكرها:

وذلك نحو: {وَمَنْ شَاءَ}^(٢)، و{مَنْ كَانَ}^(٣)، و{مَنْ جَاءَ}^(٤)، و{مَنْ قَبْلُ}^(٥).

وحقيقة الإخفاء زوال النون الساكنة والتنوين وبقاء غنتهما؛ أي تزول النون عن موضعها في الفم، فلا يكون هنالك اعتماد لطرف اللسان مع ما فوق الشايات، وتبقى غنتها شاهدة عليها بعد خفائها. ويصبح اعتماد اللسان مائلاً إلى مخرج الصوت الذي بعدها. وهذا يعني أن النون صوتٌ مُمتد، وهذا الامتداد نتيجة لانخفاض الحنك اللين إلى أدنى فيعقبه خروج الهواء عن طريق الأنف. وهذا ما دعا مكيّاً إلى

١/ الرعاية: ص ٢٦٦

٢/ سورة الكهف: الآية (٢٩).

٣/ سورة البقرة: الآية (٩٧).

٤/ سورة الأنعام: الآية (١٦٠).

٥/ سورة البقرة: الآية (٢٥).

القول بأن النون لها مخرجان إذ قويت صفة الغنة حتّى أصبحت عنده
كأنها مخرج آخر للصوت.

وقد أشار الباحث^(١) إلى عدم ميله إلى القول بما ذهب إليه مكّي عندما
جعل للنون مخرجين "مخرج لها ومخرج لِعُنَّتْها"^(٢).

قال إبراهيم أنيس: "الدرجة التي تلي إظهار النون هي ما اصطاح
القدماء على تسميته بالإخفاء، ويكون هذا مع خمسة عشر صوتاً عند جمهور
القرّاء هي: القاف، الكاف، الجيم، الشين، السين، الصاد، الزاي، الضاد،
الذال، التاء، الطاء، الذال، الثاء، الظاء، الفاء. وليس ما سموه بالإخفاء إلا
محاولة الإبقاء على النون وذلك بإطالتها ممّا أدى إلى ما نسميه بالغنة وهذا
إلى أننا نلاحظ مع ما يسمونه بالإخفاء ميل النون إلى مخرج الصوت المجاور
لها"^(٣).

١/ يُنظر، عدد المخارج عند مكّي: ص ١٤٠ من هذا البحث.

٢/ يُنظر، الكشف: ١/١٦٦؛ والرعاية: ص ٢٦٧.

٣/ الأصوات اللغوية: ص ٧٠-٧١.

المطلب الثاني المشددات

يُراد بالتشديد الإدغام، وبالصوت المشدّد الصوت المدغم. كانت عناية مكّيّ بالمشدّدات عناية كبيرة وجاء حديثه عنها في آخر كتاب الرعاية قبيل حديثه عن أحكام النون الساكنة والتنوين، وقد كشفت دراسته للمشدّدات عن ربطه لمستويين من مستويات الدراسة اللّغوية، هما المستوى الصوتي والمستوى الصرفي.

فقد لاحظ الباحث أنه في تقسيماته ومعالجاته لقضية التشديد يمزج بين التحليل الصوتي والتحليل الصرفي.

ومفهوم التشديد لا فرق بينه وبين مفهوم الإدغام، لذلك "فهو النطق بالحرفين حرفاً كالثاني مشدداً"^(١).

يقسم مكّيّ التشديد إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول- المشدّد المفرد:

وقال إنه كثير في القرآن وفي الكلام "وكل حرفٍ مشدد مقام حرفين في الوزن واللفظ، والحرف الأول منهما ساكنٌ والثاني متحركٌ، فيجب على القارئ أن يتبيّن المشدد حيث وقع ويعطيه حقه، ويُميّزه ممّا ليس بمشدّد، لأنه إن فرّط في تشديده حذف حرفاً من تلاوته"^(٢).

من النص يتبين لنا أنه أدرك القيمة الصرفية للصوت المشدد فقال: "مقامُ حرفين في الوزن"، وأدرك القيمة الصوتية فقال: "واللفظ"

١/ الرائد في تجويد القرآن: للدكتور محمد سالم محيسن، ص ٧.

٢/ الرعاية: ص ٢٤٥.

فهو يعني بـ(مقام حرفين في الوزن): جواز تقسيمه إلى صوتين كل منهما صامتٌ برأسه. ويعني بـ(مقام حرفين في اللفظ): طول المدى الزمني الذي يستغرقه نطقه فهو صوتٌ طويل كأنه يستغرق زمن صوتين اثنين، وقد مثل لهذا النوع بنحو: (عَلَم) و(صَلَّى) و(أعجميُّ)، ونحو: (هَيْن) و(لَيْن) و(سَيِّد)، ونحو: (مِنْ لَدُنْهُ)^(١)، و(مِنْ رَبِّهِمْ)^(٢).

النوع الثاني- اجتماع صوتين مشددين متواليين:

يقول عنه: "اعلم أن هذا الباب كثيرٌ في الكلام، فإذا اجتمع في اللفظ حرفان مشددان، فهما بوزن أربعة أحرف، فيجب على القارئ أن يبين ذلك في لفظه، ويعطي كل حرفٍ حقه من التشديد البالغ، والتشديد المتوسط"^(٣).

فأما قوله: "فهما بوزن أربعة أحرف" يدل على التحليل الصرفي؛ لأنَّ توالي صوتين مشددين يعني توالي أربعة أصواتٍ صامته فمثلاً كلمة مثل: "ذُرِّيَّة" توالي فيها مشددان هما: الراء والياء وكل منهما صوتان الأول ساكن والثاني متحرك فنحصل على أربعة أصوات ساكن + متحرك + ساكن + متحرك، هكذا (ذُرُّ رِ يَّة) وتكتب مقطعيّاً هكذا: ص ح / ص / ح ص / ح ص / ص ح ص، بالتنوين: (ذُرْرِيَّ يَ ثُنْ) والأصوات من التقطيع هي: الصامت في

١ / سورة النساء: الآية (٤٠).

٢ / سورة البقرة: الآية (٥).

٣ / الرعاية: ص ٢٤٧.

آخر المقطع الأول وهو يرمز للراء الساكنة والصامت وحركته في المقطع الثاني وهو يرمز للراء المكسورة، والصامت في آخر المقطع الثاني وهو يرمز للياء الساكنة، والمقطع الثالث بكامله وهو مقطع قصير مفتوح ويرمز إلى الياء المتحركة المفتوحة، فاجتمعت لدينا أربعة أصوات صامتة وصوتان صائتان هما كسرة الراء وفتحة الياء.

وأما قوله "فيجب على القارئ أن يبين ذلك في لفظه" فيدل على التحليل الصوتي؛ لأنه يريد من القارئ أن يطيل أمد الصوت المشدد ليصبح كافياً لنطق صوتين اثنين.

ومثل لذلك بـ: {اطَّيَّرْنَا} ^(١)، و{وَأَزَيَّنْتُ} ^(٢)، و{يَتَطَهَّرُونَ} ^(٣)، و{نَشَقُّوْ} ^(٤)، و{تَذَكَّرُونَ} ^(٥).

النوع الثالث- اجتماع ثلاث مشددات متواليات:

وقال فيه: "اعلم أن هذا الباب قليل في الكلام والقرآن وإنما يأتي في الوصل من كلمتين أو أكثر، فإذا اجتمع في اللفظ ثلاث مشددات متواليات، فهن مقام ستة أحرف في الوزن والأصل، فيجب على القارئ أن يجتهد في بيان ذلك في لفظه" ^(٦).

١ / سورة النمل: الآية (٤٧).

٢ / سورة يونس: الآية (٢٤).

٣ / سورة الأعراف: الآية (٨٢).

٤ / سورة الفرقان: الآية (٢٥).

٥ / سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

٦ / الرعاية: ص ٢٥١.

وهنا أيضاً لا يخفى اهتمامه بقضيتي التحليل الصرفي والصوتي للمشدد، إذ جعل اجتماع ثلاث مشددات متواليات بمقام ستة أصوات، واعتنى بالتحليل الصوتي وضرورة زيادة أمد الصوت فوصى بالاجتهاد في المحافظة على كمية الأصوات المشددة. واستشهد بهذه الأمثلة: ﴿دُرِّيُّ يُوَقَّدُ﴾^(١)، و﴿فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾^(٢).

وقد يكون التشديد في أربع كلمات، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾^(٣). ومكِّي يفرق بين المشددات فيجعلها على قسمين:

القسم الأول: التشديد البالغ.

القسم الثاني: التشديد المتوسط.

أمّا ما كان تشديده بالغاً فهو كل تشديد أو إدغام ليست فيه غنة أو إطباق أو استعلاء نحو: ﴿وَعَلَّمَ﴾^(٤)، و﴿مِنْ لَّدُنْهُ﴾^(٥)، و﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٦). وتشديد الراء مع أنه بالغ التشديد ففيه زيادة لذهاب التكرير الذي فيها وهو زيادة في التشديد، وأيضاً كل ما اجتمع فيه مشددان أو ثلاثة.

والقسم الثاني: هو التشديد الذي تصحبه الغنة أو الإطباق أو الاستعلاء فيكون تشديده متوسطاً سواء أكان مشدداً واحداً أو اثنين أو ثلاثة إذ

١ / سورة النور: الآية (٣٥).

٢ / سورة النور: الآية (٤٠).

٣ / سورة هود: الآية (٤٨).

٤ / سورة البقرة: الآية (٣١).

٥ / سورة النساء: الآية (٤٠).

٦ / سورة البقرة: الآية (٥).

"قد تأتي الثلاث المشدّات المتواليات..... وتشديدهن كلهن متوسط
للغة الظاهرة التي مع كل مشدد منهن وذلك في قوله تعالى: {وَعَلَى
أُمِّ مِّمَّن مَّعَكَ} ^(١) ^(٢).

ثم ختم مكي بحثه في المشدّات بباب سماه: باب الوقف على المشدّد،
يقول فيه: "اعلم أنّ الوقف على الحرف المشدّد فيه صعوبة على اللسان
لاجتماع ساكنين في الوقف غير منفصلين، كأنه حرف واحد، فلا بد
من إظهار التشديد في الوقف في اللفظ، وتمكين ذلك حتّى يظهر في
السمع التشديد. نحو الوقف على قوله: {مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن
وَلِيٍّ} ^(٣)، و{مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} ^(٤)، و{فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} ^(٥)،
و{أُدْهَى وَأَمْرٌ} ^(٦) وشبهه تطلب كمال التشديد في الحرف الذي
تقف عليه من هذا النوع، وتقف على ساكن قبله ساكن غير منفصل
منه" ^(٧).

نستخرج من هذا النص الآتي:

• صعوبة نطق الصوت المشدّد إذا وقّف عليه.

١ / سورة هود: الآية (٤٨).

٢ / الرعاية: ص ٢٥٢؛ وقد بيّن الباحث في المبحث الأول من الفصل الثاني في هذا الباب
تقسيمات مكي للإدغام وذكر أنّها ثلاثة.

٣ / سورة السجدة: الآية (٤).

٤ / سورة الشورى: الآية (٤٥).

٥ / سورة القمر: الآية (١٩).

٦ / سورة القمر: الآية (٤٦).

٧ / الرعاية: ص ٢٥٩.

• ضرورة أن يُعنى بإظهار التشديد إذا وَقِفَ عليه، بمعنى إطالة زمن الصوت المشدد.

• إنَّ هنالك فرقاً بين الوقف على المشدد الذي يحتوي على صوتين ساكنين غير منفصلين، وبين الوقف على ساكنين الأول منهما منفصل عن الثاني فهو أسهل من ذاك.

إنَّ صعوبة نطق الصوت المشدد إذا وَقِفَ عليه ناتجة من اجتماع ساكنين متحدين كأنهما صوتٌ واحد، فلو لَمْ يُبَيَّن التشديد بإطالة أمد الصوت لصار المشدد صوتاً واحداً وذهب الآخر.

وأما السبب في سهولة النطق بساكنين الأول منهما منفصلٌ عن الثاني نحو: ﴿وَالْعَصْرِ﴾^(١)، و﴿لَفِي خُسْرٍ﴾^(٢). فيرجعه الباحث إلى كون اللسان مع هذين الصوتين الساكنين المنفصلين - وإن كان يجد بعض العسر في نطقه لهما - أكثر انتقالاً وأوسع مجالاً، إذ لا بد من سماع صوت يبيِّن الحال. ولأنَّ اللسان ينتقل بمخرجه من لفظ الساكن الأول إلى لفظ الساكن الثاني، وهذا لا يتوفر للسان عند نطقه لساكنين الأول منهما مُتَّحِداً وملتحمٌ في الثاني، فيصعب ذلك عليه "لأنَّ اللسان ينبو بساكنين غير منفصلين نبوةً واحدة وذلك فيه تكلفٌ"^(٣).

لذلك وصَّى مَكِّي بالتحفظ^(٤) بنطق المشدد إذا وَقِفَ عليه.

١ / سورة العصر: الآية (١).

٢ / سورة العصر: الآية (٢).

٣ / الرعاية: ص ٢٥٩.

٤ / المصدر السابق: ص ٢٥٩.

المطلب الثالث

الهمزة

قبل وصف مكّي للهمزة ودراسته لأحوالها يجدر بالباحث أن يُمهّد لذلك بحديث عن حقيقتها في اللغة وورودها في اللهجات العربية والقراءات القرآنية، ولكن باختصار شديد.

أمّا حقيقتها في اللغة فيمكن أن تُعرض خلال النقاط التالية:

[١] معنى الهمز:

ذكر صاحب اللسان أن النبر بمعنى الهمز فقال: "النبر بالكلام الهمز. والنبر مصدر نبر الحرف ينبره نبراً: همزه، وفي الحديث قال رجل للنبي ﷺ: يا نبي الله. فقال: لا تنبر باسمي^(١)، والنبر همز الحرف ولم تكن قریش تنبر في كلامها"^(٢). وذكر الهمز بمعنى الغمز والضغط^(٣). ونعلم أن الضغط يطلق في تعريف النبر، وذلك حين يضغط المتحدث على بعض المقاطع، وقد ثبت أن النبر بمعنى الهمز، إذن فإن الهمز بمعنى النبر أيضاً، ومن هنا يمكن أن نقول: إن للهمز معنى خاصاً ومعنى عاماً، أمّا المعنى الخاص فهو ذلك الصوت المستقل الذي كان يختلط عند القدماء بصوت الألف، وهو الصوت الذي يسميه المحدثون: (الحبسة الحنجريّة Glottal Stop)، وأمّا المعنى العام فهو كيفية مُعَيَّنَة في نطق الأصوات اللغوية، فحين يريد الناطق أن يبيدي اهتمامه ببعض المقاطع فإنه ينبرها، فإذا

١/ يُنظر، النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، نشر المكتبة الإسلامية، (د.ت) ٣/٥.

٢/ اللسان: مادة (نبر).

٣/ المصدر السابق: مادة (همز).

ضغط -مثلاً- على المقطع الذي يبدأ بالخاء في الفعل (أخذه) كانت الخاء مهموزة، وإذا ضغط على الذال كانت مهموزة. فالهمز في هذا المعنى نوع من الضغط على بعض المقاطع^(١).

إنَّ صوت الهمزة صوت متميز نستطيع أن نطلق عليه الصوت المدلل، لأنه يجبر الالفاظ به على الانتباه ويأخذ منه مزيداً من الاهتمام، ولا يستوحش تقلبه وتعدد صورته تحقيقاً وتخفيفاً. لذلك لم يكن للهمزة رمز في الرسم العربي القديم، فهي إمّا محققة، وإمّا مبدلة، وإمّا محذوفة، وإمّا مسهلة، وإمّا منقولة الحركة، ولم يكن رمزها المعروف هذا ضمن رموز الرسم العثماني^(٢).

٢ [الوصف العلمي للهمزة:

إنَّ الاختلاف في ماهية الهمزة وغموض حقيقتها أدى إلى الاختلاف في وصفها وطريقة نطقها ومخرجها. فقد وصفها القدماء بأنها صوت مجهور، ويكاد ينعقد الإجماع على ذلك لما بين الهمز والجهر من قوة. أمّا المحدثون فمنهم من وصفها بالهمس، ومنهم من وصفها بالاحتباس، ولكنهم متفقون على نفي الجهر عنها. ولكنهم -وبما أتيحت لهم من وسائل تحليل الأصوات- قد أكدوا أنَّ الهمزة ليست صوتاً مجهوراً على الإطلاق، لأنَّ الصوت المجهور هو الصوت الذي تتذبذب معه الأوتار الصوتية، وهذا ما لا يحدث عند نطق الهمزة المحققة، لأنها تحدث عندما

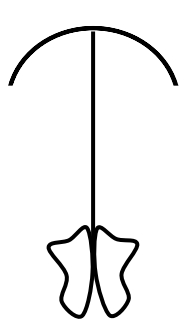
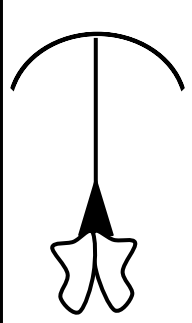
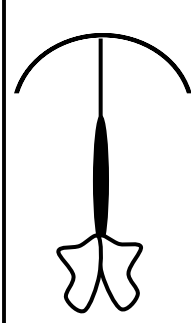
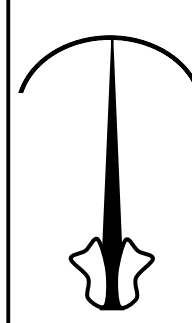
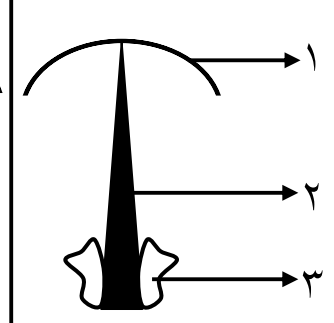
١/ يُنظر، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، طبع دار

الفكر، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٣.

٢/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ط ٥، ١٩٧٥م، ص ٨٩.

ينطبق الوتران الصوتيان الغشائيان انطباقاً كاملاً حتّى تسد فتحة المزمار، وينطبق معهما الغضروفان الهرميان انطباقاً كاملاً فلا ينفذ الهواء من فتحة المزمار، ثم يتبع ذلك انفراج الوترين الصوتيين انفراجاً فجائياً يحدث معه انفجار هو صوت الهمزة المحققة.

يمكن التعرف على الهمزة من خلال الرسوم التالية التي توضح الأوضاع المختلفة للحنجرة^(١).

				
الهمزة	الوشوشة	الجهر	الهمس	حالة التنفس

(١) الغضروف الغطائي.

(٢) الأوتار الصوتية.

(٣) الغضروف الهرمي.

٣] الهمزة في اللهجات العربية:

من العرب من يحقق الهمزة، ومنهم من يخففها، ومنهم من يحقق أحياناً ويخفف أحياناً أخرى، فإنّ أهل التحقيق لا يلتزمون به مطلقاً، وإنّ أهل التخفيف لا يلتزمون به مطلقاً كذلك، ولكن ما عليه إجماع الروايات هو نسبة التحقيق إلى قبائل البيئة النجدية ووسط الجزيرة العربية وشرقيّها،

١/ يُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ١٢٧-١٢٨.

وهي قبائل تميم وقيس وأسد ومن جاورهم، ونسبة التخلص من الهمزة بالتخفيف إلى قبائل البيئة الحجازية وهي قريش ومن إليهم^(١).

قال سيبويه: "وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز من أهل التخفيف يحققون نبيء وبريئة وذلك قليل رديء"^(٢)، كذلك فإن ابن كثير -وهو حجازي- قد التزم تحقيق الهمزة، كما وردت أمثلة عن أبي عمرو -وهو تميمي- يتخلص فيها من الهمزة فيخففها. ولكن هذا لا ينفي الحكم العام بإسناد التحقيق إلى أهل البيئة النجدية، وإسناد التخفيف إلى أهل البيئة الحجازية، لأن اللهجات لا تخضع لقوانين صارمة، وإنما يكون الحكم فيها مبنياً على الغالب دائماً.

لماذا لجأت بيئة وسط الجزيرة العربية إلى تحقيق الهمز؟ وقد عرف عنها الميل إلى التخلص من القيود الصوتية والثقيل، على عكس البيئة الحجازية التي آثرت تخفيف الهمز، وهي البيئة التي عرف عنها التأني في الكلام، فكان من المناسب أن تختار البيئة الحجازية تحقيق الهمز، وتختار البيئة النجدية تخفيفها، فلماذا حصل العكس؟ لقد تساءل الكثيرون عن هذا وقدّموا الكثير من الإجابات ومن أولئك الدكتور محمد سالم محيسن^(٣)، فقد تساءل ثم أجاب عن ذلك بما يميل إليه الباحث، لأنه جعل الهمزة من القوة بمقدار أن صار تحقيقها وسيلة للتخلص من عيب

١/ يُنظر، في اللهجات العربية: لإبراهيم أنيس، ص ٧٥؛ ويُنظر، القراءات وأثرها في علوم العربية: د. محمد محيسن، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٨٤م، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ٩٤/١.

٢/ الكتاب: ٥٥٥/٣.

٣/ في كتابه (القراءات وأثرها في علوم العربية): ص ٩٤.

السرعة لدى البدو، الذين عرف عنهم السرعة في الكلام، وصار تخفيفها وسيلة لتقليل التأني والتؤدة عند الحضر. وعليه فلا يُحكم على أهل التحقيق - وهم أهل نجد - ولا على أهل التخفيف - وهم أهل الحجاز - بمجافاة عاداتهم اللغوية والصوتية. فلماذا - إذن - لا نعتبر أنّ تحقيق الهمز مظهر من مظاهر التيسير على المتكلمين حينما تكون المقاطع متتابعة سريعة الانطلاق.

٤] الهمزة في القراءات القرآنية:

المشهور أنّ ورشاً كان يسهّل الهمزة المفردة، ساكنة أم متحركة إذا كانت في موضع الفعل من الفاء نحو (يأخذ) أمّا بقية القُرّاء فإنهم يحققونها^(١)، هذا عموماً. أمّا في حالة الوقف فإن حمزة يستحب ترك الهمز في القرآن كله، وأمّا أبو عمرو فكان إذا أدرج القراءة أو قرأ في الصلاة لم يهمز الهمزة الساكنة مثل (يؤمنون) هكذا قال ابن مجاهد^(٢). أمّا كيفية تخفيف الهمزة المفردة فلها ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تكون الهمزة ساكنة وقبلها حرف متحرك بالفتح أو الكسر أو الضم، فإنها تبدل إلى حرف مد مناسب لتلك الحركة نحو: (يؤمنون) تُقرأ: (يومنون)، ونحو: (فأذنوا) تُقرأ: (فاذنوا)، ونحو: (بئس) تُقرأ: (بيس).

١/ يُنظر، تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة: ابن الجزري، ص ٥٥-٥٦.

٢/ يُنظر، السبعة في القراءات: ص ١٣٣؛ أمّا التخفيف في قراءة أبي عمرو فمن رواية السوسي عنه، أمّا الدوري فليس له في الهمز المفرد إلا التحقيق؛ ويُنظر، تحبير التيسير: ص ٥٧.

الحالة الثانية: أن تكون الهمزة متحركة وقبلها حرف متحرك، فإذا كانت مفتوحة وقبلها ضمة أو كسرة، فغالباً ما تحذف الهمزة ويحل محلها الواو والياء، نحو: (يؤاخذ) و(هزؤا) قرئتا: (يواخذ) و(هزوا)، ونحو: (رئاً) و(خاسئاً) قرئتا: (ريا) و(خاسيا).

الحالة الثالثة: تكون فيها الهمزة متحركة وقبلها حرف ساكن، وفي هذه الحال يميل أهل الحجاز إلى تخفيفها بنقل حركتها إلى الساكن الذي قبلها بعد حذفها، وقد اشتهر نافع في رواية ورش بهذه القراءة وذلك نحو: (والأخرى) قرئت: (ولُخرى).

أمّا الهمزتان المجتمعتان في كلمة فقد اختلف حولهما القراء السبعة، فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مفتوحة كانت نحو: {ءَأَنْذَرْتَهُمْ} ^(١). أو مكسورة نحو: {ءَأَلَّهُ مَعَ اللَّهِ} ^(٢). أو مضمومة نحو {ءَأُنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} ^(٣). أمّا باقي القراء فتعيّن لهم تحقيق هذه الهمزة ^(٤).

ولقد لخص صاحب كتاب الوافي في شرح الشاطبية مذاهب القراء السبعة في الهمزتين من كلمة ^(٥). وأمّا الهمزتان من كلمتين فإذا كانتا

١/ سورة البقرة: الآية (٦).

٢/ سورة النمل: الآية (٦٠).

٣/ سورة ص: الآية (٨).

٤/ يُنظر، السبعة: ص ١٣٦؛ ويُنظر، الوافي في شرح الشاطبية من القراءات السبع:

لعبد الفتاح القاضي، ط الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، المدينة المنورة، ص ٩٠-٩١.

٥/ يُنظر، المصدر السابق: ص ٩٠.

متفقتين في الحركة فللقراء السبعة فيها مذاهب^(١):

١ / مذهب أبي عمرو: يسقط الأولى على الراجح نحو قوله تعالى:
{جَاءَ أَمْرُنَا}^(٢).

٢ / مذهب قالون والبزي: يوافقان أبا عمرو في إسقاط الأولى أو الثانية على الخلاف السابق في المفتوحتين ويسهلان الأولى من المضمومتين والمكسورتين.

٣ / مذهب ورش وقنبل: ورد عنهما تسهيل الثانية كما رُوي عنهما إبداهما حرف مد.

أمَّا الهمزتان المختلفتان فإنَّ نافعاً وابن كثير وأبا عمرو يخففون الثانية إمَّا بتسهيلهما (بين بين) أو إبداهما ياءً أو واواً. وكان عاصم وحزمة والكسائي وابن عامر يهزمون همزتين^(٣).

ماذا قال مكي عن الهمزة؟

[١] وصفه لها وعنايته بها:

لَمْ يجد صوتٌ من الأصوات العربية من الاهتمام والدرس والتحليل ما وجده صوت الهمزة؛ لذا كان مكي أحرص على وصف هذا الصوت وصفاً دقيقاً علَّه يساعد المتعلمين وقارئ القرآن على تجويد اللفظ وتحسين النطق والبعد عن اللحن.

١ / الوافي في شرح الشاطبية من القراءات السبع: لعبد الفتاح القاضي، ص ٩١-٩٥.

٢ / سورة هود: الآية (٤٠).

٣ / يُنظر، كتاب السبعة: لابن مجاهد، ص ١٤٠.

قال في ذلك: "الهمزة أول الحروف خروجاً، وهي تخرج من أول مخارج الحلق من آخر الحلق ممّا يلي الصدر، وقد ذكرنا أنّها من الحروف المجهورة، ومن الحروف الشديدة، وهي من الحروف الزوائد ومن حروف البدل، وبَيَّنّا جميع ذلك وغيره من صفاتها ومعانيها فيما تقدّم ذكره. وذكرنا استثقال العرب لها، وكثرة تغييرهم لها وأنّها لا صورة لها في الخط تثبّت عليها"^(١).

ثمّ يعلّل لثقل الهمزة سواء أكانت مفردة أم مكررة فيقول: "فالجواب أنّ الهمزة على انفرادها حرفٌ بعيد المخرج جلدٌ صعبٌ على الالفاظ به، بخلاف سائر الحروف مع ما فيها من الجهر والقوة، ولذلك استعملت العرب في الهمزة المفردة ما لم تستعمله في غيرها من الحروف، فقد استعملوا فيها: التحقيق، والتخفيف، وإلقاء حركتها على ما قبلها، وإبدالها بغيرها من الحروف، وحذفها في مواضعها، وذلك كله لاستثقالهم لها، ولم يستعملوا ذلك في شيءٍ من الحروف غيرها، فإذا انضاف إلى ذلك تكريرها كان أثقل كثيراً عليهم فاستعملوا في تكرير الهمزة من كلمتين التخفيف للأولى، والتخفيف للثانية، والحذف للثانية، والحذف للأولى، وبعضهم يحققها جميعاً، إذ الأولى كالمنفصلة من الثانية، إذ هي من كلمة أخرى"^(٢).

٢] دراسته لأحوال الهمزة:

جاءت دراسته لأحوال الهمزة وأقواله وآراؤه حولها متناثرة هنا وهناك،

١/ الرعاية: ص ١٤٥.

٢/ الكشف: ١/ ٧٢؛ ويُنظر، كتاب سيبويه: ٢/ ١٩٠، ١٩٤.

وخاصة في كتابيه (الكشف) و(الرعاية). ويكتفي الباحث هنا بعرض بعض آرائه الصوتية عن أحوال الهمزة دون التعرض لاحتجاجه وتعليله لمذاهب القراء؛ فذلك أمرٌ لا تتسع الدراسة له. مع توضيح وتفسير آرائه الصوتية وفقاً لمتطلبات الدرس الصوتي الحديث.

أولاً- الهمزة المفردة:

إنَّ الهمزة إمَّا أن تكون مفردة أو تكون معها همزة أخرى، فالهمزة المفردة لا تكون إلا في كلمة، بينما تكون الهمزتان في كلمة أو كلمتين.

تحدث مكي في كتاب (الكشف) عن علل الهمزة المفردة، وعلل لمن حققوها ولمن خففوها. وكانت دائماً حجة من خففوها؛ أنهم استثقلوها محققة. يقول: "وحجة من خفف الهمزة أنه استثقلها مُحققة فخففها على ما قدّمنا من العِلل، وأيضاً فإنَّ التخفيف لغة أهل الحجاز"^(١).

وقد وردت القراءات القرآنية بتخفيف الهمزة الساكنة كما كان يفعل ورش وأبو عمرو، نحو تخفيفها في: (يؤمنون) و(بئسما) و(مأمون) والتخفيف هنا يكون بدلاً لا غير، أي بإبدال الهمزة صوتاً من جنس حركة ما قبلها فتصبح الكلمات السابقة (يومنون) و(بيسما) و(مامون) والذي حدث أن حذفت الهمزة الساكنة وعوض عنها حركة مُماثلة لحركة الصوت الذي قبلها، فاجتمعت حركتان وكوّنتا حركة طويلة يتضح ذلك بالنظر إلى التقسيم المقطعي لإحدى هذه

الكلمات: (مأمون): بالتحقيق تكتب مقطعيًا هكذا:

ص ح ص / ص ح ح ص.

و(مأمون): بالتخفيف تكتب مقطعيًا هكذا: ص ح ح / ص ح ح ص.
فتحول المقطع الأول إلى مقطع طويل مفتوح بعد أن كان مغلقاً، نسبة
لإسقاط الهمزة وإحلال الحركة القصيرة محلها.

ثانياً- الهمزتان في كلمة:

لجأ كثير من الناس إلى تخفيف الهمزتين في كلمة وبذلك وردت عدة
قراءات قرآنية صحيحة، مثل قراءة أبي عمرو بن العلاء وقراءة نافع،
ويكون التخفيف في الهمزة الثانية بتليينها أي تسهيلها.

قال مكِّي: "وينبغي لقارئ القرآن أن يتقيد من نفسه تجويد اللفظ
بالحمزة المليئة بين بين، فيخرجها بين الهمزة المحققة والحرف الذي يجيء
بها إليه نحو الهمزة الثانية في قوله تعالى: {قُلْ أُؤْتِبُكُمْ} ^(١)،
{أَلْقِي} ^(٢)، {أَذَا} ^(٣)، {أَنَا} ^(٤)، {أَفْكَأ} ^(٥)، {جَاءَ أُمَّةً} ^(٦)،
{شَهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ} ^(٧)، في قراءة نافع ومن تابعه على تخفيف الثانية
في ذلك، من كلمة ومن كلمتين. فيلغظ بالهمزة المضمومة بين الهمزة

١ / سورة آل عمران: الآية (١٥).

٢ / سورة القمر: الآية (٢٥).

٣ / سورة الرعد: الآية (٥).

٤ / سورة الإسراء: الآية (٤٩).

٥ / سورة الصافات: الآية (٨٦).

٦ / سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

٧ / سورة الأنعام: الآية (١٤٤).

المضمومة والواو الساكنة، وبالمكسورة بين الهمزة المكسورة والياء الساكنة، وبالمفتوحة بين الهمزة المفتوحة والألف نحو: {ءَأَنْذَرْتَهُمْ} ^(١)، و{جَاءَ أَحَدَهُمْ} ^(٢) أعني الهمزة المفتوحة الثانية ^(٣).

هذا الكلام يقودنا إلى الحديث عن التسهيل ما هو؟

والتسهيل كما علمنا يسميه القدماء (بين بين)، ويعني تُطَق الهمزة بين التحقيق وحرف اللين، فهي لا محققة ولا حرف لين خالص حتَّى عدُّوها من الأصوات الفروع. لكنَّ المحدثين يرون أنَّ هذه الهمزة المسهلة ليست بهمزة أصلاً؛ لأنَّ وضع الحنجرة قد تغيَّر عن وضعه في حالة الهمزة المحققة، وهذا إبراهيم أنيس يرى أنَّ التكييف الصوتي لهذه الحالة ليس من اليسير أن يوصف وصفاً علمياً مؤكداً، ويؤكد أنَّ هذا الصوت الذي يُسمى بالهمزة المسهلة عبارة عن إسقاط للهمزة من الكلام، وإبقاءً لحركتها، فقال: "فالذي نسميه همزة حينئذٍ لا يمتُّ إلى الهمزة بصِلَة بل هو صوتٌ لينٌ قصير" ^(٤).

وعلى أية حال فإنَّ للقدماء ملاحظات لا يمكن إغفالها -ولا يمكن أن نرد عليهم مذهبهم في تسمية هذا الصوت بالهمزة المسهلة- لأنهم لم يتفقوا مع المحدثين في تعيين مخرج الهمزة، ثم إنه قد ثبت أنَّ الحنجرة تنتج العديد من الأصوات، يكون صوت الهمزة المسهلة واحداً من بين هذه الأصوات.

١ / سورة البقرة: الآية (٦).

٢ / سورة المؤمنون: الآية (٩٩).

٣ / الرعاية: ص ١٤٧.

٤ / الأصوات اللغوية: ص ٩١.

ثالثاً- الهمزتان المجتمعتان في كلمتين:

سبق الكلام عن اجتماع الهمزتين في كلمتين فهما إمّا متفتقتان في الحركة أو مختلفتان.

والمتفتقتان نحو قوله تعالى: {جَاءَ أَمْرُنَا} ^(١). فمن القُرَاء من حققها ومنهم من خفف الثانية بالتسهيل، ومنهم من خفف الأولى، ومنهم من حذف الأولى وهو أبو عمرو بن العلاء في المكسورتين والمفتوحتين، ووافقه البزي وقالون على الحذف في المفتوحتين ^(٢).

لقد احتج مكي لكل هذه القراءات الصحيحة معتمداً في أغلب الأحيان على التحليل الصوتي في معالجة أوجه الاختلاف. وذلك مثل احتجاجه لمن خفف الثانية بأنها الأولى بالتخفيف من الأولى؛ لأنَّ الأولى يكون قبلها ساكن في أغلب أحوالها، فإذا خُفِّت لقرب اللفظ من اجتماع ساكنين فكان تخفيف الثانية أولى لأنَّ قبلها متحرك ^(٣).

واحتج لمن حذف الهمزة الأولى من الهمزتين المتفتقتين في الحركة من كلمتين لكون الهمزة الثانية تقوم مقام الأولى وتنوب عنها ^(٤).

والمظهر الصوتي في الهمزتين على هذا النحو يكون بحذف مقطع صوتي ولا يهم لو كانت المحذوفة الأولى أو الثانية أو حُذِف المد أم بقي لأنَّ الهمزتين مقطعان متجاوران لا يترتب على حذف أيٍّ منهما خللٌ

١/ سورة هود: الآية (٩٤).

٢/ يُنظر، الكشف: ٧٥/١.

٣/ المصدر السابق: ص ٧٥.

٤/ المصدر السابق: ص ٧٥.

نطقي أو وظيفي، كما لا يترتب على بقاء المد أو حذفه خللٌ كذلك.
(جاء أمرنا) تُكتب مقطعيًا هكذا:

(ص ح ح/ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح ح) بتحقيق الهمزتين.
وتُكتب بتخفيف الهمزة الأولى أو الثانية حذفًا هكذا:

(ص ح ح/ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح ح) بحذف المقطع من النوع
الأول (مقطع قصير مفتوح).

أمَّا الهمزتان المختلفتا الحركة فهي خمسة أنواع كما تقدم، وفيما يلي
مثالٌ يراه الباحث مناسباً لبيِّن جهود مكِّي في التحليل اللُّغوي
ومعالجته لنتاج تأثر الأصوات الصامتة والصائتة في بعضها ويوضح
بعض ملامح منهجه في تعليم الأصوات.

إذا كانت الثانية من الهمزتين مفتوحة والأولى مضمومة أو مكسورة:
يميل بعض القراء^(١) إلى تسهيل الهمزة الثانية من الهمزتين إذا اختلفتا في
حركتهما ليصبح نطقها بينها (مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة)،
وبين صوت المد المناسب لحركتها.

ولكن إذا كانت الهمزة الثانية مفتوحة فإنَّ تخفيفها إنما يكون بإبدالها
واوًا خالصة أو ياءً خالصة.

قال مكِّي: "فإذا كانت الهمزة المفتوحة لُيِّنَتْ بأن أُبدل منها حرف
غيرها، لفظت بالحرف الذي هو بدل من الهمزة خالصةً لا يشوبه

١/ مثل أبي عمرو بن العلاء البصري، ونافع المدني.

غيرها نحو الهمزة الثانية من قوله تعالى: **{السُّفْهَاءُ أَلَا}**^(١)، **{وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي}**^(٢). تلفظ بهما وشبههما في موضع الهمزة الثانية بواوٍ خالصة مفتوحة^(٣). وهو يعني عدم جواز تسهيلها بين الهمزة والألف، والعلة في عدم جواز تسهيلها هو تحريكها بالفتح، ومعلوم أن الهمزة المفتوحة إذا رُمت تسهيلها (بين بين) تنطق بها بين الهمزة والألف الساكنة، والألف لا يأتي وقبله ضم، لهذا فإن من أراد تخفيف الهمز بالتسهيل، فإنه يسعى إلى تسهيله وعدم طمسه بأن يجعله بين بين، كما عبّر عن ذلك القدماء، أو حذفه وترك حركته كما قال المحدثون، والحركة هي صوتٌ مدٌّ قصير، ولكن إذا شقَّ على المتكلم ذلك بعدم استقامة الكلام صوتياً، في مثل الهمزتين اللتين حركة الثانية منهما الفتح، وحركة الأولى منهما الضم أو الكسر، أو كانت الهمزة المفردة مفتوحة وقبلها حرفٌ مضموم أو مكسور، إذا كان ذلك كذلك، لجأ المتكلم إلى إبدال الهمزة حرف لين واواً أو ياءً، لأنه لم يستطع عندئذٍ النطق بها بين بين (أي مسهلة).

قال سيبويه: "وإن كانت الهمزة مفتوحة وقبلها ضمة وأردت أن تُخفّف أبدلت مكانها واواً، كما أبدلت مكانها ياءً حيث كان ما قبلها مكسوراً"^(٤). إذن كانت الهمزة الأولى مكسورة فإنه يحدث فيها ما حدث في سابقتها إذ تُبدل من الهمزة الثانية المفتوحة ياءً. قال مكي:

١ / سورة البقرة: الآية (١٣).

٢ / سورة هود: الآية (٤٤).

٣ / الرعاية: ص ١٤٧-١٤٨.

٤ / الكتاب: ٥٤٣/٣.

"وكذلك إذا كانت الأولى من الهمزتين مكسورة والثانية مفتوحة، فإنك تُبدل من الهمزة المفتوحة ياءً خالصة إذا قرأت بالتخفيف نحو: {مِنَ الشُّهَدَاءِ يَنْ تَضِلَّ} ^(١). و{وَالْفَحْشَاءِ وَيَنْتَقُولُوا} ^(٢). وشبهه تلفظ بها كما ترى في الخط بياء مفتوحة محضة" ^(٣).

لَمْ يَكْتَفِ مَكِّي بذكر الحقائق العلمية المجردة التي تتصل بالأصوات، وإنما كان مدركاً أن اكتساب العادات اللغوية عامة والنطقية خاصة لمتعلم القرآن الكريم ولمن رام النطق العربي الصحيح لا تكفي فيه هذه المعرفة المجردة والقواعد المحددة، لذلك كان حريصاً على ربط المعرفة بالقياس والتدريب وتثبيت الحقائق بالتمثيل والتجريب.

وفي حديثه عن التقاء الهمزتين المضمومة ثم المفتوحة يُقدِّم الصورة النطقية الواضحة والسهولة لينطق القارئ على مثالها الصورة الصعبة أو الغامضة فيتدرب ويتمرن على النطق الصحيح بعد زوال الثقل والمشقة. قال: "فيصير لفظك لقوله تعالى: {السُّفَهَاءُ أَلَا} ^(٤)، بمتزلة لفظك لقوله عز وجل: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ} ^(٥)، الأول أصله همزتان، والثاني أصله همزة وواو مفتوحة واللفظ واحد" ^(٦).

١ / سورة البقرة: الآية (٢٨٢).

٢ / سورة البقرة: الآية (١٦٩).

٣ / الرعاية: ص ١٤٨.

٤ / سورة البقرة: الآية (١٣).

٥ / سورة البقرة: الآية (١٣).

٦ / الرعاية: ص ١٤٨.

هكذا اهتم مكي واعتنى بتقديم الصورة المثالية لنطق الأصوات التي
احتوى إطارها على كل شاردة وواردة تتعلق بوصفها، ثم انتقل إلى بث
الروح في هذه الصورة فأحالتها بالتدريب والمقارنة إلى صورةٍ نُطقية غاية في
الدقة وذلك لأنَّ التدريب منوط به إجادة اللفظ وإحكامه وتمارين أعضاء
النطق عليه.

الفصل الثالث

دراسته للظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصائنة

المبحث الأول - الظواهر النوعية

المطلب الأول : الحركات.

المطلب الثاني : الإمالة.

المبحث الثاني - الظواهر الكمية

المطلب الأول : الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تقصير الحركة القصيرة.

المطلب الثاني : الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تطويل الحركة القصيرة.

المبحث الأول الظواهر النوعية

سبقت الإشارة إلى بعض ما يتعلق بالأصوات الصائتة، في الباب الثاني عند الحديث عن تصنيف الأصوات الصائتة، فكان الحديث عن موقع الحركة من الحرف عند مَكِّي، وأيهما أسبق، الحركة أم الحرف، وغير ذلك. لذلك أثر الباحث عدم التعرض لذلك احترازاً من التكرار.

بالإمكان -هنا- دراسة الظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصائتة من خلال مبحثين اثنين: المبحث الأول (الظواهر النوعية) والمبحث الثاني (الظواهر الكمية).

أمّا هذا المبحث (الأول) ففيه مطلبان:

الأول (الحركات).

والثاني: الإمالة.

المطلب الأول

الحركات

رغم أنَّ المعاصرين من دارسي الأصوات يهتمون القدماء من علماء العربية بعدم اعتنائهم بالأصوات الصائتة وخاصة الحركات، وأنهم ركزوا جل اهتمامهم على الأصوات الصامتة، لكننا نجد مَكِّيًّا لَمْ يغفل دور الحركات. وذلك بإشارته إلى وظائفها ومساواته بينها في الاستعمال^(١). وقد عبّر مَكِّي عن الصوت الصامت بالحرف الساكن، وعبّر عن الصوت الصائت بالحركة. فالحرف المتحرك لا بد أن يكون مُركَّباً من [صامت + صائت]. والصوت المفرد إمَّا أن يكون صامتاً، أو صائتاً. وهذه الفكرة تظهر من خلال قول مَكِّي: "الكلام كله أُلْف من أربعة أشياء: من حرف متحرك، ومن حرف ساكن، ومن حركة، ومن سكون. وذلك يرجع إلى شيئين: حرف متحرك وحرف ساكن، والحرف المتحرك في كلام العرب أكثر من الساكن، كما أنَّ الحركة أكثر من السكون"^(٢).

ومِمَّا يُلاحظ أنه قَابِل بين الحرف المتحرك -والذي يتكون من صامت + صائت- والحرف الساكن. وهو صوت صامت مفرد. وقَابِل كذلك بين الحركة -وهي صوت صائت مفرد- والسكون، فجعل للسكون قيمة صوتية عاجلها ضمن علاجه وتحليله لتأثير الأصوات الصائتة في الأصوات الصائتة والصامتة وتأثرها بها. ومنهم مَنْ عدَّ السكون "وحدة صرفية تقوم بوظيفة نحوية ودلالية"^(٣).

١/ يُنظر، الفصل الثالث من الباب الثاني، الفقرة الثانية.

٢/ الرعاية: ص ٩٧.

٣/ أثر عناصر البناء الظاهر للجملة في التفسير الدلالي من خلال القراءات القرآنية: =

الحركات المعروفة لدى مكّي هي الفتحة والضمّة والكسرة، قال:
"اختلف النحويون في الحركات الثلاث: الفتحة والضمّة والكسرة، هل هي مأخوذة من حروف المد واللين الثلاثة"^(١).

مثلما تتأثر الأصوات الصامتة ببعضها وتؤثر في بعضها، على نحو ما رأيناه في الفصل السابق، فإنّ الأصوات الصائتة تتأثر ببعضها في درج الكلام. وتتأثر كذلك بالأصوات الصامتة وتؤثر فيها. والباعث لكل ذلك توخّي السهولة في النطق والتماس أيسر الوجوه لإظهار المعاني دون طمسها أو تشويهها، ولأن ذلك يقلل الجهد ويحفظ الطاقة.

وقد كان مكّي يقرر هذا المعنى ويقصده دائماً كقوله-حينما ذكر مذهب ورّش في تفخيم الكلام إذا سبقها أحد أصوات الإطباق:- "أراد أن يقرب اللام نحو لفظه فيعمل اللسان -في التفخيم- عملاً واحداً، وهذا هو معظم مذاهب العرب في مثل هذا يقربون الحرف من الحرف ليعمل اللسان عملاً واحداً، ويقربون الحركة من الحركة ليعمل اللسان عملاً واحداً"^(٢).

فالمبدأ -إذن- هو إرادة التخفيف، والهدف هو الوصول إلى الدلالة بأيسر الطرق وأقربها. فكان تقريب الحركة من الحركة (تأثير الصوائت وتأثرها) وسيلة لبلوغ ذلك الهدف. أو قل تجويد وتهذيب لتلك الوسيلة لبلوغ المعاني.

=د. بكري محمد الحاج، طبع دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٩٦م، ص٦؛ ويُنظر، في الأصوات اللغوية- دراسة في أصوات المد العربية: د. غالب فاضل المطليبي، طبع المكتبة الوطنية بغداد، ١٩٨٤م، ص٢٣٥-٢٣٦.

١/ الرعاية: ص١٠٣.

٢/ الكشف: ٢١٩/١.

كان مَكِّي حينما يعالج أوجه الاختلاف بين القُرَّاء، يعتمد أحياناً على التحليل المنطقي، لكنه كان كثير الاعتداد بالتحليل الصوتي، ونلمس من أقواله أنه يميل إليه.

أمَّا تحليلاته الصوتية التي توضح التأثير بين الأصوات الصائتة فتظهر من خلال النقاط التالية:

١] إبدال الحركات:

قد يصل التأثير بين الأصوات الصائتة إلى حد أن يبدل صائت من صائت آخر ليحصل نوع من تجانس الأصوات، وذلك نحو كسر الهاء والميم في نحو: (عليهم، ولديهم، وإليهم) بينما "أنَّ الهاء والميم من (هم) أصلها الضم، وُصِلت واو بالميم، لكن الميم أُسكنت استخفافاً وحُذفت الواو اختصاراً"^(١).

اختلف القُرَّاء في الكلمات السابقة وأشباهها، فقرأ حمزة بضم الهاء فيها مثل (عليهم) و(لديهم) و(إليهم). وقرأ باقي القُرَّاء (عليهم وأخواتها) بكسر الهاء^(٢). "وكان أبو عمرو يكسر الهاء أيضاً ويكسر الميم، فيقول: (عَلَيْهِمِ الذَّلَّةُ)^(٣)، و(إِلَيْهِمِ اثْنَيْنِ)^(٤)، وما أشبه ذلك"^(٥).

قال مَكِّي: "وحجة أبي عمرو في كسره الهاء والميم إذا أتى بعدهما

١/ الكشف: ٣٥/١.

٢/ يُنظر، السبعة في القراءات: لابن مجاهد، بتحقيق: شوقي ضيف، ص ١٠٨.

٣/ سورة البقرة: الآية (٦١).

٤/ سورة يس: الآية (١٤).

٥/ السبعة: ص ١٠٩.

ساكن وقبل الهاء ياء أو كسرة، أنه لَمَّا اضطر إلى حركة الميم، لالتقاء الساكنين، كسرهما لذلك على أصل الكسر في التقاء الساكنين، وكان ذلك عنده أولى بها لكسرة الهاء قبلها، فاتبع الكسر الكسر، فلما كسر الميم أتبعها كسرة الهاء قبلها، وكان قد كسر الهاء للياء التي قبلها^(١).

نخلص من كلامه إلى الآتي:

أ- أنَّ الهاء أُبدلت حركتها إلى الكسر، والسبب وجود الياء أو الكسرة قبلها، وحتَّى يحصل انسجام بين الأصوات؛ يلجأ الناطق -عادةً- إلى هذا الإبدال، وهذا شبيه بإمالة الفتح إلى الكسر لتحقيق المناسبة والانسجام.

ب- أنَّ ميم الجمع أُبدلت حركتها إلى الكسر عند أبي عمرو وذلك عند الوصل بكلمة مبدوءة بهمزة وصل، فيلتقي حينئذٍ ساكنان، فتبدل حركة الميم كسرة -على الأصل- لأنها أول الساكنين.

ج- أنَّ كسر الميم أولى من ضمه أو فتحه، والسبب هو كسرة الهاء التي قبلها، ليتبع الكسر الكسر، وذلك أخف وأيسر من إتباع الكسر فتحاً أو ضمّاً.

د- رغم أنَّ الياء تُعدُّ -هنا- صوتاً صامتاً فقد أثَّرت في ضمة الهاء فأحالتها إلى كسرة. وذلك لأنَّ الياء يشبه في تكوينه -إلى حدٍّ بعيد- تكوين الكسرة.

اختار مكِّي -مع تحريك الهاء بالكسر- إسكان الميم إذا لم يأت بعدها ساكن، وضمها إذا أتى بعدها ساكن، ومثال الأول: قوله تعالى:

١/ الكشف: ٣٧/١.

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} ^(١)، ومثال الثاني قوله تعالى: {مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ} ^(٢). وعلل ذلك بقوله "فذلك أخف وأفصح وعليه جمهور القراء وهو الأشهر عن نافع" ^(٣).

ومظهر الخفة يبدو واضحاً - حينما اختار الضم بدلاً من الكسر إذا ولي الميم ساكن - في الهروب من الإفراط في التجانس، مما يدخله ويوقعه في الثقل الذي كان قد هرب منه أصلاً، فلا بد من الفرار من توالي ثلاث كسرات قد يؤدي نطقها متوالية إلى ثقل ناشئ من تقيُّد أعضاء النطق باتخاذ شكل ثابت لفترة زمنية أطول. ومن هنا نستطيع القول: إنَّ الانسجام بين أصوات اللين لا يعني بالضرورة الإفراط في المماثلة، خاصة إذا كانت الحركات كسرات أو ضمات لثقلها.

ومما يوضح تأثير الحركات في الحركات بالإبدال فتح لام الجر إذا دخلت على المضمر في نحو: (لَهُمْ، وَلَهُ، وَلَكُمْ) لأنَّ أصلها أن تكون مكسورة، وقد استدل مكِّي على ذلك بالباء واللام في نحو: (بسم الله، والله)، قال: "وكسرت اللام من (الله) كما كسرت الباء في (بسم)، العِلَّة واحدة" ^(٤). وقد أشار إلى هذه العِلَّة في موضع آخر من قوله: "لتكون حركتها مشبهة لعملها" ^(٥).

١ / سورة الفاتحة: الآية (٧).

٢ / سورة القصص: الآية (٢٣).

٣ / مشكل إعراب القرآن الكريم: لمكِّي، القسم الأول، بتحقيق: د. حاتم صالح الضامن، طبع ونشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ١٠٠.

٤ / المصدر السابق: ص ١٠٠.

٥ / المصدر السابق: ص ٦٤.

يرى بعض النحويين أنَّ أصل اللام الفتح، وقد ذكر مكيّ منهم سيبويه الذي يحتج لذلك بانفتاح اللام مع المضمر "والإضمار يرد الأشياء إلى أصولها، وإنما كسرت مع الظاهر للفرق بينها وبين لام التأكيد"^(١).

لكن مكيّاً يرى - كما تقدّم - أنَّ الأصل فيها الكسر، وإنما تفتح هذه اللام في نحو: (له، ولهم، ولكنهم) أي مع المضمر استثقلاً للكسر بعده ضم بعده واو. ويقصد مكيّ بهذه الواو الواو التي توصل بميم الجمع والتي حذفت لسكون الميم^(٢). وهذا يعني - وفقاً لمنهج في أصل حركة اللام - أنَّ الضمة والواو أثرتا في الكسرة فأحالتها إلى فتحة، وذلك أخف على اللسان والشفيتين، ويعني أيضاً أنَّ أعضاء النطق أكثر قبولاً للفتحة التي تفك الاشتباك دائماً، وتزيل العسر حينما تجتمع الضمة والكسرة.

٢ [إثبات الحركات:

قد يكون التأثير بإثبات الحركات، وذلك يتحقق في مثل إثبات الكسرة أو الضمة لأول الصوتين الساكنين حين يلتقيان. والمشهور أنَّ أول الساكنين يحرك بالكسر.

ورغم أنَّ مكيّاً يعد التحريك بالكسر أصلاً في التقاء الساكنين، لكنه كان يعتمد في تحليله وتفسيره على التحليل المنطقي، ولم يجد الباحث تفسيراً صوتياً لدى مكيّ في جعله الكسر أصلاً لالتقاء الساكنين، فهاهو يتساءل ويجب فيقول: "فإن قيل: من

١ / مشكل إعراب القرآن الكريم: ص ٦٨.

٢ / يُنظر، الكشف: ٣٥/١.

أين كان الكسر أصلاً لالتقاء الساكنين، فالجواب أنه لَمَّا وجب تحريك الأول لالتقاء الساكنين، كان الكسر أولى به في الأسماء، إذ ليس فيها كسر يُراد به الإعراب إلا ومعه تنوين، فأمنوا أن يلتبس بالمعرب، إذ لو ضُموا أو فتحوا لالتقاء الساكنين لالتبس بالمعرب الذي لا ينصرف..... فأَمَّا عَلَّةُ الكسر لالتقاء الساكنين في الأفعال، فإنه لَمَّا كان الخفض لا يدخل الأفعال حركوها لالتقاء الساكنين بحركة لا تُشكِّل بالإعراب، إذ لا خفض فيها. ولو حركت بالفتح أو الضم لالتبس بالإعراب، لأنَّ الفتح والضم من إعراب الأفعال"^(١).

ولكننا نجد يعتمد على التحليل الصوتي في احتجاجه لمن ضم أول الساكنين إذا اجتمعا وكان قبل الساكن الثاني همزة وصل مضمومة نحو قوله تعالى: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ} ^(٢)، وقوله تعالى: {وَقَالَتْ أَخْرِجْ} ^(٣)، وقوله تعالى: {مَسْحُورًا * انْظُرْ} ^(٤)، وقوله تعالى: {قُلْ ادْعُوا} ^(٥)، وقوله تعالى: {أَوْ اخْرِجُوا} ^(٦)، وقوله تعالى: {أَنْ اْعْبُدُوا} ^(٧). هذه الآيات وأشباهها قرأها بعض القراء، وهم: ابن كثير ونافع

١ / الكشف: ٣٨/١.

٢ / سورة الأنعام: الآية (١٠).

٣ / سورة يوسف: الآية (٣١).

٤ / سورة الإسراء: الآيتان (٤٧، ٤٨).

٥ / سورة الأعراف: الآية (١٩٥).

٦ / سورة النساء: الآية (٦٦).

٧ / سورة المائدة: الآية (١١٧).

وابن عامر والكسائي. بضم الساكن الأول^(١).

قال مكي: "وحجة من ضم أنه شبه هذه الحروف بألف الوصل..... وأيضاً فإنه كره الخروج من كسر إلى ضم ليس بينهما غير حرف ساكن، والساكن غير حائل لضعفه فلا يعتد به. وألف الوصل لا حظ لها في الوصل ولا يُعتدُّ بها حاجزاً. فلمَّا ثقل ذلك ضم الساكن الأول ليتبع الضم الضم، فيكون أيسر عليه في اللفظ وأسهل، وهي لغة"^(٢).

ومِمَّا يؤكد استصحابه لنظرية الخفة والثقل في التحليل الصوتي -إضافةً لما سبق- احتجاجه لأبي عمرو بن العلاء في تخصيصه للضم في لام (قل) وواو (أو) من نحو قوله تعالى: {قُلْ ادْعُوا}^(٣)، وقوله تعالى: {أَوْ اخْرُجُوا}^(٤)، بقوله: "وأما تخصيص أبي عمرو للضم في لام (قل) وواو (أو) فإنه استثقل الكسر في (قل) وقبلها ضمة، ثم يخرج إلى ضم، فيصير كسرة بين ضمتين، وذلك ثقل فضم اللام ليتبع الضم الضم، فيخرج من ضم القاف إلى ضم اللام إلى ضم العين..... فيعمل اللسان عملاً واحداً فذلك أيسر وأخف في اللفظ من اللفظ بكسرة بين ضمتين"^(٥).

إذن فإن التماس الخفة في النطق وتوخي الانسجام بين الأصوات مراعاة لقانون الخفة والثقل يؤدي كل ذلك إلى إحداث نوع من التأثير بين

١/ السبعة في القراءات: ص ١٧٤-١٧٥.

٢/ الكشف: ١/ ٢٧٥.

٣/ سورة الأعراف: الآية (١٩٥).

٤/ سورة النساء: الآية (٦٦).

٥/ الكشف: ١/ ٢٧٥.

الأصوات الصامتة والصائتة على حدٍّ سواء.

لقد قرر مَكِّي أنَّ الانتقال من الكسر -فيما لو أنَّ كسر أول الساكنين، وبعد الساكن الثاني صوت مضموم- أمر شاق وعسير. وقرر كذلك أنَّ الخروج من ضم إلى كسر إلى ضم عمل ثقيل لا بد فيه من تدخل الناطق بإحداث نوع من المجانسة والإتباع حتَّى يسهل النطق ويقل الجهد.

إنَّ السبب في هذه المشقة -إذا لم تحدث مماثلة صوتية- كائنة من صعوبة انتقال اللسان من وضع يُناسب الكسرة إلى وضع يُناسب الضمة، وفي إشارة مَكِّي إلى اللسان دلالة على إدراكه لدور اللسان في نطق الحركات، الأمر الذي يؤكده علم الأصوات الحديث، إذ يكون طرف اللسان مع نطق الكسرة مرتفعاً إلى أقصى ارتفاع من دون إحداث احتكاك مع سقف الفم، وتكون مؤخرة اللسان مع نطق الضمة مرتفعة إلى أقصى ارتفاع من دون إحداث أي نوع من الاحتكاك المسموع مع الطبق، ولذلك يكون انتقال اللسان من وضعه مع الكسرة إلى وضعه مع الضمة أمراً شاقاً وثقيلاً.

لقد أغفل مَكِّي دور الشفتين في إحداث الحركات، فلم يُشير إلى دورهما، وقد أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة^(١) دور الشفتين في إنتاج الحركات، ويرى الباحث أنَّ قسماً كبيراً من الثقل الذي أشار

١/ أشار الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية: في صفحة ٣٥: أنَّ الحركات يلعب اللسان والشفتان في تكوينهما دوراً أساسياً، وأشار كذلك إلى أنَّ الدكتور دانيال جونز أول من وضع مقاييس للحركات المعيارية مركزاً على دور اللسان والشفتين.

إليه مَكِّي في الانتقال من ضم إلى كسر إلى ضم في نحو: (قُلْ ادْعُوا)^(١)، إنما يرجع إلى تغيير وضع الشفتين من انضمام شديد إلى انفراج شديد إلى انضمام شديد مرة أخرى، لأنَّ الشفتين تكونان مع الضمة في حالة انضمام شديد، وتكونان مع الكسرة في حالة انفراج شديد، ولا يخفى الثقل المترتب عن تغيير وضع الشفتين، وتغيير وضع اللسان. وتغيير وضع الفم حجماً وشكلاً.

لَمْ يقتصر مَكِّي في دراسته لقضية التقاء الساكنين على ورودها في القرآن الكريم فحسب، بل درسها وعالج ورودها في الكلام، وذلك موافق لما سبق أن قرره الباحث في منهجه لدراسة الأصوات. يقول: "قال أبو محمد: ونذكر في هذا الموضع باباً في الحكم في التقاء الساكنين في الكلام والقرآن"^(٢). وقد ذكر أن التقاء الساكنين يجري في الكلام على تسعة أقسام. وذكر من ذلك أن يتحرك الساكن الأول بالكسر لا غير في كلمة أو كلمتين، نحو: (قم الليل، وكم المال) ونحو: (اضرب، واصنع) في الابتداء. ومن ذلك أن يحرك الساكن الثاني بكسر أو ضم أو فتح، قال: "فالكسر هو الأصل نحو: هؤلاء، والفتح لاستثقال الكسر بعد ياء، نحو: (أَيْنَ) و(كَيْفَ) والضم نحو: (حَيْثُ) و(بَعْدُ)"^(٣).

١/ سورة الأعراف: الآية (١٩٥).

٢/ الكشف: ٢٧٦/١.

٣/ المصدر السابق: ٢٧٧/١.

٣] حذف الحركات:

قد يتعدى التأثير بين الصوائت الإثبات والإبدال إلى الحذف، أي حذف الحركة والمقصود بالحذف التسكين، أي تسكين الصوت الصامت بعد أن كان متحركاً، أو بمعنى آخر حذف الصوت الصائت لسبب صوتي.

يرتبط حذف الأصوات الصائتة بالنظام المقطعي للغة العربية، لأنّ الصوائت هي الأساس في تقسيم الكلام إلى مقاطع، ولذا يعرف المقطع الصوتي بأنه "كمية من الأصوات تحتوي على حركة واحدة"^(١) فالحركة هي نواة المقطع الصوتي وهي النقطة التي يقع عليها النبر. ولَمَّا كان النظام المقطعي في اللغة العربية يسير على أنماط مُعَيَّنة، كان التسكين أو حذف الحركة مظهراً من مظاهر هذا النظام.

لقد عبّر بعض علماء^(٢) العربية القدامى بكلمة التخفيف لتدل على التسكين كما عبّروا بكلمة التثقيل لتدل على التحريك، وهذا يعني أنّ التسكين ظاهرة صوتية تلجأ إليها بعض اللهجات العربية طلباً للخفة في النطق، والقبائل العربية التي يُنسب إليها التخفيف أو التسكين هي قبائل البادية في الجزيرة العربية، وهم أهل نجد وأطرافها من قبائل وسط الجزيرة العربية مثل تميم وقيس وأسد، وقد ذكر سيبويه أنّ بكر بن وائل

١/ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبد التواب، الطبعة الثانية،

طبعة المدني، ونشر الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ١٠١.

٢/ يُنظر، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: ابن جنّي، تحقيق:

النجدي والنجار وشلي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١/ ٢٦١.

يقولون: نَعَمْ الرجل، كان أصله نَعِمَ الرجل^(١). أمّا التحريك وهو التثقيب فقد كان صفة من صفات لغة أهل الحجاز الذين عرف عنهم التأني في الكلام. وقد ذكر ابن جَنِّي أنَّ المشهور عن الحجازيين تحريك الثاني من الثلاثي إذا كان مضموماً أو مكسوراً ومثّل لذلك بالرسَل وشبهها، وقال إنَّ بني تميم يُسكنون^(٢).

إنَّ الصائت الذي يحدث فيه التأثير بالحذف إمّا أن يكون في وسط الكلمة، وهو حينئذٍ عينها، أو في آخرها ويكون حينئذٍ لامها.

أ/ التأثير بحذف الصائت في وسط الكلمة:

وهو التأثير الذي ينشأ عنه تسكين عين الكلمة، ومن الملاحظ أنَّ التسكين في وسط الكلمة في بعض القراءات وبعض اللهجات العربية يطرّد في صيغة (فُعْل) - بضم الفاء والعين - وما يلحق بها، وذلك مثل اختيار أبي عمرو تسكين السين في نحو: (رُسِّل، وسُبِّل، ورُسِّلْنَا، وسُبِّلْنَا) في نحو قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ)^(٣). قال مَكِّي "قوله: (رُسِّلْنَا، وسُبِّلْنَا) قرأه أبو عمرو بإسكان السين والباء، حيث وقع، إذا كان بعد اللام حرفان في الخط على التخفيف لتوالي الحركات"^(٤).

فالعلّة في اختيار أبي عمرو إسكان عين الكلمة هي - كما قال مَكِّي - التخفف من ثقل الحركات المتوالية.

١/ يُنظر، الكتاب: ١١٦/٤.

٢/ يُنظر، المحتسب: ٢٦١/١.

٣/ سورة المائدة: الآية (٣٢).

٤/ الكشف: ٤٠٨/١.

لقد ورد في لغة بعض العرب أنهم يُسكنون المتحرك الثاني من الثلاثي لأجل التخفيف، على أنهم يسكنون ما كانت حركته الضمة أو الكسرة، وذلك مثل: الرُّسُل، والطُّنُب^(١) والكَبْد والفَخْد وظُرْف وعِلْم وقَدِم^(٢). ولا يسكنون ما كانت حركته الفتحة إلا قليلاً. ومِمَّا جاء من شواهد ذلك في لغة العرب قول الشاعر:

لَوْ عَصَرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكُ انْعَصَرَ

أي عَصِرَ^(٣).

وقال بعضهم:

وَأَوْسَعْنَ عَقْبِيهِ دِمَاءً فَأَصْبَحَتْ * أَصَابِعُ رِجْلَيْهِ رَوَاعِفَ دُمَعًا^(٤)
بسكون القاف من (عقبية) واللغة الأخرى بكسرها.

وقال الآخر:

وَإِذَا تُحْمَلْنَا الْعَشِيرَةَ ثَقَلَهَا * قُمْنًا بِهِ وَإِذَا تَعُودُ نَعُودُ^(٥)

١/ الطُّنُب: بضمّتين جاء في تاج العروس: للزبيدي، ص ٣٥٦، فصل (الطاء) من باب (الباء) بأنه: "حبل طويل يشد به سرادق البيت، جمعه: أَطْنَاب، وطِنبة على مثال عنبّة، وقيل إنه استخدم مفرداً فيكون كعُنُق وجمعاً فيكون ككُتُب".

٢/ يُنْظَر، المحتسب: لابن جنّي، ٢٦١/١.

٣/ الشاهد من شواهد كتاب سيبويه: ١١٣/٤، والقائل هو أبو النجم.

٤/ قائله: مالك بن حريم الهمداني، وهو شاعر جاهلي يمني؛ [يُنْظَر، الأعلام: ط ٤، ٢٦٠/٥]؛ ويُنْظَر، ديوان الأصمعيّات: للأصمعي، تحقيق وشرح أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط دار المعارف، مصر، ط ٣، ١٩٧٦ م، ص ٦٦، وقبله:

ونخلع نَعْلَ العبد من سُوءِ قَوْدِهِ * لكيما يكون العبد للسهل أضرعا

٥/ قائله: معاوية بن مالك، وهو شاعر من أشرف العرب في الجاهلية وهو عمّ (لبيد بن =

واللغة الأخرى هي: (ثَقُل) بفتح القاف.

ومِمَّا يلحق بهذا الباب في التخفيف اختيار بعض القُرَّاء إسكان الهاء من لفظي (هو) و(هي) إذا جاء بعد الفاء أو الواو أو اللام أو ثم. قال مكي: "قوله: (وهي، وهو، فهَي، لَهَي، ثم هَو) ^(١) قرأ ذلك أبو عمرو والكسائي وقالون بإسكان الهاء حيث وقع، إذا كان قبل الهاء واو أو فاء أو لام، أو ثم ^(٢)."

ثم علَّل لمن أسكن الهاء بقوله: "وعِلَّة من أسكن الهاء أنها لَمَّا اتصلت بما قبلها من واو أو فاء أو لام، وكانت لا تنفصل منها، صارت كلمة واحدة، فخفَّف الكلمة، فأسكن الوسط، وشبهها بتخفيف العرب لِعَضْدٍ وَعَجْزٍ، فهو كلفظ (عَضْدٍ وَعَجْزٍ) فيسكنون استخفافاً. وأيضاً فإنَّ الهاء لَمَّا توسطت مضمومة بين واوين، وبين واو وياء ثَقُلَ ذلك، وصار كأنه ثلاث ضمات في (وهو) وكسرتان وضمة في (وهي) فأسكن الهاء لذلك استخفافاً ^(٣)."

ومنهم من يسكن الهاء بعد الهمزة، قال الشاعر:

فَقُمْتُ لِلطَّيْفِ مُرْتَاعاً فَأَرَقَنِي * فَقُلْتُ أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلْمٌ ^(٤)

= (ربيعه)، يُلقَّب بـ (مُعَوِّد الحكماء)؛ [ينظر، ديوان الأصمعيات: ص ٢١٢؛ وينظر، الأعلام: ٢٦٣/٧].

١/ الكلمات على الترتيب وردت في سور: الحج (٤٨)؛ البقرة: (٢٩)؛ العنكبوت (٦٤)؛ القصص (٦١).

٢/ الكشف: ٢٣٤/١.

٣/ المصدر السابق: ٢٣٤/١.

٤/ شرح التسهيل: لابن أمّ قاسم حسن بن قاسم المرادي، تحقيق: حسين تورال، رسالة=

كما وردت أيضاً بتسكينها بعد الكاف التي للجر نحو قول أحدهم:

وَقَدْ عَلِمُوا مَا هُنَّ كَهْنٌ فَكَيفَ لِي * * سُلُوءًا وَلَا أَنْفَكُ صَبًا مُتِيماً^(١)

إنَّ حذف الضمة والكسرة من لفظي (هو) و(هي) باعته التماس الخفة في النطق - كما ذكر مكي - خاصةً وأنَّ الهاء تكون - دائماً - مسبوقة بحرف عطف يشكل مع الضمير كلمة واحدة تتوالى فيها الحركات.

ومِمَّا يضاف إلى ذلك إسكان الميم من لفظ (الجمعة) فإنَّ أصله الضم. قال مكي في تفسيره لمشكل إعراب سورة الجمعة: "قوله تعالى: (يَوْمَ الْجُمُعَةِ)^(٢): يجوز إسكان الميم استخفافاً"^(٣).

لقد فسر مكي ظاهرة التسكين في وسط الكلمة - والتي هي حذف الصائت - بأنها نوع من التخلص من الثقل الناتج من توالي الحركات، وهذا التفسير تفسير صحيح يعززه الباحث بشيء من التوضيح على ضوء النظرية الحديثة المبنية على نظام المقاطع، ليتضح - بعد ذلك - مدى التطابق بين تفسير مكي وتحليله، وتفسير المحدثين وتوضيحاتهم.

إنَّ عِلَّةَ حذف الصائت أو الحركة في وسط الكلمة هي اجتماع ثلاثة مقاطع من النوع الأول في كلمة، أي ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة، أو

=ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧١، ص ١٥٢؛ ويُنظر، في الأصوات اللغوية - دراسة في أصوات المد العربية: د. غالب فاضل المطليبي، ص ١٧٧.

١/ شرح التسهيل: ص ١٥٢.

٢/ سورة الجمعة: الآية (٩).

٣/ مشكل إعراب القرآن: ص ٧٣٤.

اجتماع مقطعين قصيرين مفتوحين بعدهما مقطع طويل مغلق، ولأنَّ
عدم الحذف (التسكين) ينتج عنه ثقل صوتي.

ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

١ / فُعْلُ تتحول إلى فُعْل. نحو: عُنُقُ تصير عُنُقًا.

٢ / فُعْلُ تتحول إلى فُعْل. نحو: عَضُدُ تصير عَضُدًا.

٣ / فِعْلُ تتحول إلى فِعْل. نحو: إِبِلُ تصير إِبِلًا.

٤ / فِعْلُ تتحول إلى فِعْل. نحو: كَتِفُ تصير كَتِفًا.

٥ / فِعْلُ تتحول إلى فِعْل. نحو: قِمَعٌ^(١) تصير قِمَعًا.

فكل هذه الكلمات اجتمعت فيها مع الوصل ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة.
فتكتب الكلمة الأولى من هذه العبارة (عُنُقُ زجاجة) مقطعيًا هكذا:
ص ح/ص ح/ص ح، والكلمة تنفرد بكل مقاطعها.

وُتَكْتَب (رُسُلُنَا) مقطعيًا هكذا: ص ح/ص ح/ص ح/ص ح ح.
فقد اجتمعت ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة في المثال الأول، وثلاثة
مقاطع قصيرة مفتوحة، ومقطع طويل مفتوح في المثال الثاني.
لَمَّا كَانَ اللسان العربي يفر من توالي المقاطع القصيرة المفتوحة
-لثقلها- وكانت الأذن العربية تمج سماع هذه الصوائت المتوالية،

١ / جاء في لسان العرب: والقِمَع والقِمَع: ما يوضع في فم السقاء، والزق والوَطْبِ ثم
يصب فيه الماء والشراب أو اللبن سُمِّيَ بذلك لدخوله في الإناء؛ يُنْظَر، لسان العرب:
مادة (قمع).

لجأت بعض اللهجات العربية كاللهجات النجدية، إلى الاتكاء على تسكين الأصوات بحذف الصوائت الوسطية، لتقليل عناء امتداد الصوت الناتج من توالي الحركات، فتحولت: (رُسُلْنَا) -مثلاً- إلى: (رُسُلْنَا) هكذا: ص ح ص/ص ح/ص ح ح. بتحويل المقطعين القصيرين المفتوحين الأولين إلى مقطع واحد، هو المقطع الطويل المغلق: /ص ح ص/ وذلك بحذف الحركة القصيرة من المقطع القصير الثاني.

إذن فإنَّ حذف الحركة أو التسكين تخفيف فعلاً - كما أشار مكِّي - وهو وسيلة اتخذتها اللغة قديماً للتخلص من توالي أربعة مقاطع مفتوحة، لأنَّ ذلك ثقل على اللسان، ولأنَّ الأصوات الصائتة أو الحركات بما فيها من الجهارة والامتداد، يشكل تواليها طمساً لمعالم الأصوات عموماً وتشويشاً على السامع، فضلاً عن ثقلها على اللسان.

فالفعل (فَتَحَ) -مثلاً- يتكون من ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة، إذا أُسند إلى أحد ضمائر الرفع المتحركة كتاء المتكلم، ينتج عن ذلك اجتماع أربعة مقاطع قصيرة مفتوحة، وهذا أمر ممتع في اللغة العربية، فلجأت العربية إلى حذف الصوائت أو التسكين فحُذفت الفتحة -وهي حينئذٍ في وسط الكلمة- فأصبحت الكلمة هكذا: (فَتَحْتُ) بتسكين الحاء.

وتفسيرنا لإسكان الهاء في (هو) و(هي) مثل تفسيرنا السابق، لأنَّ (هو) و(هي) المسبوقتين بالفاء أو الواو أو اللام، كالكلمة الواحدة - كما قال مكِّي - وتكتبان مقطعيّاً عند ترك التسكين هكذا:

ص ح/ص ح/ص ح. بتوالي ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة. لذلك لجأ بعض القُراء إلى اختيار اللُغة التي تسكن الهاء أو تحذف حركتها، كما تخففت بعض اللهجات العربية من توالي الحركات. فأصبحت (وَهُوَ) و(فَهُوَ) -بحذف الحركة- وتُكتب مقطعيًا هكذا:

ص ح ص/ص ح، بحذف الحركة من المقطع الثاني. وكذلك وردت قراءات بالتخفيف نحو قوله تعالى: (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)^(١)، ونحو قوله تعالى: (فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(٢). فكان ابن كثير وعاصم وابن عامر يقرءون بتحريك الهاء -أي بإثبات حركتها- أمّا أبو عمرو والكسائي وقالون فيقرءون بإسكان الهاء أي بحذف حركتها^(٣).

ب/ التأثير بحذف الصائت في آخر الكلمة:

وهو التأثير الذي ينشأ عنه إسكان لام الكلمة. وإسكان لام الكلمة -بحذف حركتها- يختلف عن إسكان عين الكلمة، لأن الحركات في آخر الأسماء المعربة والأفعال المعربة تمثل فونيمات قِطعية لها دور في تشكيل المعنى وهي حينئذٍ من الآثار الظاهرة التي يكون لها دورٌ في تشكيل المعاني وتفسير الدلالات الكامنة في الأبنية الباطنية للجُمْل^(٤).

١/ سورة البقرة: الآية (٢٩).

٢/ سورة الفرقان: الآية (٥).

٣/ يُنظر، السبعة في القراءات: ص ١٥١؛ ويُنظر، الكشف: ٢٣٤/١.

٤/ يُنظر، أثر عناصر البناء الظاهر للجملة في التفسير الدلالي (من خلال القراءات

القرآنية): د. بكرى محمد الحاج، ص ٧.

أمَّا الحركات في حشو الكلمات فغالباً ما لا تؤثر في المعنى، ولذا كان الضبط الصرفي للكلمة عند النحاة يقوم على أساس السماع، بينما يكون ضبط آخر الكلمة عندهم -وهو الضبط الإعرابي- قائماً على أساس القياس والمعيار.

على الرغم من ورود ظاهرة التسكين في آخر الكلمة في القراءات القرآنية، ومجيئها في اللغة والشواهد الشعرية، فإنَّ كثيراً من النحاة هاجم هذه الظاهرة باعتبارها هدماً للإعراب.

كان أبو عمرو بن العلاء يحذف حركة الإعراب في كثير من النماذج نحو: (يَأْمُرُكُمْ، وتَأْمُرُهُمْ، وينصِرُّكُمْ، ويشعِرُّكُمْ، وبارئُكُمْ) بإسكان الراء وهمزة بارئكم.

قال مكي: "قوله: (ينصِرُّكُمْ وبارئُكُمْ) وشبهه قرأه أبو عمرو في رواية الرقيين عنه بإسكان الراء والهمزة"^(١). ونُقل عن مجاهد في قوله تعالى: **{وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ}**^(٢)، وقوله تعالى: **{أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ}**^(٣)، أنَّ أبا عمرو سئل عن هذه القراءة فقال: أهل الحجاز يقولون: (يعلمُهُم، ويلعَنُهُم) مثقلة، ولغة تميم: (يعلمُهُم، ويلعَنُهُم)^(٤). وقد ظن بعضهم أنَّ أبا عمرو لم يكن يسكن الحرف الذي تقع عليه حركة الإعراب، وإنما كان يختلس هذه الحركة اختلاصاً حتَّى يظن من لم يسعفه سمعه أنه سكن.

١/ الكشف: ٢٤٠/١.

٢/ سورة البقرة: الآية (١٢٩).

٣/ سورة البقرة: الآية (١٥٩).

٤/ المحتسب: لابن جنِّي، ١٠٩/١.

وإمام النحاة سيبويه كان يرى ذلك، وقد نقل عنه ابن جني هذا الرأي في (الخصائص) حيث قال: "وكذلك قوله عز وجل: {فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ} ^(١) مُختلِسا غير مُمكن كسرة الهمزة، حتَّى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادَّعى أن أبا عمرو كان يُسكن الهمزة، والذي رواه صاحب (الكتاب) اختلاس هذه الحركة لا حذفها البتة. وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القُرَّاء الذين رَوَوْه ساكنا" ^(٢).

يدَّعي ابن جني في هذا النص أن أبا عمرو لم يكن يُسكن، أي لم يحذف حركة الإعراب، وإنما كان يختلسها، ونسب لسيبويه رواية الاختلاس، وكان يرى أن سيبويه أضبط للقراءة من القراء ^(٣).

لكنَّ القُرَّاء قد رَوَوْا الحذف كما رَوَوْا الاختلاس عن أبي عمرو في دقة متناهية لم يصل إليها أدنى شك، وهم للقراءة أضبط من غيرهم، ومعلوم أن قراءة اختلاس الحركة في قراءة أبي عمرو إنما هي من طريق البغداديين، وهي التي اختارها سيبويه، أمَّا حذف الحركة فمن طريق الرِّقَّيين ^(٤).

لذلك فإنَّ لأبي عمرو من روايتيه وجهين هما: الاختلاس والحذف، وقد قال ابن الجزري: "لكل من الدُّوري والسوسي وجهان

١ / سورة البقرة: الآية (٥٤).

٢ / الخصائص: تحقيق محمد علي النجار، طبع ونشر دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، (د.ت)، ٧٢/١.

٣ / المصدر السابق: ٣٤٠/٢.

٤ / الكشف: ٢٤٠/١.

ولكن المقروء به من طريق الكتاب أنَّ للسوسي الإسكان قولاً واحداً، وأنَّ للدُّوري الاختلاس والإسكان^(١). هذا يعني أنَّ حذف الحركة في آخر الكلمة وردت به القراءات القرآنية الصحيحة، وكذلك جاءت العديد من النماذج الشعرية بحذف الحركة في آخر الكلمة وقد أورد ابن جني أمثلة لذلك في كتابيه (المحتسب) و(الخصائص)، من ذلك:

١ [قول جرير الذي أنشده أبو علي لابن جني:
سَيُرُوا بَنِي الْعَمِّ فَلَا هَوَاؤُ مَنَزِلُكُمْ * * وَنَهْرٌ تَبْرَى فَلَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ^(٢)
بحذف حركة الفاء التي حقها الضم في كلمة (تعرفكم).
٢ [قول لبيد:

تَرَاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا * * أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا^(٣)
بحذف حركة الطاء التي هي الفتحة، والمعنى إلا أن يرتبط، قال ابن جني: "هذا كثير في الشعر وذلك لإقامة الوزن واتصال الحركات"^(٤).

٣ [قول أحدهم:

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَى لَنَا سَوِيقًا^(٥)

١ / تحبير التيسير: ص ٨٧.

٢ / المحتسب: ١١٠/١؛ ويُنظر، الخصائص: ٧٤/١.

٣ / المحتسب: ١٠٩/١؛ ويُنظر، الخصائص: ٧٤/١.

٤ / المحتسب: ١٠٩/١.

٥ / وبعده: وهات برّ البخس أو دقيقاً؛ وهذا الرجز يُنسب للعزافر الكندي، أنشده أبو زيد؛ [يُنظر، الخصائص: ٣٤٠/٢]؛ جاء في اللسان: "والسويق ما يتخذ من=

ومن العرب من يسكنون هاء الضمير في حال الوصل فيقولون: مررت
به أمس، ونقل ابن جني حكاية عن الأخفش أن إسكان هاء الضمير
لغة لأزد السراة^(١)، ومما استشهد به من الشعر:
[٤] قول أحدهم:

فَظَلْتُ لَدَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَخِيْلُهُ * * وَمِطَوَايَ مُشْتَقَانِ لَهُ أَرْقَانِ^(٢)

[٥] وقول آخر:

وَأَشْرَبُ الْمَاءَ مَا بِي نَحْوُهُ عَطَشٌ * * إِلَّا لِأَنَّ عُيُونَهُ سَيْلٌ وَادِيهَا^(٣)
إذن كيف نفسر صوتياً لشيوع ظاهرة حذف الصائت في آخر الكلمة؟
وقبل ذلك كيف علل مكّي واحتج لمن حذف الحركة من القراء؟
لقد علل مكّي لهذا الحذف بمثل ما علل به حذف الحركة في وسط
الكلمة فقال: "وعلة من أسكن أنه شبه حركة الإعراب بحركة البناء
فأسكن حركة الإعراب استخفافاً لتوالي الحركات. تقول العرب:
(أراك منتفخاً) بسكون الفاء؛ استخفافاً لتوالي الحركات وأنشدوا:

=الحنطة والشعير": [١٧٠/١٠].

١/ المحتسب: ١٢٨/١.

٢/ يُنسب البيت إلى يعلّى الأحوال الأزدية، وكان لصاً، ومعنى البيت: إنه يحن إلى وطنه
بعد أن رأى برقاً شاقه وهاجه إلى وطنه. ومطوأي: صاحبائي، وضمير أخيله، وله:
عائد إلى البرق في بيت قبله؛ يُنظر، [الخصائص: ١٢٨/١، ٣٧٠]؛ ويُنظر، المحتسب:
٢٤٤/١.

٣/ رواه قطرب عن شاعر مجهول، ورواه ابن جني عن قطرب؛ يُنظر، الخصائص:
لابن جني، ١٢٩/١، ٣٧١؛ ويُنظر، المحتسب: له، ٢٤٤/١.

وَبَاتَ مُنْتَصِبًا وَمَا تَكَرَّدَسَا^(١)

فأسكن الصاد لتوالي الحركات، فشبه حركة الإعراب بحركات البناء فأسكنها^(٢). وتعليل مكي واضح وهو طلب الخفة إذا توالى الحركات بغض النظر عن نوعها، إذ إن ابن جني يحصر الثقل في توالي الحركات إذا كانت ضمات، فقد تساءل عن لهجة التخفيف وأجاب عن ذلك بقوله: "علته توالي الحركات مع الضمات فيثقل ذلك عليهم فيخففون بإسكان حركة الإعراب"^(٣).

إنَّ إسكان آخر الكلمة الذي يترتب عليه حذف لحركة الإعراب قد أثار مشكلة عظيمة، وهي مشكلة الإعراب، ونتج عن ذلك أن تعنت بعض النحاة وانحازوا إلى قواعدهم النحوية انحيازاً وصل بهم أن ردُّوا بعض القراءات الصحيحة فوصفوها بالضعف، أو الرداءة، أو جنحوا إلى تأويلها بحجة عدم موافقتها للقواعد النحوية التي صنعوها، وقد قابل بعضهم تعنت النحاة هذا بالامتعاض الشديد فنادوا بهدم القواعد النحوية المصنوعة.

إنَّ تسكين آخر الكلمة بحذف حركة إعرابها في بعض الوجوه اللغوية، وفي بعض اللهجات العربية لا يعنى التمرد على الإعراب حتَّى يثورَ ضده النحاة المتعنتون، ولا يعنى الانتصار على القواعد النحوية حتَّى

١/ جاء في اللسان: "التَكَرَّدَسُ: التَّجَمُّعُ والتَّقَبُّضُ، قال العجاج: فَبَاتَ مُنْتَصِبًا وَمَا تَكَرَّدَسَا".

٢/ الكشف: ٢٤١/١.

٣/ المحتسب: ١٠٩/١.

يتبناه المحققون، إذ أكثر ما يمكن أن يقال عن هذه الظاهرة إنها لغة من لغات العرب يمكن أن تسعها القواعد النحوية، وإلا فمن الممكن إعادة النظر في هذه القواعد بتعديلها وتوسيع مواعينها لتسع المسموع من كلام العرب، ولا نقول بقتل النحو والتمرد عليه بحجة الجمود والتعسف، بل يجب أخذ اللغة من مصادرها من غير تساهل ولا تعسف. وظواهر اللغة لا تحكمها القوانين المتعسفة، ولكن الحكم يجب أن يكون شاملاً باستجازة ما سُمع من كلام العرب وضمه إلى القواعد، ونعلم أن الاستثناء والجواز يقويان الأحكام ولا يضعفانها.

مثلاً أن حركة الإعراب يحتاج إليها المتكلم لوصل الكلمات بعضها ببعض، فإن حذفها كذلك قد تمليه الضرورة الصوتية، والضرورة الصوتية مقدمة -عند من يحذفون هذه الحركة- على الضرورة الإعرابية، ويظن الباحث أن الحركة الإعرابية في مثل هذه الأمثلة تكون مَنوية رغم حذفها في الخط واللفظ، فهي ثابتة في النية والأصل، وحذفها لا يترتب عليه لبس في المعنى ولا غموض، ويكون السياق -دائماً- السياج الواقعي من ضياع المعنى وغموض الدلالة. ولذلك فإن المعنى -بحذف الحركة في مثل الأمثلة المتقدمة- لا يضيع، مع توافر السهولة في النطق والانسجام بين الأصوات. بيد أن المعنى بترك الحركة وعدم حذفها يكون محفوظاً ولكن قد ينجم عن ذلك مشقة في النطق، وربما طمست معالم بعض الأصوات لضعفها وخفوتها أمام قوة الأصوات الصائتة الممتدة.

لقد علل مكّي لحذف حركة الإعراب بطلب الخفة في النطق، وهو على حق، فقد أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة أنه إذا تحرك الحرف

(الصوت) ينتج مقطعاً مفتوحاً، وإذا سكن أغلق ذلك المقطع، والمقطع المقفل يؤدي إلى اختصار الجهد الذي يبذله جهاز النطق لدى المتحدث، كما أنه يؤدي إلى اختصار الزمن والاستفادة منه لإخراج أكبر قدر من الكلام.

ومن هنا كانت طبيعة البدو متفقة مع التخفيف بحذف الحركة؛ لأنهم جُبلوا على الإسراع في الكلام على عكس الحضر. ونستطيع أن نبين أثر هذا التخفيف بكتابة كلمتي: (يَأْمُرُكُمْ) و(أَسْلَحَتْهُمْ) من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ^(١)}، وقوله تعالى: {وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ^(٢)}. فتُكتب (يَأْمُرُكُمْ) -مقطعيّاً- بالتحريك هكذا:

ص ح ص / ص / ح / ص / ح / ص ح ص.

وتُكتب (أَسْلَحَتْهُمْ) -مقطعيّاً- بالتحريك هكذا:

ص ح ص / ص / ح / ص / ح / ص / ح / ص ح ص.

بينما تُكتب (يَأْمُرُكُمْ) بحذف حركة الإعراب هكذا:

ص ح ص / ص / ح / ص / ص / ح ص.

وتُكتب (أَسْلَحَتْهُمْ) بالحذف هكذا:

ص ح ص / ص / ح / ص / ح / ص / ح / ص ح ص.

اجتمع في قراءة إثبات الحركة في (يَأْمُرُكُمْ) مقطعان قصيران متواليان

١ / سورة البقرة: الآية (٦٧).

٢ / سورة النساء: الآية (١٠٢).

حركتاها قصيرتان، ومقطع طويل مغلق حركته قصيرة. واجتمعت
ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة متوالية حركاتها قصيرة في (أَسْلِحَتْهُمْ)
بإثبات حركة الإعراب. ولذلك استثقل بعض العرب هذه الهيئة من
النطق فعمدوا إلى حذف حركة الإعراب، وكذلك اختار بعض القُرَّاء
القراءة بحذف الحركة القصيرة من المقطع الثالث في الكلمة الأولى،
وبحذف الحركة القصيرة من المقطع الرابع في الكلمة الثانية. كل ذلك
هروباً من توالي المقاطع القصيرة المفتوحة.

أمَّا المعنى فإنَّ حذف هذه الحركات لَمْ يؤثر في خفائه أو غموضه،
فالكلمة الأولى فعل مضارع، والكلمة الثانية اسم مفعول به.

المطلب الثاني

الإمالة

أراد الباحث بإدراج الإمالة في هذا المبحث -الذي خصصه للظواهر النوعية- ليؤكد -كما هو الحال في علم الأصوات الحديث- أن الإمالة درجة من درجات أصوات اللين أو الحركات المعيارية، ورغم أنها تكون -غالباً^(١)- عند النظر إليها من منظور كمّي أقرب إلى الحركة الطويلة إلا أن أصلها ومبدأها من حركة قصيرة، ولذا فهي فرع من الحركات المعيارية.

قبل الحديث عن معالجة مكّي لظاهرة الإمالة، وكيف ولماذا كانت نتاجاً للتأثير والتأثر بين الأصوات الصائتة وأشباهها في الكلام؟ يود الباحث أن يجعل بين يدي ذلك مقدمة مختصرة حول معنى الإمالة وأسبابها، والإمالة في اللهجات العربية، والإمالة في القراءات القرآنية، ثم بعد ذلك يتناول معالجة مكّي لهذه الظاهرة.

أولاً- مقدمة حول ظاهرة الإمالة:

أ/ معنى الإمالة:

قد تعني الإمالة أكثر من معناها الذي استقر عليه عُرف القُراء والنحاة، فهي تعني عند القُراء تقريب الألف نحو الياء والفتحة التي قبلها نحو الكسرة^(٢). وكذلك النحاة يعرفونها بمثل هذا التعريف على الرغم من

١/ هذا يعني أنها أحياناً تحسب حركة قصيرة ليس إلا. وذلك مثل إمالة الفتحة إلى الكسرة

قبل هاء التأنيث، في نحو: حبة وربوة عند الوقف عليها، وهو مذهب الكسائي.

٢/ يُنظر، الكشف: ١/١٦٨.

أنَّ بعضهم يجعلها على ثلاثة أنواع ولكن كلها في نطاق الميل بالفتحة نحو الكسرة، كالفتحة التي قبل الألف، والفتحة التي قبل هاء التانيث، كما في: (رحمة)، والفتحة التي قبل الراء^(١).

لقد روت كتب اللُّغة أربعة أنواع للإمالة هي^(٢):

١ / إمالة الفتحة إلى الكسرة وهي أشهرها وأكثرها شيوعاً وهي التي عليها مدار الحديث في هذا المطلب.

٢ / إمالة الفتحة إلى الضمة نحو: (الصلاة، والزكاة) وغيرهما، وقد كُتبت هذه الألفاظ في المصاحف بالواو.

٣ / إمالة الكسرة نحو الضمة، ومثل: (قيل، وغيض، وجيء) قرأ بها الكسائي وهشام، وعِلَّة ذلك أن أصل عين الكلمة (واو).

٤ / إمالة الضمة نحو الكسرة، مثل بوع، وعِلَّة ذلك أن أصل عين الكلمة (الياء) فكانت الإمالة إشعاراً بالأصل.

إنَّ الإمالة بنوعيهما الكبرى والصغرى يمكن قياسها بمقاييس أصوات اللين. فتُقاس الفتحة الممالة إمالة شديدة بالمقياس: (e) والفتحة الممالة إمالة خفيفة بالمقياس: (ε)، ونلاحظ أن الإمالة بنوعيهما تنحصر بين الكسر المحض وهو المقياس: (i)، والفتح المحض وهو المقياس: (a).

١ / شرح شافية ابن الحاجب: للإستراباذي، تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف

ومحمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، ٤/٣.

٢ / يُنظر، سر صناعة الإعراب: لابن جني، تحقيق هنداي، طبع دار القلم، ١٩٨٥م،

بيروت، ١/٥٢-٥٣.

بمعنى أنَّ أول اللسان مع الإمالة الشديدة يكون أقرب إلى الحنك الأعلى، بينما يكون أوله مع الإمالة الخفيفة أقرب إلى قاع الفم. لذلك فالفرق بين الكسر المحض والإمالة بنوعيهما والفتح المحض ما هو إلا اختلاف في وضع اللسان قُرباً وبعُدًا من الحنك الأعلى^(١). ومِمَّا سبق يمكن القول إنَّ الإمالة بنوعيهما تتوسط الحركات المعيارية الأمامية: [i ، (e ، ε) ، a].

ب/ أسباب الإمالة:

تحدث النحاة والقُراء عن أسباب الإمالة، وأفاضوا، وقد أرجع سيبويه^(٢) هذه الأسباب في الكثير الغالب من كلام العرب إلى أسباب صاغها ابن مالك^(٣) في الألفية، وهي:

- ١/ كسرة بعد الألف، وذلك نحو: عابد وعالم.
- ٢/ كسرة قبل الألف، وذلك نحو: عماد.
- ٣/ إذا كانت الألف لاماً للكلمة في موضع الياء وبدلٌ منها أو في موضع الواو ولكن الياء تغلبت عليها إذا جاوزت ثلاثة أحرف، نحو: رمى، ومرمى، وملهى.

١/ يُمكن ملاحظة وضع اللسان مع نوعي الإمالة بالنظر إلى بعض الرسومات التي وردت في مثل كتاب: الصوتيات: لمارتل مالبرج، ترجمة محمد حلمي هليل، طبع مطبعة التمدن، الخرطوم، ١٩٨٥م، نشر: المنظمة العربية، للتربية والثقافة والعلوم، ص ٥٦.

٢/ الكتاب: ١١٧/٤.

٣/ هو، الإمام محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين، وُلِدَ سنة ٦٠٠هـ، لَمَّا ترعرع تعلَّم العربية، مات سنة ٦٧٢هـ.

٤ / الألف الزائدة للتأنيث أو للإلحاق لكونها بمتزلة ما هو من بنات الياء.

٥ / إذا كانت الألف عيناً فيما يؤول إلى فُلْتُ سواءً أكان أصلها الياء أم الواو كماضي: خَفُ، ودِن.

٦ / إذا كانت الألف بعد الياء، نحو: شيبان.

٧ / إذا كانت الإمالة للإمالة، كإمالة الألف الثانية من (عمادا).

هذه هي أسباب الإمالة كما يراها النحاة، ونلاحظ أنها ترجع عندهم إلى سببين رئيسيين لا تكاد تخرج عنهما وهما: وجود الكسرة أو وجود الياء.

ويُرجع علماء الأصوات اللغوية أسباب الإمالة إلى أحد عاملين^(١) هما:

١ - الأصل اليائي.

٢ - الانسجام بين أصوات اللين.

ويرى الباحث أن للإمالة سبباً هو وجود الكسرة أو الياء ولها باعـث وعلة هي الانسجام بين الأصوات. ولذلك فإن وجود السبب باعـث للإمالة، لأن الانتقال من الكسر إلى الفتح في نحو: (عماد) يتطلب مجهوداً عضلياً أكبر ممّا لو أُمِلت الفتحة نحو الكسرة، وبالتالي أُمِلت الألف إلى الياء.

١ / يُنظر، في اللهجات العربية: لإبراهيم أنيس، ص ٦٨.

ج/ الإمالة في اللهجات العربية:

حين تُنسب الإمالة إلى اللهجات ربّما يُظن أنها صورة ابتعدت عن بيان اللّغة العربية وفصاحتها، أو قد يُفهم أنها عيب من عيوب الكلام. ولكنّ الإمالة ولشيوعها بين فصحاء العرب وتداولها بين القبائل التي كان يرحل إليها كل من رام اللسان العربي الفصيح. فإنها تعد -لذلك- لغة من لغات العرب الفصيحة، ويكفي ورودها في القراءات الصحيحة دليلاً على فصاحتها وبيانها لأنّ القرآن إنما نزل بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

هنالك اتفاق عام على نسبة هذه الظاهرة (الإمالة) إلى أهل نجد، وهم قبائل وسط الجزيرة العربية: تميم ومَن جاورها، ونسبة الفتح إلى أهل الحجاز مثل: قريش والأوس والخزرج وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة^(١). ولا مجال هنا لذكر كل ما قاله العلماء حول اتفاقهم على نسبة الإمالة إلى أهل نجد^(٢)، غير أنّ نسبة الفتح إلى أهل الحجاز لا يعني أنهم لا يميلون البتة، فقد وردت النصوص بما يؤكد أنّ بعض الحجازيين كانوا يميلون، وقد أورد صاحب كتاب (الإمالة في القراءات واللهجات العربية) العديد من أقوال النحاة تبين أنّ أهل الحجاز كانوا يميلون^(٣).

١/ يُنظر، في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس، ص ٦٠.

٢/ يُنظر، النشر: لابن الجزري، ٣٠/٢؛ وشرح المفصل: لابن يعيش، ٤/٩؛ وشرح الشافية: للإستراباذي، ٤/٣.

٣/ الإمالة في القراءات واللهجات العربية: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبع: دار نهضة مصر، بالقاهرة، ط ٢، (د.ت)، ص ٨٢.

المشهور أنَّ الفتح هو الأصل والإمالة فرع عليه، ومَكِّي كان يرى ذلك، فقد قال: "اعلم أنَّ أصل الكلام كله الفتح، والإمالة تدخل في بعضه في بعض اللغات لعلّة، والدليل على ذلك أنَّ جميع الكلام الفتح فيه سائغ جائز وليست الإمالة بداخلة إلا في بعضه في بعض اللغات فالأصل ما عمَّ وهو الفتح" (١).

استدلّاه مقبول، ويتجه نحو القول بأنَّ الأصل هو الفتح. ومعلوم بالضرورة أنَّ أصل الشيء أسبق وجوداً من الفرع، ولكنَّ المتأمل في أصول الأفعال المعتلة في اللُّغة العربية مقارنة باللغات السامية - وخاصة اللُّغة الحبشية - قد يشعر بأنَّ الإمالة ربّما تكون الأصل والأقدم استعمالاً من الفتح.

إنَّ أصل الأفعال المعتلة الوسط (الجوفاء) مثل: باع وخاف، أو المعتلة الآخر (الناقصة) مثل قضى وأبى، أو المعتلة الوسط والآخر (اللفيف المقرون) مثل: (هوى وغوى)، كانت تنطق بحرف العِلّة الأصلي، وتُكتب هكذا: بَيَعَ، وَخَوَفَ، وَقَضَى، وَأَبَى، وَهَوَى، وَغَوَى، وهذه الأفعال لا تنطق بهذه الكيفية اليوم. وقال النحاة إنها لم تُستعمل في العربية، ولكنَّ النظر في اللُّغة الحبشية من بين اللغات السامية يؤكّد أنها تُعدُّ أقدم مراحل الاستخدام اللُّغوي، وقد اطلع الباحث على مقارنات أجراها الدكتور رمضان عبد التواب تؤكّد ذلك، ومِمَّا قال: "وهذه المرحلة بقيت كما هي في اللُّغة الحبشية في بعض الأفعال الجوفاء وفي كل الأفعال الناقصة..... مثال الأجوف فيها (٧ ٩ ١٧)

/bayana/ تحقق، و (٥ ٩ ٤)، /dayana/ (دان)، ومثال
الناقص..... (٤ ٩ ٥) /ramaya/ (رمى)^(١).

أمّا نطقها على هيئتها المنطوق بها في العربية الفصحى فتعد آخر مراحل
الاستخدام اللّغوي، بينما تُعدّ الإمالة المرحلة الثالثة، ولكي يتضح ذلك
نقول: إنّ كلمةً مثل (قَضَى) مرت بخمس مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة نطقها على هيئتها الأولى هكذا: (قَضَى) بحرف
العِلَّة الأصلي.

المرحلة الثانية: مرحلة التسكين فيصير الفعل (قَضَى) إلى (قَضَى) في
الوصل والوقف. وكان الّهذليون حينما يضيفون المقصور إلى ياء
المتكلم مثل (هُدَايَ) يقولون: (هُدَيَّ) وهذا يعني أنّ الكلمة أصلها
(هُدَيَّ)^(٢).

المرحلة الثالثة: نتيجة للثقل الناتج من وجود الياء وهي صوت
صامت حينئذٍ بعد فتحة ونتيجة للبعد الشديد بين وضع اللسان
مع الياء ووضعه مع الفتحة، لجأ الناطق إلى تقريب الفتحة من
الكسرة وتحويل الياء الساكنة إلى صوت صائت أي بتقريبها إلى
الألف وذلك بهبوط طرف اللسان أسفل موضع الكسر، وهذه
المرحلة التي يكون معها اللسان في هذا الوضع هي مرحلة الإمالة
الكبرى.

١/ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللّغوي: ص ٢٩١.

٢/ المصدر السابق: ص ٢٩٣.

المرحلة الرابعة: مرحلة الإمامة الصغرى، وهي مرحلة أكثر إمعاناً في الفتح من مرحلة الإمامة الكبرى؛ لأنها نطق لحركة أقرب إلى الفتح لدرجة يصعب معها التحقق من كونها حركة أقرب إلى الكسرة في الأصل، ولكن المجيدين من قُرَّاء القرآن رَوَّوها بدقة^(١).

المرحلة الخامسة: مرحلة الفتح، إذ تُنطق هذه الكلمة (قَضَى) وأشباهاها بفتحة محضة بعدها ألف. وهي اختيار العربية الفصحى. لا يود الباحث بهذا الاستطراد أن ينفي أن الأصل في الكلام هو الفتح وأن الإمامة أقرب إلى الأصل من الفتح، بقدر ما يريد أن يلفت إلى احتياج الأمر إلى المزيد من البحث والنظر وتلاقح الأفكار، للوصول إلى نتائج قيِّمة.

د/ الإمامة في القراءات السبع:

نعلم أن القراءة الصحيحة نقل وسماع ثابت عن طريق التواتر، ولمَّا نزل القرآن الكريم بسبعة أحرف -وهي تلك الوجوه التي شرع الله عز وجل قراءة القرآن بها تخفيفاً على الأمة- كانت الإمامة إحدى تلك الوجوه. أمَّا مواقف^(٢) القُرَّاء السبعة من الإمامة فمنهم من اشتهر بها وأكثر منها، ومنهم من توسط في الأخذ بها، ومنهم من لم يشتهر، ومنهم من لم يُمل.

١/ استمع الباحث إلى تسجيل صوتي لرواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء بصوت المقرئ الشيخ محمود خليل الحصري، ولاحظ دقته في إظهار الإمامة الصغرى على عكس قُرَّاء السودان الذين يعرفون الإمامة الصغرى خطأ ولا يحققونها لفظاً.

٢/ يُنظر، الإضاءة في بيان أصول القراءة: للضباع، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت)، ص ٣٨.

أَمَّا مَنْ لَمْ يُمِلْ فَهُوَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ أَمَالُوا فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَقْلًا وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مُكْثَرًا، فَاَلْمَقْلُونَ هُمْ: قَالُونَ عَنْ نَافِعٍ، وَابْنِ عَامِرٍ، وَعَاصِمٍ. وَالْمَكْثَرُونَ هُمْ: وَرَشٌ عَنْ نَافِعٍ، وَحَمْزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ.

وقد علَّل المؤلفون في القراءات لمذهب أئمة القراءة في الإقلال والإكثار من الإمامة ببيئات القُرَّاء وشيوخهم الذين أخذوا عنهم، ولو تتبعنا القُرَّاء السبعة ومواقفهم من الإمامة، يبدو لنا أثر هذه البيئة والشيوخ واضحاً في منهج اختيار كل قارئ لوجوه قراءته، وهذا لا يُخْرِجُ القارئ عن كونه ناقلاً للقراءة ومتَّبِعاً للرواية.

أَمَّا طريقة تناول القُرَّاء السبعة للإمامة فقد اختصرها الحافظ الداني في كتابه (التيسير) بقوله: "اعلم أنَّ حمزة والكسائي كانا يميلان كلَّ ما كان من الأسماء والأفعال من ذوات الياء.... وقرأ أبو عمرو ما كان من جميع ما تقدَّم فيه راء بعدها راء بالإمالة، وما كان رأس آية في سورة أواخر أيها على ياء أو هاء ألف، أو كان على وزن (فَعْلَى) أو (فُعْلَى) أو (فُعْلَى) ولم يكن فيه راء بين اللفظين، وما عدا ذلك بالفتح، وقرأ ورش جميع ذلك بين اللفظين..."^(١). ثم أخذ يفصل ما تفرد به كل إمام عن غيره، ثم ذكر أخيراً باب مذهب الكسائي^(٢) في الوقف على هاء التأنيث.

١/ كتاب التيسير: ص ٤٦، ٤٧، ٤٨.

٢/ المصدر السابق: ص ٥٤.

ثانياً- دراسة مَكِّي لظاهرة الإمالة:

تناول مَكِّي الإمالة في بعض مؤلفاته مثل (الرعاية) و(الكشف)، وقد تناولها في الكشف مفصلاً فيها القول خلال ستة أبواب، مُعرِّفاً، وواصفاً، ومُعلِّلاً، ورغم أنَّ الكتاب كتاب احتجاج وتعليل لوجوه القراءات، فإنه في بداية حديثه عن الإمالة يشير إلى ورودها على مستويي الكلام العادي والقرآن والقراءات، فقد قال إنَّ أصل الكلام كله الفتح، والإمالة لغة من اللغات تدخل في الكلام لعلّة من العِلل^(١).

معنى الإمالة عند مَكِّي:

معناها عنده هو المعنى الذي استقر عليه عُرف القُرّاء، فقد عرّفها في (الكشف) بقوله: "واعلم أنَّ معنى الإمالة هو تقريب الألف نحو الياء والفتحة التي قبلها نحو الكسرة"^(٢).
وعرّفها في (الرعاية) بقوله: "ومعنى الإمالة أن تميل الفتحة نحو الكسرة وتميل الألف نحو الياء"^(٣).

قد يبدو أنه لا فرق بين التعريفين إلا في تقديم بعض العبارات على البعض الآخر، وأنَّ المعنى لا اختلاف فيه بينهما، ولكنَّ المتأمل يُلاحظ أنَّ التعريف الأخير أدق من حيث ترتيب الكلمات، فبدأ فيه بإمالة الفتحة نحو الكسرة، ثم أعقبه بإمالة الألف نحو الياء، وهو الصواب؛ لأنَّ الإمالة لا تحصل في الألف إلا بعد حصولها في الفتحة، وما الألف

١/ الكشف: ١/١٦٨.

٢/ المصدر السابق: ص ١٦٨.

٣/ الرعاية: ص ١٢٩.

إلا زيادة في مطل الحركة، وإشباع لها، وبالتالي فإنّ التجانس المطلوب بين الأصوات الصائتة في حالة اجتماع الفتحة - بمقداريها - مع الكسرة يبدأ بإمالة الفتحة أولاً نحو الكسرة، ثم يترتب على ذلك أن تُمال الألف نحو الياء تلقائياً. لقد جعل مكي للإمالة حروفاً سماها حروف الإمالة، عند حديثه عن صفات^(١) الحروف وألقابها وهذه الحروف ثلاثة هي: (الألف، الراء، وهاء التانيث)، وقال عنها: "وإنما سُمّيت حروف الإمالة لأنّ الإمالة في كلام العرب لا تكون إلا فيها"^(٢).

ولكن تعريف الإمالة الذي قال به مكي وعلماء التجويد والقراءات، وعلماء اللغة ليؤكد أنّ الأصوات التي تختص بالإمالة وتختص الإمالة بها، هي الفتحة أو الفتحة القصيرة والألف أو الفتحة الطويلة، وإن شئت قلت إنما هي الفتحة بمقداريها القصير والطويل، إذ لا تكون الإمالة إلا فيهما، أمّا صوت الراء وهاء التانيث فليسا صوتي إمالة في أنفسهما، وإنما هما صوتان لهما علاقة بالإمالة لأسباب، وليس الإمالة بحاصلة فيهما، لأنهما من الأصوات الصامتة، والإمالة إنما تقع في الحيز الذي تُقاس به الأصوات الصائتة، وهي نوع من التعديل للفتحة القصيرة أو الطويلة طلباً للانسجام بين الأصوات.

إنّ السبب الذي دعا مكيّاً أن يجعل صوتي الراء وهاء التانيث صوتي إمالة، علاقتهما بالإمالة وخصوصيتهما بها، فقد ارتبطت الإمالة في اللهجات العربية بهذين الصوتين كثيراً، كما اختار بعض القراء إمالة

١/ يُنظر، الرعاية: ص ١١٥.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٩.

بعض الكلمات التي فيها الراء والهاء. أمّا الراء فإنّ رواية الدُّوري عن أبي عمرو قد قيدت الإمالة في كل ألف رسمت في المصحف العثماني ياء بصوت الراء، وكذلك اختار إمالة الألف قبل الراء المكسورة والألف بين الرائيين^(١).

إنّ الراء ليست صوت إمالة في نفسه - كما قررنا - وإنما ارتبط بالإمالة لأسباب منها أنّ الراء صوت مكرر أو ترددي، تكون الإمالة في الفتحة والألف معه أكثر وضوحاً وأدعى للانسجام بين الأصوات، أمّا إمالة الفتحة والألف التي بعده - على اعتبار الإمالة مرحلة ثالثة من مراحل أصل الكلمة - فإنّ الفتحة معه كأنها فتحتان، ممّا يكون له أثر في زيادة المشقة وصعوبة النطق في الانتقال من فتح مكرر إلى ياء.

وأمّا إمالة الفتحة والألف قبل الراء المكسورة فهو أيضاً إنما قوّي بسبب التكرير الذي في الراء مع كونه مكسوراً، فكان ذلك سبباً إضافياً للإمالة.

وربما يكون من أسباب ارتباط الإمالة بصوت الراء التشابه بين صوتي الراء والياء، فالراء صامت مجهور يبين مخرجه اللثة مع طرف اللسان مكرراً، أمّا الياء فصامت - وإنّ عدّه بعضهم شبه صائت^(٢) نتيجة للانتقال السريع عند حدوثه من وضع الكسرة إلى موضع الياء -

١/ يُنظر، الوافي في شرح الشاطبية من القراءات السبع: عبد الفتاح القاضي، طبعة الأزهر،

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٠٢، ١٠٥، ١٠٧.

٢/ من أولئك د. محمود السعران في كتابه علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ص ١٨١.

مجهور، يمكن أن يكون متوسطاً بين الانفجارية والاحتكاكية حنكي^(١) غاري^(٢).

لقد ذكر سيبويه أنّ الراء حرف قريب من الياء حتّى إنّ الألثغ يجعلها ياءً^(٣). وممّا لاحظته الباحث أنّ هناك تشابهاً شديداً في وضع الفم - وخاصة الحنك المتحرك واللسان - بين نطق الراء المرققة (المكسورة) ونطق الياء، فإنّ الحنك الأسفل (المتحرك) يتغير وضعه حينما تنتقل بنطقنا من الراء المفتوحة إلى الراء المكسورة أو المرققة، لأنه - حينئذٍ - يتقدم الحنك الأسفل إلى الأمام ويتقدم معه اللسان كذلك، ويكاد يكون مخرج الراء المرققة مطابقاً لمخرج الياء، ويُلاحظ أيضاً أنّ فتحة الفم مع الياء تكون كافية لصدور صوت الراء المكسور تقريباً، وأغلب الظن أنّ هذا هو الذي يقصده سيبويه وهو يتحدث عن القرب بين الراء والياء.

أمّا هاء التأنيث، فإنّ مذهب الكسائي إمالة الفتحة على هذه الهاء الموقوف عليها، نحو: حَبَّة، رَبَّوَة، ونعمة^(٤).

إنّ هاء التأنيث كذلك ليس صوت إمالة في نفسه - كما قررنا - وإنما ارتبط بالإمالة لضرورة صوتية. وهذه الضرورة هي توحي الانسجام بين الأصوات لأنّ هاء التأنيث "ما قبلها لا يكون إلا مفتوحاً"^(٥).

١/ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: لمحمود السعران، ص ١٨١.

٢/ يُنظر، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: عبد الصبور شاهين، ص ٢٣٠.

٣/ الكتاب: ١٣٧/٤.

٤/ يُنظر، التيسير: للداني، ص ٥٤؛ وتحرير التيسير: لابن الجزري، ص ٧٢.

٥/ إلا في موضع واحد لزم لفظ الهاء في الوصل والوقف، فكسر ما قبلها على التشبيه =

والفتحة أقوى أصوات اللين وأوضحها في السمع^(١). إذ يترتب على نطق هذه الهاء بفتح محض صعوبة في النطق وعسر في الإخراج ينتج عنه خفوت في الهاء وخلط بين الأصوات، لذلك لجأت بعض القبائل العربية إلى إعطاء الهاء حقها في النطق، فأمالت الفتحة التي قبلها نحو الكسرة إمعاناً في إظهارها، ولأن الكسرة أضعف من الفتحة وأقل قوة في الوضوح السمعي منها تستطيع الهاء معها الظهور، فلمّا أرادوا أن يبينوا الهاء لجأوا إلى الإمالة، وكذلك اختار بعض القُرّاء إمالة الفتحة التي قبل هاء التأنيث الموقوف عليها كما فعل الكسائي.

أسباب الإمالة عند مكيّ:

جعل مكيّ أسباب الإمالة ثلاثة وسماها العلل^(٢)، وهي:

١ / الكسرة.

٢ / ما أميل ليدل على أصله.

٣ / الإمالة للإمالة.

وهذه الأسباب هي -تقريباً- الأسباب التي ذكرها غيره من علماء التجويد والقراءات، بل حتّى علماء النحو.

استشهد مكيّ بكلمات واردة في القرآن الكريم لتوضيح أسباب الإمالة، فكان حريصاً على هذا التمثيل الأدائي. ومِمّا مثّل به في تعليقه للإمالة بسبب الكسرة: (النار والنهار)^(٣). ومِمّن أماله من القُرّاء

= بهاء الإضمار نحو هذه؛ يُنظر، الكشف: ٢٠٣/١.

١ / الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ط ٥، ١٩٧٩م، ص ٢٧.

٢ / يُنظر، الكشف: ١٧٠/١.

٣ / الكلمتان في سورة البقرة: الآيتان (٤٩) و(١٦٤) على الترتيب.

أبو عمرو بن العلاء. قال: "وَعِلَّةٌ من أُماله أنه لَمَّا وقعت الكسرة بعد الألف، قُرَّب الألف نحو الياء، لتقرب من لفظ الكسر، لأنَّ الياء من الكسر، وَلَمْ يمكن ذلك حَتَّى قُرِّبَت الفتحة التي قبل الألف نحو الكسر، فحسن ذلك ليعمل اللسان عملاً واحداً متسفعلاً، فذلك أخف من أن يعمل متصعّداً بالفتحة والألف، ثم يهبط متسفعلاً بكسرة الراء، وهو مع الراء أحسن لأنَّ الكسرة عليها قوية كأنها كسرتان، فقويت الإمالة لذلك مع الراء لأنها حرف تكرير الحركة عليها مقام حركتين" (١).

نستطيع أن نخلص - بعد تحليل النص أعلاه - إلى الآتي:

١ / إنَّ سبب الإمالة في مثل هذه الكلمات وجود الكسرة بعد الألف، وكغيره من علماء العربية القدامى، فإنَّ مَكِّيًّا يجعل الإمالة واقعة في الألف بحسبانها صوتاً مستقلاً تكون إمالة الفتحة قبلها من ملحقاتها، ولكن الثابت في علم اللغة الحديث أنَّ الألف تبدأ من الفتحة، والإمالة تبدأ بإمالة الفتحة نحو الكسرة، فإن استطالت الفتحة فصارت ألفاً تكون الإمالة تقرب للألف نحو الياء المديّة (الكسرة الطويلة)، وقد أشار مَكِّي إلى ما قد يفهم منه هذا المعنى بقوله: "..... وَلَمْ يمكن ذلك حَتَّى قُرِّبَت الفتحة التي قبل الألف نحو الكسر" (٢).

٢ / أشار مَكِّي إلى العِلَّة الصوتية للإمالة بقوله: "ليعمل اللسان عملاً

١ / الكشف: ١٧٠/١-١٧١.

٢ / المصدر السابق: ص ١٧٠-١٧١.

واحدًا" ولكنه - كما سبقت الإشارة - اختلف مع المحدثين من علماء الأصوات في تحديد موقع اللسان مع الفتح والإمالة، لأنه جعل حال اللسان متسفلاً عند نطق الكسرة ومتصعداً نحو نطق الفتحة، وهذا على العكس مما أثبتته الدراسات الصوتية الحديثة^(١) التي تجعل اللسان متصعداً مع الكسرة، ومتسفلاً مع الفتحة.

٣/ أشار مكّي كذلك إلى خصوصية صوت الراء وعلاقتها بالإمالة، الأمر الذي جعل الباحث يعتبر هذه العلاقة سبباً دعا مكّي لأن يعد هذا الصوت من أصوات الإمالة، فهاهو يشير إلى حسن الإمالة مع الراء لأن الكسرة عليها قوة كأنها كسرتان.

أمّا العلة الثانية من علل الإمالة عند مكّي: ما أميل لتدل إمالته على أصله، ومما قال في ذلك: "قال أبو محمد: على هذه العلة تجري أكثر الإمالات، وذلك أن الألف أصلها الياء، أو تكون زائدة رابعة وأكثر، فيكون حكمها حكم ما أصله الياء، أو تكون الألف للتأنيث، فتجب الإمالة لتدل على أصل الألف، أو على أن الألف في حكم ما أصله الياء، وذلك باب واسع"^(٢).

واستشهد للتي أصلها الياء بإمالة حمزة والكسائي نحو: {أتى}^(٣)،

١/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٣١-٣٢؛ وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص ١٨٣-١٨٤؛ وعلم اللغة العام - الأصوات: كمال محمد بشر، ص ١٤٠؛ والكلام إنتاجه وتحليله: عبد الرحمن أيوب، ص ٧٣-٧٤.

٢/ الكشف: ١٧٧/١.

٣/ سورة النحل: الآية (١).

و{رَمَى} ^(١)، و{وَسَعَى} ^(٢)، و{وَوَصَّى} ^(٣)، في الأفعال.

ونحو: {الْهُدَى} ^(٤)، و{الْهُوَى} ^(٥)، و{الْقُرَى} ^(٦)، و{فَتَى} ^(٧)، في الأسماء.

وكذلك استشهد للألف الزائدة، والتي للتأنيث، وأبان مواقف القُرَّاء في إِمالتها.

أمَّا تعليله لهذا النوع من الإمالة فكان بقوله: "وَعِلَّةُ إِمالتها لتقرب الألف من أصلها أو حكمها" ^(٨).

يُلاحظ أنَّ التعليل لا يقوم على أساس صوتي، إذ يظهر فيه تأثره بالنظر الفلسفي والمنطقي، ولذلك كان للباحث رأي في سبب مثل هذه الإمالة عندما تحدث عن مراحل تطور الأفعال المعتلة وبعض الكلمات المقصورة. بمقارنتها باللغة الحبشية، حيث جعل الإمالة الكبرى المرحلة الثالثة، والصغرى المرحلة الرابعة من مراحل تطور تلك الأفعال والأسماء المقصورة ^(٩).

١ / سورة الأنفال: الآية (١٧).

٢ / سورة البقرة: الآية (١١٤).

٣ / سورة البقرة: الآية (١٣٢).

٤ / سورة البقرة: الآية (١٢٠).

٥ / سورة النساء: الآية (١٣٥).

٦ / سورة الأنعام: الآية (٩٢).

٧ / سورة الأنبياء: الآية (٦٠).

٨ / الكشف: ١٧٩/١.

٩ / يُنظر، فقرة الإمالة في اللهجات العربية من هذا المطلب.

أَمَّا الْعِلَّةُ الثَّالِثَةُ مِنْ عِلَلِ الْإِمَالَةِ عِنْدَهُ فَهِيَ الْإِمَالَةُ لِلْإِمَالَةِ، قَالَ مُوضِحاً لَهَا: "وَذَلِكَ نَحْوُ: {رَأَى} ^(١)، و{رَعَاهُ} ^(٢)، و{رَعَاكَ} ^(٣) أُمِيلَتْ الْأَلْفُ الَّتِي تَعْدُ الْهَمْزَةَ لِتَقْرُبَ مِنْ أَصْلِهَا وَهُوَ الْيَاءُ، وَأُمِيلَتْ فَتْحَةُ الْهَمْزَةِ لِيُوصَلَ بِذَلِكَ إِلَى إِمَالَةِ الْأَلْفِ، وَأُمِيلَتْ الرَّاءُ لِإِتْيَانِ حَرْفَيْنِ مُمَالَيْنِ بَعْدَهَا" ^(٤).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْعِلَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا -وَهِيَ الْإِمَالَةُ لِلْإِمَالَةِ- مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَسَاسٍ صَوْتِيٍّ، إِذِ السَّبَبُ فِي الْإِمَالَةِ هُوَ وَجُودُ إِمَالَةٍ فِي اللَّفْظِ قَبْلُهَا نَحْوُ أَلْفِ (عَمَاداً) الثَّانِيَةِ، أَوْ بَعْدَهَا نَحْوَ إِمَالَةِ فَتْحَةِ الرَّاءِ فِي مِثْلِ (رَأَى) فَإِنَّهَا حَاصِلَةٌ لِإِمَالَةِ الْفَتْحَةِ وَالْأَلْفِ بَعْدَهُمَا.

وَمِمَّا يُبْلَغُ مِنْ كَلَامِهِ فِي النَّصِّ السَّابِقِ أَنَّهُ أَسْنَدَ الْإِمَالَةَ إِلَى الرَّاءِ وَلَمْ يَسْنِدْهَا إِلَى فَتْحَةِ الرَّاءِ، بَيْنَمَا لَمْ يَسْنِدْ إِمَالَةَ فَتْحَةِ الْهَمْزَةِ إِلَى الْهَمْزَةِ نَفْسِهَا، وَإِنَّمَا قَالَ: "وَأُمِيلَتْ فَتْحَةُ الْهَمْزَةِ"، كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَوْمِئِذٍ إِلَى خُصُوصِيَّةِ صَوْتِ الرَّاءِ وَعِلَاقَتِهِ بِالْإِمَالَةِ بَلْ كَانَ قَدْ عَدَّهُ وَاحِداً مِنْ حُرُوفِ الْإِمَالَةِ ^(٥).

وَمِمَّا يُبْلَغُ مِنْ كَلَامِهِ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ: "لِإِتْيَانِ حَرْفَيْنِ مُمَالَيْنِ بَعْدَهَا". أَيْ بَعْدَ إِمَالَةِ فَتْحَةِ الرَّاءِ. وَهَلْ إِمَالَةُ فَتْحَةِ الْهَمْزَةِ وَإِمَالَةُ الْأَلْفِ بَعْدَهَا إِلَّا إِمَالَةٌ لِلْأَلْفِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنْ فَتْحَةِ الْهَمْزَةِ؟

١ / سورة الأنعام: الآية (٧٦).

٢ / سورة النمل: الآية (٤٠).

٣ / سورة الأنبياء: الآية (٣٦).

٤ / الكشف: ١/١٩١.

٥ / يُنْظَرُ، الرِّعَايَةُ: ص ١٢٩.

المبحث الثاني الظواهر الكمية

يُقصد بالظواهر الكمية الظواهر الصوتية الكمية المتعلقة بالأصوات الصائتة التي عالجها مكي، وهي ظواهر تتعلق بكمية الصوت الصائت أو الحركة، فالحركات الثلاث قد تتعرض للتقصير بدرجات متفاوتة قد تصل إلى السكون، كما أنها قد تتعرض للتطويل بدرجات متفاوتة أيضاً حتى تصل إلى المدّ المشبع، فالحركة القصيرة -إذن- هي المركز الذي تنطلق منه جميع الظواهر الصوتية الكمية المتعلقة بالأصوات الصائتة هبوطاً أو صعوداً، فحينما تنقص الحركة القصيرة في كميتها أو مداها النسبي، تنتج حركات قصيرة جداً بدرجات متفاوتة مثل ما يسمى بالرّوم، وحينما تزيد في كميتها أو مداها النسبي تنتج حركات طويلة بدرجات متفاوتة. ونتيجة لأنّ الظواهر الكمية كلها تتحقق إمّا في تقصير الحركة أو تطويلها فإنه من الأفضل تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تقصير الحركة القصيرة.

المطلب الثاني: الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تطويل الحركة القصيرة.

المطلب الأول

الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تقصير الحركة القصيرة

يعالج هذا المطلب الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تقصير الحركة القصيرة وأنماطها التي تحدّث عنها مكي، وقبل أن نتحدث عن دراسته لهذه الأنماط يجدر بنا أن نشير إلى الفرق بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة في الكمية والمدى النسبي.

لقد أدرك المتقدمون من اللغويين العرب هذه العلاقة التي هي علاقة الجزء بالكل، والفرع بالأصل، وكان مكي أحد القدماء الذين تحدّثوا عن هذه العلاقة، فقد بسط فيها القول في كتاب الرعاية مبيناً آراء النحويين في الحركات الثلاث وحروف المد واللين الثلاثة، ومِمَّا قال: "فقال أكثر النحويين: إنّ الحركات الثلاث مأخوذة من الحروف الثلاثة، الضمة من الواو، والكسرة من الياء، والفتحة من الألف"^(١). وقدّم مجموعة من استدلالاتهم، ثم قال: "وقال قوم: حروف المد واللين الثلاثة مأخوذة من الحركات الثلاث"^(٢).

وكذلك قدّم استدلالاتهم على مذهبهم، هذا على الرغم من أنه كان يرى أنّ حروف المد واللين ليست مأخوذة من الحركات، ولا الحركات مأخوذة من حروف المد واللين^(٣). وكان ابن جني يرى أنّ الحركات أبعاض حروف المد واللين. قال: "..... فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء،

١/ الرعاية: ص ١٠٣.

٢/ المصدر السابق: ص ١٠٤.

٣/ يُنظر، المصدر السابق: ص ١٠٦.

والضمة بعض الواو" (١).

إنَّ الحركات القصيرة إذا تعرضت للتقصير فإنَّ مداها النطقي قد يكون بعد التقصير نصف مداها النطقي وهي حركة قصيرة أو أقل من ذلك (٢). فإذا كان مدى النطق بالحركة القصيرة فتحة أو ضمة أو كسرة مقاساً بالثانية يساوي نصف ثانية تقريباً، ومدى النطق بالحركات الطويلة يساوي ثانية كاملة (٣) - استناداً على المحاولة التي قام بها البروفسور يوسف الخليفة أبو بكر لضبط الحركة الواحدة وتقدير مداها الزمني - فإنَّ المدى الزمني للنطق بالحركات القصيرة جداً يكون أقل من نصف الثانية - تقريباً - لذا فإنَّ تقصير الحركة القصيرة ينتج عنه حركات قصيرة جداً ومن أنماطها: الرَّوم والإشمام. تحدَّث مَكِّي عن الرَّوم والإشمام في باب سماه: (باب عِلل الرَّوم والإشمام) في كتاب (الكشف)، وقال في بدايته: "اعلم أنَّ الرَّوم والإشمام إنما استعملتهما العرب في الوقف لتبيين الحركة كيف كانت في الوصل" (٤).

ومن كلامه نستخلص الآتي:

- ١ / إنَّ العرب في كلامها لا تبدأ بساكين ولا تقف على متحرك.
- ٢ / إنَّ الرَّوم والإشمام كليهما يرتبطان بآخر الكلمة.
- ٣ / إنَّ كمية الصوت لهاتين الحركتين القصيرتين جداً غير محدودة، ومدى زمن نطقهما غير مقيس.

١ / سر صناعة الإعراب: تحقيق هندراوي، طبعة دار القلم الأولى، ١٩٨٥م، ١/١٧.

٢ / يُنظر، دروس في علم أصوات العربية: جان كاتنينو، ترجمة: صالح القرمادي، تونس، ١٩٦٦م، ص ١٤٦.

٣ / يُنظر، أصوات القرآن الكريم كيف نتعلمها ونعلمها: ص ١٠٦-١٠٧.

٤ / الكشف: ١/١٢٢.

معنى الرّوم والإشمام عند مكي:

قال مكي: "وأصل الرّوم أظهر للحركة من أصل الإشمام، لأنّ الرّوم يُسمع ويُرى، والإشمام يُرى ولا يُسمع، فمن رام الحركة أتى بدليل قوي على أصل حركة الكلمة في الوصل، ومن أشمّ الحركة أتى بدليل ضعيف على ذلك" (١).

هكذا عرف مكي كلاً من الرّوم والإشمام، وعلّل لهاتين الظاهرتين الصوتيتين عند إرادة الوقف بالدلالة على كيفية الحركة في الوصل، ومن كلامه يتضح أنّ معنى الرّوم الإتيان ببعض الحركة، فهو بزنة الحركة، لكنه حركة قصيرة جداً، وهو مثل الحركة لأنه يسمع. فهو -إذن- له ما للحركة من القيمة المقطعية. أمّا الإشمام فهو يعني عنده الإشارة إلى الحركة دون تصويت، فهو -إذن- أن تشمم الحرف (الصوت) الحركة من غير أن تسمع، ويتعرف عليه بحركة الشفتين، والإشمام -كما يبدو- أدنى درجات الحركة لشدة شبهه بالسكون، والصوت الذي يوقف عليه بالإشمام كالساكن، لذلك فإنه ربّما يفقد قيمته المقطعية، ولو سمينا الإشمام حركة فإنه حركة لا يُعتدُّ بها، وليس بوزن الحركة المحققة؛ لأنه لا يصحبه تصويت، قال مكي: "فالرّوم إتيانك في الوقف بحركة ضعيفة غير كاملة يسمعها الأعمى، والإشمام إتيانك بضم شفتيك لا غير من غير صوت" (٢).

وقد يسمى كل من الرّوم والإشمام اختلاصاً؛ لأنّ المقصود بالاختلاص الإسراع بالحركة لدرجة أنّ الناطق -ولسرعة اختطافه لها- كأنه يختلسها.

١/ الكشف: ١٢٢/١.

٢/ المصدر السابق: ص ١٢٢؛ ويُنظر، النشر: ١٢١/٢.

وقد ارتبط مصطلح الاختلاس بمذهب أبي عمرو في اختلاس حركة الإعراب في مثل: {بَارِئُكُمْ} ^(١)، و{يُشْعِرُكُمْ} ^(٢)، فذهب مكِّي إلى أنا أبا عمرو قرأ في رواية العراقيين باختلاس حركة الراء والهمزة ^(٣).

ومِمَّا يدل على أن الاختلاس حركة ناقصة -أي حركة قصيرة جداً- وصف مكِّي للحركة غير المختلصة بأنها تامة ^(٤). ولكن ما علاقة الاختلاس بالروم والإشمام؟ للإجابة عن هذا السؤال نقول الآتي:

أولاً: يُعتبر كل من الروم والإشمام درجتين للاختلاس، الروم أطولها، والإشمام أقصرها.

ثانياً: الاختلاس أعم من الروم والإشمام لأنه قد يتناول الحركات الثلاث، ولأنه لا يقتصر بالآخر وذلك مثل اختلاس كسرة الراء من {وَأَرْنَا} ^(٥)، وأشباهها في رواية الدُّوري ^(٦) عن أبي عمرو، أمَّا الروم فيكون في المرفوع والمضموم والمجورور والمكسور، ولا يكون في المفتوح والمنصوب، وأمَّا الإشمام فلا يكون إلا في المرفوع والمضموم ^(٧)، وكل منهما يختص بالآخر أي يخص حركتي الإعراب والبناء.

ثالثاً: إن للاختلاس درجتين: إحداهما تلحق بالسكون وهي الإشمام،

١ / سورة البقرة: الآية (٥٤).

٢ / سورة الأنعام: الآية (١٠٩).

٣ / الكشف: ٢٤٠/١.

٤ / المصدر السابق: ص ٢٤١.

٥ / سورة البقرة: الآية (١٢٨).

٦ / يُنظر، تحبير التيسير في قراءة الأئمة العشرة: لابن الجزري، ص ٩٠.

٧ / المصدر السابق: ص ٧٦.

والأخرى تلحق بالحركات وهي الرّوم، أمّا ما لحقت بالحركات
فُتُعامل معاملة الحركات وتدخل في نطاق ما سماه القدماء تثقيلاً، وأمّا
ما لحقت بالسكون فُتُعامل معاملة السكون وتدخل في نطاق ما سموه
تخفيفاً.

المطلب الثاني

الظواهر الصوتية الكمية الناتجة عن تطويل الحركة القصيرة

يُقصد بهذه الظواهر الصوتية: المدود، وهي حروف المد واللّين: الألف ولا يكون ما قبلها إلا مفتوحاً، والواو التي قبلها ضمة، والياء التي قبلها كسرة، وهي أصوات صائتة تسمى الحركات الطويلة، تحدث نتيجة لإشباع الحركات القصار، ويكون مدُّ الحركة القصيرة بإحالتها إلى حركة طويلة بداية، ولذلك تسمى هذه الحركة عند علماء التجويد بالمد الأصلي أو الطبيعي الذي يعد "أقصر المدود من حيث الطول إذ إنّ مدته حركتان" ^(١).

إنّ تطويل الحركة القصيرة لا ينتج إلا مدوداً متفاوتة المقادير تبدأ من الحركة الطويلة التي مقدارها حركتان وتنتهي عند حركة طويلة جداً يصل مقدارها إلى ست ^(٢) حركات في الكلام الفصيح. في هذا المطلب يحاول الباحث الكشف عن حقيقة المد عند مكّي، وذلك من خلال النقاط التالية:

أ- تعريف المد:

يعرّف مكّي المد بقوله: "إنما هو فتح الفم بخروج النفس مع امتداد

١/ أصوات القرآن الكريم كيف نتعلمها ونعلمها: يوسف الخليفة، ص ١٢٥.

٢/ يسمى المد إذا أشبع إلى هذا الحد عند علماء التجويد: المد اللازم، وهو مد سببه السكون اللازم نحو مدّ (دآبة) و(الـم)؛ يُنظر، المقدمة: لابن الجزري، جمعها: أيمن رشدي بجمعية القرآن الكريم بجدة، بدون تاريخ، ص ١٦؛ ويُنظر، أصوات القرآن: ليوسف الخليفة، ص ١٢٩؛ ويُنظر، الرائد: لحيسن، ص ٣٠-٣١.

الصوت"^(١). يتضح من تعريفه أنَّ المد عبارة عن إطالة الصوت عند النطق بأصوات المد، ويتضح أيضاً أنه أسس تعريفه على الأساسين الذين استند عليهما علماء الأصوات المحدثون^(٢) في تعريفهم للأصوات الصائتة، لأنَّ قوله: "فتح الفم" يشير إلى الأساس العضوي لنطق الصوائت، وقوله: "مع امتداد الصوت" يشير إلى الأساس السمعي أو الصوتي الذي تتسم به الصوائت. وهذه الأصوات لم تُسمَّ حروف مدٍّ إلا مراعاة لامتداد الصوت معها، قال مَكِّي معللاً هذه التسمية: "وإنما سُمِّيَ بحروف المد لأنَّ مدَّ الصوت لا يكون في شيءٍ من الكلام إلا فيهن"^(٣).

ب- سبب المد:

قال مَكِّي: "قال أبو محمد: إن سأل سائل فقال: المد في أي شيء يكون؟ ولأي شيء يكون؟ فالجواب: إنَّ المد لا يكون إلا في حروف المد واللين، وهي الألف التي قبلها فتحة، والواو التي قبلها ضمة، والياء التي قبلها كسرة، وإنما يكون المد في هذه الحروف عند ملاصقتهم لهزمة أو ساكن مشدد أو غير مشدد، نحو: (جاء، وقائم، ودآبَّة، واللائي) في قراءة من أسكن الياء، ويكون المد أيضاً في حروف اللين، إذا أتت بعدها همزة أو مشدد، وحرفا اللين: الواو والياء الساكنتان

١/ تمكين المد في (آتى وآمن وآدم): لِمَكِّي، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ص ٧١.

٢/ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: للسعران، ص ١٤٨، ١٥٠؛ ويُنظر، دراسة الصوت اللغوي: أحمد مُختار، ص ١٣٥.

٣/ الرعاية: ص ١٢٥.

اللتان قبلهما فتحة، نحو: (شيء، وسوء)"^(١).

من النص السابق يتضح الآتي:

- ١/ إنَّ سبب المد (زيادة المد) أحد شيئين هما: الهمزة والسكون.
- ٢/ المد الذي يقصده مكِّي في كلامه السابق ليس المد الطبيعي المتحقق أصلاً في أصوات المد واللين التي تسمى بالحركات الطويلة، لأنه خصص المد في هذه الحال بملاصقة أصوات المد للهمزة أو الساكن، وهما السبب في زيادة المد، ولو كان أراد بالمد: المد الطبيعي (الحركة الطويلة) لأصبح من المناسب أن يقول: [وإنما يزداد المد في هذه الحروف عند ملاصقتهم لهمزة أو ساكن] بدلاً من قوله: "وإنما يكون المد في هذه الحروف".

- ٣/ لا يشترط مكِّي للهمزة أن تقع بعد حروف المد مثلما فعل جميع العلماء تقريباً. قال ابن جنِّي عن أصوات المد: "فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً"^(٢). وإنما تكون الهمزة عنده سبباً لزيادة المد بملاصقتها لأصوات المد قبلها أو بعدها، ولكنه يجعل المد للهمزة المتأخرة أكد من المد للهمزة المتقدمة، فقد قال عندما تحدث عن الألف "فإذا لاصقته همزة لم يكن بدُّ من تمكين مدّه، ومدّه إذا كانت الهمزة بعده أكد نحو: (جاء، وشاء)"^(٣). وكان تعليله لمد ورش نحو: (آمن)^(٤)،

١/ الكشف: ٤٥/١.

٢/ سر صناعة الإعراب: ١٩/١ - ٢٠.

٣/ الرعاية: ص ١٦٠.

٤/ سورة البقرة: الآية (١٣).

و{آدم} ^(١)، و{يَسْتَهْزِءُونَ} ^(٢)، و{مُتَكَبِّرِينَ} ^(٣)، و{أُوتِيَ} ^(٤).
بملاصقة الهمزة لحروف المد واللين رغم تقدم الهمزة، وتقدم الهمزة على حروف المد لا يؤثر كثيراً - عند مَكِّي - في العلة التي من أجلها زيد في المد، ولكنَّ المدَّ "في حروف المد واللين إذا كانت الهمزة بعده أمكن من مدّه إذا كانت قبله لتمكن خفاء حرف المد واللين إذا كانت الهمزة بعده" ^(٥).

ج- تعليل المد:

لَمْ يكتفِ مَكِّي بذكر أسباب المد، ووضع القاعدة التي تحد حدوده، وتحيط بأنواعه، بل عمد - كشأنه دائماً - إلى تعليل الظاهرة تعليلاً صوتياً ليزيح عنها كل غموض يكتنفها، فتصبح أرسخ في الأذهان، وأيسر على المتعلمين والطلاب.
ولقد علّل للمد قبل الهمزة بقوله: "إنَّ هذه الحروف حروف خفية، والهمزة حرف جلد بعيد المخرج، صعب في اللفظ، فلمَّا لاصقت حرفاً خفياً، خيف عليه أن يزداد - بملاصقة الهمزة له - خفاءً، فبيّن بالمد ليظهر" ^(٦).

ويتضح من تعليله أنه يجعل المد ضرورة للحفاظ على أصوات المد

١ / سورة البقرة: الآية (٣١).

٢ / سورة الأنعام: الآية (٥).

٣ / سورة الكهف: الآية (٣١).

٤ / سورة البقرة: الآية (١٣٦).

٥ / الكشف: ٤٨/١.

٦ / الكشف: ٤٦/١.

لخفائها، وقد أشار إلى خفاء هذه الأصوات في كتاب الرعاية حيث جعل الخفاء لقباً لها مع الهاء، فقال معللاً لهذه التسمية: "وإنما سُميت بالخفية لأنها تُخفى في اللفظ إذا اندرجت بعد حرف قبلها"^(١).

وفي تسميته لهذه الأصوات بالخفية خفاءً لا يخفى، والراجع أنه يقصد أن الخفاء سببه حرية مرور الهواء، وعدم اعتراض اللسان وعدم وجود عقبات، وبالطبع فهي أصوات ليس لها مكان نطق مُعَيَّن، ولا ناطق محدد، والدليل على أنه يقصد هذا المعنى جعله الألف أخفى أصوات المد الثلاثة "لأنها لا علاج على اللسان فيها عند النطق بها ولا لها مخرج تنسب على الحقيقة إليه"^(٢).

قد يُفهم من قوله: "لا علاج على اللسان فيها عند النطق بها" أن الواو والياء فيهما علاج على اللسان، وقد ثبت في علم الأصوات الحديث أو الواو المدّية عبارة عن ضمة طويلة تحدث عند ارتفاع مؤخرة اللسان أقصى ارتفاع دون إحداث احتكاك مع الحنك اللَّيِّن، وأنّ الياء المدّية عبارة عن كسرة طويلة تحدث عند ارتفاع مقدمة اللسان أقصى ارتفاع دون إحداث احتكاك مع الحنك الصلب، إذن فإنهما كالألف لا علاج على اللسان فيهما عند النطق بهما، ولكن مَكِّيًّا خاصًّا الألف وحده بذلك ليبين أن اللسان معه يكون أكثر بُعداً عن سقف الفم ممّا يتيح خروج الهواء بحرية كاملة، وأنه مع الواو والياء المديّتين يكون أكثر قرباً من سقف الفم لدرجة جعلته يعدُّ ذلك

١/ الرعاية: ص ١٢٧.

٢/ الرعاية: ص ١٢٧؛ ويُنظر، ص ١٦٠ أيضاً.

نوعاً من الإعاقة، ولكن المحدثين يرون أنَّ الإعاقة لو حدثت أخرجت
الواو والياء المديَّتين من حيز الأصوات الصائتة إلى حيز الأصوات
الصامتة^(١).

إنَّ زيادة مد أصوات المد عند ملاصقتها للهمزة -في رأي مكِّي-
حاصلة للحفاظ على صوت المد لخفائه لا للحفاظ على الهمزة، إذ
يجعل علماء العربية وعلماء التجويد عِلَّة المد قبل الهمزة لبيانها هي لا
من أجل المحافظة على صوت المد^(٢)، وما ذهب إليه مكِّي في تعليقه
للمد بالمحافظة على صوت المد وافقه عليه بعض المحدثين مثل الدكتور
إبراهيم أنيس الذي قال: "أمَّا السر في الإطالة فهو - كما يبدو لي -
الحرص على صوت اللين وطوله لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام؛
لأنَّ الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين، إذ الأول
يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حراً طليقاً، وأن تكون فتحة المزمار
حين النطق به منبسطة منفرجة، في حين أنَّ النطق بالهمزة يستلزم
انطباق فتحة المزمار انطباقاً مُحكماً يليه انفراجها فجأة، فإطالة صوت
اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق
بالهمزة التي تحتاج إلى مجهود عضلي كبير وإلى عملية صوتية تباين كل
المبينة الوضع الصوتي الذي تتطلبه أصوات اللين"^(٣).

١/ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ٣٢-٣٣.

٢/ يُنظر، المجهودات الصوتية لعلماء التجويد: لغانم قدوري الحَمَد، ص ٥٢٩؛ فقد أورد
مجموعة من أقوال العلماء مثل سيبويه وابن جني وكثير من علماء التجويد تبين أنَّ
عِلَّة المد قبل الهمزة لبيانها هي.

٣/ الأصوات اللغوية: ص ١٥٨.

ينطبق كلام أنيس على ما يراه الباحث، إذ إنَّ الانتقال من الحركة الطويلة إلى الهمزة لا بد أن يسبقه تهيؤ لأعضاء النطق لنطق الهمزة لصعوبتها ويتمثل هذا التهيؤ والاستعداد في تطويل صوت المد.

وكان تعليله للمد بعد الهمزة مثل تعليله للمد قبل الهمزة، وهو خفاء صوت المد وقوة صوت الهمزة، إلا أنه جعله أقل تمكيناً من المد قبل الهمزة عند كل القراء غير ورش، وحجتهم أن الهمزة لَمَّا تقدّمت أمِنوا من خفاء صوت المد معها^(١).

أمَّا تعليله للمد قبل الساكن والمشدّد فموافق لتعليل جميع علماء العربية وجمهور علماء التجويد وهو للفصل بين الساكنين، الساكن الأول هو المد الطبيعي (الحركة الطويلة) والساكن الثاني هو الذي يليه وقد يكون أول مشددين. قال في ذلك: "فلَمَّا وقع بعد حروف المد واللّين وحرّفي اللّين حرف مشدّد وأوله ساكن، وحروف المد واللّين وحرّفا اللّين سواكن، لم يمكن أن يوصل إلى اللفظ بالمشدّد بساكن قبله، فاجتلبت مدة تقوم مقام الحركة يوصل بها إلى اللفظ بالمشدّد... وهذا إجماع من العرب ومن النحويين. والعلة في المد للساكن غير المشدّد يقع بعد حروف المد واللّين كالعلة في المد للمشدّد"^(٢).

١/ يُنظر، الكشف: ٤٦/١-٤٧؛ ومذهب ورش تمكين مد (آمن وآتى وأدم) ونحوها، وقد ألف مكّي في هذا كتاباً سماه: [تمكين المد في آتى وآمن وأدم] رداً على من اعترضوا -في زمانه- على المد بحجة أنه يلتبس بالاستفهام.

٢/ الكشف: ٦٠/١.

يُلاحظ أنَّ مَكِّيًّا جعل المَدَّةَ المجتلبة تقوم مقام الحركة ليتوصل بها للنطق بالساكن بعدها لأنه ليس "في كلام العرب ساكن يُلفظ به إلا وقبله حرف متحرك، أو مَدَّة على حرف مد تقوم مقام الحركة"^(١).

هكذا يكون التقاء الساكنين -عند مَكِّي- سبباً في إطالة المد، وقد اختارته الفصحى ووردت به القراءات القرآنية الصحيحة^(٢)، وذلك حفاظاً على صوت المد (الحركة الطويلة) من التقصير، لأنه لا سبيل لهذا الصوت إذا وليه ساكن إلا التطويل المتحقق في إشباع مده، أو التقصير المتحقق في تضائله ورجوعه إلى حركة قصيرة. ولقد أشار إلى معنى التقصير بقوله: "ألا ترى أنَّ بعض العرب يحرك الساكن الذي قبل المشدد ليصل بالحركة إلى اللفظ بالمشدد فأثر الحركة على زيادة المد فيقول في دَابَّة: دَابَّة، وقد قرئ: {وَلَا الضَّالِّينَ}^(٣) أبداً من الألف همزة مفتوحة ليصل بها إلى النطق باللام المشددة"^(٤).

١/ الكشف: ٦١/١.

٢/ قال مَكِّي: إنَّ المد مع الساكن أقوى منه مع الهمزة، لأنه مع الساكن لا بد من مده في القرآن وفي الكلام، أمَّا مع الهمزة فلك أن تدع إشباعه في الكلام؛ يُنظر، الكشف: ٦٨/١.

٣/ سورة الفاتحة: الآية (٧)؛ وقد ورد في كتاب [إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم]: لابن خالويه، ص ٣٤، طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، نشر مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت): أن هذه قراءة أيوب السخيتاني، ثم قال: "فقل لأيوب: لَمْ همزت؟ فقال: إنَّ المدة التي مددتموها أنتم لتحجزوا بها بين الساكنين هي هذه الهمزة التي همزت".

٤/ الكشف: ٦١/١.

قوله: "فآثر الحركة على زيادة المد" يعني آثر الحركة القصيرة على إشباع المد، أي آثر تقصير الحركة الطويلة على تطويلها. وإذا أردنا أن نبين ذلك أكثر نكتب الكلمتين: دَابَّة - بالمد - ودَابَّة - بالهمز - كتابة مقطعية لنرى هل لتقصير المد قيمة مقطعية أم لا.

تُكتب دَابَّة - عند الوقف - بالمد هكذا: ص ح ح ص / ص ح ص.

وتُكتب: دَابَّة - عند الوقف - بالهمز هكذا:

ص ح / ص ح ص / ص ح ص.

ويبدو واضحاً أنَّ الكلمة الأولى تتكون من مقطعين طويلين مغلقين الأول حركته طويلة، وفي هذه الكلمة تكون الحركة أكثر طولاً لأنَّ المد فيها مشبع، ويمكن -عندي- الرمز إليها بأكثر من رمزين هكذا:

ص ح ح ص، أو هكذا: ص ح ح ح ح ص. ليفسر لنا مدى طول المد عند التقائه بالصوت الساكن.

أمَّا الكلمة الثانية فتتكون من ثلاثة مقاطع، الأول قصير مفتوح والثاني والثالث طويلان مغلقان حركتهما قصيرتان، وكل الذي حصل في الكلمة الثانية أننا قصرنا الحركة الطويلة وأحللنا محل الصوت المحذوف صامتاً متبوعاً بحركة قصيرة وهذا الصامت هو صوت الهمزة وحركتها هي الفتحة، ولذا جاء التقسيم المقطعي للكلمة الأولى مشتملاً على أربعة أصوات صامته، بينما جاء هذا التقسيم للكلمة الثانية مشتملاً على خمسة أصوات صامته، وكان مَكِّي يقصد هذا حينما علَّل قراءة

من قرأ: {وَلَا الضَّالِّينَ} -مهموزة- بقوله: "أبدل من الألف همزة مفتوحة"^(١).

ومعنى كلامه أن من نطق بالهمزة مبدلة من المد فقد قصره وذلك بحذف أكبر كمية منه حتى يؤول إلى حركة قصيرة، وهي هنا الفتحة على الضاد من (الضالين)، ثم إحلاله للهمزة والحركة القصيرة بعدها محل الصوت المحذوف. وهذه الهيئة من النطق كثيرة وشائعة عند الشعراء فقد ورد في الشعر العربي مجموعة كبيرة من الشعر تبين نأي الشعراء عن مثل هذه الكلمات التي قال عنها النحاة إنها تحتوي على ساكنين، وقال عنها علماء الأصوات المحدثون إنها كلمة تحتوي على المقطع الرابع: (ص ح ص ص) وهو مكون من ثلاثة صوامت وحركة قصيرة بعد الصامت الأول، ويسمى هذا المقطع: مقطوعاً زائداً في الطول، لذلك أقحم الشعراء همزة في مثل هذه الكلمات بدلاً من زيادة المد لإقامة الوزن.

لقد أورد الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه: (فصول في فقه اللغة العربية)^(٢) مجموعة كبيرة من أبيات الشعر التي تبين إقحام الشعراء همزة تعلل عند القدماء والنحاة بأنها للفصل بين الساكنين، وتعلل في علم الأصوات الحديث بأنها تقسيم للمقطع الزائد في الطول إلى مقطعين لصعوبة نطقها على تلك الهيئة، ومن هذه الأبيات:

١/ الكشف: ٦١/١.

٢/ ص ١٩٤.

١/ قول الطَّرِمَّاح:

وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَالُ يَنْشُرُ دِينَهُ * لَزَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَاحْزَأَلَتْ^(١)

٢/ قول الشاعر:

وَبَعْدَ انْتِهَاضِ الشَّيْبِ فِي كُلِّ جَانِبٍ

عَلَى لِمَّتِي حَتَّى اشْعَالَ بِهَيْمُهَا^(٢)

ومن هذه الكلمات:

(اجثأل^(٣)): للنبت والشعر والريش، أي طال والتفَّ وغلظ.

ومنها: (ارفأَن^(٤) الرجل): سكن بعد نفوره.

ومنها: (اشْرأَب^(٥)): بمعنى ارتفع وعلا.

ومنها: (اشْمَأَزَّ^(٦)): اجتمع بعضه إلى بعض.

١/ يُنظر، ديوان الطَّرِمَّاح: تحقيق د. عزة حسن، سوريا، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٥٦؛

ويُنظر، لسان العرب: مادة (حزل)، ١٥٠/١١، وجاء فيه: [واحزأَل القوم:

اجتمعوا]، وزافت أي أسرع؛ ويُنظر، [اللسان: ١٤٢/٩]، مادة (زيف).

٢/ يُنظر، لسان العرب: مادة (شمل)؛ ويُنظر، سر الصناعة: لابن جني، بتحقيق السقا

والزفراف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ٨٣/١.

٣/ يُنظر، لسان العرب: مادة (جثل)، ١٠٠/١١.

٤/ جاء في اللسان: "وارفأَن الرجل، على وزن اطمأَن، أي نفر ثم سكن"؛ [يُنظر، اللسان:

١٨٤/١٣].

٥/ يُنظر، لسان العرب: مادة (شرب)، ٤٩٣/١.

٦/ جاء في اللسان: [وقال الزجاج في قوله تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) معناه: نفرت]؛ يُنظر، اللسان: مادة (شمز)، ٣٦٢/٥.

ومن المدود التي تعلل باجتماع الساكنين: المد في فواتح السور، علته نفس علة المد قبل الساكن المشدد والساكن غير المشدد، قال مكي: "قال أبو محمد: اعلم أن المد في فواتح السور إنما يكون لاجتماع ساكنين فحيثما اجتمعا فمدٌ لتفصل بين الساكنين بالمد الذي يقوم مقام حركة يتوصل بها إلى اللفظ بالساكن الثاني. فهو مبني على ما قدّمنا من العِلل في المد للمشدد والساكن يقعان بعد حرف المد واللين"^(١).

وذلك نحو: {طَسَمَ}^(٢)، ونحو: {الَمَ}^(٣).

د- مقدار المد:

كان وما زال علماء التجويد يضبطون مقادير المدود بمقاييس تقريبية مثل حركة قبض أصابع اليد، أو الزمن الذي يستغرقه نطق كلمة (ألف) أو كتابتها أو "قالوا: المد القصير مقداره ألفان أو حركتان، والمد الطويل مقداره أربعة ألفات أو أربع حركات أو خمس أو ست"^(٤). والمد اللازم أطول المدود عندهم، وهو المد الذي يعقبه صوت ساكن أو مشدد نحو: (دآبة)، وقد أجمع القراء على مده مداً مشبعاً وهو المد الطويل و"أقل الطول ثلاث ألفات والتوسط قدر ألفين

١/ الكشف: ٦٤/١.

٢/ سورة الشعراء: الآية (١).

٣/ سورة البقرة: الآية (١)؛ والمد في أوائل السور مشبع عند القراء كلهم؛ يُنظر،

الكشف: ٦٦/١.

٤/ أصوات القرآن الكريم كيف نتعلمها ونعلمها: يوسف الخليفة، ص ١٠٧.

ليبقى قدر ألف للقصر" (١).

أمّا مكي فقد أشار إلى أنّ حصر المد بمقادير محددة - كحصره وتقديره بالألفات - إنما للتقريب لا للتحديد الدقيق، ويقول في ذلك: "والتقدير عندنا للمد بالألفات إنما هو تقريب على المبتدئين وليس على الحقيقة، لأنّ المد إنما هو فتح الفم لخروج النّفس مع امتداد الصوت وذلك قدرٌ لا يعلمه إلا الله، ولا يدري قدر الزمان الذي كان فيه المد للحرف ولا قدر النّفس الذي يخرج مع امتداد الصوت في حيّز المد إلا الله تعالى" (٢). ثم أردف قائلاً: "..... وقد وقع في كتب القراء التقدير بالألف والألفين والثلاثة - على التقريب - للمتعلمين، ألا ترى أنهم حين أرادوا التحقيق للمد ذكروا أنه لا يحكمه إلا المشافهة..... ألا ترى أن أبا إسحق الزجاج قال: لو مددت صوتك يوماً وليلة لم يكن إلا ألفاً واحداً؟" (٣).

ثم يرد رداً لطيفاً على من ادّعى أنّ تقدير المد بالألفات على الحقيقة بقوله: "ويقال لمن ادّعى أنّ المد على قدر ألف وقدر ألفين حقيقة، لو حلف رجل أنه يقدر أن يمد (آدم) ثلث مدة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ (٤) أو حلف أنه يمد (آلهتنا) بثلاثة أمثال مده

١/ المنح الفكرية على متن الجزرية: الملا حسن بن سلطان القارئ، بتحقيق وتعليق: عبد القوي عبد المجيد، ومراجعة: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، طبع الحلبي بمصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ٢٢٨.

٢/ تمكين المد في آتى وآمن وآدم: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ص ٧١.

٣/ المصدر السابق: ص ٧١.

٤/ سورة الزخرف: الآية (٥٨).

لـ(آدم وآتى) هل هو حانث أم لا؟ فلا بد أن يحنث، لأنه حلف على علم لا يصل إليه حقيقة ألّبتة، فعلم من ذلك أنّ التقدير بالألفات إنما هو تقريب وتوطئة للمبتدئين^(١).

هكذا ناقش مكيّ هذه القضية، بأسلوبه المتميز، الذي يعتمد على إثارة الأسئلة، والإجابة عنها، ليتمكن من توضيحها وإزالة غموضها، وهو على حق فيما ذهب إليه، لأننا لو سلمنا -جدلاً- أنه بالإمكان في هذا العصر استخدام الأجهزة الالكترونية لقياس زمن أنواع المدود المحددة بمقادير القدماء مثل نطق كلمة (ألف)، أو قبض الإصبع، أو بسطه، فإنّ ذلك لا يعدو عن كونه تجربة عملية محدودة لا يمكن تطبيقها على الواقع العملي المتمثل في عملية الكلام، وليس بالإمكان لقارئ القرآن المجوّد أن يأتي بها طبقاً لقياساتها العملية. وحين تساءل مكيّ مستنكراً: "وكيف يُعَلِّمُ الزمان الذي كان في حين لفظه لـ(آدم) فيجعل ثلاثة أمثاله في مده لـ(آلهتنا)"^(٢)، كان مُدركاً لحقيقة استحالة التحديد الحقيقي لزمن المد مهما كان نوعه، ولذا عدّ المشافهة في المد أكثر ضبطاً من تحديده وتقديره بأي من التقديرات، وهذا ما يؤيده البحث الصوتي الحديث، إذ ثبت أنّ المتكلم لو وقف أمام جهاز الأوسيلوجراف^(٣) (Oseillograph) -وهو جهاز لقياس الأصوات-

١/ تمكين المد: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ص ٧٢.

٢/ المصدر السابق: ص ٧٢.

٣/ جهاز الأوسيلوجراف (Oseillograph) من الأجهزة الحديثة التي تعطي آثاراً كتابية في شكل موجات متتالية تمثل الكلام المنطوق، وتوضح أنّ طبيعة الصوت ودرجته وشدته تتغير في كل اختبار؛ يُنظر، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود=

ونطق بكلمة واحدة عدة مرات، في سياقات مختلفة، فإنَّ الجهاز يعطي في كل مرة قراءة تختلف عن سابقتها، لأنَّ الأصوات قدر لا يعلمه إلا الله عز وجل، كما قال مكي^(١).

وثمة دليل آخر يؤكد أنَّ المشافهة في نطق الأصوات أكثر ضبطاً لها، وأفضل سبيل لحفظها، وصيانتها من رياح التغير والتبدل وهو رواية أصوات اللُّغة العربية عن طريق التواتر، لأنَّ القرآن الكريم روي عن هذه الطريق المحفوظة، ولقد لعبت المشافهة دوراً عظيماً في هذا الحفظ، الأمر الذي يدعونا إلى القول: إنَّ أصوات العربية التي تُسمع اليوم لا تكاد تختلف في جميع خصائصها عن أصوات العربية التي نطق بها العرب قبل ما يزيد عن ألفي سنة.

هـ- ليس المد من دلائل الاستفهام:

هكذا نفى مكي أن يكون المد في الكلمة دليلاً على الاستفهام، وبهذا ردَّ على المعارضين - في زمانه - على مد ورش نحو: (آتى، وآدم، وآمن) وقد ألَّف كتاباً سماه: (تمكين المد في آتى وآدم وآمن) كله ردُّ لأولئك المعارضين، وهذا الكتاب من الكتب التي تبين المنهج النقدي، والمنهج التعليمي للمؤلف.

وقد وجد الباحث هذا الكتاب ضمن منشورات مجلة كلية الشريعة

=السعران، ص ١٠٩.

١/ يُنظر، تمكين المد: ص ٧٢؛ وكأني بمكي يريد أن يثبت ما أثبتته علم الأصوات الحديث في نظرية الفونيم، التي فحواها أن للصوت الواحد صوراً نطقية متعددة ومتنوعة بتنوع السياق الذي تقع فيه، والأشخاص الذين ينطقون بها، والمؤثرات المحيطة بها.

والدراسات الإسلامية في جامعة الكويت^(١)، بتحقيق: د. أحمد حسن فرحات، الذي اخترع لموضوعاته عناوين استقفاها من الكتاب نفسه. وقد جاء في مقدمة المؤلف ما يلي: "سألت -نفعنا الله وإياك- عن تمكين المد في (آمن، وآتى، وآدم) وشبهه وذكرت أن قوماً اعترضوا على الطلبة المبتدئين في مد ذلك، فيلبسون عليهم قراءتهم، ويورثونهم الشك فيما قرءوا به، وذكرت أن أكثر ما يعترضون به أن يقولوا: من مد آمن وآتى وشبهه، فقد أخرجه من حيز الخبر إلى حيز الاستفهام، وأنا أُبين لك فساد ذلك الاعتراض خاصة"^(٢).

لقد أعاد الباحث قراءة هذا الكتاب عدة مرات، وتأمل في تفنيد المؤلف لاعتراضات المعترضين، فوجد أنه -بحق- بين فسادهما تبيناً يدل على اهتمامه البالغ بضرورة تعليم الناس معنى القراءات، وأن الاختلاف حولها لا يعني -أبداً- أن بعض القراءات أصح من البعض الآخر، ولا أفضل، وهذا يعني أنه لا يصح أن توصف أي قراءة صحيحة بأوصاف لا تليق مثل وصفها بالضعف، أو الرداءة^(٣)، بل ولا

١/ هذه المجلة ومجموعة أخرى من المصوّرات التي تخص مكيّاً تحصل عليها الباحث من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.

٢/ تمكين المد في آتى وآمن وآدم: مجلة الشريعة، ص ٦٠.

٣/ أنكر بعض النحاة قراءات صحيحة لم توافق مذاهبهم النحوية، كإنكار المبرّد لقراءة سبعية متواترة هي قراءة حمزة في سورة النساء بجر الأرحام بقوله: "لو أني صليت خلف إمام فقرأ بها لقطعت صلاتي"؛ يُنظر، درة الغوّاص في أوهام الخواص: لابن محمد القاسم الحريري، ط المثني، بغداد، ص ٩٥.

يصح تأويلها، كما فعل بعض النحاة، وكان مكي مِمَّن تصدى دفاعاً عن القراءات، وكان رده على المعارضين على مثل هذا المد، دليلاً على ما ذهبنا إليه نحو قوله: "....." ولو علمت أيها المعارض معنى قول النبي ﷺ «إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَءُوا مَا تيسرَ مِنْهَا»^(١) لكان ذلك مانعاً لك أن تعترض على شيء قد صحَّ نقله^(٢). لقد أكد مكي في هذا الكتاب أن المد ليس من دلائل الاستفهام بعدة أمور، منها:

١ / وقوع الاستفهام في كتاب الله تعالى غير ممدود، وذلك نحو: (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)^(٣)، ونحو: (أَسْتَكَبرَتْ أَمْ كُنْتَ)^(٤)، ونحو: (أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ)^(٥)، وغيرها.

٢ / وقوع الخبر أشيع مدّاً من الاستفهام، نحو قوله مثالي: (وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)^(٦)، بإشباع المد، وقوله تعالى: (أَنْذَرْتَهُمْ)^(٧)، وقوله تعالى: (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)^(٨). فهذه وأمثالها قرئت في بعض

١ / ورد في صحيح البخاري: ما تيسر منه، يُنظر، صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، كتاب فضائل القرآن، الطبعة الشعبية، (د.ت)، ٢٢٧/٦.

٢ / تمكين المد في آتى وآمن وآدم: ص ٨٢.

٣ / سورة سبأ: الآية (٨).

٤ / سورة ص: الآية (٧٥).

٥ / سورة المنافقون: الآية (٦).

٦ / سورة المائدة: الآية (٢).

٧ / سورة البقرة: الآية (٦).

٨ / سورة المائدة: الآية (١١٦).

القراءات بمد أقل من مد (ولا آمين) فقد حصل الخبر أشبع مداً من الاستفهام.

٣/ حصول لفظ الخبر مثل لفظ الاستفهام، قال مكّي: "ويقال لهذا المعارض: قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)^(١)، استفهام هو أم خبر؟ فلا بد أن يقول خبر، ويُقال له: فهل بين لفظه ولفظ: (أئذا^(٢)، أئنا^(٣)، أئفكاً^(٤)) - في قراءة ورش - فرق؟ فلا بد أن يقول لا فرق بينهما"^(٥).

٤/ ليس المد من دلائل الاستفهام، إنما يعرف الاستفهام بدلالة الخطاب. قال مكّي: "الاستفهام إنما يعلم بمعنى الكلام ودلالة الخطاب، لا بالمد"^(٦).

وقال أيضاً: "وإذا لم يكن المد من دلائل الاستفهام لوجدنا ما ليس ممدوداً دلّ على أن الاستفهام لا يعرف إلا بدليل الخطاب، وإذا كان لا يعلم إلا بدليل الخطاب، لم يدخل على من مدّ (آمن) أن يكون مدّ استفهاماً، إذ الاستفهام لا يعلم إلا بدليل الخطاب على (آمن) فمدّه لا يبلغ به أحد الاستفهام"^(٧).

١/ سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

٢/ سورة الرعد: الآية (٥).

٣/ سورة الإسراء: الآية (٤٩).

٤/ سورة الصافات: الآية (٨٦).

٥/ تمكين المد في آتى وآمن وآدم: مجلة الشريعة، ص ٦٥.

٦/ المصدر السابق: ص ٦٦.

٧/ تمكين المد: مجلة الشريعة، ص ٧٣.

لا يخلو هذا النص من إبداع للمؤلف يظهر في ابتكاره لمصطلحات لغوية وصوتية في ذلك الزمان الباكر تتشابه إلى حد كبير مع مصطلحات المحدثين من علماء اللغة، لأنه نص صراحة أن الاستفهام لا يُعرف بالمد، وإنما يُعرف بدلالة الخطاب، ويرى الباحث أن مَكِّيًّا يقصد بهذا المصطلح (دلالة الخطاب) الدلالة الصوتية عند المحدثين المتمثلة في ظاهرتي النبر^(١) والتنغيم^(٢).

نخلص إلى أن المد والنبر والتنغيم تشترك في معنى ارتفاع الصوت، ولكن الفرق بين المد من جهة، والنبر والتنغيم من جهة أخرى، يُعرف من النظر في مثل هذه الجملة: (آتاه الله مالا) تنطق مرة بلفظ الخبر، ومرة بلفظ الاستفهام، فإن المد المتحقق في (آتاه) نتيجة لاجتماع همزتين هو المد العادي الذي لا يخرج الكلام من حيز الخبر، بينما يكون نطقها في حالة الاستفهام بارتفاع للصوت في بعض الكلمات وبنغمة محددة يُفهم منها معنى الاستفهام، بحيث لو تغيّرت النغمة لأصبح للجملة معنى آخر قد يكون التهكم أو السخرية أو الدهشة^(٣) أو غير ذلك، ولذا فإن الاستفهام - كما قال مَكِّي - لا يعرف بالمد، وإنما يعرف بدلالة الخطاب.

١/ النبر (Stress): هو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد يترتب عليه ارتفاع في

الصوت فيصبح واضحاً في السمع؛ يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ١٦٩.

٢/ التنغيم (Intonation): ويُسمى موسيقى الكلام وهو نظام توالي درجات الصوت؛

يُنظر، الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ص ١٧٥.

٣/ يُنظر، دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م، نشر مكتبة الأنجلو

المصرية، ص ٤٧.

الخاتمة

وبعد، فقد آن لنا بعد هذه الصُّحبة للإمام مَكِّي بن أبي طالب التي امتدت زمنًا طويلاً، وبعد استعراض جهوده وآرائه في علم الأصوات، والتفاعل معها بين الاستمتاع والدهشة والحيرة أحياناً أن نقف متسائلين: ماذا حققنا من هذه الدراسة؟ وما هي نتائجها؟ وما التوصيات التي تمخضت عنها؟

لقد كان البحث في هذا الموضوع أمراً شاقاً وعسيراً، وقد واجهت الباحث في أثناء دراسته صعوبات بالغة وعقبات مرهقة تمثلت أكثر ما تمثلت في ندرة الكتب التي ألّفها مَكِّي في مكتبتنا في السودان، وندرة الكتب التي ألّفت حول مجهوداته في علم الأصوات بالذات. فكانت تلك العقبات من الأسباب التي جعلت البحث يستغرق خمسة أعوام تماماً.

وبفضل الله وعونه ذُلّت هذه الصعاب فحصل الباحث على الكتب والمراجع المتعلقة بالموضوع من خارج السودان من المملكة العربية السعودية وانكبَّ عليها يجمع العبارات، ويلمُّ الشتات، ويقارن ويدقّق، ويمحّص، ويحلّل، ويركّب، ويقيس، ويُقوِّم، إلى أن بلغ بهذا البحث المبلغ الذي بين أيدينا الآن.

ومع ذلك فلا يدّعي الباحث الكمال، فإنَّ الكمال لله وحده.

ويمكننا بعد هذا العرض أن نخلّص إلى أهم النتائج والتوصيات.

أولاً - النتائج العامة:

١/ يبيّن هذا البحث أنّ القرآن الكريم يعدُّ أهم مصادر الدراسات الصوتية للغة؛ لأنه يزخر بمادةٍ صوتية هائلة.

٢/ هناك علاقة وثيقة ومتشابكة بين القراءات القرآنية بما تحويه من دراسات تجويدية وبين علم الأصوات بوصفه علماً مستقلاً.

٣/ إنّ علم الأصوات اللّغوية المعاصر بحاجةٍ إلى الجهود الصوتية لعلماء التجويد، كما أنّ علم التجويد والدارسين له بحاجةٍ إلى معرفة خصائص علم الأصوات المعاصر بمناهجه المتعددة ووسائل بحثه المختلفة، وبأجهزته وتقنياته المتطورة.

٤/ إنّ معرفة حقيقة الأصوات العربية معرفة دقيقة وإدراك مخارجها الصحيحة وصفاتها المميّزة والمحسنّة وطريقة نطقها التّطويع لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال الاستماع للقرآن الكريم من أفواه المجيدين، والتمرّن على إخراج أصواته إخراجاً صحيحاً، لذلك فإنّ أصوات القرآن الكريم وحدها هي التي تُعرّف بالأصوات العربية التعريف الصحيح، وتعطينا نماذج قريبة الشبه جداً بالأصوات التي كان ينطق بها القدماء.

٥/ ظلت أصوات اللّغة العربية محتفظة بخصائصها على مستوييها التحليلي والتركيبى دون سائر أصوات اللّغات الأخرى؛ لارتباطها بالقرآن الكريم الذي اعتمد على الرواية المتواترة.

٦/ تعدُّ الدراسات الصوتية لعلماء التجويد النموذج الأمثل لوصف أصوات اللغة العربية، والإطار الأوسع لاحتوائها، والسياج الأقوى لحفظها وصونها من التطور المنحرف والتغيُّر المشين.

ثانياً - النتائج الخاصة:

٧/ يُعدُّ مكيّ أول من ألّف كتاباً في أصوات القرآن الكريم، فلم يسبقه أحدٌ ممّن تقدّم عليه في تصنيف كتاب يعالج قضايا الأصوات القرآنية وتجويدها. لذا فهو يُعدُّ أول من تناول دراسة الأصوات بمجالها النظري والتطبيقي. ويُعدُّ كذلك حجر الزاوية التي بدأ منها التخصص في الدرس الصوتي القرآني عند العرب كما كان ابن جنيّ أول المتخصصين في الدرس الصوتي العام.

٨/ تحدّث مكيّ عن نظرية قوة الصوت وضعفه بدقّة ووضوح وهي نظرية أثبتها واهتم بها المحدثون.

٩/ كانت عناية مكيّ بدراسة الأصوات واهتمامه بها وتخصّصه فيها خير ردّ على من يجعلها ترفاً فكرياً وذات موقع هامشي، فقد أثبت أنّ الدراسة الصوتية جزءٌ أصيل لا يتجزأ من دراسة المعنى.

١٠/ لم يتعرض مكيّ لتفصيل الحديث حول أعضاء النطق، ولم يعقد لها دراسة خاصة، وإنما كان يذكرها عرضاً حينما يعرض للمخارج والصفات.

١١/ بنى دراسته الصوتية على دراسة الصوت مفرداً كان أو مركّباً على منهجٍ علميٍّ موضوعي.

١٢ / يُعدُّ مَكِّي من أبرز المهتمين بقضية صفات الأصوات اللغوية عامة وأصوات القرآن الكريم خاصة. فحشد في كتابه (الرعاية) مجموعة ضخمة من ألقاب الأصوات وصفاتها. وبالغ في وضع المسميات لها؛ لأنه كان مدركاً بأن هذه الصفات "مُمَيِّزة ومُحسَّنة" ذات أثر بالغ في إبراز معالم الصوت ممَّا يسهل معه إشباع رغبات المتكلمين والسامعين مع المحافظة على حق كل منهما على الآخر.

١٣ / أشار إلى فكرة خروج الأصوات الصامتة بإعاقه، وخروج الأصوات الصائتة بلا إعاقه مثلما هو عند المحدثين.

١٤ / كان مهتماً بالأصوات الصائتة فجعلها مساوية للأصوات الصامتة في الوظيفة والاستعمال خلافاً لكثير من القدماء الذين أولَّوا عناية خاصة بالصوامت.

١٥ / كان يقف موقفاً متوازناً من قضية المماثلة الصوتية الناتجة من تجاوز الأصوات، فهو لا ينكر ضرورة الانسجام بين الأصوات كما أنه يحثُّ على عدم ترك اللسان يلفظ بالأصوات بلا نظام فهو -إذن- يوازن بين مراعاة النظام وتوخي الانسجام.

١٦ / كان يصف الظاهرة الصوتية وصفاً دقيقاً ثم يأتي بالأمثلة التطبيقية، ثم يُعمل منهجه المعيارى فى قبول الظاهرة أو ردها؛ لأنه لغويُّ صاحب رسالة، فلا يكتفى بالوصف، وإنما يتعداه إلى التوضيح والتعليل وتبيين الخطأ من الصواب.

١٧/ كان يُمانع من الاتساع في المماثلة الصوتية على مستوى الأصوات القرآنية لكنه كان يتجوز تجوزاً مضبوطاً في إتيانها على مستوى الكلام العام.

١٨/ كان من منهجه في دراسة الأصوات عدم اكتفائه بذكر الحقائق العلمية مجردة، لإدراكه أن اكتساب العادات اللغوية عامة والنطقية خاصة على مستوى أصوات القرآن الكريم وأصوات الكلام العربي السليم لا تكفي فيه المعرفة المجردة والقواعد المحددة، بل يتعدى ذلك بلجوه إلى ربط المعرفة بالقياس والتدريب، وبمحصه على تثبيت الحقائق بالتمثيل والتجريب.

١٩/ لم يكتفِ بذكر أسباب المد ووضع القاعدة التي تحدّد حدوده وتحيط بأنواعه، بل عمد إلى تعليله تعليلاً صوتياً كشأنه دائماً.

٢٠/ كان مدركاً لحقيقة استحالة تحديد زمن المد مهما كان نوعه ولذا عدّ المشافهة في المدّ أكثر ضبطاً من تحديده وتقديره بأيّ تقديرات.

٢١/ أثبت بأسلوب متميّز يعتمد على إثارة الأسئلة أن المد ليس من دلائل الاستفهام.

٢٢/ ابتكر مصطلحات صوتية تتشابه إلى حدّ كبير مع مصطلحات المحدثين من علماء اللغة مثل ابتكاره لمصطلح (دلالة الخطاب).

ثالثاً- التوصيات:

تتلخص التوصيات والمقترحات في الآتي:

١/ العناية بتدريس التجويد والأصوات اللغوية في الجامعات باعتبار أن كلا منهما مكمل للآخر، وباعتبارهما معاً علماً مستقلاً له مناهجه ووسائله.

٢/ توجيه الاهتمام بدراسة جميع قضايا اللغة العربية بما فيها الأصوات اللغوية من خلال بيئة هذه اللغة ومحيطها الثقافي للوصول إلى نتائج سليمة.

٣/ تشجيع الباحثين على بعث التراث العربي والإسلامي وإجراء الدراسات والبحوث النظرية والتطبيقية حوله.

٤/ تعليم الأصوات والتجويد لمن يضطلعون بتعليم الناس كقراء القرآن، والمعلمين، وأئمة المساجد، والخطباء، والمشتغلين بالدعوة والإعلام، وسائر الفنون الكلامية.

٥/ يقترح الباحث كذلك جعل كتاب (الرعاية) لمكي ضمن مناهج علم الأصوات التي تُدرّس لطلاب كليات اللغة العربية.

الفهارس

١ /	فهرس الآيات القرآنية.
٢ /	فهرس الأحاديث النبوية.
٣ /	فهرس الأشعار.
٤ /	فهرس الأعلام.
٥ /	فهرس الجداول.
٦ /	فهرس المصادر والمراجع.
٧ /	فهرس المحتويات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
/١	٧	الفاتحة	٢٩١، ٣٢٦، ٣٧٩
/٢	١	البقرة	٣٨٣
/٣	٥	البقرة	٢٩٩، ٣٠١
/٤	٦	البقرة	٣٠٩، ٣١٤، ٣٨٨
/٥	١٣	البقرة	٣١٧، ٣١٨، ٣٧٤
/٦	٢١	البقرة	١٣
/٧	٢٥	البقرة	٢٩٦
/٨	٢٩	البقرة	٣٣٩
/٩	٣١	البقرة	٣٠١، ٣٧٥
/١٠	٣٣	البقرة	٢٩٥
/١١	٥١	البقرة	٢٨٨
/١٢	٥٤	البقرة	٣٤١، ٣٧٠
/١٣	٦١	البقرة	٣٢٤
/١٤	٦٧	البقرة	٣٤٦
/١٥	٩٧	البقرة	٢٩٦
/١٦	١١٤	البقرة	٣٦٤
/١٧	١٢٠	البقرة	٣٦٤
/١٨	١٢٨	البقرة	٣٧٠

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٩ / (وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ).	١٢٩	البقرة	٣٤٠
٢٠ / (وَوَصَّى).	١٣٢	البقرة	٣٦٤
٢١ / (وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ).	١٣٦	البقرة	٣٧٥ ، ٢٧٠
٢٢ / (أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ).	١٥٩	البقرة	٣٤٠
٢٣ / (فَنَتَبَّراً مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا).	١٦٧	البقرة	٢٧٠
٢٤ / (وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا).	١٦٩	البقرة	٣١٨
٢٥ / (فَمَنْ اضْطُرَّ).	١٧٣	البقرة	٢٨٤
٢٦ / (قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا).	٢٥٠	البقرة	٢٥٣
٢٧ / (مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ).	٢٨٢	البقرة	٣١٨
٢٨ / (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ).	٧	آل عمران	١٠٩
٢٩ / (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا).	٨	آل عمران	٢٥٣
٣٠ / (قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ).	١٥	آل عمران	٣١٣
٣١ / (وَدَّتْ طَائِفَةٌ).	٦٩	آل عمران	٢٧٦ ، ٢٧٢
٣٢ / (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ).	٧٢	آل عمران	٢٧٦ ، ٢٧٢
٣٣ / (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ).	١٢٣	آل عمران	٢٨٨
٣٤ / (أَدْنَى).	٣	النساء	٢٨٨
٣٥ / (مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي).	٢٣	النساء	١١٠
٣٦ / (مِنْ لَدُنْهُ).	٤٠	النساء	٣٠١ ، ٢٩٩
٣٧ / (أَوْ اخْرُجُوا).	٦٦	النساء	٣٢٩ ، ٣٢٨
٣٨ / (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ).	١٠٢	النساء	٣٤٦
٣٩ / (حَرَصْتُمْ).	١٢٩	النساء	٢٨٦
٤٠ / (الْهُوَى).	١٣٥	النساء	٣٦٤

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
/٤١ (وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ).	٢	المائدة	٣٨٨
/٤٢ (وَالْمُنْحَنَقَةُ).	٣	المائدة	٢٩١
/٤٣ (وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ).	٣٢	المائدة	٣٣٣
/٤٤ (رَزَقَكُمْ).	٨٨	المائدة	١٣
/٤٥ (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ).	١٠٣	المائدة	١١٠
/٤٦ (شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ).	١٠٦	المائدة	١١١
/٤٧ (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ).	١١٦	المائدة	٣٨٨
/٤٨ (أَنْ اعْبُدُوا).	١١٧	المائدة	٣٢٨
/٤٩ (يَسْتَهْزِءُونَ).	٥	الأنعام	٣٧٥
/٥٠ (وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ).	١٠	الأنعام	٣٢٨
/٥١ (رَأَى).	٧٦	الأنعام	٣٦٥
/٥٢ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ).	٩١	الأنعام	٢٥٢
/٥٣ (الْقُرَى).	٩٢	الأنعام	٣٦٤
/٥٤ (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).	١٠٢	الأنعام	٢٥١ ، ١٣
/٥٥ (يُشْعِرُكُمْ).	١٠٩	الأنعام	٣٧٠
/٥٦ (شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ).	١٤٤	الأنعام	٣١٣
/٥٧ (حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا).	١٤٦	الأنعام	٢٧٦
/٥٨ (تَذَكَّرُونَ).	١٥٢	الأنعام	٣٠٠
/٥٩ (مَنْ جَاءَ).	١٦٠	الأنعام	٢٩٦
/٦٠ (يَتَطَهَّرُونَ).	٨٢	الأعراف	٣٠٠
/٦١ (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَخِدَوهُ سَبِيلًا).	١٤٦	الأعراف	٢٥٤
/٦٢ (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ).	١٧٩	الأعراف	١٠٩

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٦٣ / {قُلْ ادْعُوا}.	١٩٥	الأعراف	٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١
٦٤ / {إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ}.	١٩٦	الأعراف	٢٥٤
٦٥ / {رَمَى}.	١٧	الأنفال	٣٦٤
٦٦ / {هَذَا مَا كَنَزْتُمْ}.	٣٥	التوبة	٢٨١
٦٧ / {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى}.	١٠٧	التوبة	١١٠
٦٨ / {وَأَزَيَّنْتَ}.	٢٤	يونس	٣٠٠
٦٩ / {وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ}.	٥٤	يونس	١٧٠
٧٠ / {وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ}.	٦٥	يونس	١١٠
٧١ / {جَاءَ أَمْرُنَا}.	٤٠	هود	٣١٠
٧٢ / {وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي}.	٤٤	هود	٣١٧
٧٣ / {وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ}.	٤٨	هود	٣٠١، ٣٠٢
٧٤ / {أَرْسَلْنَا}.	٧٠	هود	٢٨٧
٧٥ / {جَاءَ أَمْرُنَا}.	٩٤	هود	٣١٥
٧٦ / {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}.	١٠٧	هود	١٠٩
٧٧ / {وَقَالَتْ أَخْرِجِي}.	٣١	يوسف	٣٢٨
٧٨ / {وَلَوْ حَرَصْتَ}.	١٠٣	يوسف	٢٨٦
٧٩ / {أَعْذَا}.	٥	الرعد	٣١٣
٨٠ / {مِنْ هَادٍ}.	٣٣	الرعد	٢٩١
٨١ / {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}.	٤	إبراهيم	١١٧
٨٢ / {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي}.	٢٢	إبراهيم	٢٥٣
٨٣ / {أَتَى}.	١	النحل	٣٦٣

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٨٤/ {وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.	١١٤	النحل	ب
٨٥/ {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}.	٢٠	الإسراء	١٧١ ، ١٢١
٨٦/ {مَسْحُورًا}.	٤٧	الإسراء	٣٢٨
٨٧/ {انْظُرْ}.	٤٨	الإسراء	٣٢٨
٨٨/ {أَعْنَا}.	٤٩	الإسراء	٣٨٩ ، ٣١٣
٨٩/ {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}.	٥٧	الإسراء	١٧١ ، ١٢١
٩٠/ {وَمَنْ شَاءَ}.	٢٩	الكهف	٢٩٦
٩١/ {مُتَكِّينَ}.	٣١	الكهف	٣٧٥
٩٢/ {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.	٥	طه	٨٧
٩٣/ {وَأَسْرُوا النَّجْوَى}.	٦٢	طه	١٧٠
٩٤/ {وَجَعَلْنَا}.	٣١	الأنبياء	٢٨٧
٩٥/ {رَعَاكَ}.	٣٦	الأنبياء	٣٦٥
٩٦/ {فَتَى}.	٦٠	الأنبياء	٣٦٤
٩٧/ {وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}.	٧٣	الأنبياء	٣٨٩
٩٨/ {يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ}.	١٣	الحج	١٠٩
٩٩/ {لَهْدَمْتُ صَوَامِعَ}.	٤٠	الحج	٢٧٦
١٠٠/ {لَعَفُوْا غَفُوْرًا}.	٦٠	الحج	٢٩١
١٠١/ {جَاءَ أُمَّةٌ}.	٤٤	المؤمنون	٣١٣
١٠٢/ {جَاءَ أَحَدَهُمْ}.	٩٩	المؤمنون	٣١٤
١٠٣/ {دُرِّيُّ يُوقَدُ}.	٣٥	النور	٣٠١
١٠٤/ {فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ}.	٤٠	النور	٣٠١

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
/١٠٥	٥	الفرقان	٣٣٩
/١٠٦	٢٥	الفرقان	٣٠٠
/١٠٧	١	الشعراء	٣٨٣
/١٠٨	٦١	الشعراء	١١١
/١٠٩	٦٣	الشعراء	١٣
/١١٠	٨	النمل	٢٩٥
/١١١	٢٢	النمل	٢٦٨
/١١٢	٤٠	النمل	٣٦٥
/١١٣	٤٧	النمل	٣٠٠
/١١٤	٦٠	النمل	٣٠٩
/١١٥	٢٣	القصاص	٣٢٦
/١١٦	٣٨	العنكبوت	٢٦٩
/١١٧	٤	السجدة	٣٠٢
/١١٨	٨	سبأ	٣٨٨
/١١٩	١٢	سبأ	٢٨٧
/١٢٠	٢١	سبأ	٢٦٨
/١٢١	٣٢	فاطر	١١١
/١٢٢	٣٧	فاطر	٢٨٤
/١٢٣	١٤	يسن	٣٢٤
/١٢٤	٨٦	الصفافات	٣٨٩ ، ٣١٣
/١٢٥	١٥٣	الصفافات	٢٨٤
/١٢٦	٨	ص	٣٠٩

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
/١٢٧	٢٩	ص	٥
/١٢٨	٧٥	ص	٣٨٨
/١٢٩	١١	الشورى	٨٧
/١٣٠	٤٥	الشورى	٣٠٢، ٢٥٣
/١٣١	٥٨	الزخرف	٣٨٤
/١٣٢	٨٩	الزخرف	٢٨٠
/١٣٣	٥٦	الذاريات	١٠٩
/١٣٤	١٩	الطور	٢٩٥
/١٣٥	١٩	القمر	٣٠٢
/١٣٦	٢٥	القمر	٣١٣
/١٣٧	٤٦	القمر	٣٠٢
/١٣٨	٨٣	الواقعة	١٧
/١٣٩	٩	الجمعة	٣٣٦
/١٤٠	٦	المنافقون	٣٨٨
/١٤١	٧	نوح	١٧٠
/١٤٢	٢٦	الإنسان	٢٥٢
/١٤٣	٢٠	المرسلات	٢٦٨
/١٤٤	٣	الشرح	٢٥٠
/١٤٥	٢	العلق	٢٩١
/١٤٦	١	العصر	٣٠٣

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٤٧ / (لَفِي خُسْرٍ).	٢	العصر	٣٠٣

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	النص
٣٨٨	١/ إنَّ القرآنُ أنزل على سبعة أحرف فاقراءوا ما تيسر منها.
٥	٢/ زينوا القرآن الكريم بأصواتكم.
٣٠٤	٣/ لا تنبر باسمي.

فهرس الأشعار

البيت	بحره	قائله	صفحة
/١ سَيُرُوا بَنِي الْعَمِّ فَلَا هَوَازَ مَنَزْلَكُمْ وَنَهْرٌ تَيَرَى فَلَا تَعْرِفَكُمُ الْعَرَبُ	البسيط	جرير	٢٤٢
/٢ وَإِذَا تَحَمَّلْنَا الْعَشِيرَةَ ثِقَلَهَا قُمْنَا بِهِ وَإِذَا تَعَوَّدُ نَعُودُ	الكامل	معاوية بن مالك	٣٣٤
/٣ لَوْ عَصُرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكُ انْعَصَرَ	مشطور الرجز	أبو النجم اليعلي	٣٣٤
/٤ وَبَاتَ مُنْتَصِبًا وَمَا تَكَرَّدَسَا	مشطور الرجز	مجهول القائل	٣٤٤
/٥ صَخْبُ الشَّوَارِبِ ، لَا يَزَالُ كَانَهُ عَبْدٌ لِّأَبِي رَبِيعَةَ مُسْبِعُ	الكامل	أبو ذئيب الهذلي	١٨
/٦ وَأَوْسَعَنَ عَقْبِيهِ دِمَاءً فَأَصْبَحَتْ أَصَابِعُ رِجْلَيْهِ رَوَاعِفَ دُمَعًا	الطويل	مالك بن حريم	٣٣٤
/٧ قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَى لَنَا سَوِيقًا	مشطور الرجز	العذافر الكندي	٣٤٢
/٨ عَلَيْكَ بِإِقْلَالِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكًا أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا وَيُطْلَبُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ	الطويل	مكي بن أبي طالب	٩١

البيت	بحره	قائله	صفحة
وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَالُ يَنْشُرُ دِينَهُ لَزَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَاحْزَأَلَتْ	الطويل	الطَّرِمَّاح	٣٨٢
قُلْ لِمَنْ يَبْغِي الْمِرَا وَالْجَدَلَا فِي الْبَرَاهِينِ وَذِكْرِ الْبُدَلَا وَحِكَايَاتِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُورِثُ الْعَجْزَ وَتُبْذِي الْكَسَلَا وَيْكَ دَعْ عَنْكَ الْخُرَافَاتِ وَلَا تُكْثِرِ الْمَزْحَ أَخِي وَالْهَزَلَا هَلْ يَجُوزُ الْجَهْلُ عِنْدَ الْعُلَمَا أَمْ يَجُوزُ الْحُمْقُ عِنْدَ الْعُقَلَا أَيَنْ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَلَمْ تَخْشَ مِنْهُ قَدَمَاهُ الْبَلَلَا أَوْ يَلْتُ الرَّمْلَ بِالْمَاءِ فَإِنْ شَاءَ زُبْدًا رَدَّهُ أَوْ عَسَلَا أَوْ يَكُونُ الطَّيْرُ فِي جَوْ السَّمََا فَإِذَا أَوْمَى إِلَيْهِ نَزَلَا أَوْ يَحْجُ الْبَيْتَ فِي يَوْمٍ لَقَدْ كَذَبَ النَّاقِلُ فِيمَا نَقَلَا بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ فِي الْوَحْيِ فَلَنْ يَبْلُغُوهُ دُونَ جَهْدٍ وَبَلَا هَذِهِ الْأَخْبَارُ لَا أَصْلَ لَهَا	الرمل	مَكِّي بن أَبِي طالب	٨٨-٨٩

البيت	بحره	قائله	صفحة
لَا وَلَا فَرَعُ بِهَا مُتَّصِلَا مَنْ عَدَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ فَقَدْ خَالَفَ اللَّهَ وَخَانَ الرُّسُلَا أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابًا وَاضِحًا حَسْبُنَا لَا نَبْغُ عَنْهُ حَوْلَا ثُمَّ مِنْهَاجُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى فَبِهِ اللَّهُ هَدَانَا السُّبُلَا مَالَنَا وَالْخَوْضُ فِي غَيْرِهِمَا أَوْ بِيغْيِرِ الْعِلْمِ نَبْغِي بَدَلَا يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ سَعْيَهَا يَنْدُمُ الْمَرْءُ عَلَى مَا فَعَلَا فَالزُّمُوا السُّنَّةَ لَا تَبْتَدِعُوا وَاحْذَرُوا الزَّيْغَ وَخَافُوا الزَّلَلَا فَازَ مَنْ زِيحَ عَنِ النَّارِ إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ خَيْرٌ مَنْزِلَا بِقُصُورٍ فِي الْعُلَا مِنْ ذَهَبٍ تَجِدُ الْحُورَ بِهَا وَالْحُلَلَا			
تَرَاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا	الكامل	لبيد	٣٤٢ / ١١
فَقُمْتُ لِلطَّيْفِ مُرْتَاعًا فَأَرَقَّنِي فَقُلْتُ أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلْمُ	البسيط	مجهول القائل	٣٣٥ / ١٢

البيت	بحره	قائله	صفحة
١٣ /	الطويل	مجهول القائل	٣٣٦
١٤ /	الطويل	مجهول القائل	٣٨٢
١٥ /	الطويل	يعلى الأحول الأزدي	٣٤٣
١٦ /	البسيط	مجهول القائل	٣٤٣

فهرس الأعلام

الرقم	العَلَم	الصفحة
١	إبراهيم أنيس.	٧، ٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٦، ٣٧٧، ٣١٤، ٢٩٧، ٢٤١
٢	ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد.	٣٤
٣	ابن الجزري.	٥، ١٣، ٢٢، ٣٦، ٩٨، ١٤١، ١٤٥، ١٦٥، ٢٠٠، ٣٤١، ٢٣٨
٤	ابن السراج، محمد بن السري.	١١٢
٥	ابن السكيت، يعقوب بن إسحق.	٣٤
٦	ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك.	٨٠، ٩٠
٧	ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني.	٤، ٨، ٢٢، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ١٣٣، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٦٣، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٧٤، ٣٦٧، ٣٤٤
٨	ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد.	٦٠، ١٠٠
٩	ابن دريد.	٢٠٧، ٢٠٨
١٠	ابن عامر، عبد الله بن عامر.	٣١٠، ٣٢٩، ٣٣٩، ٣٥٦
١١	ابن عتاب، عبد الرحمن بن محمد.	٨٤
١٢	ابن عذارى المراكشي، عبد الواحد بن علي.	٦٥
١٣	ابن عصفور.	٢٦٢، ٢٦٥
١٤	ابن عمار، محمد بن عمار.	٥٧
١٥	ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم.	٣٥

الرقم	العَلَم	الصفحة
١٦	ابن كثير، عبد الله.	٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٩، ٣٣٩، ٣٥٦
١٧	ابن مالك، محمد بن عبد الله.	٣٥٠
١٨	ابن مجاهد، أحمد بن موسى.	٣٠٨
١٩	أبو الحزم بن جَهْوَر.	٤٩، ٥٠، ٥١
٢٠	أبو الحسن الظاهر.	٤٦
٢١	أبو الحسن القابسي، علي بن محمد.	٧٨، ٨٢، ٨٥
٢٢	أبو الطيب بن غلبون.	٨٠، ٨٣، ٩٧
٢٣	أبو العباس المهدوي.	٨٥
٢٤	أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى.	٣٣
٢٥	أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي.	٨٤
٢٦	أبو تميم المستنصر، محمد بن الظاهر.	٤٣، ٤٦
٢٧	أبو جعفر القائم بأمر الله.	٤٤
٢٨	أبو حاتم السجستاني، سهل بن محمد.	٣٤
٢٩	أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد.	١٨
٣٠	أبو زيد.	٣٥
٣١	أبو طالب محمد بن مَكِّي.	٨٤
٣٢	أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد.	٣٨
٣٣	أبو علي القالي.	٤٧
٣٤	أبو عمر الطلمنكي.	٨٥، ٩٨

الرقم	العَلَم	الصفحة
٣٥	أبو عمرو بن العلاء، زبَّان بن عمار التميمي.	٢، ٣، ٣٢، ٢٧٣، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٧٠
٣٦	أحمد بن طولون.	٥٧، ٦٧
٣٧	أحمد بن مهدي، أبو عمر.	٨٠، ٩٦
٣٨	أحمد حسن فرحات.	٨٧، ٩٩، ١٣٤، ٣٨٧
٣٩	أحمد مختار عمر.	٧
٤٠	الأخفش، سعيد بن مسعدة.	٣٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣٤٣
٤١	أصبع بن راشد اللخمي.	٨٥
٤٢	الأصمعي، عبد الملك بن قريب.	٣٤
٤٣	الأعشى، ميمون بن قيس.	١٠٨
٤٤	الأنطاكي.	١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١٢٤، ١٢٥
٤٥	باديس.	٤٤
٤٦	برجشتراسر.	١٠
٤٧	برجوان الخادم.	٤٥
٤٨	البزي، أحمد بن محمد.	٣١٠، ٣١٥
٤٩	بلكين بن زيري.	٤٣
٥٠	الجرجاني.	١٠٦، ١٠٨

الرقم	العَلَم	الصفحة
٥١	الجرمي، صالح بن إسحق.	٢٣
٥٢	جرير، ابن عطية بن حذيفة.	٩٩
٥٣	جمال الدين القفطي.	١٠٣، ٩٠
٥٤	جمال الدين بن تغري بردي.	٩٧
٥٥	جوهر الصقلي.	٤٣
٥٦	الحاكم بأمر الله.	٥١، ٤٥
٥٧	الحكم المستنصر.	٦٩، ٤٧
٥٨	حمزة، حمزة بن حبيب الزيات.	١٠٨، ١١٠، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٦٣، ٣٥٦، ٣٢٤
٥٩	الحميدي، محمد بن فتوح.	٩٦، ٧٥
٦٠	الخليل بن أحمد الفراهيدي.	٢، ٣، ٧، ٨، ٢٢، ٢٣، ٣٢، ٣٦، ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٨١، ١٨٢، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩
٦١	خمارويه بن أحمد بن طولون.	٥٩، ٥٨
٦٢	الخوارزمي، محمد بن إسحق.	٦١
٦٣	دانيال جونز.	٢٤١
٦٤	الدُّوري.	٢، ٣٤١، ٣٥٩، ٣٧٠
٦٥	الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.	٨٥، ٩٠، ٩٧
٦٦	رمضان عبد التواب.	١١، ٣٥٣، ٣٨١
٦٧	الزجاج، أبو إسحق بن إبراهيم بن السري.	٩٩، ٣٦٢، ٣٨٤

الرقم	العَلَم	الصفحة
٦٨	زرياب.	٦٣، ٦٢
٦٩	زيري بن مناد.	٦٥، ٤٣
٧٠	سليمي.	٢٤٣
٧١	السوسي، صالح بن زياد.	٣٤١
٧٢	سيبويه.	٣، ٤، ٨، ٩، ١٠، ١٣، ١٩، ٢٢، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ١٣٣، ١٤٠، ١٤١، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٣٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٧، ٣١٧، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٦٠
٧٣	السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين.	١٥٢
٧٤	صَبَّح.	٤٨
٧٥	الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد.	١٠٣، ٩٦، ٧٥
٧٦	الطبري، محمد بن جرير.	٩٩
٧٧	الطَّرْمَاح، ابن حكيم بن الحكم.	٣٨٢
٧٨	ظالم بن عمرو، أبو الأسود الدؤلي.	١، ٢، ٢١، ٣٢
٧٩	عاصم، عاصم بن أبي النجود.	١٠٨، ٣١٠، ٣٣٩، ٣٥٦

الرقم	العلم	الصفحة
٨٠	عبد الرحمن الناصر.	٦٢ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤١
٨١	عبد الرحمن بن المنصور.	٥١
٨٢	عبد الله بن أبي زيد القيرواني.	١٠٢ ، ٨٧ ، ٧٨
٨٣	عبد الله بن الكاتب.	٥٣
٨٤	عبد الله بن جعفر القزاز.	٧٨
٨٥	عبد الملك، المظفر.	٤٨
٨٦	عبد الواحد المراكشي.	٦٥
٨٧	العبيدي.	٤٤
٨٨	العزیز بالله.	٥٩ ، ٥٥ ، ٥١ ، ٤٥
٨٩	عك بن عدنان.	٦١
٩٠	عمرو بن العاص.	٦٧
٩١	غامق بن الشاهد.	٦١
٩٢	غانم قدوري.	١٥٠
٩٣	الفراء، يحيى بن زياد.	٩٩ ، ٣٣ ، ٢٣
٩٤	فتتلى.	٢٦٦
٩٥	فيرث.	١٠
٩٦	قاردن جونز.	٩
٩٧	القاضي عياض.	١٠٤ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٨٢
٩٨	القاضي منذر.	١١١ ، ١٠٦
٩٩	القاضي يونس بن عبد الله.	٨٤ ، ٨٣ ، ٥١

الرقم	العَلَم	الصفحة
١٠٠	قالون، عيسى بن ميناء.	١٠٨، ٣١٠، ٣١٥، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٥٦
١٠١	قطرب، محمد بن المستنير.	٢٣، ٣٤
١٠٢	قنبل، محمد بن عبد الرحمن.	٣١٠
١٠٣	الكسائي، علي بن حمزة.	١٠٨، ٣١٠، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦١
١٠٤	ليبد، ليبد بن ربيعة بن مالك.	٣٤٢
١٠٥	المازني، أبو عثمان بكر بن محمد.	٣٥، ١٢٠
١٠٦	مالك.	٨٧، ٨٨، ١٠٧، ١١٢
١٠٧	المبرد، محمد بن يزيد.	٣٠، ١٨٩، ٢٦٢
١٠٨	مجاهد، مجاهد بن جبر.	٣٤٠
١٠٩	محمد بن أحمد، أبو الحسن بن كيسان.	٣٣
١١٠	محمد بن إلياس.	٤١
١١١	محمد بن طُنج الإخشيد.	٤١
١١٢	محمد بن عبد الله بن أبي عامر، المنصور.	٤٨، ٥٤
١١٣	محمد بن علي أبو بكر الأدفوي.	٨٢، ٩٩، ١٠٦، ١٠٧
١١٤	محمد بن علي، الرؤاسي أبو جعفر.	٣٣
١١٥	محمد بن هشام، المهدي.	٥١
١١٦	محمد سالم محيسن.	٣٠٧
١١٧	محمود السعران.	٨، ٢٠٣

الرقم	العَلَم	الصفحة
١١٨	محيي الدين رمضان.	١٠٠
١١٩	المعز الفاطمي، معد بن إسماعيل.	٥٠، ٤٥، ٤٣
١٢٠	المعز بن باديس.	٤٤
١٢١	المقريري، أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين.	٥٨
١٢٢	المنصور بن يوسف بن زيري.	٤٤
١٢٣	المنصور، إسماعيل بن محمد.	٤٣
١٢٤	المهدي بالله.	٤٩
١٢٥	المهدي، عبيد الله بن محمد.	٤٣
١٢٦	موسى بن عبيد الله الخاقاني.	٣٥
١٢٧	نافع، نافع بن عبد الرحمن.	١٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٥٦
١٢٨	نصر بن أحمد الساماني.	٤٢
١٢٩	هشام الثاني، المؤيد.	٥١، ٤٨
١٣٠	هشام.	١٠٨، ٣٤٩
١٣١	ورش، عثمان بن سعيد.	١١٠، ١٢٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٥٦، ٣٧٤، ٣٨٦
١٣٢	ياقوت، ياقوت الحموي الرومي.	٩٧
١٣٣	اليزيدي، أبو عبد الرحمن بن عبد الله اليزيدي.	٣٣
١٣٤	يوسف الخليفة أبو بكر.	٥، ١٢٢، ٣٦٨
١٣٥	يوسف بن زيري.	٥٥، ٤٤

فهرس الجداول

الصفحة	البيان	جدول رقم
٩	مقارنة بين تصنيفي سيويه وقاردين جونز.	١
٢٤	مخارج الأصوات عند القدماء.	٢
٢٥	مخارج الأصوات عند المحدثين.	٣
١٧٣	صفات الأصوات عند مكّي.	٤
١٨٧	توزيع الأصوات العربية وفقاً لصفتي الجهر والهمس مقارنةً بين مكّي والمحدثين.	٥
١٩٩	تقسيم الأصوات إلى شديدة ورخوة.	٦
٢٤٤	تصنيف الحركات المعيارية.	٧

فهرس المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية:

- ١/ القرآن الكريم.
- ٢/ الإبانة عن معاني القراءات: مكي بن أبي طالب، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شليبي، الطبعة الثالثة، نشر المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٣/ أثر القراءات والأصوات في النحو العربي: عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة المدني، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- ٤/ أثر عناصر البناء الظاهر للجملة في التفسير الدلالي (من خلال القراءات القرآنية): بكري محمد الحاج، طبع دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، (د.ت).
- ٥/ أدب الكاتب: ابن قتيبة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت).
- ٦/ أصوات القرآن الكريم كيف نتعلمها ونعلمها: يوسف الخليفة أبو بكر، طبع المركز الإسلامي الإفريقي (سابقاً)، الخرطوم، السودان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٧/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، طبع دار النهضة العربية، ١٩٦١م.
- ٨/ الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، ١٩٧١م.

- ٩/ الأصوات ووظائفها: محمد منصف القماطي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، نشر جامعة الفاتح، ليبيا.
- ١٠/ الإضاءة في بيان أصول القراءة: الضبّاع، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت).
- ١١/ إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: لابن خالويه، طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، نشر مكتبة المتنبّي، القاهرة، (د.ت).
- ١٢/ الأعلام: الزركلي، طبع دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.
- ١٣/ الإمالة في القراءات واللهجات العربية: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبع دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، الطبعة الثانية، (د.ت).
- ١٤/ إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار الكتب، القاهرة، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م، الجزء الثالث.
- ١٥/ أندلسيات: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- ١٦/ البحث اللّغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: أحمد مختار عمر، طبع مطابع سجل العرب، الطبعة الرابعة، نشر عالم الكتب، القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ١٧/ بغية الملتبس في تأريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى الضبي، طبع مطابع سجل العرب، نشر دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
- ١٨/ بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي،

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي،
الطبعة الأولى، الجزء الثاني، (د.ت).

١٩/ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي،
تحقيق ج. س. كولان وليفي بروسنال، دار الثقافة، بيروت، لبنان،
(د.ت)، الجزء الأول.

٢٠/ تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في العصر
العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ٢٣٢-
٤٤٧هـ: د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة
السابعة، ١٩٦٥م، الجزء الثالث.

٢١/ التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: د. أحمد شلبي، طبع لجنة
التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م.

٢٢/ التأريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة ٩٢-
٨٩٧هـ: د. عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق،
بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م.

٢٣/ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب:
د. حسن إبراهيم حسن، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

٢٤/ تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة: ابن الجزري، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٢٥/ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك:
للقاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، طبع مطبعة فؤاد،

لبنان، نشر مكتبة الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، طرابلس، الجزء الثالث، (د.ت).

٢٦/ التصريف العربي في ضوء علم الأصوات الحديث: الطيب البكوش، تونس، ١٩٧٣م.

٢٧/ التطور النحوي للغة العربية: برجشتراسر، أخرجه وصححه وعلّق عليه د. رمضان عبد التواب، طبعة القاهرة، الطبعة الثالثة، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٨/ التمهيد في علم التجويد: ابن الجزري، الطبعة الأولى، ١٩٠٨م.

٢٩/ التمهيد في علم التجويد: ابن الجزري، تحقيق غانم قدوري الحمد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٠/ تهذيب اللغة: الأزهرى، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، الجزء الأول.

٣١/ التيسير في القراءات السبع: أبو عمرو الداني، طبع مطبعة الدولة، استانبول، ١٩٣٠م.

٣٢/ جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس: الحميدي أبي عبد الله محمد، طبع مطابع سجل العرب، القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٦م.

٣٣/ جهرة اللغة: ابن دريد، طبعة مطبعة دائرة المعارف، حيدر أباد الدكن، ١٣٤٤هـ، الجزء الأول.

٣٤/ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧هـ—١٩٥٧م، الجزء الأول.

- ٣٥ / الخصائص: ابن جَنِّي، تحقيق محمد علي النجار، طبعة دار الهدى للطباعة والنشر، الجزء الثاني، (د.ت).
- ٣٦ / الخصائص: ابن جَنِّي، محمد علي النجار، طبع ونشر دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، الجزء الأول، (د.ت).
- ٣٧ / الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: غانم قدوري الحمد، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥ م.
- ٣٨ / الدراسات الصوتية عند علماء العربية: عبد الحميد الهادي الأصيلي، كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٣٩ / الدراسات اللُّغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسنين آل يسن، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٤٠ / دراسة الصوت اللُّغوي: أحمد مُختار عمر، طبعة عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٤١ / درة الغواص في أوهام الخواص: لابن محمد القاسم الحريري، طبعة المثني، بغداد، (د.ت).
- ٤٢ / دروس في علم أصوات العربية: جان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، نشر مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٦٦ م.
- ٤٣ / دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس، الطبعة السابعة، ١٩٩٣ م، نشر مكتبة الأنجلو المصرية.

- ٤٤ / دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ٤٥ / ديوان الأصمعيّات: للأصمعي، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، طبع دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.
- ٤٦ / ديوان الطرمّاح: تحقيق د. عزة حسن، دمشق، سوريا، ١٩٦٨م.
- ٤٧ / الرائد في تجويد القرآن: محمد سالم محيسن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
- ٤٨ / الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: مكّي بن أبي طالب، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٤٩ / الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنقريني، تحقيق عبد الحميد العبادي، وعبد الوهاب عزّام، القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م، الجزء الأول والثاني.
- ٥٠ / السبعة في القراءات: ابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، طبع ونشر دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ، الطبعة الثانية.
- ٥١ / سر صناعة الإعراب: ابن جنّي، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف، وإبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، طبع الحلبي، مصر، (د.ت).
- ٥٢ / سر صناعة الإعراب: ابن جنّي، تحقيق هندأوي، طبع دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، الجزء الأول.

٥٣ / سير أعلام النبلاء: للذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي، نشر وطبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الجزء السابع عشر.

٥٤ / شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، طبع ونشر المكتب التجاري، بيروت، الجزء الثالث، (د.ت).

٥٥ / شرح التسهيل: لابن أمّ قاسم حسن بن قاسم المرادي، تحقيق حسين تورال، رسالة ماجستير، كلية الآداب بجامعة بغداد، ١٩٧١م.

٥٦ / شرح المفصل: ابن يعيش، طبعة عالم الكتب، بيروت، الجزء العاشر، (د.ت).

٥٧ / شرح شافية ابن الحاجب: للإستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، الجزء الثالث.

٥٨ / صحيح البخاري: محمد إسماعيل بن إبراهيم، الطبعة الشعبية، الجزء السادس، (د.ت).

٥٩ / الصلّة: لابن بشكوال، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبع مطابع سجل العرب بالقاهرة، ١٩٦٦م، الجزء الثاني.

٦٠ / الصوتيات: مارتل مالبرج، ترجمة محمد حلمي هليل، طبع مطبعة التمدن، الخرطوم، ١٩٨٥م، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم.

- /٦١ **طبقات القُرَّاء:** للإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق د. أحمد خان، طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الجزء الثاني.
- /٦٢ **العبر في خبر مَنْ غبر:** للذهبي، تحقيق محمد السعيد، طبع دار الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، الجزء الثاني.
- /٦٣ **علم اللُّغة العام:** كمال محمد بشر، طبع دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، ١٩٧٣م.
- /٦٤ **علم اللُّغة العام-القسم الثاني (الأصوات):** كمال محمد بشر، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- /٦٥ **علم اللُّغة مقدمة للقارئ العربي:** محمود السعران، طبع شركة الطباعة العربية الحديثة، مصر، ١٩٩٢م، نشر دار الفكر العربي.
- /٦٦ **العمدة في غريب القرآن:** لمكي، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- /٦٧ **غاية النهاية في طبقات القُرَّاء:** ابن الجزري، عني بنشره ج. برجشتراسر، القاهرة، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، الجزء الثاني.
- /٦٨ **فصول في فقه العربية:** رمضان عبد التواب، ط٦، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- /٦٩ **في الأصوات اللُّغوية:** دراسة في أصوات المد العربية، غالب فاضل المطليبي، طبع المكتبة الوطنية بغداد، ١٩٨٤م.

- ٧٠ / القانون في الطب: ابن سينا، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الجزء الرابع، (د.ت).
- ٧١ / القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، طبع دار الفكر، القاهرة، مصر، ١٩٦٦ م.
- ٧٢ / القراءات وأثرها في علوم العربية: محمد سالم محيسن، طبع الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٨٤ م، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، الجزء الأول.
- ٧٣ / قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري: د. محمود عبد الوهاب خلاف، نشر الدار التونسية، إبريل ١٩٨٤ م.
- ٧٤ / كتاب العين: الخليل بن أحمد، تحقيق عبد الله درويش، ط بغداد، الجزء الأول، (د.ت).
- ٧٥ / كتاب العين: الخليل بن أحمد، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، نشر دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م، الجزء الأول.
- ٧٦ / الكتاب: سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م، الجزء الرابع.
- ٧٧ / كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، بغداد، مكتبة المثنى، الجزء الأول، (د.ت).
- ٧٨ / الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: لمكي بن

أبي طالب، تحقيق محيي الدين رمضان، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ—١٩٩٧م، الجزء الأول والثاني.

/٧٩ الكلام إنتاجه وتحليله: عبد الرحمن أيوب، طبعة جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

/٨٠ لسان العرب المحيط: ابن منظور، ترتيب يوسف خياط، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، الجزء الثاني، (د.ت).

/٨١ لسان العرب: ابن منظور، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، (د.ت).

/٨٢ لسان العرب: ابن منظور، طبع دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ—١٩٩٠م.

/٨٣ اللسانيات العربية مقدمة وبيليوغرافيا: محمد حسن باكلا، لندن، ١٤٠٢هـ—١٩٨٢م، نشر مؤسسة مانسل المحدودة.

/٨٤ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط القاهرة، ١٩٧٤م.

/٨٥ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، ط دار الثقافة، المغرب، (د.ت).

/٨٦ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، نشر وطبع عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ—١٩٩٨م.

/٨٧ محاضرات في علم اللغة العام: فردينان ديسوسير، ترجمة يوييل

يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطليبي، طبع
بيت الموصل، ١٩٨٨ م.

٨٨/ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها:
أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق النجدي والنجار وشليبي، القاهرة،
١٣٨٦ هـ، الجزء الأول والثاني.

٨٩/ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: رمضان
عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة،
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٩٠/ المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم وآخرون، القاهرة، ١٩٥٨ م، الجزء الأول.

٩١/ المستدرک: للحاكم، طبعة دار الفكر، الجزء الأول، (د.ت).

٩٢/ مشكل إعراب القرآن: لِمَكِّي، تحقيق حاتم صالح الضامن، طبع
ونشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨ هـ -
١٩٨٨ م.

٩٣/ المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي، تحقيق
الأستاذ محمد سعيد العريان، طبع مطابع شركة الإعلانات الشرقية،
القاهرة، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.

٩٤/ معجم الأدباء: لياقوت الحموي، بمراجعة وزارة المعارف العمومية
المصرية، طبع مطبعة دار المأمون، مصر، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م،
الجزء التاسع عشر.

- ٩٥ / معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، الجزء الثاني.
- ٩٦ / معجم البلدان: ياقوت الحموي، تصحيح محمد أمين الخانجي، طبع مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م، الجزء الرابع.
- ٩٧ / معرفة القُرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار: للإمام شمس الدين أبي عبد الله الذهبي، حققه وضبط أعلامه وعلّق عليه: محمد سيّد جاد الحق، طبع مطبعة دار التأليف، مصر، نشر دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى، (د.ت)، الجزء الأول.
- ٩٨ / المقتضب: المبرّد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، طبع عالم الكتب، بيروت، الجزء الأول، (د.ت).
- ٩٩ / المقتضب: المبرّد، تحقيق محمد عبد القادر عضيمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٦م، الجزء الأول.
- ١٠٠ / المقدمة: ابن الجزري، جمعها أيمن رشدي بجمعية القرآن الكريم بجدة، السعودية، (د.ت).
- ١٠١ / مكّي بن أبي طالب وتفسير القرآن: د. أحمد حسن فرحات، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ١٠٢ / الممتع في التصريف: ابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م، الجزء الثاني.
- ١٠٣ / مناهج البحث في اللغة: تمام حسان، الطبعة الثانية، دار الثقافة،

الدار البيضاء، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١٠٤ / المنح الفكرية على متن الجزرية: الملا حسن بن سلطان القارئ، تحقيق وتعليق: عبد القوي عبد المجيد، مراجعة: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، طبع الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٠٥ / منهاج السنّة: لابن تيمية، طبع جامعة الإمام، السعودية، (د.ت)، الجزء الخامس.

١٠٦ / المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية: أحمد بن علي المقرئ، وضع حواشيه: خليل منصور، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، الجزء الثاني.

١٠٧ / النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، للتأليف والترجمة والنشر، (د.ت)، الجزء الخامس.

١٠٨ / نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات كمال الدين بن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، مكتبة المنار، الأردن.

١٠٩ / النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، تحقيق الضبّاع، جزآن، نشر المكتبة التجارية الكبرى، طبع مصطفى محمد، مصر، الجزء الأول، (د.ت).

١١٠ / النشر في القراءات العشر: الجزء الأول، طبعة دار الفكر، (د.ت).

- ١١١ / النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، تحقيق الضبّاع، مطبعة مصطفى محمد، مصر، نشر المكتبة التجارية، (د.ت).
- ١١٢ / نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، طبعة بولاق، ١٢٦٧هـ - ١٨٦٢م، الجزء الثاني.
- ١١٣ / النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي، نشر المكتبة الإسلامية، (د.ت) ٣/٥.
- ١١٤ / هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: لإسماعيل باشا البغدادي، طبع استانبول، ١٩٥٥م، نشر مكتبة المثنى، بغداد، الجزء الثاني.
- ١١٥ / الوافي في شرح الشاطبية من القراءات السبع: عبد الفتاح القاضي، الطبعة الأولى، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ١١٦ / الوافي في شرح الشاطبية من القراءات السبع: عبد الفتاح القاضي، طبعة الأزهر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ١١٧ / وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق د. يوسف علي طویل، ود. مريم قاسم طویل، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، منشورات دار الكتب العلمية، الجزء الثاني.

ثانياً- المصادر الأجنبية:

- Danyal J.: An Outline of English Phonetics, Cambridge, ١٩٧٢. /١١٨*
Harman, R. R. K. and Stork F. C.: Dictionary of Language and Linguistics, applied science publishers, London, ١٩٧٦. /١١٩
Martinet, A.: Elements of General Linguistics, London, ١٩٦٤. /١٢٠
Bronsnahan L. F.: Introduction to Phonetics, Malmberg, B., Cambridge, ١٩٧٠. /١٢١
J. F.: Language and Linguistics, wall work, London, ١٩٧٤. /١٢٢

ثالثاً- الدوريات:

- ١/ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية: جامعة الكويت، محرم ١٤٠٥هـ -
نوفمبر ١٩٨٤م، العدد الثاني، السنة الأولى، وبها كتاب: تمكين المد في آتى
وآمن وآدم: لِمَكِّي بن أبي طالب، بتحقيق د. أحمد حسن فرحات.
- ٢/ مجلة دعوة الحق: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، المغرب،
العدد ٣١٩، السنة ٣٧، ذو الحجة ١٤١٦هـ - مايو/يونيو ١٩٩٦م، وبها:
ملاحح الإبداع في التفسير عند مَكِّي بن أبي طالب: لمصطفى فوزيل.
- ٣/ مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الرياض،
السعودية، العدد العاشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، وبها: أصوات العربية
والقرآن الكريم - منهج دراستها وتعليمها عند مَكِّي بن أبي طالب:
لعبد الله ربيع محمود.
- ٤/ مجلة مجمع اللغة العربية: القاهرة، ١٩٦٨م، الجزء الثامن عشر، وبها:
التفكير الصوتي عند العرب: هنري فليش، ترجمة عبد الصبور شاهين.
- ٥/ مجلة مهد الدراسات الإسلامية: مدريد، ١٩٥٤م، المجلد الثاني، العدد
٢١١. وبها: التشيع في الأندلس: لمحمود مَكِّي.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
مقدمة	د
مهيّد	٣٨-١

الباب الأول

٣٩-١٢٧ مكي بن أبي طالب عصره وحياته وعلمه

الفصل الأول

عصره	٤٠-٧١
المبحث الأول: الحالة السياسية في عصر مكي	٤١
المطلب الأول : الحالة السياسية في القيروان	٤٣
المطلب الثاني : الحالة السياسية في مصر	٤٥
المطلب الثالث : الحالة السياسية في الأندلس	٤٧
المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية في عصر مكي	٥٢
المطلب الأول : الحالة الاجتماعية في القيروان	٥٢
المطلب الثاني : الحالة الاجتماعية في مصر	٥٦

- المطلب الثالث : الحالة الاجتماعية في الأندلس ٦٠
- المبحث الثالث: الحالة العلمية في عصر مكي ٦٤
- المطلب الأول : الحياة العلمية في القيروان ٦٥
- المطلب الثاني : الحياة العلمية في مصر ٦٧
- المطلب الثالث : الحياة العلمية في الأندلس ٦٩

الفصل الثاني

- حياته ٧٢ - ٩٤
- المبحث الأول : اسمه ونسبه وألقابه ٧٣
- المبحث الثاني : ولادته ونشأته ٧٧
- المبحث الثالث : رحلاته ٨٠
- المبحث الرابع : شيوخه وتلاميذه ومعاصروه ٨٢
- المبحث الخامس : عقيدته ٨٦
- المبحث السادس : أخلاقه وصفاته ٩٠
- المبحث السابع : وفاته ٩٣

الفصل الثالث

- مؤلفاته ٩٥ - ١٢٧
- المبحث الأول: معرفته بالعلوم وعنايته بالتأليف ٩٦
- المطلب الأول : معرفته بالعلوم ٩٦

١٠٣	المطلب الثاني : عنايته بالتأليف
١١٥	المبحث الثاني: معرفته بعلم الأصوات ومؤلفاته فيه
١١٥	المطلب الأول : معرفته بعلم الأصوات
١٢٢	المطلب الثاني : مؤلفاته في علم الأصوات

الباب الثاني

الأصوات اللغوية عند مكّي

على المستوى التحليلي

١٢٨-٢٤٥

الفصل الأول

١٢٩	وصف أعضاء النطق عند مكّي

الفصل الثاني

١٣٨-٢٢٣	تصنيف الأصوات الصامتة عند مكّي

١٣٩	المبحث الأول: التصنيف باعتبار المخارج

١٣٩	المطلب الأول : عدد الأصوات العربية عنده

١٤٠	المطلب الثاني : عدد المخارج عنده

١٤٣	المطلب الثالث : ترتيب المخارج عنده

١٤٤	المطلب الرابع : مخارج الأصوات عنده

١٦٧	المبحث الثاني: التصنيف باعتبار الصفات

المطلب الأول : أهمية صفة الصوت عند مكي ١٦٧

المطلب الثاني : تقسيم الصفات عند مكي ١٧٢

الفصل الثالث

تصنيف الأصوات الصائتة عند مكي ٢٢٤-٢٤٥

المبحث الأول : التصنيف العام للأصوات إلى صامتة

وصائتة والفرق بين كل منهما ٢٢٥

المبحث الثاني : أسبقية الحروف والحركات ٢٣١

المبحث الثالث : العلاقة بين (حروف المدّ واللّين) والحركات

الثلاث ٢٣٤

المبحث الرابع : أنواع أخرى من الأصوات الصائتة ٢٣٨

المبحث الخامس : تصنيف الأصوات الصائتة في علم

الأصوات الحديث ٢٤١

الباب الثالث

الأصوات اللّغوية عند مكي

على مستوى التركيب

٢٤٦-٣٩

الفصل الأول

دراسته لظاهريّ النّاتج والنّاتج في الأصوات ٢٤٧-٢٥٩

المبحث الأول: عنايته بظاهريّ التّأثير والتّأثر ٢٤٨

المبحث الثاني: موقفه من المماثلة الصوتية (Assimilation) ٢٥٥

الفصل الثاني

دراسنه للظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصامتة ٣١٩-٢٦.

المبحث الأول: التأثير الشامل للأصوات عند مَكِّي ٢٦١

المطلب الأول : الإدغام عند النحاة ٢٦٢

المطلب الثاني : الإدغام عند مَكِّي ٢٦٧

المبحث الثاني: التأثير غير الشامل للأصوات عند مَكِّي ٢٧٨

المطلب الأول : الجهر والهمس ٢٨٠

المطلب الثاني : الإطباق والانفثاخ ٢٨٢

المطلب الثالث : الغنة ٢٨٧

المبحث الثالث: بعض الظواهر الصوتية التأثيرية التي عالجها

مَكِّي ٢٩٠

المطلب الأول : أحكام النون الساكنة ٢٩٠

المطلب الثاني : المشدّات ٢٩٨

المطلب الثالث : الهمزة ٣٠٤

الفصل الثالث

دراسنه للظواهر الصوتية المتعلقة بالأصوات الصائتة ٣٩٠-٣٢.

المبحث الأول: الظواهر النوعية ٣٢١

٣٢٢	المطلب الأول : الحركات
٣٤٨	المطلب الثاني : الإمالة
٣٦٦	المبحث الثاني: الظواهر الكمية
	المطلب الأول : الظواهر الصوتية الكمية الناجمة عن تقصير الحركة
٣٦٧	القصيرة
	المطلب الثاني : الظواهر الصوتية الكمية الناجمة عن تطويل الحركة
٣٧٢	القصيرة
٣٩٦-٣٩١	الخاتمة
٣٩٢	أولاً: النتائج العامة
٣٩٣	ثانياً: النتائج الخاصة
٣٩٦	ثالثاً: التوصيات
٤٣٦-٣٩٧	الفهارس
٤٠٥-٣٩٨	فهرس الآيات القرآنية
٤٠٦	فهرس الأحاديث النبوية
٤١٠-٤٠٧	فهرس الأشعار
٤١٩-٤١١	فهرس الأعلام
٤٢٠	فهرس الجداول
٤٣٥-٤٢١	فهرس المصادر والمراجع
٤٤١-٤٣٦	فهرس المحتويات